مذكرات صياد

ي. س. تورغينيف

ترجمة: د. حياة شرارة

ي. س. تورغينيف

مذكرات صياد

ترجمة : د. حيـــاة شـــرارة

تمهيد

من نافلة القول الاشارة الى اهمية الادب الروسي والمنزلة الرفيعة التي يحتلها بين الاداب العالمية ، فقد بات ذلك من المسلمات التي حظيت باجماع القراء والادباء والنقاد .

لقد افضى الاهتمام بالادب الروسي الى ظهور عدة ترجمات لروائعه باللغة العربية معظمها منقولة عن الفرنسية او الانكليزية . توخى بعض المترجمين الدقة والامانة ، وعزف بعضهم عنها مقتصرين على نقل الاعمال الادبية نقلا حرا مادام القاريء به توق للاطلاع عليها وشوق للاستمتاع بقراءتها .

★ ★ ★ ★

استعملنا في الترجمة الطبعة الصادرة في موسكو بين ١٩٥٤ ـ ١٩٥٨ عن دار الادب الفني التي اعتمدت على الطبعة الاخيرة لاعمال الكاتب عام ١٨٨٣ وكان تورغينيف قد قام بتنقيح معظم اجزائها

وادخال بعض التعديلات على اسلوبها ، تقع هذه الطبعة في اثني عشر جزءاً ، ولم يتبع التسلسل الزمني في ترتيب اجزائها ، وانما صنفت حسب المواضيع ، فالجزء الاول يحتوي على «مذكرات صياد» ثم تأتي الروايات بعد ذلك . يضم الجزء الثاني روايتين «رودين» و «عش النبلاء» الثالث «في العشية» و «الآباء والبنون» . الرابع «الدخان» و «الارض البكر» . يحتوي الجزء الخامس والسادس والسابع والثامن على قصص طويلة وقصيرة ومجموعة من القصائد النثرية ، بينها بعض قصصه المنشورة مثل «اسيا» «الحب الاول» «مياه الربيع» ، يحتوي الجزء التاسع على مشاهد وكوميديا والعاشر على اشعار ومذكرات ادبية وبعض التراجم والحادي عشر على مقالات في النقد والادب ، اما الجزء الثاني عشر فيتكون من مجموعة رسائل تورغينيف الى الادباء والاصدقاء والمعارف .

كان بودنا استخدام نص الطبعة الاكاديمية لاعمال تورغينيف التي ابتدأ طبعها في عام ١٩٦٠ وانتهى ١٩٦٩ لكنها لم تتوافر لدينا ، ومع ذلك استطعنا الاطلاع عليها في جامعة لندن وتصوير ما يمكن الافادة منه في الترجمة ، ولم نجد لدى التحقيق من فرق بين الطبعتين سوى سطر منفصل عن الآخر ، بينما هو يتصل في حالات قليلة من الطبعة التي بين ايدينا ولا يكتب في سطر منفرد .

هذا الى ان الطبعة الاكاديمية جاءت على التسلسل الزمني ، فيحتوي الاول منها على قصائد تورغينيف وتعليقاته الاولى (١٨٣٤ ـ ١٨٤٢) وتحتل «مذكرات صياد» الجزء الرابع .... وبلغ مجموع اجزائها اربعة عشر ، ويرجع سبب الزيادة في الأجزاء الى وفرة الشروح وكثرة المقارنات مع الطبعات السابقة .

ولابد من توضيح معنى بعض الكلمات ليكون القاريء على علم بها اذا لم تكن له معرفة سابقة ، فقد تفضي به الى نوع من الحيرة او ابهام المعنى .

ترد احياناً عبارة مـلاك فقير او امير او نبيل فقير ، ولا ريب ان مثل هذه العبارة تنطوي على شيء من الغرابة ، او ربما يبدو ان المترجم قد نقل النص حرفياً مما جعله ينافي الذوق والتعبير السليم . جـاء مثلا في قصة «تاتيانا بوريسوفنا وابن اخيها» انها «ولدت مـن ابوين مـلاكين فقيرين جداً» أو ان الامير خلوباكوف في قصة «ليبديان» لا يمتلك شيئاً ويعيش في كنف اشخاص آخرين الخ .

وتفسير ذلك ان لقب أمير او ملاك او نبيل يأتي من الانحدار الطبقي للعائلة والسلم الطبقي للدولة القيصرية الذي يحتوي على فـئات ورتب والقاب تبدأ متدرجة من قمة الهرم الاجتماعي الى اسـفله . واذا فقـد النبيل ثروته فانه يظل يحمل لقب النبيل ، وقد شهد القرن التاسع عشر تدهور الوضع المادي لكثير من الملاكين والنبلاء ووصـوله الى هـاوية الافلاس والخراب . صـور تورغينيف تلك الشـخصيات في «مـذكرات صياد» مثل شخصية بيوتر بيتروفيتش كاراتايف .

يكثر تورغينيف من تكرار كلمة معينة قد ترد مرتين او ثلاث في جمل متتالية ، مثل كلمة فجأة ، التي له شغف ظـاهر بهـا ، او ببطء ، مـرة اخرى ، كأن وغيرهـا . ولنأخـذ مثلا على ذلك كلام اوفسـيانيكوف في قصة «المالك المعتوق او فسيانيكوف» «اقول لك ان بعض الاشياء كانت افضل حقاً ، كان العيش اهدأ ، والقناعة اكثر ، بالضبط .... ومع ذلك ، فالآن افضل ، واطفالكم سيكونون بوضع افضل ، بعون الله» .

وكنا لدى الترجمة نبقي على الاغلب ، الكلمـة المكررة ، او نسـتعمل بعض الكلمات المرادفة لها مرة اخرى ، فنستعمل بدل فجأة ، بغتة ، او على حين غرة حسب ما تمليه علينا طبيعة النص .

يستخدم الكاتب احياناً الجمل المفككة ولا سيما في الحوار والعبارات غير المكتملة او المتقطعة وقد تصرفنا في الترجمة حسب مقتضى النص ، فأبقيناه على ما هـو عليه عندمـا يظـل معناه جلياً بيناً ، وحـاولنا التخفيف من العبارات غير المترابطة أحياناً . كانت الترجمـة صـعبة

حقاً في مثل تلك الحالات ، واخص بالذكر هنا قصة «طبيب المنطقة» التي يرويها الطبيب نفسه .

ابقينا الكلام بنصه الفرنسي أو الالماني الذي يستعمله الابطال في حديثهم احياناً وكتبنا ترجمته العربية ، حرصاً منا على نقل اسلوب الكاتب بمميزاته وخصائصه . وابقينا ايضاً على الكلمات المحلية المتداولة في منطقة اوريول التي عاش فيها الكاتب ، واستخدمها في اسلوبه مثل كلمة «بيريوك» ونقلنا الشروح التي وضعها لبعض الكلمات الاخرى ، ولم نقم بحذفها .

استعملنا الكلمات الروسية للمسافات او الاوزان مثل ديساتين ، فيرست ، ارشين وغيرها ووضعنا في الحواشي شرحاً لما يقابلها بالمترات او الكيلو غرامات لان ترجمتها الى المسافات والاوزان التي نعرفها تقتضينا احياناً الدخول في عمليات حسابية من جمع وضرب لمعرفة الناتج .

ابقينا احياناً على الكلمات الروسية لكبار الاقطاعيين او النبلاء مثل كلمة «فيلموجا» لان مثل تلك الكلمة وغيرها يراد بها التعبير عن فئات اجتماعية كانت صاحبة النفوذ والسطوة في فترة تاريخية معينة ولا يمكن ان نجد مرادفاً لها بالعربية . لقد اعتدنا على سماع الكلمات الانكليزية مثل كونت وبارون وغيرها ولكن التسميات الروسية لازالت غير مألوفة لقلة الترجمة عن اللغة الروسية في الماضي .

كتبنا بعض الحروف التي لم يتفق حتى الان على شكل معين لكتابتها وهي الحروف الانكليزية g, ch, p, V- عندما لاتلفظ كالجيم — والتي لها نظيرها بالروسية، بالشكل التقليدي ، وأعني بهV- ف ، p-ب و ch تش g- غ ولو ان من المترجمين من أخذ يكتبها ڤ ، پ و چ و گ قاصدين الوضوح والتحديد لها .

وضعنا هوامش للاسماء والقصائد والعبارات التي تحتاج الى شيء من التوضيح والتعريف ، واستعنا في كتابتها بشروح الطبعة الاكاديمية

بشكل خاص ، والموسوعة السوفياتية ، وبعض المصادر الاخرى .

كتبنا كذلك موجزاً لحياة تورغينيف واعماله ، استقينا مادتها من كتب تاريخ الادب الروسي وبعض الكتب الانكليزية «لمذكرات صياد» .

★ ★ ★

نود اخيراً الاشارة الى اهمية كتاب «مذكرات صياد» وما لاقاه صاحبه من عنت السلطة وترحيب الاوساط الثقافية . فقد أحدث صدوره ضجة أدبية كبرى ودوياً اجتماعياً . نظر اليه ي بي . فولكوف ، رقيب المطبوعات بعين الغضب وكتب عنه تقريراً سيئاً لما ينطوي عليه من افكار مناهضة للنظام القائم ولم يجده صالحاً للنشر ، لكن الامير ف . لفوف وافق على صدوره فما كان من القيصر نيكولاي الاول إلا ان اصدر امراً باعفائه من منصبه ، أن نشر «مذكرات صياد» في «سفريمنيك» كان أحد الاسباب الخفية لاعتقال تورغينيف ، رغم ان الحجة الاساسية كانت كتابته مقالا عن وفاة غوغول ، حيث أجج الكتاب غضب السلطات القيصرية ووجدته ينطوي على الكراهية والبغضاء للبناء الاجتماعي القائم .

من المعروف ان «مذكرات صياد» كانت مواصلة لنهج غوغول ، مؤسس المدرسة الطبيعية ، في تصوير الحياة الراكدة في الريف التي تجلت في روايته «الارواح الميتة» ، لكن تورغينيف لا ينحو نحواً ساخراً في كتابته ، ولا يقتصر على اظهار النماذج التي علاها الصدأ ودب فيها الانحلال والموت ، وانما يكشف الصفات الخلقية السامية لدى الفلاحين وحب الطبيعة والروح الشاعرية التي يتسمون بها . ان خور في «خور وكالينيتش» له عقلية عملية وفكر ثاقب ، لذلك استطاع ان يدبر اموره المعاشية اما صديقة كالينيتش فهو رومانتيكي النزعة وبعيد عن التفكير العملي في حياته ، لكنه ذو روح طاهرة نقية . تنطوي شخصية كاسيان في «كاسيان من الارض الجميلة» على روح عاطفية وتفكير متأمل عميق في جبروت الله وعظمة الطبيعة . ان النظام العبودي يفضي

الى ضياع اولئك الفلاحين وتبديد امكاناتهم هباء دون ان تؤتي ثمارها .

تنطوي جوانح بعض الملاكين في «مذكرات صياد» على مشاعر الطيبة وحب الخير والمشاعر الرقيقة اذ استطاع شطر من الملاكين ، شأنهم شأن الفلاحين ، الاحتفاظ بقواهم العاطفية والتحلي بروح الخير وحب الناس . ان بيوتر كاراتايف يضحي بكل ما يملكه في سبيل الفلاحة المملوكة التي يحبها ، وتتسم تايتاتا بوريسوفنا بالطيبة والبساطة والوداعة وتتميز شخصيتها بالترفع عن التفاهات رغم عيشها لمدة طويلة في الريف الذي يحد الفكر في أطر ضيقة ومحدودة .

ينطوي الكتاب على نماذج بشرية عديدة ، لا نستطيع الوقوف عليها جميعاً لكننا نود ان نشير الى تصويره لمعاناة الفئة المثقفة في «هاملت من منطقة شيغروفسكي» وهو صورة لمجموعة واسعة من المثقفين الروس الذين درسوا في الخارج واطلعوا على الفلسفة الالمانية واعجبوا خصوصا بفلسفة هيغل ، لكنهم لم يستطيعوا ان يفهموا الواقع الروسي ولا ان يطبقوا افكارهم الجريئة المتفائلة ، مما جعلهم يشعرون بالضياع والخواء الروحي بل وحتى الفكري والعزلة عن كل ما يحيطهم . وتأخذ مأساتهم لوناً تراجيدياً قوياً لانهم ، وهم الفئة المتنورة المثقفة ، لم يقدروا على ايجاد مكان لهم في الحياة الروسية ، ناهيك عن اداء دورهم ورسالتهم فيها .

اما عن الترحاب الذي قوبلت به «مذكرات صياد» فقد حيا ، لدى نشرها ، نيكراسوف والنقاد الروس عبقرية تورغينيف ، وتوسموا فيه كاتباً خلاقاً سيكون له شأن كبير في الحياة الادبية . وبقي الترحاب متصلا حتى ايامنا هذه .

ابدى النقاد الغربيون اهتمامهم «بمذكرات صياد» ومازال هذا الكتاب موضع اهتمامهم ودراستهم حتى يومنا الحاضر ومنهم من رأى فيه دليلا لا يقبل الشك على نبوغ الكتاب وامكاناته الفنية ، فقد

قال ادوار غارنين :

«على الرغم من ان صور تورغينيف عن العبودية ، قد هــزت المجتمــع الروسي هزة عميقة ، فانها كانت في الحقيقة انتصــار الفنان الخــالص والكاتب الذي رأى حياة الانسان الزائلة في علاقتها مع دراما الطبيعة الواسعة الشاملة ، وهذا مــا جعــل «مــذكرات صــياد» مقبولة لدى الجميع» .

وقال ج ـ أ . لويد ان «تورغينيف قد أبدع في مذكرات صياد» للاقنان الروس ما ابدعته مؤلفة «كوخ العــم توم» للعبيد الامــريكيين ..» لانود الاطالة في الحديث عن القصص ، فهي بين يدي القارىء ويســتطيع ان يقومها بنفسه ، لانها تتطوي على جوانب كثيرة ليست بها حــاجة الى التعليق والملاحظة ولا سيما تصوير تورغينيف الرائع للطبيعــة ، حيث تجلت عبقريته في رسم لوحاتها وظــلالها المتنوعة وتأثيرهــا الكبير في شخوص القصص وفي الكاتب نفسه .

المترجمة

---

١ ـ ادوار غارنيت . تورغيتيف : دراسة .
لندن ١٩١٧ . ص ٣٩ ١٩٨١

٢ ـ ج ـ أ . لويد «ايفان تورغينيف» لندن ١٩٤٢ . ص ١٤

خـــور وكالـــينتش[1]

اذا اتفق لامرىء ان يسافر من منطقة فـــولخوف الى جيزدرا ، فــلا محالة ان يغشاه شعور بالدهشة من التباين الشديد بين اجناس الناس في محافظة اورلوف وكالوجا . الفلاح الاورلوفي قصير القامة محدودب قليلا ، متجهم ، عبوس النظرة ، يحيا في اكواخ قذرة مصنوعة من خشب الحور ، ألف العمل بالسخرة ، لا يمتهن التجارة ، غذاؤه رديء ، ينتعل حذاءاً من الليف ، بينما الفلاح الكالوجاي يتلقى أجراً أو حصـــة لقـــاء عمله ، يسكن في اكواخ من أخشاب الصنوبر ، طويل القامة ، تلوح عليه أمارات الإقدام والمرح ، نظيف الوجـــه ناصـــعه ، يتجـــر بالشـــحم والقطران ، يلبس الجزمة في الأعياد .

تمتد القرية الأورلوفية (وانا اتحدث عن القسم الشرقي من محافظة اورلوف) عادة بين الحقول المحروثة قرب مِسِيل تحول بطريقة مـــا الى بركة موحلة . انك لا ترى على مسافة فيرست[2] شجرة واحدة ، مـــاخلا بعض الصفصاف المتأهب لاسداء العون دائماً ، اضـــافة الى اثنتين او ثلاث من اشجار البتولا العجاف ، الاكواخ تنحشر الى جانب بعضـــها

بعضاً ، السقوف مغطاة بالقش العفن وعلى النقيض منها القرية الكالوجية ، فالشطر الاعظم منها تحفه الغابات ، الاكواخ اكثر استقلالا عن بعضها الآخر واكثر استقامة ، سقوفها من ألواح الخشب ، البوابات يمكن اغلاقها باحكام ، لم يتداع او يتهاو السياج المضفور من الاغصان حول الفناء ، ولا يفسح مجالا لدخول اي خنزير عابر . ان القنص افضل للصياد في محافظة كالوجا . فالغابات الاخيرة والبلوشدايا* ستتوارى في محافظة اورلوف بعد مضي اعوام خمسة ، بينما اصبحت المستنقعات أثراً بعد عين ، اما في كالوجا فالوضع مختلف تماماً ، اذ تترامى الغابات على امتداد مئات الفيرسات والمستنقعات على عشرات منها ، لم يختف بعد الطيهوج ، ذلك الطائر النبيل ، والشُنْقبُ الانيس وافر ، والكروان الصاخب يثير السرور والوجل لدى كل من الصياد والكلب ، في اثناء تحليقه المندفع .

عرجت على منطقة جيزدرا بصفتي صياداً ، هبطت الى الحقل وتعرفت على بولوتيكين ، وهو ملاك صغير في كالوجا ، وكان صياداً متحمساً ، وبالتالي امرءاً ممتازاً . حقاً انه ينطوي على بعض نقاط الضعف : لقد خطب مثلا كل الفتيات الثريات في المحافظة وتلقى رفضهن وانكارهن عليه التردد على بيوتهن . أسرّ أحزانه بقلب محطم الى كل اصدقائه ومعارفه ، بيد أنه واصل ارسال الهدايا لآباء الفتيات كالدراق الحامض وغيره من المنتوجات الفجة في حديقته ، كان شغوفاً بتكرار النكته نفسها ، ورغم رأي بولوتيكين الرفيع في جودتها فانها لم تقدر على اثارة الضحك لدى أحد قط . كان يثني على اكيم ناخيوف[٣] وقصة بيتا[٤] ، ولا يخلو كلامه من لكنة ويسمي كلبه استرونوم ، وعوض

★ ـ تسمى الشجيرات الوافرة المتراصة الكبيرة في محافظة اورلوف «بلوشدايا» وتتميز اللهجة الاورلوفية عموما باصولها المتنوعة ، فتارة تكون رقيقة للغاية وتارة تنطوي على كلمات وتراكيب قبيحة نوعاً ما . (ملاحظة الكاتب) .

لكن يقول مهما يكن ، وقد جلب مطبخاً فرنسياً الى بيته ينطوي سره ـ حسب مفهوم طباخه ـ على تغييره التام للمذاق المألوف لكل طبق من اطباق الطعام : فاللحم ، لدى هذا المطبخي الحاذق يصبح سمكاً ، والسمك فطراً وتتحول المعكرونه الى مسحوق ، زد على ذلك انه لاترمى ولو جزرة واحدة في الحساء اذا لم تمتلك شكل المعين او شبه المنحرف . وما خلا هذه العيوب القليلة الطفيفة فان السيد بولوتيكين ، كما اسلفت ، امرؤ ممتاز ،

دعاني السيد بولوتيكين في اليوم الاول لتعارفنا نفسه ، الى قضاء الليلة عنده ، واستطرد قائلا ـ يبعد مكاني خمسة فيرسات من هنا ، وهي مسافة بعيدة لقطعها مشياً على الاقدام ، لنعرج باديء الامر على خور . (ليسمح لي القاريء إغفال لكنْته).

ـ ومن هو خور ؟

ـ احد فلاحيي ... يعيش على مسافة قريبة من هنا .

يممنا وجوهنا اليه . قام مسكن خور ، المنعزل في مرج فسيح وسط الغابة . وقد تكون من بضعة هياكل خشبية جمعت بينها الاسيجة . وبرزت امام العزبة الرئيسة سقيفة استندت الى اعمدة دقيقة . دخلنا اليها . استقبلنا شاب فتي طويل وسيم الطلعة ، عمره يناهز العشرين سنة .

سأل السيد بولوتيكين ـ اها ، فيديا ! هل خور في الدار ؟

أجاب الشاب وافتر ثغره عن ابتسامة كشفت عن صف من الاسنان البيض كالثلج ـ كلا ، لقد ذهب الى المدينة ، هل تأمرون بإعداد العربة ؟

ـ اجل ، أيها الأخ ، هيء العربة . وهات لنا شيئاً من الكفاس(٥) .

دخلنا الى الكوخ ، لم نعثر فيه ولو على صورة واحدة من النوع المصنوع في سوزدل(٦) ـ ملصقة على الجدران النظيفة المشرقة ، بينما اتقد مصباح صغير في الركن امام ايقونه ثقيلة يحيطها اطار فضي ، وقد

مسحت المنضدة المصنوعة من خشب الزيزفون ونظفت توأ ، لم تتجـول بنات وَرْدان الخفيفة الحركة بين العوارض الخشبية وأطر النوافـذ ، ولم تختف الصراصير المتروية . سرعان ما عاد الشـاب الفتي بابريق ابيض كبير مليء بالكفـاس الجيد مـع كمية كبيرة مـن الخبز وجفنة خشبية تحتوي على دزينة من الخيار المملح . وضـع كل هـذه المقبلات على المنضدة واتكأ على الباب وشرع ينظر والابتسامة لا تفارق وجهـه وما كدنا نصيب شيئأ من الطعـام حتى قـرقعت العـربة أمـام الباب . خرجنا . جلس حوذي صبي ، له من العمر اربعة عشر عامـاً ، أجعد الشعر ، أحمر الوجنتين بذل قصارى جهده للامساك بجواد أبلق شبعان . أحاط العربة حوالي ستة عمالقة شباب يشبه بعضهم بعضـاً ويشبهون فيديا أيضـاً . علق بولوتيكين قـائلا «كلهـم ابناء خـور !» «اضاف فيديا معلقاً ، وقد خرج في اعقـابنا الى سـقيفة الباب : كلهـم اولاد خور ، ولكن لم يكتمل عقدهم بعد ، ان بوتاب في الغابة وسـيدور مضى مع خور العجوز الى المدينة ... واسترسل في كلامـه مـوجهاً اياه الى الحوذي : «انظر يافـاسيا واعلم انك تُقّـل السـيد ، احترس وسر الهوينى في الطريق الوعر ، والا اتلفت العربة وآذيت معـدة السـيد» ! ضحك ابناء خور لظرافة فيديا . هتف السيد بولوتيكين بأبهة «اجلسوا استرونوم» ! رفع فيديا ـ بشيء من الارتياح ـ الكلب المبتسم ابتسـامة مغتصبة الى الهواء واجلسه على ارضية العـربة . اطلق فـاسيا عنان الجوادين ومضينا .

قال لي السيد بولوتيكين على حين غرة «هذا هو مكتبي ، مـومأ الى دار صغيرة واطئة ، اتود ان نعرج عليه ؟» .

ـ بكل سرور .

ـ قال وهو يترجل «ومع انه لا يستعمل الآن ، لكنه يسـتحق ان نلقـي عليه نظرة» .

المكتب مؤلف من غرفتين خاويتين ، هرع الينا من الفناء حارس عجوز منحني الظهر ورحب بنا .

قال السيد بولوتيكين «طاب نهارك ياميليايتش ، هلا تأتينا بالماء ؟»

توارى العجوز المنحني ثم عاد فوراً ، وهو يحمل قنينة ماء وقدحين .

قال بولوتيكين : «جرب مذاقه ، انه لدي ، ماءاً زلالا جيداً» .

شرب كل منا قدحاً ، بينما انحنى لنا العجوز حتى خصره .

علق صديقي الجديد قائلا «حسناً ، اخال اننا الان نستطيع ان نرحل ، بعت في هذا المكتب اربع ديساتين[٧] من ارض الغابة للتاجر اليلويف بثمن مربح» .

اخذنا اماكننا في العربة وبعد نصف ساعة دخلنا الى فناء بيت بولوتيكين . سألت بولوتيكين إبان العشاء «قل لي من فضلك ، لماذا يعيش عندك خور منفصلا عن فلاحيك الآخرين ؟» .

ــ اليك السبب : انه لفلاح ذكي . لقد احترق كوخه قبل خمسة وعشرين عاماً ، فجاء الى جدي المرحوم وقال : «ارجوك يا نيقولاي كوزميتش ان تسمح لي بالسكن في احدى مستنقعات غابتك . وسأدفع لك اجراً جيداً . «ولماذا تريد السكن في المستنقع؟» .

«هذه بغيتي ، ولكن ارجو فقط الا تكلفني ايها السيد نيقولاي كوز ميتش بأداء اي عمل ، واطلب الاجر الذي تريده مني» «ادفع خمسين روبلا في السنة !»

«شكراً لك ياسيدي» ولكن انظر ، لا تتوقع اي تخفيض من جانبي» «شكراً ، بدون تخفيض ...» وهكذا قطن المستنقع ومنذ ذلك الحين اصبح يسمى خور[٨] .

سألته ــ ولكن هل اضحى ميسور الحال ؟

ــ اضحى ميسوراً ، والان يدفع لي مئة روبل فضي[٩] بدل ايجار كل سنة ، هذا الى انني سأرفع ــ على الارجح ــ ثمن الايجار ، قلت له اكثر من مرة : «ابتع حريتك ياخور اشترها ! ..» وكان يؤكد بدهائه ،

انه لا يستطيع ذلك ، لا نقود ، لاشيء ... ، وكيف يمكن ان يكون على حال اخرى ! ..

بعد تناول الشاي ، ذهبنا في اليوم التالي حالا الى الصيد . عندما سرنا في القرية أمر السيد بولوتيكين الحوذي بالتوقف عند كوخ واطىء ونادى عالياً : «كالينتشن !» .

تعالى صوت من الفناء : «في الحال ايها السيد ، في الحال ، انذي البس خُفي» .

مضينا بخطى وئيدة ، ولحق بنا خلف القرية امرؤ يناهز عمره الأربعين ، طويل القامة ، نحيف ، ذوو رأس صغير مرسل الى الخلف . هذا هو كالينتش ، احببت منذ الوهلة الاولى وجهه الأنيس الأسمر ، الذي لا يخلو من بعض أثار البثور . كان كالينتشن (وكما عرفت فيما بعد) يرافق سيده كل يوم الى الصيد ، يحمل له الحقيبة ، والبندقية أحياناً ، يراقب مكان سقوط الطير ، يحمل الماء ، ويجمع التوت الأرضي ، يشيد الخص ، يعدو خلف العربة ، ولا يستطيع السيد بولوتيكين ان يخطو ولو خطوة واحدة بدونه . كان كالينتش امرءاً شديد المرح ، دمث الخلق ، يترنم دائماً بصوت خافت ، يتلفت دون اكتراث في كل الأرجاء ، يخنّ قليلا في اثناء كلامه ، يبتسم وهو يضيق عينيه الزرقاوين نوعاً ما ، وغالباً ما يتلمس لحيته الخفيفة الشبيهة بالوتد . لم يكن يغذ السير ، ولكن خطاه كانت واسعة ، يعتمد بعض الشيء على عصا طويلة دقيقة . تحدث معي في اثناء النهار اكثر من مرة ، وقام على خدمتي دون ان يشوب مسلكه التذلل ، بينما كان يرعى السيد كالطفل . وعندما اضطرنا قيظ الهاجرة الى البحث عن مأوى ، قادنا الى عمق الغابة ، حيث يحتفظ بعميرة نحل . دعانا كالينتش الى كوخه المزدان بحزم من الاعشاب الشذية الجافة ، ونضد لنا قشاً طرياً لنضطجع عليه ، بينما وضع هو على رأسه شيئاً يشبه الكيس وبه شبكة وأخذ سكيناً وقدراً وجَمْرة صغيرة وذهب الى عميرة النحل ليقطف لنا

قرص عسل . رشفنا العسل الدافئ الشفاف كالماء الزلال وغفونا تحت طنين النحل الرتيب وتمتمة الاوراق المهذارة .

ايقظتني هبات من النسيم الخفيف . فتحت عيني ورأيت كالينتش . كان جالساً عند عتبة الباب المفتوح حتى نصفه ، يبري ملعقة بسكينة ، استمتعت طويلا بالنظر الى وجهه الوديع الصافي كسماء المساء . استيقظ بولوتيكين ايضاً ، لكننا لم ننهض حالا . اذ يطيب ، بعد السير الطويل والكرى العميق ، الاستلقاء بلا حراك على القش ، بينما يسترخي الجسم ويحلم ، يتوهج الوجه من الحرارة الطفيفة وتطبق العيون بتأثير خمول حلو . نهضنا اخيراً وشرعنا بالتجوال مرة اخرى حتى حلول المساء .

اخذت اتحدث مرة أخرى ، في اثناء العشاء عن خور وكالينيش .

قال بولوتيكين : «كالينتش فلاح جيد ، فلاح دؤوب خدوم ، ولكنه لا يستطيع تدبير امور المزرعة لأنني أصطحبه دائماً معي . فهو يمضي برفقتي كل يوم للصيد . ويمكنك أن تحكم انت بنفسك ، كيف سيكون وضع المزرعة» ، شاركته الرأي ثم اضطجعنا لننام .

كان يتعين على بولوتيكين الذهاب الى المدينة في اليوم التالي بسبب قضية تتعلق بجاره بيتشوكوف . كان بيتشوكوف قد حرث أرض بولوتيكين وجلد امرأة من أقنانه في الارض المحروثة . وهكذا ذهبت وحدي للصيد وقبيل المساء عرجت على مكان خور . استقبلني عند عتبة الكوخ عجوز اصلع ، قصير القامة ، عريض المنكبين ، مكتنز البدن ، انه خور بعينه . تطلعت بفضول الى خور هذا . فسيماء وجهه تذكرني بسقراط : الطول ذاته ، الجبين الناتىء لحدما ، العينان الصغيرتان نفسهما ، الانف الافطس عينه . دلفنا سوية الى الكوخ . قدم لي فيديا مرة اخرى الحليب والخبز الاسود . جلس خور على مقعد ، ومسد بهدوء متناه لحيته الجعداء وشرع يتحدث معي . لاح انه شاعر بجدارته ، كان يتحرك وئيداً عندما يتحدث واحياناً يبتسم من خلال

شواربه الطويلة .

تطرقنا في حديثنا الى الزرع والحصاد وحياة الفلاحين . بدا كما لو كان يشاركني رأيي ، وبعد هنيهة فقط غشائي الخجل وشعرت انني اجانب الصواب .. خيل الي ان ما قلته تشوبه الغرابة . كانت تعابير خور لا تخلو من الاتهام احياناً ، ومرجع ذلك هو الحذر . واليكم انموذجاً من حديثنا .

قلت له : «اصغ الي ، يا خور ، مابالك لا تبتاع حريتك من سيدك ؟

ـ ولماذا أبتاع حريتي ؟ انني أعرف الآن سيدي وأعرف ما علي من جزية . ان سيدنا امرؤ طيب .

ـ واردفت قائلا : «ومع ذلك فالحرية أفضل» .

رمقني خور بنظرة جانبية .

وتمتم ـ بالتأكيد .

ـ اذن ، مالك لا تبتاع حريتك ؟

لوى خور رأسه .

ـ ولكن ، ما عساني افعل كي ابتاع حريتي ؟

ـ حسناً ، حسبك ايها الشيخ ما كسبت ..

استرسل في كلامه بصوت خفيض ، كما لو كان يتحدث مع نفسه ـ اذا اضحى خور واحداً من الاحرار فحتى من لا لحية(١٠) له سيكون اعلى من خور .

ـ اذن احلق لحيتك .

ـ وما جدوى اللحية ؟ اللحية كالعشب ، يسهل حلقها .

ـ حسناً ، ماذا سيحدث عندئذ ؟

ـ هذا ما سيحدث ، سرعان ما سيجد خور نفسه بين التجار . ان حياة التجار رخية ، وعندهم لحى ايضاً .

سألته ـ الا تزاول التجارة ايضاً ؟

ـ نتجر قليلا بالزيت والقطران ... مارأيك ايها السيد ، اتأمر بتجهيز

عدة العربة .

حدثت نفسي ــ «انك تمسك زمام لسانك باحكام وانك لامرؤ فطن» .

ــ قلت بصوت عال ، كلا ، لاحاجة بي الى العربة ، غداً سأذهب للقنص في هذه المنطقة ، واذا سمحت ، فسأقضي الليلة عندك في عَنْبَر العشب الجاف .

ــ بكل سرور . ولكن أتتوفر لك الراحة في العنبر ؟ سآمر النسوة بفرش شرشف ووضع وسادة . نهض من مكانه وصاح : هيا ايتها النساء ، هيا الى هنا ! .... وانت يا فيديا ، اذهب معهن . فالنساء جمهور غبي .

بعد مضي ربع ساعة قادني فيديا بمصباحه الى العنبر . انطرحت على العشب الجاف الشذي ، لف كلبي نفسه قرب قدمي ، تمنى فيديا لي ليلة سعيدة ، صرت الباب منصفقة ، واستبد بي الارق لوقت طويل . دنت بقرة من الباب وتنفست نفساً عالياً مرتين ، نبح الكلب عليها بوقار ، مر خنزير وهو يقبع بطريقته المتأنية ، بدأ جواد في مكان قريب يمضغ العشب ويحمحم ... واخيراً استسلمت للنوم .

أيقظني فيديا مع الفجر . ان هذا الشاب المرح ، النشط يروق لي كثيراً ، وكما استطعت ان الاحظ ، فقد كان اثيراً لدى خور الكبير ايضاً . كانا يداعبان بعضهما بعضاً بلطف جم . خرج العجوز لملاقاتي ، ولكن خور كان اكثر رقة معي مما هو عليه بالامس ــ ربما لا نني امضيت الليل تحت سقفه ، او لعل ثمة سبباً آخر .

ــ قال لي باسماً ، أعددت لك السماور ، لنذهب ونشرب الشاي .

جلسنا حول الطاولة . جلبت امرأة قوية البنية ، وهي احدى كناته : خزفية حليب . دخل ابناؤه بالتتالي الى الكوخ .

قلت للعجوز : ياله من رهط يافع لديك .

نطق وهو يقضم قطعة سكر صغيرَة ــ اجل ، يبدو انهم لا يتشكون مني ولا من عجوزتي .

ــ وهل يعيشون كلهم معك ؟

ـ كلهم ، هم انفسهم يرغبون في ذلك ، على هذا النسق يعيشون ، ـوهل كلهم متزوجون ؟

ـ اجاب مشيراً الى فيديا ، الذي اتكأ كالسابق الى الباب ، هو الوحيد ، الذي شاخ ولم يتزوج ، اما فاسكا فمازال فتياً وباستطاعته الانتظار .

اعترض فيديا قائلا ـ وما جدوى الزواج ؟ أنا راض بحياتي هذه ، فما حاجتي الى الزوجة ، والى الزعيق معها ؟

استرسل العجوز في حديثه ساخراً من الخادمات ـ آه منك ... انني اعرفك ! انك تضع الخواتم الفضية في اصابعك ... وتتشمم الفتيات في الفناء ... «كفى ، يجب ان تخجل !» لقد خبرتك جيداً ايتها اليد الناعمة !

ـ وما نفع المرأة ؟

ـ اجاب خور بشموخ ، المرأة عاملة ، خادمة الرجل .

ـ وما حاجتي الى العاملة ؟

ـ انت تريد الآخرين ان يرفعوا الكستناء من النار ، اننا نعرف امثالك من الناس .

ـ اذن زوجني ، مادام الامر هكذا ، حسناً ؟ ما بالك ، هيا تكلم ؟

ـ حسبك ، حسبك ايها المزّاح . أتدري ، اننا كدرنا راحة ضيفنا ، لا تقلق ، سأزوجك ... أرجو الا تنزعج ايها السيد ، فهو مازال غراً كما ترى ، ولم يبلغ من الرشد سوياً بعد .

هز فيديا رأسه ...

تعالى صوت مألوف وراء الباب ـ أخور في البيت ؟ ـ ودخل كالينتش البيت حاملا في يديه كمية من التوت البري ، الذي جمعه لصديقه خور . حياه العجوز بحرارة . نظرت مندهشاً الى كالينتش : اعترف انني لم اتوقع مثل «رقة الحاشية» تلك من فلاح .

ذهبت الى الصيد في هذا اليوم بعد مضي أربع ساعات على الوقت

المألوف ، قضيت الايام الثلاثة التالية عند خور . استحوذ معارفي الجدد على اهتمامي . لا أدري كيف حظيت بثقتهم ، ولكنهم كانوا يتحدثون معي دون كلفة . كنت استمع اليهم ملياً وأتأملهم بسرور . لم يشبه الصديقان بعضهما بعضاً قط . ان خور امرؤ إيجابي ، عملي ، له ذهن مدبر عقلاني ، بينما كالينتش على النقيض منه ، اذ يعتبر في عداد المثاليين والرومانتيكين ، فهو من اولئك الناس المتحمسين الحالمين . خور يدرك الواقع ، اعني انه بنى بيتاً وجمع نقوداً وكان على وئام مع سيده وغيره من المسؤولين ، بينما كالينتش يحتذي الخف الليفي في سيره ويجد مشقة في عيشه . أنجب خور عائلة كبيرة مطيعة موحدّة ، كان لدى كالينتش يوماً ما زوجة يخشاها ولم ينجبا اطفالا قط . فهم خور جوهر بولوتيكين حق الفهم ، بينما بجل كالينتش سيده . احب خور كالينتش وشمله برعايته ، احب كالينتش خور واحترمه . كان خور قليل الكلام ، كان يمزح ، ويحتفظ بافكاره في دخيلته ، كان كالينتش يتكلم بحرارة ، علماً انه لا يغني كالعندليب كما يفعل عامل معمل نشط . بيدان كالينتش كان ينعم بمزايا اعترف له بها خور نفسه ، فهو مثلا يعمل الرقى للدم والرعب والهيجان ويطرد الديدان وينقاد النحل ليده . طلب منه خور ، في حضوري ، قيادة جواد ابتاعه حديثاً الى الاسطبل ، نفذ كالينتش طلب العجوز المستريب بفخر واخلاص ـ كان كالينتش اقرب الى الطبيعة ، اما خور فاكثر قرباً من الناس والمجتمع ، كالينتش لا يحب التبصر في الأمور ويؤمن إيماناً اعمى بكل شيء ، بينما توصل خور الى وجهة نظر ساخرة من الحياة . لقد رأى وخبر اموراً شتى وتعلمت أنا منه الكثير ايضاً .

عرفت مثلا من احاديثة ان كل صيف تأتي قبيل الحصاد ، عربة غير كبيرة ذات شكل خاص الى القرى . يجلس في هذه العربة امرؤ يرتدي قفطاناً ، يبيع المناجل . اذا كان الدفع نقداً ، طلب روبلا وخمسة وعشرين كوبيكاً فضياً أو روبلا وخمسين كوبيكاً من الاوراق المالية ،

واذا كان ديناً طلب ثلاثة روبلات ورقية وروبلا فضياً . ومما لاريب فيه ان الفلاحين جميعهم يشترون بالدين ، يعود ذلك المرء ثانية بعد اسبوعين او ثلاثة مطالباً بالنقود . حينئذ يكون الفلاح قد فرغ لتوه من حصاد الشوفان ، ولديه طبعاً ما يدفع به دينه ، فيرافق التاجر الى الخمارة وهناك يسوي حسابه معه . دار في خلد بعض الملاكين ان يبتاعوا المناجل هم انفسهم بالدفع نقداً ويوزعونها بالثمن نفسه وتكون ديناً على الفلاحين ، ولكن تبين ان الفلاحين غير راضين لدرجة استبدت بهم الكآبة ، والسبب انهم سيحرمون جراء ذلك من متعة طقطقة المنجل والاصغاء له وتقليبه في ايديهم والسؤال ما يقارب العشرين مرة من البائع المحتال الضيق الافق : «حسناً ايها الاخ أوليس المنجل معطوباً نوعاً ما ؟» .

تتبع الحيل نفسها ابان شراء المطارق مع فارق واحد ، تتدخل النساء في تلك الحالة في القضية ، مما يحمل البائع نفسه احياناً على التنازل لصالحهن بمقتضى الضرورة ، لكن النساء اكثر من يقاسين في مثل تلك الحالة : ان المسؤولين عن تسليم المواد الى معامل الورق يعهدون بشراء الخرق الى صنف معين من الناس يطلقون عليهم في بعض المناطق اسم «النسور» . يتسلم هذا النسر من التاجر زهاء مئتي روبل من الاوراق المالية ويذهب للعثور على الغنيمة ، بيد انه على النقيض من الطائر النبيل الذي استقى اسمه منه ، لا يهاجم جهاراً وببسالة ، وانما العكس تماماً اذ يلجأ «النسر» الى الدهاء والمكر . فهو يترك عربته اينما كان بين الشجيرات في ضواحي القرية ، ثم يشق طريقه كعابر سبيل او متسكع وراء الاكواخ والممرات الخلفية . تحدس النساء غريزياً باقترابه ويسرن الهوينى لملاقاته . وتتم الصفقة بسرعة . لا يعطين «للنسر» مقابل بضعة فلوس نحاسية جميع الخرق الزائدة فحسب وانما غالباً ما يرمين اليه بقميص الزوج اوتنوراتهن . وقد وجدن في الفترة الاخيرة من المربح أن يسرقن بعضهن بعضاً ،

ويسوّقن ، بهذه الوسيلة ، ما لديهن من خيوط القنب ، ان هذه «العادات» تساعد خصوصاً على الترويج المهم لصناعة «النسور» وتحسينها ! لكن الفلاحين شرعوا بدورهم يرهفون السمع ، ويلجأون لدى ادنى ريبة او شائعة قصية عن ظهور «النسر» الى اتخاذ التدابير الصائبة والوقائية بخفة وحيوية . أو ليس ذلك مهيناً حقاً ؟ ان بيع القنب من شأنهن ، وهن سيبعنه لامحالة ـ لا في المدينة ، لانه ينبغي عليهن ان يجرجرن انفسهن الى المدينة ، وانما للتجار والجوالين الذين يحسبون ـ لعدم وجود ميزان دقيق ـ كل اربعين حفنة معادلة لبود[11] واحد ، وانت تعرف اي حفنة واي كف لدى الروسي ، لا سيما عندما يكون «منتفعاً» منها ! سمعت حكايات كثيرة من هذا النمط ، وانا امرؤ غير مجرب ولم «أعش» في القرية (كما يقولون عندنا في اوريول) . لكن خور لم ينفرد بالحديث ، وانما كان يسألني عن اشياء جمة . علم انني سافرت الى الخارج ، وتأجج حب الاستطلاع فيه ... ولم يكن اهتمام كالينتش بأقل منه ، بيد ان كالينتش أثرّ فيه قبل كل شيء وصف الطبيعة والجبال والشلالات والبنايات غير المألوفة والمدن الكبيرة . لقد عني خور بالاسئلة الادارية والحكومية ، تناول الاشياء بانتظام : «هل الامور عندهم هناك على الطراز الذي عندنا او انها مغايرة له ؟ ... حسناً ايها السيد ما رأيك فيهم ؟ .... بينما كان يهتف كالينتش في اثناء حديثي «ويْ ! ايها الرب ، لقد تحققت ارادتك !» سكت خور وقطب حاجبيه الكثيفين وكان يعلق أحياناً «أقول ، انه لشيء جيد ، لكن هذا النظام ، لا يلائمنا» . ما بوسعي نقل كل تعليقاته ولاضرورة لها ، غير اني خرجت من احاديثنا بقناعة واحدة ، لن يتوقعها القارىء على الارجح أبداً ، هي ان بطرس الاكبر كان روسياً صميماً في صفاته القومية وفي طبيعة إصلاحاته . الروسي واثق بقوته وصلابته بحيث انه ليس كريهاً اليه ارهاق نفسه : وهو لا يعنى بماضيه الا لماما ويتطلع بإقدام الى المستقبل ، انه يعجب بما هو جيد ولا ينكر ما هو معقول ،

والامر سيان لديه حيال المصدر الذي انبعث منه ، يهزأ عقله السديد جذلا من الفكر الالماني الجاف ، ولكن الالمان ـ حسب كلام خور ـ شعب مثير للاهتمام وهو مستعد للتعلم منهم . كان خور بفضل وضعه الاجتماعي المتميز واستقلاله الحقيقي ، قادراً على ان يحدثني عن اشياء كثيرة ، لن تقتلع ولو بالمنجل من امرؤ آخر ، ولن يطحنها حتى حجر الرحى ، كما يقول الفلاحون ، فهو ـ يدرك وضعه حق الادراك ـ سمعت للمرة الاولى ، إبان حديثي مع خور ، الكلام البسيط الذكي للفلاح الروسي . كانت معارفه جيدة وواسعة بالنسبة له ، رغم انه لا يعرف القراءة بينما يعرفها كالينتش . علّق خور «ان هذا الطائش تعلم القراءة والكتابة ، ولم تمت عنده نحلة قط» .

ـ وهل علمت اولادك القراءة ؟

اجاب خور بعد برهة صمت وجيزة : فيديا تعلم .

ـ وما شأن الاخرين ؟

ـ لم يتعلموا .

ـ ما السبب ؟

لم يجب العجوز وبدّل دفة الحديث ، مهما بلغ خور من حصافة الفكر ، فانه يظل يؤمن بكثير من الآراء الباطلة والاحكام المسبقة . فهو يزدري النساء ، مثلا ، من اعماق روحه وعندما يكون منشرح المزاج فانه يتسلى بهن ويسخر منهن . إن زوجه عجوز ومشاكسة ، تقضي النهار برمته على سطح الموقد(١٣) ، وهي دائماً تتذمر وتكيل السباب ، ان ابناءها لا يعيرونها اهتماماً ، الا انها تبقى كناتها في خوف دائم من الرب ، وليس عبثاً ان تغني الحماة في الاغنية الروسية .

لست ابناً لي
لست رب عائلة !
مادمت لا تضرب زوجك
مادمت لا تضرب صغيرك ...

خطر لي ذات مرة ان ادافع عن الكنات وحاولت استثارة عاطفة خور ، بيد انه عارضني بهدوء : «لعلك تريد اشغال نفسك بالترهات ... دع النساء يتشاجرن ... وسيكن في حال اسوء اذا سعيت للحؤول بينهن ، ولا يستأهلن تلويث يدك بهذا الامر» . كانت العجوز الحاقدة تهبط احياناً من سطح الموقد وتصيح على الكلب في الفناء محدثة اياه : «هلم الى هنا ، ايها الكلب» ! وتضربه على ظهره النحيف بالمِسْعر او تقف تحت السقيفة و «تنبح» ــ على حد تعبير خور ــ على كل المارة . ومع ذلك فقد كانت تخشى زوجها وتعود ادراجها الى مكانها فوق الموقد تلبية لاوامره .

ولكن من المثير حقاً ان تصغي الى نقاش كالينتش وخور عندما يتعلق الامر بالسيد بولوتيكين . يقول كالينتش : «حذار ياخور ان تمسه بكلمة امامي» . ويعترض الأخر : «اذن ما باله لا يمنحك جزمة جيدة لتلبسها ؟» «ليأخذ الشيطان الجزمة ! ... وما حاجتي الى الجزمة ؟ انني فلاح ...» ــ «وانا ايضاً فلاح ولكن انظر ...» وبعد هذا القول يرفع خور قدمه ويرُي كالينتش الجزمة المصنوعة على الارجح ، من جلد الماموث . أجاب كالينتش «ويْ ، ولكنك لست فلاحاً مثلنا !» «حسناً ، ولكن لماذا لا يعطيك مالا لشراء خف ، فانت تذهب معه الى القنص وانك لتحتاج كل يوم الى خف جديد» «انه يعطيني مالا لشراء الخف» «اجل تفضل عليك بعشرة كوبيكات في العام الماضي» . اعتكف كالينتش جانباً وهو منزعج ، بينما انفجر خور بالضحك ، وغاصت عيناه الصغيرتان تماماً .

غنى كالينتش غناء جميلا حقاً وعزف على البالا لايكا[١٤] . أنصت خور اليه وانصت ثم أمال فجأة رأسه جانباً و شرع يرفع صوته الشاكي . وكان يحب خصوصاً اغنية : «آه يا مصيري القاسي ، آه يامصيري» ولم يكن فيديا ليفوت الفرصة دون ان يسخر من ابيه «مالك ، ايها العجوز تتشكى ؟» لكن خور اسند خده الى يده ، أغلق

عينيه وواصل شكواه من حظه .... بينما لم يكن في الاوقات الاخرى من هو اكثر نشاطاً منه : فهو دائماً يشغل نفسه بعمل ما : يصلح العربة او يعمل سياجاً جديداً او يتفقد عُدة الفرس . ومــع ذلك لم يول اهتمــاماً خصوصياً للنظافة ، وقد اجاب ذات مرة على تعليقــاتي ان «لابد للكوخ من البقاء في الروائح» .

فاعترضت عليه قائلا : «ولكن الاترى كم هو نظيف مــكان كالينتش حيث عميرة النحل ؟» .

اجاب متنهداً «النحل لا يستطيع العيش بدون نظافة» .

وسألني بمناسبة اخرى :

«هل لديك ضيعة ايها السيد؟»

«عندي» .

«أبعيدة من هنا ؟»

«زهاء مئة فيرست» .

«حسناً ، وهل تعيش في ضيعتك ايها السيد ؟»

«اعيش فيها»

«احسب أنك تتسلى على الاغلب بالبندقية» .

«اجل ، لا مندوحة من الاعتراف بذلك»

«نعم افعل ايها السيد ، اطلق النار على الطيهوج كمــا يطيب لك ، ولكن استبدل وكيلك باستمرار»

في مساء اليوم الرابع ارسل السيد بولوتيكين في إثري ، غمرني شعور بالاسف على فراق العجوز ، اتخــذت لي مقعــداً في العــربة برفقــة كالينتش .

قلت : «حســناً ، وداعاً ياخــور ، اتمنى لك مــوفور الصــحة ، وداعاً يافيديا» .

«وداعاً ايها السيد ، وداعاً ، لا تنسنا» .

غادرنا مــع بزوغ الفجــر . قلت وانا اتطلع الى الســماء الناصــعة

«سيكون الجو رائعاً نهار غد»

اعترضني كالينتش «كلا ، ستمطر ، فالبط يرشش والأعشاب قــوية الرائحة للغاية»

سرنا بين الشجيرات . تغنى كالينتش بصوت خافت وهــو يهتز على مقعد الحوذي وينظر ويطيل النظر الى الفجر ...

غادرت في اليوم التالي بيت السيد بولوتيكين المضياف .

★ ★ ★

يرمولاي وزوجة الطحان

ذهبت مساء مع الصياد يرمولاي الى «الغطاء» ... ولكن ربما لا يعرف جميع قرائي ما هو الغطاء . فانصتوا الي ايها السادة .

يمكنك ان تذهب في الربيع ، قبيل ربع ساعة من غروب الشمس ، الى الغابة حاملا بندقيتك دون ان تصطحب الكلب معك ، تبحث لنفسك عن مكان اينما كان قرب اطراف الحرش ، تجيل النظر فيه ، تفحص كبسولة البندقية وتغامز اصحابك . تصرمت ربع ساعة . توارت الشمس ، لكن الغابة ما انفكت مضيئة ، الهواء نقي شفاف ، الطيور تتهامس مهذارة ، العشب الغض يسطع سطوع الزمرد المرح .... ها انت ذا تنتظر . يعتم جوف الغابة تدريجياً ، تنساب اشعة شفق المساء القرمزية ببطء على جذور الأشجار وجذوعها وترتفع أعلى فأعلى متحركة من الاغصان السفلى التي ما برحت عارية تقريباً الى قمم الأشجار الساكنة الوسنانة ... وها هي ذي القمم يلفها الغبش ، تضحي السماء الوردية داكنة الزرقة . ازداد عبير الغابة وفاحت رطوبة خفيفة دافئة ، سكن النسيم الحائم حولنا . رقدت الطيور . لم تنم كلها

دفعة واحدة وانما حسب اجناسها ، هجع الشرشور ، باديء بدء وبعد بضع لحظات ابو الحناء ثم تبعه الدُررَسَة . أمست الغابة أعتم فأعتم .

تلاحمت الأشجار في حشد كبير أسود ، أطلت وجلة اولى النجوم في السماء الداكنة الزرقة . رقدت كل الطيور ، ما خلا الحُمِيْراء وصغار نقار الخشب ، فما فتئوا يطلقون بين حين وآخر صفيراً وسنان ... ثم اخلدوا الى الصمت . صدح فوقنا مرة اخرى صوت الهازجة الرنان ، وفي مكان ما صاحت الصُفارية نائحة وغرد العندليب للمرة الاولى . ان فؤادك يبرّحه الانتظار ، وفجأة ــ ولا يفهمني سوى الصيادون دوى في السكون العميق نعيق وهسهسة من نمط خاص ، تناهت الى الاسماع رفرفة رتيبة ، ندّت من جناحين رشيقين لدجاجة الغابة التي مالت بمنقارها الطويل ميلاناً جميلا وطارت بخفة من خلف شجرة البتولا الداكنة متجهة نحو اطلاقك الناري .

هو ذا ما يعني «أن تقف في الغطاء» .

ذهبت مع يرمولاي متوجهين صوب الغطاء ، ولكن ارجو المعذرة ايها السادة اذ ينبغي علّي ان اعرفكم في البداية على يرمولاي .

تصوروا في مخيلتكم امرءاً عمره يناهز الخامسة والأربعين سنة ، طويلا ، نحيفاً ، ذا أنف طويل مستدق ، جبهته ضيقة ، له عينان رماديتان ، صغيرتان ، شعره اشعث ، شفتاه عريضتان ساخرتان . يرتدي هذا الشخص شتاء وصيفاً قفطاناً قطنياً ضارباً الى الصفرة ، مفصلا على الطريقة الالمانية لكنه يتشح بزنار ، يلبس بنطلوناً واسعاً ازرق وقبعة حاشيتها من فرو استراخان ، اهداها له ملاك مفلس كان في حالة انشراح ، ربط كيسين في حزامه ، الاول الى الامام وقد ثني بمهارة الى شطرين : للبارود وللخردق ، والاخر نحو الخلف لوضع الطرائد ، يأخذ يرمولاي القطن من قبعته الخاصة ، ويبدو أن قطنها لا ينفد معينه .

يستطيع بيسر ان يشتري بما لديه من النقود المودعة لقاء لطرائد

المبيعة حزام خراطيش وجراباً ، لكنه لم يجل بخاطره ولو مرة واحدة الاقدام على ابتياعهما واستمر يحشو بندقيته كالسابق ، مثيراً دهشة مشاهديه بمهارته التي يتحاشى بفضلها ، خطر تناثر او اختلاط الخردق والبارود .

تحتوي بندقيته على ماسورة واحدة وصوان ، زد على ذلك انها تتسم بصفة فظة ، فهي «ترفس» مما تسبب عنه ان غدا خد يرمولاي الايمن اكثر انتفاخاً من الايسر دائماً . كيف يستطيع ان يرمي باستمرار من هذه البندقية ــ مما لا يخطر حتى ببال امرىء داهية ــ لكنه كان يرمي . عنده كلب صيد اسمه فاليتكا وهو مخلوق رائع . لم يطعمه يرمولاي قط .

ويتحدث قائلا : «كان بودي ان اطعم الكلب ، بيد انه حيوان ذكي ، ويجد غذاءه بنفسه» . هكذا كان ديدنه في الواقع ، ومع ان فاليتكا اذهل حتى العابرين غير المكترثين بفرط هزالة ، لكنه عاش ، وعاش طويلا ، رغم انه كان في حالة مزرية ، فلم يختف ولو لمرة واحدة ولم يظهر رغبة بترك سيده . حدث ذات مرة ، في صغره ، أن توارى ما يقارب اليومين ، يدفعه هواه للاقدام على ذلك ، لكنه سرعان ما تخلص من هذا الحمق . الصفة البديعة عند فاليتكا هي لامبالاته ــ المستعصية على الادراك ــ ازاء كل شيء في الدنيا ... ولو لم يكن الحديث عن الكلب لاستعملت كلمة : الخيبة . ألف ان يجلس ويثني ذيله الابتر تحته ، يقطب ، يرتعش أحياناً ولا يبتسم أبداً . (من المعروف ان الكلاب يمتلكون المقدرة على الابتسام ، بل وحتى الابتسام بوداعة) . كانت طلعته بالغة القبح ، وما كان يفوّت أي خادم عاطل في الفناء فرصة الاستهزاء اللاذع من مظهره ، لكن فاليتكا تحمل ببرود مذهل كل هذا الاستهزاء بل وحتى الضربات . كان موضع متعة خصوصية للطباخين الذين يتركون عملهم في الحال ، وينطلقون خلفه صائحين شاتمين ، ساعين للحاق به حينما يرونه يدس خطمه الجائع ، جراء ، ضعف لا يتسم به الكلاب وحدهم ،

في الباب المفتوح قليلا ، وقد اغرته رائحة المطبخ الدافئة اللذيذة . اما ميزته في الصيد فانه لا يدركه التعب ويتمتع بحاسة جيدة ، لكن اذا اتفق مصادفة ولحق بأرنب جريح ، فحينئذ يأكله ، باستمتاع حتى آخر عظم فيه ، في مكان ظليل بارد تحت شجيرة خضراء في منأى قصي عن يرمولاي ، الذي يكيل له السباب ، بكل اللهجات المعروفة وغير المعروفة .

ان يرمولاي مملوك احد جيراني من الملاكين ذوي النمط القديم . لا يحب ملاكو النمط القديم ««الطرائد البرية» ويحتفظون بالدواجن الاليفة . يشرع طباخو الملاكين القدماء في الحالات غير العادية ، فحسب ، كأيام عيدالميلاد وأعياد الاسماء[1] والانتخابات ، بطبخ الطيور ذات المنقار الطويل ويتملكهم شعور بالمجازفة ، يتسم به المرء الروسي عندما لا يدرك هو نفسه جلية الأمر الذي يقوم به ، فيبتكرون كل انواع التوابل ويضيفونها الى الطبق حتى ان عدداً كبيراً من الضيوف يتفحصون بفضول وانتباه المأكولات المقدمة اليهم ، ومع ذلك لا يتوصلون الى معرفة مذاقها . طلب يرمولاي جلب زوجين من الطيهوج وكرواناً الى مطبخ الملاك مرة في كل شهر ويسمح له بالمقابل بالعيش كيفما شاء وكما يريد . لقد انكروه بصفته امرءاً لا يصلح لاي عمل و «لا يرتجى نفع منه» كما يقولون عندنا في اوريول[2] . لم يعطوه ، دون ريب ، خردقاً او باروداً ، وفقاً للمبدأ نفسه الذي لا يطعم بموجبه كلبه ، فهم يتمسكون به بدقة تامة . كان يرمولاي نمطاً بالغ الغرابة : عديم الاكتراث كالطير ، ثرثار لحدما ، مشتت الفكر ، سمج المظهر ، يحب معاقرة الخمر كثيراً ، لا يعرف الاستقرار في مكان ، يحرك قدميه بعجلة في اثناء المشي مترنحاً من جانب لآخر . كان يقطع وهو على هذه الحال من الحركة والترنح زهاء خمسين فيرستاً في اليوم . وقد تعرض لشتى انواع المغامرات : بات في المستنقعات وفوق الاشجار والسطوح وتحت الجسور وفي العنابر ، ظل اكثر من مرة وراء أبواب موصدة في العلية او

القبو او العنبار ، حُرم من بندقيته وكلبه ومن الملابس الضرورية للغاية . كان يُضرب لمدة طويلة وبشدة ، ومع ذلك يعود بعد مدة من الزمن الى البيت مرتدياً الملابس ومعه البندقية والكلب . لا يمكن ان تسميه بالمرء المرح ، رغم ان حالته النفسية كانت دائماً على ما يرام ، ويبدو عموماً غريب الاطوار .

يهوى يرمولاي الحديث لا سيما بعد الشرب ، مع امرىء ينسجم وأياه ولكن لمدة غير طويلة ، ينهض احياناً ويمضي . «لكن الى اين تذهب ايها الشيطان ؟ لقد هبط الليل في الخارج» . «الى تشابلينو» ، «ما بالك تجرجر نفسك الى تشابلينو ، وهي على بعد عشرة فيرستات» ، «هناك أبيت عند الفلاح سوفرون» ، «حسناً ، نم هنا» ، «كلا ، لا يمكن» . يذهب يرمولاي مع فاليتكا في الليل الداجي ، عبر الشجيرات والحفر ، علماً ان الفلاح سوفرون لن يسمح له ، على الارجح ، بالدخول اليه ، زد على ذلك ربما يضربه على عنقه : لانه تسبب في ازعاج الناس الشرفاء . لكن لا احد يضاهي بالمقابل يرمولاي في فن اصطياد السمك إبان الربيع من مياه الفيضان والتقاط السرطانات بيديه واكتشاف الطرائد بغريزته ، خادعاً السُماني مدرباً البواشق ، ممسكاً البلابل بواسطة محاكاة اغنية «مزمار عفريت الغابة» او «طارت الوقوق»★ ... شيء واحد لم يقدر عليه : تدريب الكلاب ، اذ كان يعوزه الصبر للقيام به .

كانت عنده زوجة ، يذهب اليها مرة في الاسبوع . تحيا في كوخ صغير قذر نصف مهدم ، تدبر أمورها بشكل من الأشكال ، ولا تدري في العشية قط ، ان كانت قادرة ان تبقى شبعى في الغد ، وقد ، عانت عموماً من مصير مر . ان يرمولاي هذا ، اللامكترث ، الطيب يعاملها

★ هذه التسمية معروفة لدى محبي البلابل : وتشير الى أفضل «عَطْفَة» في غناء البلبل (ملاحظة الكاتب) .

بفظاظة وخشونة ، ويصبح رهيب المنظر صارماً في البيت ، ولا تعرف زوجته المسكينة كيف تسترضيه ، ترتعش من نظرته ، تبتاع له الخمر بآخر كوبيك لديها ، تغطية مستكينة بمعطفها المصنوع من فرو الضأن حينما يرتمي بعظمة فوق سطح الموقد وينام نومة الفارس . اتفق لي ان لاحظت عنده اكثر من مرة نوعاً من المظاهر اللاارادية المتسمة بالصراحة المتجهمة . لم يعجبني تعبير وجهة حينما يعض الطير المصاب باطلاق ناري لغرض قتله . ومع ذلك فان يرمولاي لا يمكث ابداً اكثر من يوم في البيت . ويعود مرة اخرى الى ترك داره ذلك الـ «يرمولكا» كما يلقبونه على مدى مسافة تبلغ مئة فْيرست وكما يسمي هونفسه أحياناً . إن أوضع خادم يشعر بافضليته على هذا المتجول وربما كانوا لهذا السبب بالذات يعاملونه بمودة ، بينما كان الفلاحون باديء بدء يتلذذون بطرده او اصطياده كأرنب في الحقل ، ولكن اخيراً تركوه في رعاية الله ، ولم يتعرضوا له عندما عرفوا انه غريب الاطوار ، بل حتى أخذوا يعطونه الخبز ويتجاذبون معه أطراف الاحاديث . هذا هو الشخص الذي اصطحبته مرافقاً لي في الصيد وذهبت برفقته الى الغطاء في غابة البتولا الكبيرة على شاطيء ايستا .

ان كثيراً من الانهار الروسية تشبه الفولغا ، احدى ضفافها جبلية والاخرى سهلية ، وهذا هو شأن الايستا . فهو نهر يلتوي التواء غريباً للغاية يزحف كالافعى ، لا يجري مستقيماً ولو لمسافة نصف فيرست ، وفي مكان آخر ، من اعلى الربوة المنحدرة يمكن على مدى عشرة فيرستات رؤية الخزانات والبرك والطواحين وحدائق الخضار المحاطة بالصفصاف والبساتين الكثيفة . الاسماك في ايستا بالغة الغزارة ولا سيما الشبوط (الفلاحون يلتقطونه أيام الحر بأيديهم من تحت الشجيرات . تطير طيور زمار الرمل الصغيرة رائحة غادية وهي تصفر على امتداد الشواطيء الحجرية المرقشة بمياه الينابيع الباردة الوضاءة ، ويسبح البط البري الى وسط البرك ويظل ينظر حذراً فيما

حوله ، تتراءى طيور مالك الحزين تحت الظلال وفي الشروم تحت المنحدرات ..

وقفنا في الغطاء ما يقارب الساعة ، قنصنا زوجين من دجاج الغابة ، وظلت تحدونا الرغبة ان نجرب حظنا السعيد مرة أخرى قبيل طلوع الشمس (يمكن الذهاب الى الغطاء في الصباح ايضاً) قررنا ان نقضي ليلتنا عند أقرب طاحونة . خرجنا من الغابة وهبطنا الربوة . جرى النهر بأمواج زرق داكنة ، بات الهواء كثيفاً تحت وطأة رطوبة الليل .

طرقنا باب الطحان . نبحت الكلاب في الفناء .

نادى صوت أبح ناعس : «من هناك» :

«صيادون ، دعنا نقضي الليلة عندك» .

ما من جواب .

«سندفع لك» .

«سأذهب وأخبر السيد ... عليكم اللعنة ايها الكلاب ! ... لا يعرف الهلاك اليكم سبيلا! ...»

سمعنا كيف دخل العامل الى الكوخ ونكص راجعاً في الحال الى الباب .

قال «كلا ، السيد لايأمر بادخالكم» .

«ما باله لايأمر» .

«انه يخشاكم ، فأنتم صيادون ، ولربما تحرقون الطاحونه ، انظروا ، اي طلقات نارية بحوزتكم» .

«ماهذا الهراء» .

«احترقت عندنا الطاحونة في العام المنصرم ، بات بعض تجار الماشية ، وقد احرقوها بطريقة ما» .

«لكن ما عسانا نفعل ايها الاخ ، لا يمكننا قضاء الليل في العراء ؟»

«اقضياه اينما شئتما » ومضى مطقطقاً بجزمته .

اطلق يرمولاي شتى التعابير البغيضة في إثره ، أخيراً نطق مطلقاً

آهة : «لنذهب الى القرية» .

بيد ان القرية تبعد فيرستان .

قلت له : «دعنا نبيت هنا في العراء ، فالليلة دافئة ، وسيعطينا الطحان شيئاً من القش مقابل نقود ندفعها له» .

وافق يرمولاي دونما اعتراض . وعدنا لطرق الباب ثانية .

تعالى صوت العامل مجدداً . «ما حاجتكما الآن ؟ قلنا لكما لا يمكن البقاء» .

اوضحنا له ما نريد . فذهب لمشاورة سيده في الامر وعاد بصحبته .

صرت البوابة ، خرج الطحان ، وهو شخص طويل ذو وجه بدين ورقبة كرقبة الثور وبطن كبير مستدير . وافق على اقتراحي .

قامت على بعد مئة خطوة من الطاحونة سقيفة صغيرة ، لكنها مفتوحة من جميع الجهات . جاؤوا لنا بالقش والحشيش ، ووضع العامل سماوراً على العشب ، جلس القرفصاء وبدأ ينفخ بالمدخنة نفخاً دؤوباً . تجمر الفحم واضاء وجهه الفتي بسطوع . هرع الطحان ليوقظ زوجته ، ودعاني اخيراً لقضاء الليلة في كوخه ، لكنني فضلت البقاء في الهواء الطلق.حملت لنا زوجة الطحان الحليب والبيض والبطاطس والخبز . وسرعان ما غلى السماور واخذنا نحتسي الشاي ـ ارتفع الضباب من النهر ، كانت الريح هاجعة ، والكراكي تصيح من حولنا ، وتتعالى اصوات واهنة من عجلات الطاحونة . تتساقط تارة قطرات من الواح المجارف ويتسرب الماء تارة اخرى من خلال ترابيس الخزان . اشعلنا ناراً صغيرة . وبينما كان يرمولاي يشوي البطاطس في النار ، استسلمت للرقاد . ايقظني همس متحفظ رفيق . رفعت رأسي ، جلست زوجة الطحان على برميل مقلوب امام النار وتحدثت مع صاحبي الصياد . سبق لي ان ادركت من ملبسها وحركاتها وطريقة حديثها ، انها خادمة في بيت ، وليست بالفلاحة ولا امرأة من المدينة ، لكنني الآن فقط تفحصت قسماتها ملياً . يلوح من مظهرها ان عمرها

يناهز الثلاثين عاماً ، ومازال ينم وجهها النحيف الشاحب عن آثار جمال رائعة ، وقد اعجبتني خصوصاً عيناها النجلاوان الكئيبتان ، أسندت مرفقيها على ركبتيها ، وامسكت وجهها بين يديها . جلس يرمولاي وقد اولاني ظهره وأخذ يضع شظايا الحطب في النار .

قالت زوجة الطحان : انتشر الوباء بين الماشية مرة اخرى في جيلتوخينا ، وقد ماتت كلتا البقرتين لدى الاب ايفان ... رحماك يا ألهي !

سأل يرمولاي بعد هنيهة صمت : وكيف حال خنازيرك ؟

ــ مازالت على قيد الحياة .

ــ ليتك تهدين إلي ولو خنوصه على الاقل .

لم تحر زوجة الطحان جواباً ثم اخذت نفساً .

ــ من بصحبتك ؟

ــ السيد، السيد كوستوماروف .

القى يرمولاي بضعة اغصان من اشجار الشوح في النار ، احدثت الاغصان هسيساً شاملا ، تصاعد الدخان الابيض الكثيف مباشرة نحو وجهه .

ــ لماذا لا يدعنا زوجك ندخل الى الكوخ ؟

ــ انه يخاف .

ــ يالهذا البدين ذي الكرش .... عزيزتي ارينا تيموفيفنا ، اجلبي لي قدحاً من النبيذ الجيد !

نهضت زوجة الطحان وتوارت في الظلام . غنى يرمولاي في صوت خافت :

ما ان ذهبتُ الى حبيبتي .

حتى تمزق حذائي .

عادت ارينا وهي تحمل دورقاً صغيراً وقدحاً . اعتدل يرمولاي في جلسته ، رسم اشارة صليب وشربه دفعة واحدة ، ثم اضاف قائلا

«اهواه» ! .

جلست زوجة الطحان مرة اخرى على البرميل .

ــ اخبريني ، ارينا تيموفيفنا ، اما زلت عليلة ؟

ــ انني عليلة .

ــ ما بالك

ــ السعال يعذبني في الليل .

قال يرمولاي بعد وقفة قصيرة ــ يظهر ان السيد قد أغفى . لا تذهبي الى الطبيب يا ارينا ، سيكون حالك أسوء .

ــ انني لا اذهب في جميع الأحوال .

ــ تعالي عندي وحلي ضيفة عليّ .

نكست ارينا رأسها .

ــ اما زوجتي تلك فسأطردها في هذه الحالة ، وأردف يرمولاي قائلا : حقاً سأفعل .

ــ من الافضل لك ، يرمولاي بيتروفيتش ، ان توقظ السيد ، الا ترى ان البطاطس قد شويت .

علق خادمي المخلص بعدم اكتراث قائلا : دعيه يغط في نومه ، انه عدا كثيراً وها هو ذا يرقد .

تململت على القش ، نهض يرمولاي ودنا مني .

ــ البطاطس جاهزة ، تفضل وكل .

خرجت من تحت السقيفة ، نهضت زوجة الطحان عن البرميل وهي تريد الذهاب . فأخذت أتحدث معها .

ــ أمن امد طويل استأجرتم هذه الطاحونة ؟

ــ انصرمت السنة الثانية منذ يوم الثالوث المقدس .

ــ ومن أي مكان زوجك ؟

لم تلتقط ارينا ماهية السؤال .

كرر يرمولاي رافعاً صوته : من اي بلدة زوجك ؟

ـ من بيليف ، انه مدني من بيليف .
ـ وانت ، أمن بيليف ايضاً ؟
ـ كلا انا من الاقنان ، ... كنت من الاقنان .
ـ اقنان من ؟
ـ السيد زفيركوف . ولكني الان حرة .
ـ اي زفيركوف ؟
ـ الكسندر سيليتش .
ـالم تكوني وصيفة عند زوجته ؟
ـ وكيف استطعت ان تعرف ذلك ؟ بلى ، كنت .

نظرتُ الان بفضول وتعاطف جديدين الى ارينا .

استطردت قائلا : انا اعرف سيدك .

اجابت بصوت خافت وغضت طرفها ـ أتعرفه ؟

لا مندوحة من اطلاع القاريء على ما حدا بي الى النظر بمثل ذلك التعاطف الى ارينا . تعرفت ابان مكثي في بطرسبورغ ، عن طريق المصادفة المحضة ، بالسيد زفيركوف . كان يشغل منزلة ذات شأن نوعاً ما ، ومعروف كامرىء قدير ولبيب . كان عنده زوجة بدينة عاطفية بكاءة حقود ، انها مخلوقة سوقية ثقيلة الظل وكان عندهما ابن ، لاشك انه ولد سيد حقيقي ، كان مدللا غبياً .

قلما كانت طلعة السيد زفير كوف صالحة ، اذ تطل من وجهه العريض الشبيه بالمربع تقريباً عينان صغيرتان داهيتان كعيني الفأرة ، وانف بارز ذو منخرين كبيرين حادين عريضين ، يعلو جبهته المتغضنة شعر رمادي مقصوص قصاً قصيراً ، وترتعش شفتاه الدقيقتان باستمرار مبتسمتين ابتسامة متكلفة . ويقف السيد زفير كوف عادة مباعداً ما بين قدميه الصغيرتين ، واضعاً يديه الصغيرتين البدينتين على جيبيه . اتفق لي ذات مرة ان ذهبت معه في العربة بمفردنا خارج المدينة تجاذبنا اطراف الأحاديث . ولما كان السيد زفيركوف

امرءاً مجرباً ذكياً ، فقد بدأ يرشدني الى طريق الحقيقة» .

قال اخيراً بصوت اشبه بالصرير «اسمح لي بتعليق ـ انتم الشباب تحاكمون جميع الامور وتناقشونها اعتباطاً ، تعرفون القليل عن وطنكم ، ان روسيا ايها السادة مجهولة لديكم ، هذه هي جلية الامر ! انتم جميعاً تقرأون الكتب الالمانية . خذ مثلا ، كنت الآن تحدثني في هذا وذاك من المواضيع ، وما يخص تلك المسألة ، حسناً ، اعني قضية الاقنان ... لا بأس . لا اجادلك في ذلك ، حسن كل ما قلت ، لكنك لا تعرفهم ، لا تعرف اي نمط من الناس هم (مخط السيد زفير كوف عالياً وتسعط النشوق) .

اسمح لي مثلا ان اروي لك نكتة قصيرة واحدة ، لعلها تكون موضع اهتمامك (اطلق السيد زفيركوف صوتاً كالسعال) . انت ، بالتأكيد تعرف ، اي زوجة عندي ، لعله من العسير ان تجد امرأة اطيب منها . لابد انك تشاركني رأيي . ان وصيفاتها لا يوفر لهن الأكل والمسكن فقط ، وانما يخْلق ضرب من الفردوس امام اعينهن .. لكن زوجتي سنّت سُنة لها ، وهي الا تبقي الوصيفات المتزوجات . انهن لا يصلحن بالتأكيد للعمل : ينجبن الأطفال ... وهلم جرا ، حسناً ، الوصيفة لا تستطيع في تلك الحالة ان ترعى سيدتها كما ينبغي ولا تلحظ عاداتها ، انها لا تفكر بذلك وبالها مشغول باشياء اخرى . وعلينا ان نحاكم مثل هذه الامور استناداً الى الطبيعة البشرية .

حسناً ايها السيد ، كنا ذات مرة نجتاز قريتنا ، قبل حوالي ـ لا استطيع ان احدد بالضبط ـ خمس عشرة سنة تقريباً . رأينا عند كبير القرية صبية ، بنت غاية في الحسن ، أتدري ان مسلكها ينطوي على شيء من التملق ...

قالت لي زوجتي : «كوكو ـ هكذا كانت تسميني ـ لنأخذ هذه الصبية يا كوكو الى بطرسبورغ ، اتدري انها تروق لي ....» قلت : «لنأخذها بكل سرور» . لا ريب ان ان كبير القرية ركع على قدميه ، انه ، أتعلم ،

لم يتوقع مثل هذه السعادة . لكن الصبية انفجرت بالبكاء كالحمقاء . حقاً انه لمرعب باديء بدء ترك بيت الوالدين عموماً ... ولا غرابة في ذلك . لكنها سرعان ما الفتنا . ارسلنا بها في البداية الى غرفة الوصيفات وعلمناها طبعاً ما تقوم به . وماذا تظن ؟ ... حققت الصبية نجاحات رائعة . كانت زوجتي تودها وتشفق عليها واخيراً جعلتها تتخطى بقية الوصيفات واصبحت احدى وصيفاتها ، او ترى ذلك ! علينا ان نكون منصفين لها ، لم توجد لدى زوجتي وصيفة نظيرة لها ، لم توجد مطلقاً ، فهي خدومة ، متواضعة ، انها تتحلى بجميع الصفات المطلوبة . وبالمقابل فان زوجتي ، ولا مناص من الاعتراف بذلك ، دللتها بافراط ، البستها لباساً فاخراً ، اطعمتها من نفس طعامها واشربتها الشاي .. حسناً ، فعلت لها كل ما يمكن ان يخطر بمخيلتك .

استمرت في خدمة زوجتي ما يقارب عشرة اعوام . وفجأة ، في صباح يوم جميل ، تخيل ، تدخل ارينا ، كانوا يسمونها ارينا ـ الى مكتبي دون ان تستأذن مني ـ تركع عند قدمي .. اقول لك بصراحة لم اطق صبراً على ما بدر منها ولا يجوز للمرء ان ينسى وقاره ، أو ليس كذلك ؟

«ما بغيتك ؟» «سيدي السكندر سيليتش ، اطلب عطفك» «في أي شيء ؟» «اسمح لي ان اتزوج» . اقول الحق ، انني ذهلت .

«الا تعرفين ايها الحمقاء ، انه ليس لدى السيدة وصيفة اخرى ؟»

«سأخدم السيدة كالسابق» «هراء ! هراء ! فالسيدة لا تشغل الوصيفات المتزوجات» «يمكن ان تحل مالانيا محلي» «اطلب منك الا تجادلي !» «كما تشاء» .

اعترف لك انني صعقت وأقر انني امرؤ لا شيء يسيئني بشدة ، «أجرؤ ان أقول» ، كما يسيئني نكران الجميل . ولا حاجة بي لاخبارك ، فأنت ادرى اي زوجة عندي : ملاك في جسد ، طيبة يعجز التعبير عنها .

يخيل الي ، انه حتى الوغد يمكن ان تأخذه الشفقة عليها . طردتُ ارينا . وفكرت لعلها تثوب الى رشدها ، اتدري لا احب ان اؤمن بوجود

الشر ونكران الجميل الاسود في الانسان ، وماذا تظن ؟ بعد مضي نصف سنة شرفتني بزيارة اخرى وأقدمت على الطلب نفسه .

حينئذ ، اقول الحق ، طردتها بقوة وهددتها توعدتها باخبار زوجتي .

كنت ساخطاً .لكن تصور دهشتي : بعد انقضاء زمن قصير ، جاءت زوجتي الي والدموع تترقرق في عينيها ، كانت مضطربة لدرجة اثارت مخاوفي «ماذا حدث» ؟ «ارينا ..» أتتصور المسألة ... أخجل من النطق بها جهاراً . «مستحيل ! ... من هو ؟» «الخادم بيتروشكا» .

انفجرت غاضباً . انني من صنف الرجال الذين لا يحبون انصاف الحلول ! بيتروشكا غير ملوم ، يمكن معاقبته ولكنه ، على ما اعتقد لا جريره له . انها ارينا ..... اجل ، اجل وماذا استطيع ان اقول بعد ؟

بالتاكيد امرت حالا بقص شعرها ، وان ترتدي ثياباً رثة وترسل الى القرية . لقد حُرمت زوجتي من وصيفة ممتازة ، ولكن ما باليد حيلة ــ لا يمكن الصبر على السلوك السيء في بيتك . العضو السقيم ينبغي بتره حالا .... حسناً ، حسناً ، احكم بنفسك ، فانت تعرف زوجتي ، انها ، انها .... ملاك في آخر الامر !وكانت مشغوفة بارينا ، وارينا تدرك ذلك ، ولم تخجل من سلوكها .... أترى ؟ كلا ، قل لي ... ها ؟ ما عساي ان اوضح ! لا يمكن عمل شيء في كل الاحوال لقد اساءني انا ، وانا بالذات وآلمني لمدة طويلة نكران الجميل لدى هذه الفتاة . لا يهمني ما تقول .... لكن لا تبحث عن قلب او شعور لدى اولئك الناس ! مهما اطعمت الذئب ، فان نظره ميمم صوب الغابة ... الى الأمام ايها العلم ! لقد حملتني الرغبة كي ابرهن لك فحسب ....

أدار السيد زفيركوف رأسه ، لم ينه كلامه ، تدثر بمعطفه باحكام ، كابحاً برجولة اضطرابة اللاارادي .

لا ريب في ان القاريء يدرك الان لماذا نظرت بتعاطف الى ارينا . سألتها اخيراً ــ أمن امد طويل انت متزوجة من الطحان ؟

ــ منذ سنتين .

ـ اتعنين ان السيد سمح لك ؟
ـ لقد اشتروني .
ـ من ؟
ـ سافيلي الكسيفتش .
ـ من هو ؟
ـ زوجي . (ضحك يرمولاي بدخيلته) واردفت ارينا بعد صمت وجيز : هل حدثك السيد عني ؟

لم اعرف ماذا اجيب عن سؤالها . صاح الطحان من بعيد «ارينا !» فنهضت وذهبت .

سألت يرمولاي ـ هل زوجها امرؤ طيب ؟
ـ لابأس به .
ـ وهل عندهم اطفال ؟ .
ـ كان لديهم طفل لكنه مات .
ـ ما الخبر ، هل اعجب بها الطحان ، او ليس كذلك ؟ .. هل دفع مالا كثيراً لشرائها :
ـ لست ادري . انها تعرف القراءة والكتابة ، وهذا في صالحهم ... انه لشيء حسن . مما لا شك فيه انها كانت موضع اعجابه .
ـ وهل تعرفها منذ أمد طويل ؟
ـ منذ امد طويل ، سابقاً كنت اذهب لسيدها . ان ضيعتهم قريبة من هذه البقاع .
ـ وهل تعرف الخادم بيتروشكا ؟
ـ بيوتر فاسيليفتش ؟ اعرفه بالتأكيد .
ـ واين هو الان ؟
ـ اصبح جندياً .

لزمنا الصمت .

سألت يرمولاي اخيراً ـ ما بالها تبدو عليلة ؟

ـ ومن اين لها بالعافية ! غداً ، سترى ، الغطاء سـيكون على مـا يرام لابأس عليك ان تنام الآن .

ركض سرب من البط البري وهو يصفر فوقنا ، سـمعناه يهبط الى النهر غير بعيد عنا أغسق الليل تماماً ، اخذ البرد يزداد ، غرد البلبل في الغابة تغريداً رناناً ، تدثرنا بالقش وغفونا ..

* * *

مياه تحت الارض [1]

يبلغ الحر أقصى مداه في مستهل آب . لا يكون المرء مهما يكن حازماً وممسكاً بتلابيب فكره ، في وضع يساعده على مواصلة القنص في الفترة ما بين الساعة الثانية عشرة والثالثة وتشرع اكثر الكلاب ولاء «بتنظيف مْهِمَاز الصياد» أعني تسير خلفه بخطوات ، تزر مابين عينيها بصورة غير طبيعية ، وتمد لسانها بإفراط ، بينما تحرك ذيلها بخضوع ، ــ جواباً عن عتاب سيدها ــ ويلوح الارتباك على وجهها ، ومع ذلك لا تسير الى الامام . اتفق لي ان ذهبت في مثل ذلك اليوم بالذات الى الصيد . قاومت طويلا الاغراء بالاستلقاء تحت الظل ولو لهنيهة في مكان ما ، بقي كلبي ، دون ان يدركه الكلل ، يجوس خلال الشجيرات لمدة طويلة ، رغم انه لا ينتظر على ما يبدو شيئاً صالحاً من نشاطه المحموم ، أجبرني القيظ المتعاظم على أن افكر اخيراً بالمحافظة على بقايا قوانا وامكاناتنا . جررت خطاي بشكل أو بآخر ، الى نهير ايستا الذي تعرف عليه قارئي الفاضل ، هبطت من المنحدر وسرت على الرمل الاصفر الرطب في اتجاه الينبوع ، المعروف في انحاء

الضاحية باسم «مياه توت الأرض» . يتفجر هذا الينبوع من شق في الشاطيء ويتحول تدريجياً الى مسيل صغير وعميق ، يصب على بعد عشرين خطوة من هناك ، بصخب مرح مهذار في النهر . نمت شجيرات البلوط على منحدر المسيل ، اخضوضرت حول الينبوع اعشاب قصيرة مخملية ، لاتكاد اشعة الشمس تمس المياه الباردة الفضية قط . وصلت الى الينبوع . القيت على العشب مجرفة من خشب البتولا ، وضعها فلاح ، عابر سبيل من اجل الصالح العام . شربت حتى الارتواء ، استلقيت في الظل وتطلعت حولي ، جلس عجوزان وقد أولياني ظهرهما عند الَشرْم المتكون لدى انصباب الينبوع في النهر ومن التموجات الخفيفة التي تعلوه . احدهما مكتنز لحد ما طويل القامة ، يرتدي قفطاناً أخضر داكناً انيقاً وقبعة من الوَبَر ، يصطاد السمك بالصنارة ، والأخر نحيف قصير في سترة من الموخايار[٢] المرُقعّ ، بدون قبعة ، يضع على ركبتيه قدراً من الديدان ، يمد يده احياناً على رأسه الاشيب ، كما لو كان يرغب في حمايته من الشمس . تطلعت اليه متفحصاً وتعرفت فيه على ستيبوشكا من شوميخينو . اسمح لي ايها القاريء ان اقدم لك هذا الشخص .

تقع على مسافة بضع فيرستات من قريتي ضيعة شوميخينو الكبيرة ، بكنيستها الحجرية التي شيدها كوزما وداميان باسمهما هبة منهما . تجلى مقابل هذه الكنيسة في الازمنة القديمة بهاء قصور الاسياد الرحبة المحاطة بأبنية شتى كالمؤسسات والورشات والاصطبلات وسقائف الغرونت[٣] ومحلات العربات والحمامات والمطاهي الوقتية والاجنحة الجانبية للضيوف والمديرين والمستنبت الزجاجي ذي الازهار والمراجيح للشعب وغيرها من الابنية الكثيرة او ذات الفائدة القليلة . عاش في هذه القصور الملاكون الاثرياء وكان يسير كل شيء وفق نظامه المرسوم ، احترق فجأة في صباح رائع كل هذا النعيم برمته . انتقل الاسياد الى دار أخرى ، أضحت العزبة خالية .

تحولت الربوع المحروقه الواسعة الى مزرعة ، وكُدست في مكان ما أكوام من الآجر ، وهي بقايا الاسس السابقة .

بنوا على عجالة كوخاً صغيراً من جذوع الاشجار السليمة وكسوها بألواح المراكب التي ابتاعوها قبل عشر سنوات لبناء جناح على النمط القوطي وسكن فيها البستاني ميتروفان وزوجته اكسينا وعائلتهم وأطفالهم . صدرت الاوامر الى ميتروفان ان يجهز الخضار والخضروات لمائدة السيد ، ويزرعها على امتداد فيرست ونصف ، وعهدوا الى اكسينا العناية بالبقرة التيرليزية التي تم ابتياعها من موسكو مقابل نقود كثيرة . ولكنها ويااللاسف كانت قد فقدت القابلية على الانتاج ، لذلك لم تعط حليباً منذ حين شرائها ، وسلموها باليد عَلْجُوماً ذا عُرف رمادي طير «السيد» الوحيد ، أما الاطفال فلم يحددوا لهم أي عمل بسبب صغر سنهم ، علماً ان ذلك لم يعفهم مطلقاً عن التكاسل التام . أتفق لي ان قضيت الليل مرتين عند هذا البستاني ، وتناولت بشكل عابر الخيار ، الله أدرى لماذا ، يتميز حتى صيفاً بحجمه الكبير وطعمه المائي الرديء وقشره السميك الاصفر . رأيت عنده للمرة الاولى ستيبوشكا-لم يبق خادم في شوميخينو، إضافة الى ميتروفان وعائلته وغيراسيم وهو سادن الكنيسة ، رجل مسن وأصم يعيش على الصدقات الخيرية في غرفة عند زوجة جندي حدباء ، لذلك فان ستيبوشكا الذي أود تعريف القاريء به لا يمكن اعتباره عموماً انساناً عادياً ولاخادماً على وجه الخصوص .

يمتلك كل فرد وضعاً معيناً في المجتمع مهما كان هذا الوضع ، فلا مندوحة ان يكون لديه نوع من الروابط ، فيعطى كل خادم راتباً او على الاقل ما يسمى «بالغذاء» : ان ستيبوشكا لا يتلقى مطلقاً اية معونة ، ولا تصله صلة رحم بأحد ما ، ولا علم لأحد بوجوده . ليس لهذا الشخص حتى ماض ، ولا يتحدثون عنه ، بل لا يكاد يسجل ضمن احصاء الرجال . سرت إشاعات غامضة انه اشتغل في وقت من

الاوقات خادماً عند امرىء ما ، أما من هو ، ومن أين هو ، وابن من ، وكيف اتفق وان اصبح في عداد شوميخينو ، وكيف حصل على سترة الموخايار ، والقفطان الذي يرتديه منذ زمن قديم ، اين يعيش ، وكيف يعيش ، فلا يملك احد ادنى فكرة عن هذه الامور مطلقاً ، والحق يقال ، إن ما من أحد شغلته هذه القضايا . الجد تروفيمتش الذي يعرف شجرة نسب كل الخدم حتى خط الجيل الرابع ، قال في تلك المرة ، انه يتذكر ان ستيبان ينحدر من نسب امرأة تركية ، تفضل السيد المرحوم البريغادير الكسي رومانيتش بنقلها الى الرتل في احدى الحملات . كان ستيبوشكا لا يظهر حتى في ايام ألاعياد ، ايام المنح والضيافة بالخبز والملح[٤] وفطائر الحنطة السوداء والنبيذ الاخضر ، وفق العادات الروسية القديمة ، لا يظهر امام الموائد المعروضة وبراميل الخمر ، لا ينحني للسيد ولا يقترب من يده ، لا يشرب قدح كحول تحت بصر السيد ومن اجل صحة السيد ، ذلك القدح الذي تملؤه يد الوكيل البدينة ، فيالها من روح خيرة تأبى على البائس ان يأكل ، وهو يمر مروراً عابراً ، قطعة من الفطائر . يتبادلون في عيد الفصح قُبل التهنئة معه ، ولكنه لا يثني كُمّه الملطخ بالزيت ، ولا يخرج البيضة الملونة من جيبه الخلفي ولا يحملها وهو منقطع الانفاس ، رامش العينين الى الاسياد الشباب بله السيدة الكبيرة . يعيش في الصيف في كرار خلف قن الدجاج وشتاء في غرفة ملابس الحمام وايام الزمهرير في مخزن الحشيش المجفف . لقد ألفوا رؤيته ، بل كانوا احياناً يركلونه ، ولكن لا أحد يتحادث معه . وهو نفسه ، على ما يبدو ، لم يفتح فاه قط . أوى هذا الانسان المهمَلَ بعد ذلك الحريق ، او كما يقول أهل اورلوف «آوى» الى البستاني ميتروفان . لم يمسسه البستاني ولم يقل له عش عندي ، ولم يطرده ايضاً . لم يعش ستيبوشكا لدى البستاني ، كان يسكن هناك ويطوف بالمزرعة ، كان يسير ويتحرك دون أدنى ضجة ، يسعل ويعطس واضعاً يده على فمة وأنفه ، يساوره شيء من الخوف ، انه مشغول

دائماً ، يكدّ خلسة كالنمل ، كل هذا من اجل الطعام ، والطعام فقط ، ولو لم يعن ستيبوشكا نفسه من الصباح وحتى المساء بغذائه لمات من الجوع ، ويالسوء الحال عندما لا تعرف في الصباح باي شيء ستسد رمقك في المساء ! يجلس ستيبوشكا احياناً تحت السياج ويزدرد الفجل او يمتص الجزر أو يفتت تحته رأساً من الكرنب الوسخ ، او يحمل سطل ماء الى مكان ما وهو يئن ، او يشعل النار تحت القدر ويرمي قطعاً سوداً من عُبّه في القدر ، او يكسر خشبة صغيرة في الكرار او يثبت مسماراً ، او يعمل رفا للخبز . يقوم بعمل كل هذه الاشياء وهو صامت كما لو كان في ركن : تتطلع واذا به قد اختفى ، توارى على حين غرة لمدة يومين ، ولا ريب في ان احداً لم يلحظ غيابه . تجيل بصرك وها هو ذا معنا ثانية ، يقوم بوضع شظايا الخشب خلسة في مكان ما حول السياج عند الأثفية . وجهه صغير ، عيناه صغيرتان صفراوان ، شعره متناثر حتى حاجبيه ، انفه دقيق ، اذناه كبيرتان للغاية وشفافتان كأذني الخفاش ، لحيته كأنها قد حُلقت قبيل اسبوعين ، ولا تكون أصغر او أكبر من ذلك ابداً . هذا هو ستيبوشكا الذي التقيته على شاطىء ايستا بصحبة العجوز الآخر .

تقدمت منهما ، حييتهما ، وجلست بجانبهما . تعرفت في رفيق ستيبوشكا على شخص ، سبق وان رأيته ايضاً : وهو قن اعتقه الكونت بيوتر اليتش ، ميخائيلو سافيليف ، ولقبه تومان . عاش عند امرىء من الطبقة الوسطى في بولوخوف مصاب بالتدرن الرئوي ، صاحب الخان الذي كنت غالباً ما انزل فيه . ان المسافرين في طريق اورلوف الكبير والموظفين الشباب والناس الآخرين غير المشغولين (اما التجار المغمرون في رياشهم المُقلّمة فلا يعيرون اهتماماً لذلك) مازال بوسعهم حتى الوقت الراهن ان يلحظوا على مسافة غير بعيدة من قرية ترويتسي بيتاً خشبياً ضخماً مؤلفاً من طابقين ، مهملا تماماً ، سطحه متداع ، نوافذه محطمة كلياً ومطلة على الطريق نفسه . لا يمكن ان

تتصور شيئاً اكثر كآبة من هذه الخرائب في ظهيرة نهار صاف مشمس . هنا عاش في وقت من الاوقات الكونت بيوتر اليتش المضياف المعروف والاقطاعي النبيل الثري في العصر الغابر . كان سكان المحافظة يجيئون كلهم اليه ، فيرقصون ويمزحون كثيراً ، على اصوات الموسيقى البيتية المدوية الرنانة وطقطقة الالعاب النارية الرومانية . لربما لا تمر الان عجوز واحدة قرب غرف القصر الاقطاعي الخالية إلا وتتنهد متذكرة الازمان الخالية والشباب المتصرم . أولم الكونت الولائم طويلا ، وتمشى طويلا رائحاً غادياً مبتسماً ببشاشة في حشد الضيوف المتزلفين ، لكن ضيعته لسوء الحظ ، لم تكن لتكفيه كل حياته . لقد افلس تماماً وذهب الى بطرسبورغ للبحث عن عمل وتوفي في غرفة الفندق ، قبل انتظار أي قرار . اشتغل تومان خادماً عنده ومنح حريته إبان حياة الكونت . كان امرأ يناهز السبعين ، ذا وجه سليم لطيف ، لا تفارق الابتسامة ثغرة تقريباً ، ويبتسم كما يبتسم الآن أبناء العهد الكاتريني[٦] وحدهم بطيبة ووقار ، واذا تحدث حرك شفتيه واطبقها ببطء ، ضيق بين عينيه برقة ، وخن قليلا عند النطق بالكلمات . كان يمخط وينشق النشوق بلا عجالة ايضاً كما لو انه قام بعمل . بدأت الحديث ــ حسناً ، ماذا فعلت ميخائيلو سافيليتش ، هل اصطدت السمك ؟

ــ ها هو ، تفضل وانظر في السلة ، سمكتان من ذئب البحر وخمس من الشبوط .... أره يا ستيبكا .

سألته ــ كيف حالك يا ستيبان ؟

اجاب ستيبان متلجلجاً ــ أ .... أ ... أ .. لا .... لا بأس ، يا سيدي ، قليلا نوعا ما،كأن ثقلا معلقاً في لسانه .

ــ وميتروفان معافى الصحة ؟

ــ معافى بالتأ ... بالتأكيد ، ايها السيد .

تنحى المسكين جانباً .

بدأ تومان الحديث ـ

ـ الحال رديئة ، شيء ما يعض ، قيظ مؤذ ، السمك كله اختبأ تحت الشجيرات ، يغفو ... اعطني دودة ياستيبا . (اخرج ستيبوشكا دودة ووضعها على راحته وربّت عليها مرتين تقريباً ووضعها بالصنارة وبصق ثم ناولها لتومان) شكراً لك يا ستيبا ... استطرد في كلامه ووجهه الي ، اتقوم بالقنص ؟

ـ كما ترى

ـ حسناً ... وما نوع هذا الكلب الذي عندك أهو انكليزي او كور لاندي ؟

ـ احب العجوز بهذا السؤال ان يبين : يعني نحن نعيش في العالم ايضاً !

ـلست أدري اي نوع ، ولكنه جيد .

ـ حسناً ، وهل تود السفر مع الكلاب ؟

ـ لدي زمرتان منهما .

ابتسم تومان وهز رأسه .

ـ هكذا الحال بالضبط : واحد هاو للكلاب ، وأخر لا شأن له بها ولو اعطيت له هبة . اكثر الكلاب ، «اعني ينبغي الاحتفاظ بها لاهميتها شريطة ان يسير كل شيء وفق النظام : والخيول تسير وفق النظام والصيادون ينبغي ان يسيروا وفق النظام وكل شيء . كان الكونت المرحوم ـ ادخله الله فسيح جناتِه ـ لا يعترف قط ، بانه صياد ، ومع ذلك احتفظ بالكلاب ، وسمح بالسفر زهاء مرتين في العام . يتجمع الصيادون في الفناء ويرتدي كل منهم قفطاناً احمر مقصباً ، ينفخون في البوق ، ويتفضل صاحب السعادة بالخروج ، يقتادون جواد صاحب السعادة ويقدم له الزمام في القبعة[٧] . يتفضل صاحب السعادة ويضرب بالسوط فيزعق الصيادون ويتحركون خارج الفناء . يسير سائس الخيل اما وراء الكونت ، ويمسك كلبين من كلاب السيد الاثيرة لديه

بمقودين حريريين ويراقب على هذه الشاكلة ، أو اتدري ... يجلس هو ، اعني السائس على سرج قوزاقي مرتفع ، محمر الخدين للغاية ، وينقل بصره ويقود ... حسناً ، ولا ريب في وجود الضيوف في مثل تلك الحالة . وتراعى المسرات والتشريفات ايضاً ... وأضاف فجأة ساحباً الصنارة ـ آه ، سقطت ، انا الجلف !

سألته ـ لماذا يقولون إن الكونت عاش عصره على مرامه ؟

بصق العجوز على الدودة ورمى الصنارة .

ـ كان اقطاعياً ثرياً معروفاً . يمكن القول ان اكبر وجهاء بطرسبورغ ، كانوا يترددون عليه . كانوا يجلسون حول المائدة ويأكلون وعليهم اشرطتهم الزرق ، وكان يضيفهم السيد كما ينبغي . كان احياناً يدعوني ويقول : «تومان مطلوب منك غداً ان تجلب سمك الحَفْش الصغير الحي ! مر بالحصول عليه ، أتسمع ؟» «سمعاً وطاعة ياصاحب السعادة» . كانت تخاط القفاطين ، ويُحضر الشعر المستعار والعصي والعطور والكولونيا من أفخر الأنواع وعلب النشوق واللوحات الكبيرة التي أوصى عليها من باريس نفسها . تقام الوليمة ، يا الهي ، انها لاعجوبة الحياة ! تجري الالعاب النارية والتنزه بالعربات ، بل حتى تطلق النار من المدفع . يبلغ عدد الموسيقيين الموجودين وحدهم اربعين نفراً ، وعنده قائد فرقة موسيقية الماني ، لقد اغتر هذا الالماني كثيراً ، اراد ان يتناول طعامه مع الاسياد حول مائدة واحدة ، فأمر صاحب السعادة بطرده وانصرف ، الله معه : قال السيد ان لدي موسيقيون يفهمون عملهم . من الجلي : انها سلطة السيد . ظلوا يرقصون ، يرقصون الى الفجر ، لا سيما رقصة لاكوسيز .... ما ترادور .. أ .... أ ... أ .. اصطادت ايها الأخ ! (سحب العجوز من الماء سمكة صغيرة من ذئب البحر) خذ يا ستيبا . تابع كلامه ورمى الصنارة ثانية ـ كان سيداً كما ينبغي ان يكون السيد ـ وكان طيب النفس ايضاً . يصادف احياناً ان يصفعك ، ثم تتطلع اليه واذابه قد نسي . كان عنده نساء ، ويل

من اولئك النسوة ، وليغفر لي الرب ! انهن هن اللواتي افضـين به الى الافلاس . اترى لقد انتقى معظمهن من الطبقة الدنيا . من الجلي ، ماذا يردن اكثر ؟ كلا ، يجب ان تقدم لهن اغلى ما هو موجود في اوربا كلها ! ومع ذلك يقلن لماذا لا نعيش متمتعـات كمـا يطيب لنا ، انهـا مشـيئة السيد .. لكن شريطة الا تفضي به الى الافلاس . كانت احداهن بالذات ، أسمها اكولينا ـ توفـت الان رحمهـا الله ـ فتاة خشـنة وابنة رئيس الفلاحين ، يالها من حقودة ! كانت تضرب الكونت على خـديه أحياناً ، لقد سحرته تماماً . قامت بارسال ابن اخي كمجند لانه رمي الشكولاته على ثوبها الجديد . ولم تبعثه للجندية وحده . أجل ... واضاف العجوز وهو يتنهد تنهداً عميقاً ، ومع ذلك كان زماناً قصـيراً طيباً ، ثم أطـرق وسكت .

بدأت الكلام بعد برهـة صـمت وجيزة ـ أجـد ان سـيدكم ذاك كان صارماً ؟

عارضني العجوز ، وهو يهز رأسه ـ كان ذلك من الامـور المألوفـة انئذ .

علقت دون ان احول طرفي عنه ـ الآن لا يفعلون هذا .

نظر الي نظرة جانبية .

غمغم قائلا ، ورمى الصنارة بعيداً ـ الان بالتأكيد افضل .

جلسنا في الظل ، لكن الجو كان خـانقاً في الظـل ، بدا وكأن الهـواء الثقيل القائظ قد همد ، ظل الوجه المتوهج يفتش كئيباً عن النسيم ، لم تكن ثمة من انسام ، سفعت الشمس من السماء الداكنة الزرقة المعتمة ، اصفرت حقول الشوفان على الشاطيء المقابل لنا تمـاماً ، نمـا نبات الشيح في أماكن شتى ، لم تتمايل ولو سنبلة واحدة . وقف حصان احد الفلاحين في مكان قليل الانخفـاض في النهـر وحـرك ذيله الرطـب بخمـول ، كانت ترتفـع بين الفينة والفينة سـمكة غير كبيرة تحـت الشجيرة الناشئة ، مطلقة الفقاعات ، هابطة بهدوء الى القعر ، مخلفـة

تموجات خفيفة وراءها . الجنادب تصَرْصَر في الأعشاب الضاربة الى الحمرة ، السُمَانيات تصيح بتثاقل ، البواشق تحلق بيسر فوق الحقول وغالباً ما تعود لتتوقف في مكانها ، ملوحة باجنحتها في سرعة وناشرة ذيلها كالمروحة . جلسنا بلا حراك ، وقد اخمدنا القيظ ، علت خلفنا فجأة ضجة في المسيل ، واذا بامرىء يهبط الى الينبوع . تطلعت واذا بي ارى فلاحاً عمره يناهز الخمسين مغبراً ، يرتدي قميصاً وخفاً ، يحمل حقيبة مضفورة وعلى كتفه سترة . اقترب من الينبوع ، شرب بشراهة ونهض .

صاح تومان عندما نظر اليه ـ وي ، فلاس ؟ مرحباً ايها الاخ ، من اين جئت الينا ؟

قال الفلاح وهو يتقدم نحونا ـ مرحباً . ميخائيلو سافيليتش ، جئت من بعيد .

سأله تومان ـ واين كنت في اثناء غيابك ؟

ـ سافرت الى موسكو ، الى السيد .

ـ لماذا ؟

ـ ذهبت اطلب شيئاً .

ـ وماذا تطلب ؟

ـ ان يخفف الجزية ، أو ان اشتغل عنده بالسخرة ، او أن يجعلني اعمل في قطعة أرض اخرى ، أو اي شيء .. لقد مات ولدي ، ولا اقدر على أداء العمل وحدي الآن .

ـ وهل مات ابنك ؟

ـ اضاف الفلاح ـ مات ، وقال بعد هنيهة صمت ، كان المرحوم في موسكو ، عاش حوذياً ، ولا بد من القول ، انه كان يدفع الجزية بدلا مني .

ـ وهل تعمل الان بدفع الجزية ؟

ـ ادفع الجزية .

ـ وماذا قال سيدك لك ؟

ـ السيد ؟ لقد طردني ! يقول كيف تجرأت على ان تأتي الي مباشرة . ولمِ وجُد الوكيل ، ويقول كان يجب أولا ان تخبر الوكيل .. والى اين انقلك ؟ يقول ينبغي اولا ان تدفع ما تبقى عليك من دين . استبد به الغضب كلياً .

ـ حسناً ، وماذا حدث ، هل قفلت راجعاً ؟

ـ رجعت ، أردت أن أتدبر الأمر ، وأرى ان كان المرحوم قد ترك وراءه شيئاً ، فلم اجد اي شيء ، قلت للسيد : «انا ، يعني ، والد فيليبوف» .

وقال لي «ولماذا يجب ان اعرف ؟ وقال اذا لم يترك لك ابنك شيئاً ، فانت مازلت مديناً لي» . حسناً ، وهكذا عدت أدراجي .

حدثنا الفلاح عن القضية كلها بشكل ساخر ، كما لو كان الحديث يدور حول شخص آخر ، ولكن جالت دمعة في عينيه الصغيرتين المنقبضتين ، وارتعشت شفتاه .

ـ وماذا ستفعل ، هل تذهب الان الى البيت ؟

ـ الى اين اذن ؟ طبعاً الى البيت . ان زوجتي ، على ما اعتقد ـ قد تضورت الآن جوعاً .

وقال ستيبوشكا فجأة ـ ينبغي عليك ... بعدئذ ... لكنه ارتبك ولزم الصمت ثم اخذ ينقب في القدر .

تابع تومان الكلام ونظر بشيء من الاستغراب الى ستيبا ـ وهل تذهب الى الوكيل ؟ .

ـ ولماذا اذهب اليه ؟ .... انا مدين في كل الاحوال . تمرض ابني سنة قبل موته ، وهكذا لم يدفع القسط ... المصيبة ليست كبيرة بالنسبة لي ، فلا شيء عندي يأخذونه ... لا نفع يرجى من ذلك مهما تكن داهية هنا ، ان رأسي غير مسؤول ! (وضحك الفلاح) مهما يكن حاذقاً ، كينيتليان اوسيمينيتش ، فالامر ...

ضحك فلاس مرة اخرى .

قال تومان وكان كلامه متقطعاً ــ مــاذا ؟ هــذا سيء ، ايهــا الفــلاح فلاس .

ــ وما هو الشيء السيء ؟ أوليس ... (تقطع صوت فلاس) ثم تابع قــائلا وهو يمسح وجهه بكمه ــ ياله من قيظ .

سألته ــ من هو سيدك ؟

ــ الكونت فاليريان بيتروفيتش .

ــ ابن بيوتر اليتش ؟

اجــاب تومــان ــ ابن بيوتر اليتش ، اعطــاه المرحــوم بيوتر اليتش القرية التي يعيش فيها فلاسوف ، إبان حياته .

ــ وهل هو في صحة جيدة ؟

اجاب فلاس ــ موفور العافية والحمدلله ، ياله مــن متورد ، واصــبح وجهه يبدو بارزاً .

واصل تومان الحديث ووجهه الي ــ على اي حال ايها السيد الوضع حسن قرب موسكو ، بينما هنا يختلف الامر عندما تدفع الجزية .

ــ وكم مقدار الجزية عن كل منزل ؟

تمتم فلاس ــ خمس وتسعون عن كل منزل .

ــ حسناً ، انت ترى : ان الارض صغيرة ، غابة السيد كبيرة فحسب .

علّق الفلاح قائلا ــ حتى تلك الارض يقولون لقد باعها .

ــ حسناً ، انظر ... ستيا ، اعطني دودة ... ها ستيبا ؟

مالك ، هل انت نائم ؟

انتفض ستيبوشكا . جلس الفلاح قربنا . واخلدنا الى الصمت مــرة ثانية ، بدأ شخص ما يغني في الشاطىء الآخر ،

ويالها من اغنية شجية .... غشت الكآبة فلاس المسكين ...

بعد نصف ساعة ، افترقنا .

طبيب المنطقة

اصبت بالرشح ذات مرة في الخريف ، في طريق عودتي من الغيط الذي غادرته فتوعكت صحتي . ومن حسن الحظ ان حرارتي لم ترتفع الا حينما بلغت مركز المنطقة ، ارسلت في طلب الطبيب الى الفندق .

بعد مضي نصف ساعة وصل طبيب المنطقة ، كان شخصاً قصير القامة ، نحيفاً ، ذا شعر اسود .. كتب لي وصفة مألوفة منضحة للعرق ، أوصى بوضع لصقة خردل ، دس بمهارة في طرف كمه ورقة من فئة الخمسة روبلات . لكنه سعل بجفاف في تلك الاثناء وحدق في الزاوية ، كان مزمعاً كلياً على الذهاب الى بيته ، بيد انه اتفق له وشرع في الحديث ثم مكث معي . انهكتني الحرارة ، وتوقعت ليلة مسهدة ، كنت مسروراً ان أتجاذب اطراف الحديث مع هذا المرء الطيب . قدموا لنا الشاي ، وانطلق الطبيب في الكلام . لم يكن بالفتى الغبي ، كانت تعابيره تتسم بالحيوية وطرافة الاسلوب . يا لغرابة الامور التي تشهدها الدنيا ، تعيش احياناً مع امرىء ردحاً طويلا وتربطك به علاقات ودية ، ومع ذلك لا تتكلم معه ولو لمرة واحدة ، بصراحة ومن

اعماق روحك ، واحياناً ما تكاد تتعــرف تواً على امــرىء آخــر حتى يكشف لك او تكشف له كل ما تنطوي عليه النفس مــن خفــايا ، ولكأنه يقوم بضرب مــن الاعتراف ، لا ادري كيف اســتأهلت ثقــة صــاحبي الجديد ، بيد انه ، دونما سبب ، «بادر» كما يقــولون ، يروي لي حــادثة رائعة حقاً ، وهــا انا ذا الآن اجعــل القــاريء الكريم على علم بهــذه الحكاية وابذل جهدي كيما استعمل عبارات الطبيب ذاتها .

طفق يتحدث بصوت واهن مرتعش (وذلك هو التأثير الذي يتركه تبغ البتولا الصافي) ـ هل صادف وتعرفت على القــاضي المحلي ، بافــل لو كيتش ؟ ... لست تعرفه ... حسناً ، الأمــر ســيان . (تنحنح ، ومســح عينيه) حسناً ، اذا سمحت ان ترى،فالقضية على هذه الصــورة ، مــا عساي ان أقول ، كيلا أقع في الخطأ ، حدث ذلك في فترة الصــوم الديني وابان ذروة ذوبان الثلج ، كنت اجلس عنده ، لدى قــاضينا والعــب بالورق معه لعبة البرفرانس ... ان قــاضينا امــرؤ طيب ، يهــوى لعبة البرفرانس وفجأة (يستعمل الطبيب غالباً كلمة فجأة) قالوا لي : ثمة شخص يسأل عنك . قلت وماذا يروم ؟ يقولون جلب رســالة مختصرة ، لابد ان تكون من مريض .

قلت هاتوا الرسالة . وفعلا كانت من مريضة ... حسناً ، لابأس ، انها مورد رزقنا كما تدري ... وصفوة القضية ان : ملاكة أرملة كتبت تقول إن أبنتي تحتضر ، هلم الينا ، مــن اجــل الله ، وقــد بعثت الخيل لك . طيب ، كل هذا مألوف لدينا .. كانت تعيش على مسافة عشرين فيرستاً من المدينة ، أمسى الوقت ليلا في الخارج ويالها من طرقات !

يا الهي ! زد على ذلك انها امرأة فقيرة ، ولا يمكن ان أتوقــع منهــا اكثر من روبلين ، بل حتى ذلك المبلغ مشــكوك فيه ، لعلهــا ســتعطيني قطعة قماش وشيئاً من الجريش بدل الدفــع ، لكن ممــا لا ريب فيه ان الواجب ـ كمــا تدري ـ قبل كل شيء ، فهناك انســان يحتضر . اعطيت فجأة اوراق اللعب الى كاليوبين ، عضو لجنة المنطقــة ، وتوجهــت الى

البيت ، ألقيت نظرة : واذا بعربة صغيرة تقف امام السقيفة ، مع جوادين ، من خيول الفلاحين ، مُكْترشين ، ومكترشين بافراط ، اما الصوف الذي عليهما فلباد حقيقي ، والحوذي جالس دون قبعة احتراماً لي . حسناً ، فكرت في دخيلتي ، من الجلي ، يا اخانا ان اسيادك ليسوا واسعي الثراء ، حسناً سوف تضحك ، ومع ذلك اقول لك : ان امثالنا من فقيري الحال ، عليهم ان يدركوا كل شيء حق الادراك ... اذا كان الحوذي يجلس كالأمير ولايخلع قبعته ويبتسم، زيادة على ذلك ، من تحت لحيته ويلهو بالسوط ـ فيمكنك ان تراهن حينئذ على دفع ستة روبلات ! لكن ، رأيت في تلك الحالة ، رأيت ، ان الأمر مغاير لذلك تماماً . ومع ذلك ، لم يكن في اليد حيلة : الواجب قبل كل شيء . اخذت معي بعض الادوية الضرورية وذهبت . اتصدقني ، لقد وصلت بمشقة فائقة . انه لطريق جهنمي : جداول ، ثلوج ، أو ساخ ، وَهَدات ، وهناك فجأة انهارت قنطرة ـ ياللمصيبة ! على كل حال وصلت اخيراً .. البيت صغير مغطى بالقش . النوافذ مضاءة ، يعني انهن ينتظرن قدومي . استقبلتني عجوز محترمة ترتدي قلنسوة «ابتدرتني قائلة ، انقذها انها تحتضر» قلت «أرجو ألا يستبد بك القلق .. أين المريضة» ؟ «ها هنا ، تفضل» . رأيت غرفة نظيفة ، ثمة مصباح في الركن ، وعلى السرير فتاة يناهز عمرها العشرين ، فاقدة الوعي ، تتقد من ارتفاع الحرارة وتتنفس بصعوبة ، انها الحمى . ثمة فتاتان ايضاً ، اختان فزعتان ، ترقرقت الدموع في عيونهما قالتا «بالأمس كانت معافاة تماماً ، تناولت الطعام بشهية ، شكت في صباح اليوم من رأسها ، في المساء باتت فجأة في هذه الحالة ...» اكدت مرة اخرى : «أرجو الا تقلقن» انها مهمة الطب كما تعرفن ، وشرعت في علاجها .

فصدتّ الدم ، أمرت بوضع لصقات الخردل ، كتبت لها وصفة دواء وهو مزيج من اشياء متنوعة . نظرت اليها في تلك الأثناء ، أتدري أنني

لم أر ، وأيم الله ، نظيراً لذلك الوجه قط .... وصفوة القـول كانت غادة حسناء ! أخذتني الشفقة عليها كثيراً . يا لتلك القسـمات الجميلة ، ويا لتلك العيون .... حسناً ، الحمد لله انها ارتاحت ، تصبب منها العـرق ، وكأنها قد عادت الى وعيها ، أجالت النظر فيما حولها ، ابتسمت ، مرت بيدها على وجهها ... انحنت اختاها نحوها وسـألتاها «كيف انت ؟» «قالت لا بأس» .... نظرت اليها وإذا بها قد أغفت . قلت : حسناً ، مـن الضروري الآن توفير الراحـة للمـريضة . خـرجنا عندئذ جميعاً على اطراف اصابعنا ، ظلت وصيفة واحدة معها من اجل الحيطة . كانوا قد أعدوا السماور في غرفة الاستقبال ، وقنينة نبيذ الروم ، هـذا شيء لابد منه في عملنا . شربت الشاي ، عرضن علي ان أقضي الليلة عندهـن ... اعربت عن موافقتي ، فأنى لي الان أن أذهب ! ظلت العجوز مضطربة : «قلت لها ، ما بالك ؟ ستبقى حية ترزق ، أرجو الا يساورك القلق ، مـن الأفضل ان ترتاحي أنت ايضـاً ، فـالساعة الآن تجـاوزت الثانية» ، «ولكن مُرّ بايقاظي اذا دعت الحاجة» «سآمر ، سآمر» ذهبت العجـوز ، وسارت الفتاتان كذلك شطر غرفتهما ، اما أنا فقد وضعوا لي فراشاً في غرفة الضيوف . اضطجعت ، بيد انني لم استطع النوم ، يا للعجـائب ! يبدو ان التعب اضناني . لم تكن مريضتي لتبارح بالي قـط . أخيراً لم اطق صبراً ، نهضت فجأة ، فكرت لم لا اذهب والقي نظـرة على حـالة المريضة ؟ ان غرفة نومها مجاورة لغرفة الاستقبال . حسـناً ، فتحـت الباب الهويني ، كان قلبي يخفق خفقاناً قوياً ، نظرت فوجدت الوصيفة نائمة وقد فغرت فاها ، بل انها كانت تشخر ، يالها من ماكرة ! رقـدت المريضة مولية وجها صوبي ، يداهـا مفترقتان ، يا للمسـكينة ! دنوت منها ... فتحت فجأة عينها ، وحدقت بي ! .... «من هذا ؟ مـن هـذا ؟» تملكني الارتباك «قلت ، لا تخافي ايتها السيدة ، انا الطبيب ، جئت لارى كيف حالك» «انت الطبيب ؟» «اجـل ، الطبيب ، الطبيب ، لقـد ارسـلت والدتك في أثري الى المدينة ، وقـد فصـدت لك الدم ، ايتهـا السـيدة ،

ارجوك ان تهجعي الآن ، وبعد ما يقارب اليومين ستمشين على قدميك بمشيئة الله» . «آه ، اجـل ، يا دكتور ، لا تتركني امـوت ... ارجـوك ، ارجوك» . «ما هذا الكلام ، حفظك الله !» ، يبدو ان الحـرارة ارتفعـت ثانية . جسست النبض ، وبالفعل كانت حـرارتها مـرتفعة ، رنت الي ، امسكتني فجأة بيدي . «سـأقول لك ، لماذا لا ارغب في الموت ، سـأقول لك ، سأقول لك .... اننا الآن وحدنا ، ولكن ارجوك ، الاّ تبح لاحـد .... اصـغ الي ...» انحنيت قليلا ، دنت بشـفتيها على مقـربة مـن اذني مباشرة ، مس شعرها خدي ، واقول الحق ، ان رأسي اخـذ يدور ، بدأت تتكلم همساً ... لم افقـه شـيئاً ... اواه ، كانت في حـالة هـذيان .... همست ، وهمست برشاقة بالغة كمـا لو كانت لا تتحـدث بالروسـية ، انتهت من الهمس ، ارتعشت ، طرحت رأسها على الوسادة ، هـددتني بايماءة من اصبعها حـذار يا دكتور ، لا تقـل لأحـد ....» عملت على تهدأتها بشكل ما ، اعطيتها ماء لترتوي ، ايقظت الوصيفة وخرجت .

شم الطبيب حينئذ النشوق بقوة ، وغشاه الذهول للحظة .

استطرد يقول – ومـع كل ذلك لم تتحسـن حـالة المريضـة في اليوم التالي ، بعكس ما كنت اتوقع ، أعملت فكري في الامر وقـررت البقـاء فجأة ، رغم وجود مرضى آخرين بانتظاري ... أتدري ، يجب ان اوليها عنايتي والا كان وزر ذلك على الممارسة . ثم ان المريضة اولا ، كانت في حالة قنوط حقاً ، وثانياً ينبغي قـول الحقيقـة ، شـعرت بميل قـوي نحوها . زد على ذلك ان العائلة كلها كانت موضع اعجابي ، علماً انهم ليسوا بالناس الاثرياء ، ولكنهم مثقفين ثقافة – يمكن القـول – نادرة المثيل .... كان ابوهـم عالماً ومـؤلفاً ، مـات فقيراً بالطبع ، ومـع ذلك استطاع ان يثقف الأطفال ثقافة ممتازة ، وترك كثيراً من الكتب ايضاً . اني لاجرؤ على القول انهم حسبوني في هذا البيت كأمرىء قريب لهم ، لست أدري ، ألاني اعتنيت جاهداً بالمريضة ام لأسباب اخـرى ... غدا الطريق في تلك الاثناء رهيباً بسبب الاوحال . انقطعت جميع المواصلات

تماماً وحتى الدواء لم نحصل عليه من المدينة الا بمشقة ، لم تتماثل المريضة الى الشفاء ... مضى يوم إثر يوم ، ويوم بعد يوم : ... لكن ... بعدئذ ... (سكت الطبيب هنيهة) في الحقيقة ، لست ادري ، كيف اروي لك .... (ونشق النشوق مجدداً ، تنحنح واحتسى جرعة من الشاي .) اقول لك بغير مواربة ، ان مريضتي .... كيف حدث ذلك .... لا ادري احبتني ... او لعلها لا ، لا يبدو انها احبتني ... ومع ذلك ... حقاً ، من يدري .. (نكس الطبيب رأسه وتخضب وجهه بالحمرة) .

استطرد في كلامه بحيوية ـ كلا ، كيف يمكن ان تحبني ! على المرء ان يعرف قدر نفسه اخيراً ، كانت فتاة مثقفة ذكية ، كثيرة المطالعة ، اما أنا فاستطيع القول إني نسيت اللاتينية تماماً . وهيئتي (وتطلع الطبيب مبتسماً الى نفسه) لا تدعو على ما يبدو الى التباهي ايضاً . لكن الله عز وجل لم يمسخني احمق ، فاني لا اسمّي الأبيض اسود ، وادرك بعض الاشياء كذلك . لقد فهمت جيداً ، على سبيل المثال ، أن الكسندرا اندرييفنا ـ كان اسمها الكسندرا اندرييفنا ـ لا تشعر بعاطفة الحب حيالي ، وانما يمكنني القول انها تنطوي على احساس ودي ، او ضرب من الاحترام نحوي . لربما هي نفسها ، جانبت الصواب في هذا الصدد ، لقد كان وضعها غير طبيعي ، وتأمل انت نفسك الأمر ملياً ... واردف الطبيب ـ الذي كان يفوه بكل ذلك الكلام المتقطع دون ان يلتقط انفاسه وبارتباك جلي ـ لكن ، يلوح لي ، ان الاحداث اختلطت في سردي لها ولم تفقه شيئاً ... حسناً ، اسمح لي ان اروي لك الاحداث بانتظام .

اكمل شرب قدح الشاي كله ، وتحدث بصوت اكثر هدوءاً .

لنبدأ من جديد اذن . امسى حال مريضتي اسوأ فأسوأ . انك لست طبيباً يا سيدي الكريم ، ولا يمكنك ان تدرك ما يجري في نفسي ، انا الطبيب ، ولا سيما في الأيام الاولى ، عندما بدأت احدس ان الغلبة للمرض . اين توارت الثقة بالنفس ! يتغلب عليك الوجل فجأة لدرجة لا

تستطيع معها قول شيء . وهكذا يخيل لك انك نسيت كل ما تعــرفه وان مريضك لا يثق بك ، وان الآخرين بدأوا يلاحــظون ضــلالك ويخبرونك بأعراض المرض كارهين ، عابسين متهامسين ... آه ، لبئس الحــال ! تظن ثمة دواء لعلاج هذا المرض وحسبك العثور عليه ، وها قد توصلت اليه ؟ تجربه ـ كلا مــا هــو بالدواء المطلوب ! لا تترك المدة الضرورية ليظهر تأثير الدواء كما ينبغي .. تظل تتشبث تارة بهذه الوصــفة وتارة اخرى بتلك ، تتناول احياناً كتاب تحضير الادوية ... وتفكر هــذا هــو بالضبط ، هذا هو ! حقاً ، تخبط احياناً خبط عشواء ، وتظن عسى ولعل القــدر يســعفه .. يحتضر المريض في تلك الاثناء ، ورُب طبيب آخــــر بمستطاعة انقاذه . تقول ان مشــورة الاطباء ضرورية ، ولا أريد اخــذ المسؤولية على عاتقي . واي احمق تبدو في مثل هــذه الحــالات ! لكن توطن نفسك عليه مع مرور الوقت . قضى المريض نحبه ـ لاجريرة لك في ذلك ، لقد تصرفت بمقتضى التعليمات . لكن ثمة شيء يعذب روحك : ترى ثقة عمياء بك ، بينما انت تشعر ان لاحول لك ولا قوة ، وضــعت عائلة الكسندرا اندرييفينا مثل تلك الثقة بالذات في : وانت تفكر لعلهم تناسوا ان ابنتهم بخطر . وانا ، من جهتي كنت اطمئنهن ايضاً ، بينما فــؤادي ينخلع في داخلي فرقاً .. وتتويجاً لهذه التعاسة ، أمست الطرقات موحلة لدرجة ان الحوذي يستغرق ذهابه احياناً يوماً برمته كي يأتي بالدواء . لم افارق غرفة المريضة ، لم استطع الابتعاد عنها ، رويت لها ، اتدري ، حــكايات مضــحكة متنوعة ولعبت معهــا الورق . كنت أســهر الليل . العجوز تعرب عن امتنانها لي والعبرات تجول في عينيها ، وانا افكر في سريرتي : «لست اهلا لشكرك» . اعترف لك جهاراً ما مــن شيء يحملني على الكتمان الآن ـ لقد عشقت مريضتي ـ وتعلقت الكسندرا اندرييفنا بي : كانت لا تسمح لاحد غيري بالدخول الى غرفتها . شرعت تتحــدث معي ، وتسألني اين درست وكيف اعيش ومن هم اقــربائي وعند مــن اذهب ؟ كنت اشعر انه لا يجوز لها ان تتحدث ، ولم اســتطع ، أتدري ،

ان امنعها ، ان امنعهـا منعاً باتاً . كنت احياناً امسـك برأسي قـانطاً واقول : «ماذا تفعل ايها الوغد ؟ ....» كانت تتناول يدي وتحتفظ بهـا بين يديها وتحدق بي ، طويلا طويلا ، ثم تشيح بطرفها وتتأوه قـائلة : «يالك من فتى طيب !» ان يديهـا متوقـدتان ، وعينيهـا واسـعتان ساجيتان . «كانت تقول ، اجـل ، انت طيب ، امـرؤ صـالح ، لسـت كجيراننا ... كلا ، لسـت مثلهـم ... تُرى لماذا لم اعرفـك قبل الان !» «اقول لها ـ الكسندرا اندرييفنا انعمي بالطمأنينة ... كوني على يقين ، أشعر انني لا اعرف ، كيف استأهل ... كوني فقط مطمئنة ، بالله عليك كوني مطمئنة ... كل شيء سيكون على ما يرام ، ستكسبين الشـفاء» . استطرد الطبيب وقـد انحنى قليلا الى الامـام ورفـع حـاجبيه الى الاعلى ـ ومع ذلك لا محيص من القول ان العائلة لم تعـاشر الجيران الا قليلا ، لان الذين أقل منهما مادياً ليسوا نداً لهما ، ويمنعها اباؤهـا عن الاختلاط بالاثرياء . اقول لك : كانت العائلة واسعة الثقافة ، كمـا اخبرتك وقـد سرني مثل ذلك الاطـراء . كانت تتناول الدواء مـن يدي فحسب ... تنهض المسـكينة بمسـاعدتي ، وتشرب الدواء وهـي ترنو الي .... وقلبي يغوص بين ضلوعي . كانت حالة المريضة تزداد سـوءاً على سوء في تلك الاثناء ، حسبت انها ستموت ، لا محالة . تأكد كان من الاهون علي ان ارقد انا نفسي في التابوت ، حينئذ شرعت الام واختاها يتتبعن اعمالي ، يتطلعن الى عيني ... وتوارت الثقـة ، «كيف حـالها ؟ كيف هي ؟» «لا بأس ، لا بأس !» ويالها من لا بأس تفـوهت بهـا ، ان العقل ليختل منها . اخذت ذات مرة مجلسي قـرب المريضـة وحـدي في الليل ، تجلس الوصيفة هناك ايضاً وتشخر بكل ما اوتيت من قـوة لكن لا يمكن مؤاخذة الوصيفة البائسة ، فلا قدرة لها على العمل . كان وضع الكسندرا اندرييفنا تلك سيئاً للغاية إبان المساء . لقـد انهـكتها الحرارة . ظلت تتقلب حتى منتصف الليل ، واخيراً يبدو انها استسلمت للنوم اوبالاحرى لم تعد تتحرك . ما فتىء المصـباح في الركن مضـاءاً

امام الايقونه . اتدري ، نكست رأسي وانا جـالس وداعب الكرى عيني ايضاً . فجـأة وكأن احـداً لكز جنبي ، التفـت .... رباه ، يا الهـي ! الكسندرا اندرييفنا تنظـر الي وعيناهـا مفتوحتان على وسـعهما ... شفتاها منفرجتان ، وجنتاها متوقدتان «ما بالك ؟» «هل انا احتضر يا دكتور» «اسألك المغفرة يا الهي» «كلا ، يا دكتور ، كلا ، ارجوك ، لا تقل اني سأظل على قيد الحياة ... لا تقل ... اذا كنت تدري .. فـاسمعني ، فلا تخف حالتي الحقيقية عني ، بالله عليك ! وأخذت انفاسها تتلاحـق بسرعة ـ لئن عرفت ، انني سأقضي نحبي لا محـالة ، فسـأحدثك دون شـك ، بكل شيء حينئذ ، بكل شيء !» «الكسـندرا اندرييفنا ، اطلب صفحك !» ـ «اصغ ، الي ، لم أنم قـط ، انني اتطلع اليك منذ فترة .... بالله عليك ... انني اثق بك ، فـانت امـرؤ طيب ، انت امـرؤ شريف ، استحلفك بكل ما هو مقدس في العالم ، قل لي الحقيقة ! ليتك تعـرف ، كم هذا مهـم لدي ... اسـتحلفك بالله ، قـل لي يا دكتور ، هـل انا في خطر ؟» «وماذا استطيع ان اقول الكسـندرا اندرييفنا ، اغفـري لي !» «بالله عليك ، اتضرع اليك»! «ليس بوسعي اخفاء كونك في خـطر محيق الكسـندرا اندرييفنا ، ولكن الله رحيم ...» «انني احتضر ، انني احتضر ....» بدت وكأنها مستبشرة ، غشي السرور وجهها ، واستبد بي الخوف . «لا تخف ، لا تخف ، ان الموت لا يفزعني ابداً» . نهضت فجأة واتكأت على مرفقها ، الآن ... حسناً ، الان اسـتطيع ان اعرب لك عن عميق امتناني ، انت امرؤ طيب ، صالح ، واني لاحبك ...» تطلعت اليها كالمخبول ، أتدري لقـد تملكني الرعب ... «اتسـمع ، انني احبك ...» «الكسـندرا اندرييفنا ، كيف بت جـديراً بحبك !» «كلا ، كلا ، انت لا تفهمني .... انت لا تفهمني ....» مدت الي يديها فجأة ، امسكتني مـن رأسي وقبلتني ... اتصدقني كدت اصرخ الا قليلا .. ارتميت على ركبتي وخبأت رأسي في الوسادة .. أخلدت الى الصمت ، ارتعشـت اصـابعها المنسابة بين شعري ، سمعتها تبكي . شرعت بمؤاساتها وإقناعهـا ...

حقاً لست أدري ما الذي قلته لها ، قلت «الكسندرا اندرييفنا ، ستوقظين الوصيفة ... اشكرك ... ثقي ... كوني هادئة البال .» ــ «تكلمت مؤكدة : حسبك ، حسبك ، دعهم وشأنهم ، حسناً ، سوف يستفيقون من النوم ، حسناً سيأتون : الامر سيان ، سأموت ... اجل ، لاشيء اخشاه ، ما الذي اخافه ؟ ارفع راسك ... او لعلك لا تحبني ، ولربما خُدعت بك ... اصفح عني اذا كان هذا شأنك» . «الكسندرا اندريفنا ماذا تقولين ؟ .... اني احبك يا الكسندرا اندرييفنا» حدّقت مباشرة في عيني ، وفتحت يديها . «اذن ، خذني بين ذراعيك ...» اقول لك صراحة ، لست ادري كيف اني لم افقد عقلي في تلك الليلة . شعرت ان مريضتي تحطم نفسها ، لم تكن في كامل وعيها ، أدركت ايضاً انها لو لم تحسب نفسها سائرة الى حتفها لما فكرت بي كذلك ، لكن مما لامرية فيه ، انه لمرعب ان تموت في الخامسة والعشرين من عمرك دونما ان تحب احداً : هذا هو الشيء الذي عذبها وبسببه ، وبدافع القنوط ، تشبثت بي ، أتفهم الآن ؟ «قلت لها الكسندرا اندرييفنا ارحميني وارحمي نفسك ايضاً» قالت : «لماذا و علام آسف ؟ ألم يكتب علّي الموت ...» كانت تكرر ذلك باستمرار . «لو كنت اعرف ، انني سأبقى بين الأحياء وأكون مرة اخرى مع الفتيات الشريفات لتملكني الخجل ، لخجلت بالفعل .... ولكن لِمَ الآن ؟» «من قال لك انك ستموتين ؟» «ها ، كلا ، حسبك ، لن تخدعني ، انتَ لا تجيد الكذب ، انظر الى نفسك» «الكسندرا اندرييفنا ، ستظلين حية ، سأشفيك ، ونطلب من والدتك ان تباركنا ، وستجمعنا عرى وثيقة ، وسنكون سعيدين» . «كلا ، كلا ، لقد اخذت منك عهداً ، لا مندوحة من الموت ... لقد وعدتني ... انتَ قلت لي ....» شعرت بالمرارة ، أحسست بالمرارة لأسباب شتى . واحكم انت بنفسك كيف تؤلم الاشياء الصغيرة احياناً : يبدو كل شيء اعتيادياً ، لكن هناك ما يؤلم . خطر لها ان تسألني عن اسمي ، أعني لم تسأل عن لقبي ، وانما عن اسمي . يا للتعاسة ، ان اسمي تريفون . اجل ، اجل ،

تريفون ، تريفون ايفانيتش . بينما الجميع يسمونني في البيت دكتور . ما في اليد حيلة ، قلت «تريفون ، ايتها السيدة» ضيقت ما بين عينيها وهزت رأسها وتمتمت شيئاً ما بالفرنسية ـ آه ، اجل ، انه لشيء مقيت ، وضحكت بعد ئذ ضحكة تنم عن الاستياء ايضاً . هكذا قضيت معها الليلة كلها تقريباً . خرجت في الصباح ، كالملتاث في عقله ، دخلت غرفتها ثانية في النهار ، بعد تناول الشاي ، رباه ، يا الهي ، لم اكد اعرفها ، ان من يوضعون في التابوت يبدون افضل حالا منها . اقسم لك بشرفي ، لست افهم الآن ، لست أفهم البته ، كيف تحملت هذا العذاب . استمرت مريضتي على هذا الوضع ثلاثة ايام بلياليها ... ويالها من ليال ! واي اشياء قالتها لي ! ... تصور انت نفسك ، في الليلة الأخيرة اتخذت مجلسي بقربها وانا أسال الله امرأ واحداً فحسب : خذها باسرع ما يمكن ... حينئذ على الفور ... ولجت امها الغرفة فجأة .. سبق وان قلت لها في العشية ، للأم ، ثمة أمل ضعيف ، وضعها رديء ، ولا ضير في احضار القس . وما إن رأت المريضة امها . حتى بادرتها القول : «حسناً فعلت بمجيئك .. انظري الينا كيف نحب بعضنا بعضاً ، لقد عاهدنا احدنا الآخر ـ «ما هذا الذي تفوه به ، مالها يا دكتور؟» جمد الدم في عروقي «قلت ، انها تهذي ، الحمى ....» اجابت الفتاة : «كفى ، كفى ، الآن قلت شيئاً مغايراً تماماً ، وقبلت الخاتم مني ... فلماذا تتظاهر ؟ ان امي طيبة ، انها تصفح عنك ، انها تفهم وانا اموت ـ لا داعي للكذب ، اعطني يدك .....» وثبت الى الخارج وهربت ، لا ريب ان العجوز حدست الأمر .

بيد انني لن اتعبك اكثر ، واقرّ لك انه لمن المشقة عليّ ان اتذكر ذلك . توفيت مريضتي في اليوم التالي (واضاف الطبيب قائلا على عجالة ومتنهداً !) ـ ادخلها الله فسيح جنانه . طلبت من اهلها قبيل الموت ان يخرجوا وابقى وحدي معها . «قالت ، اصفح عني ، فلعلني مخطئة بحقك ... انه المرض ... ولكن صدقني ، لم احب احداً اكثر منك ... لا

تنسني .... حافظ على الخاتم ....» .

أشاح الطبيب وجهه عني وأمسكته من يده .

قال ، على اي حال ! دعنا نتحـــدث عن شيء آخـــر ، أو اذا كانت لديك رغبة فلنلعب البرفرانس قليلا . أتدري لا ينبغـــي لامثالنا الاســـتسلام لتلك المشاعر الرفيعة . يجب ان يفكر امثالنا بشيء واحد : الا يصـــوصي الاطفال والا تتخاصم الزوجة . ومنذ ذلك الحين ارتبطت بزواج شرعي كما يقولون .... ولم لا .... تزوجت من ابنة تاجر : الصَدَاق سبعة الاف روبل . واسمها اكولينا ، وهي ند لتريفون ، ولا مناص من القول ، انها امرأة شريرة ، ومن حسن الحظ انها تقضي اليوم كله نائمة ... ومـــاذا بشأن البرفرانس ؟

لعبنا البرفرانس مـــن كوبيك واحـــد ، ربح تريفـــون ايفـــانيتش مني روبلين ونصف الروبل ، غادر المكان في وقت متأخر وهو مغتبط للغاية بفوزه .

جاري راديلوف

غالباً ما يحتفظون في الخريف بدجاج الغابة في بساتين الزيزفون القديمة . ان مثل هذه البساتين في محافظة اورلوف كثيرة نوعاً ما . عندما كان اجدادنا يختارون مكان سكناهم ، فلا مندوحة من ان يقتطعوا حوالي هكتارين من الارض الجيدة ، قرب بستان الفاكهة ، تحتوي على ممرات يحيطها الزيزفون . بعد مرور زهاء خمسين عاماً او سبعين عاماً اقصى ما يكون ، توارت هذه العِزَب «أعشاش النبلاء» رويداً رويداً عن وجه الأرض ، تعفنت الديار او بيعت الى آخرين . تحولت الأبنية الخارجية الحجرية الى اكوام من الخرائب ، جف عود أشجار التفاح وأمست أحطاباً ، اضمحلت الأسوار والأسيجة . وظلت اشجار الزيزفون وحدها تنمو حالياً نمواً حسناً ، كما كانت في الماضي ، تحيط بها الحقول المحروثة ، تذيع على قبيلتنا الطائشة اعمال «الاباء والاخوات الراحلين السالفين» . اي زيزفون قديم ، تلك الاشجار القديمة ... لقد أبقى عليها حتى فأس الفلاح الروسي الذي لا يرحم . ان اوراقها صغيرة ، بينما امتدت اغصانها الضخمة منبسطة في جميع

الجهات ، حيث تترامى الظلال المقيمة تحتها .

طفت ذات مرة مع يرمولاي في الحقول لقنص الحَجَل ، رأيت على جهة بستاناً مهملا فاتجهت اليه . وما ان دلفنا الى مداخله حتى ارتفع دجاج الغابة عن الشجيرة مطقطقاً ، اطلقت عياراً نارياً ، دوّت في اللحظة ذاتها صيحة على بعد بضع خطوات مني : أطل وجه واجف لفتاة شابة من خلف الاشجار واختفى في الحال . هرع يرمولاي الي . «كيف تطلق الرصاص هنا : هنا يعيش ملاك» .

لم افلح في اجابته ، لم يستطع كلبي ، برصانته النبيلة ، ان يجلب الي الطائر المائت ، حتى سمعت خطوات رشيقة ، وخرج من الغابة امرؤ طويل القامة ، له شاربان ، يبدو عدم الارتياح على طلعته ووقف امامي . اعتذرت ، بقدر ما استطعت ، وذكرت لقبي له . وعرضت عليه اخذ الطائر المصطاد الى عزبته .

قال لي مبتسماً ـ حسناً ، سأقبل الطريدة ، شريطة ان تبقى وتتناول الغداء عندنا . اقول الحق ، انني لم أسر كثيراً لدعوته ، لكن لم يكن بمستطاعي ان ارفض .

استطرد صاحبي الجديد في كلامه ـ انا ملاك من هذه البقاع ، وجارك ، راديلوف ، لعلك سمعت بي ، اليوم هو الاحد ، وينبغي ان يكون الغداء عندي جيداً وإلا ما كنت لادعوك .

اجبت كما يجيبون في مثل هذه الحالات ، وسرت في اثره . سرعان ما أوصلنا الممر الذي تم تنظيفه قبيل فترة وجيزة الى خارج غابة الزيزفون ، دلفنا الى البستان . رؤوس الكرنب الملفوفة الباهتة الخضرة لاحت بين اشجار التفاح القديمة وشجيرات عنب الثعلب النامية ، التف حشيش الدّينار التفافاً لولبياً حول الاسْدِيَة العالية ، اطلت الاغصان البنية المتشابكة مع الحمص الجاف متراصة على الأحواض . بدا اليقطين الكبير المسطح كما لو كان يتداعى على الارض إلا قليلا ، اصفر القثاء المستلقي تحت الاوراق المغبرة ذات

الزوايا . تمايل على امتداد السياج نبات القُرّاص العالي ، وفي مكانين او ثلاثة نمَت اكوام من الياسمينَ البري التتري ، البَيْلَسَان والعُلّيق ــ بقايا «الجنينيات» الماضية . لاح بئر محاط بالبرك الصغيرة على مقربة من الألة الزراعية غير الكبيرة ، الملأى بالماء اللزج الضارب الى الحمرة . طرطش البط وتحرك ساعياً في هذه البحيرات ، ارتعش جسم الكلب برمته ، زَرّ عينيه وقضم عظماً في المرج ، وفي المكان ذاته نتفت بقرة بلقاء العشب بتراخ ، لاطمة احياناً ظهرها الهزيل بذيلها . انعطف الممر جانبياً ، أطل علينا من بين الصفصاف الضخم والبتولا بيت قديم رمادي صغير ، سقفه مبني من الواح الخشب ومدخله مقوس . توقف راديلوف .

قال بطيبة وهو ينظر مباشرة في وجهي : على اية حال ، لقد خطر ببالي الآن فقط ، لعلك لا ترغب قط في المجيء الي : في هذه الحالة ... لم ادعه يكمل كلامه واكدت له ، انه على العكس ، يطيب لي جداً ان اتناول الغداء عنده .

ــ حسناً كما تشاء .

ولجنا الدار ، استقبلنا في المدخل غلام شاب يرتدي قفطاناً طويلا مصنوعاً من الكتان الازرق السميك . أمره راد يلوف ان يجلب على التوالفودكا ليرمولاي . احنى مرافقي ظهره باحترام للمعطي السخي . دلفنا من غرفة المدخل ، الملصقة بها صور مختلفة متنوعة والمغطاة بالمعينات ، الى غرفة صغيرة ، وهي مكتب راديلوف ، خلعت ملابس الصيد ، وضعت البندقية في الزاوية ، نظف فتى يرتدي سترة طويلة الاطراف ، ثيابي بفرشاة .

قال راد يلوف بلطف : حسناً لنذهب الان الى صالة الاستقبال وسأعرفك على والدتي .

سرت في اعقابه . جلست على اريكة متوسطة الحجم في صالة الاستقبال عجوز قصيرة القامة ، ذات وجه طيب نحيف ونظرة وجلة

كئيبة وكانت ترتدي فستاناً بنياً وقلنسوة بيضاء .
ـ حسناً ، يا اميمة ، اقدم لك جاري ....
ـ نهضت العجوز نصف واقفة ، انحنت دون ان تلقي من يديها الجافتين المثبنة الصوفية السميكة التي كان شكلها كالكيس .

سألت بصوت واهن هادىء وهي ترمش بعينيها : هل تفضلت بالمجيء الى ربوعنا منذ أمد بعيد ؟
ـ كلا ، ليس منذ أمد بعيد .
ـ هل تنوي البقاء هنا طويلا ؟
ـ أظن ، حتى الشتاء .

أخلدت العجوز الى الصمت .

تابع راديلوف كلامه ، مشيراً الى شخص طويل ، نحيف ، لم الحظ وجوده لدى دخول صالة الاستقبال : ها هو ذا ، هذا فيودور ميخيتش ... حسناً ، فيديا ، أرِ فنك للضيف . ما بالك انزويت في الركن ؟

نهض فيودور ميخيتش في الحال عن الكرسي ، تناول من النافذة كماناً في حالة رديئة ، أخذ القوس ـ ليس من نهايته كما يتأتى عليه ان يفعل ، وانا من وسطه ـ أسند الكمان الى صدره ، اغمض عينيه واندفع يرقص ، يترنم باغنية ويعزف عزفاً سيئاً على الاوتار . يبدو من طلعته ان عمره يناهز السبعين ، تتدلى سترته الطويلة المصنوعة من الكتان السميك ، كئيبة على اعضائة الجافة الهزيلة . انشأ يرقص ، كان يهتز تارة باندفاع ، ويكاد يهمد تارة اخرى ، حرك راسه الصغيرة الاصلع ، مدّ رقبته المعرورقة ، طبطب قدميه في المكان نفسه ، اثنى احياناً ركبتيه بجهد ملحوظ . كان فمه الادرد يطلق صوتاً متهدماً . لابد ان راد يلوف قد حدس من تعابير وجهي ، ان «فن» فيديا لم يكن مبعث غبطة كبيرة لي .

قال له ـ حسناً ، حسبك ايها العجوز ، تستطيع ان تذهب وتنعم

بمكافأة .

وضع فيودور ميخيتش الكمان فوراً في النافذة ، انحنى لي في البداية بوصفي ضيفاً ، ثم للمرأة العجوز وبعد ئذ لراد يلوف ، وانصرف خارجاً لا يريم .

واصل خلي الجديد كلامه ـ كان ملاّكا ايضاً ، وثرياً كذلك ، لكنه أفلس ، ها هو ذا يعيش الآن عندي ... كان يعد في زمانه من اوائل المغاوير اللامعين في المحافظة ، فقد اختطف امرأتين متزوجتين من زوجيهما ، كان عنده مغنون وكان يرقص ويغني بمهارة ... ولكن الا ترغب بشرب الفودكا ؟ ان الغداء قد وضع على المائدة .

دخلت الى الغرفة تلك الفتاة الشابة نفسها التي رأيتها عابرة في الحديقة .

قال راديلوف ، وادار رأسه قليلا ـ ها هي ذي اوليا ! ارجو ان تكون موضع اعجابك وعطفك ... اذن ، لنذهب ونتناول الغداء .

توجهنا قاصدين غرفة الطعام ، وجلسنا . ابآن ذهابنا من صالة الاستقبال وجلوسنا ، غنى فيودوميخيتش الذي سطعت عيناه الصغيرتان واحمر أنفه من «المكافأة» «لتدو رعود النصر !» وضعوا له الصحون في الركن على منضدة صغيرة بلا فوطة . ليس بمستطاع العجوز المسكين ان يتباهى بناقته ، ولذلك وضعوه دائماً في منأى لحد ما عن الناس . رسم اشارة الصليب . ندت عنه آهة وانشأ يأكل مثل كلب البحر . كان الغداء لذيذاً بالفعل ، من صنف طعام يوم الاحد ، ولم يخل من حلوى الهُلام الرجراج والمعجنات الاسبانية (الفطائر) . انطلق راديلوف بالاحاديث حول المائدة ، وكان قد خدم عشر سنوات في فوج المشاة في الجيش ، وسافر الى تركيا . انصتُّ اليه بانتباه وكنت اتطلع الى اولغا خلسة ، لم تكن رائعة الجمال ، لكن تعبير وجهها الرصين الهادىء وجبينها العريض الناصع وشعرها الكثيف لا سيما عيناها العسليتان الصغيرتان ، والذكيتان الرائعتان الحيويتان ، بوسعها ان

تفتن اي امرىء آخر في مكاني .

بدت وكأنها تتابع كل كلمة تصدر عن راديلوف ، لم يكن ذلك تعاطفاً منها مع الحديث ، وانما عبرّ وجهها عن انتباه متحمس . يمكن ان يكون راديلوف من حيث عمره أباً لها وكان يخاطبها بصيغة المفرد «انت» . ولكني حدست تواً انها ليست ابنته . وقد ورد في غضون الحديث ، ذكره لزوجته المرحومة ، وعقب قائلا «اختها»مشيراً الى اولغا .

سرعان ما توردت او لغا وغضت طرفها ، سكت راديلوف ، ثم بدّل دفة الحديث . لم تنطق العجوز اثناء الغداء بكلمة واحدة ، لم تأكل شيئاً تقريباً ولم تعرض علي ان اتناول اي صنف من اصناف الطعام . نمّت ملامحها عن انتظار وجل قانط وعن شجن يغشى المسنين ، ينكمش له قلب المشاهد متعذباً . ازمع فيودور ميخيتش في نهاية الغداء على البدء في «تمجيد» السيد والضيف ، لكن راديلوف تطلع الي وطلب منه السكوت ، مرّ العجوز بيده على شفتيه ، رمش عينيه ، انحنى وجلس مرة اخرى ، ولكن على اقصى طرف الكرسي ـ ذهبت مع راديلوف الى مكتبه بعد تناول الغداء .

من الملاحظ وجود شيء مشترك وشبه ظاهري في التعامل لدى الذين تشغلهم بقوة ودأب فكرة واحدة وعاطفة واحدة ، مهما كان التباين في شيعهم وقابلياتهم ووضعهم في المجتمع وتربيتهم . وكلما استزدت من مراقبة راديلوف ، خيل لي اكثر فاكثر بانه ينتمي الى مثل هذه الطائفة من الناس . تحدث عن الزراعة والحصاد والحش والحرب والاشاعات في المنطقة والانتخابات القريبة ، تحدث عفوياً ، بل وحتى بشيء من الحماسة ، بيد ان تنهدة ندت منه فجأة واسترخى في الاريكة كامرىء اضناه عمل شاق ومرّ بيده على وجهه . تبيّن أن كل روحه الطيبة الدافئة مفعمة حناياها بشعور واحد ومشبعة به . لقد داخلتني الدهشة لانني لم استطع ان اكتشف لديه شغفاً لا بالطعام ولا النبيذ ولا الصيد

ولا ببلابل كورس ولا الحمام المصــاب بداء الصرع ، ولا الادب الروسي ولا الخيول ولا الرقص الهنغاري ولا لعب الورق او البليارد ولا حفلات الرقص ولا السفر الى مدن المحافظة وعواصــمها ولا بمعــامل الورق ومصانع سكر البنجــر ولا العــرائش الملونة ولا الشــاي ولا المحلفين الذين وصلوا حــد الفجــور ولا حتى الحــوذيين الذين ــ الله اعلم لماذا تصبح عيونهم حَولاء لدى كل حركة من حــركات الرقبة وتخــرج مــن محاجرها ... فكرت قائلا «ياله من مــلاك اخيراً !» . على اية حــال لم يتظاهر بانه امــرؤ متجهــم او غير راض عن مصــيره ، وانمــا على النقيض من ذلك . اذ يلوح منه ميل خفي للاحسان واستعداد للتقرب من كل رائح وغاد ، فيه حفاوة بل وشيء من الاستكانة ايضــاً . حقــاً انت تشعر ، في الوقت ذاته ، انه غير قادر فعلا على اقامة اواصر الصــداقة والتقارب مع اي كان ، ولا ترجع عدم مقدرته تلك الى انتفــاء حــاجته الى الناس الآخرين وانما بسبب حياته التي انســابت الى الداخــل في حين من الاحايين . عندما اتطلع الى راديلوف ، لا استطيع ان اتصوره سعيداً ابداً ، سواء حالياً او في اي وقت من الاوقــات ، لم يكن وســيماً ايضاً ، لكن في نظرته وابتسامته وفي كل كيانه يكمــن شيء مــا جــذاب للغاية ، وبالذات يكمن ، هكذا لاح لي ، ورغبت الاستزادة في معــرفته ، والشعور بالحب نحوه . يتكشــف دون ريب عن مــلاك وشــخص جلد احياناً ، ومهما يكن الامر . فهو امرؤ مجيد .

كنا على وشك البدء في الحديث عن زعيم جديد للمنطقة ، اذ رن فجأة صوت اولغا في الباب قــائلة : «الشــاي جــاهز» . ذهبنا الى صــالة الضيوف . اتخذ فيودور مجلسه في الركن الصغير كالسابق بين النافذة والباب ولَمْلَمَ قدميه بتواضع . كانت ام راديلوف تحوك جَوْرَباً . فــاحت من البستان عبر النوافذ المفتوحة ، طراوة خريفية ورائحــة التفــاح . ادارت اولغا الشاي بمثابرة . نظرت الآن اليها باهتمام كبير اكثر مما فعلت إبان الغداء . تكلمت قليلا للغاية كعادة فتيات الاقــاليم عمــوماً ،

لكنني لم ألحظ لديها ، على الأقل ، رغبته في ان تقول شيئاً مـا جيداً ، رغم الشعور الموجع بالتفاهة والعجز الذي يخـامرها ، لم تكن لتتنهـد كأنما بسبب فيض الاحساسات الغامضة ، لم تحرك عينيها الى الاعلى من تحت جبينها او تبتسم ابتسامة حالمة غامضة .

نظرت بهدوء ولا مبالاة ، كشخص شرع يرتاح من سـعادة كبيرة او قلق كبير . كانت مشيتها وحركاتها حازمة وطليقة ، لقد كنت معجباً بها للغاية .

تجاذبنا اطراف الحـديث مـرة اخـرى انا وراديلوف . لم اعد اذكر السـبيل الذي افضى بنا الى الملاحـظة التالية : غالباً مـا تترك اكثر الاشياء تفـاهة انطباعات كبيرة في الناس ، اكثر ممـا تفعله الاشـياء البالغة الخطورة .

قال راديلوف ــ اجل ، لقـد خبرت ذلك بنفسي ــ كنت ، كمـا تعـرف متزوجاً ، ليس لفترة طويلة ... ثلاث سـنوات ، توفيت زوجتي بسـبب الولادة . كنت اظـن انني لن احتمـل العيش بعـدها ، كنت متألماً الماً مبرحـاً ، مفجـوعاً ، لكنني لم اسـتطع البكاء ، كنت اروح واجـيء كالمخبول . ألبسوهـا الملابس اللازمة ووضعوها على المنضـدة ، هنا في هـذه الغـرفة . جـاء القس واتى القَندلَفتيه وشرعوا يرتلون الاغاني ويصلون ويحرقون البخور ، انحنيت انحناءات ارضية ، لم تنساب من عيني ولو دمعة واحدة ، كأن قلبي قد تحجر وكذلك رأسي . سرى الثقـل في كل او صالي . هكذا مراليوم الاول . اتصدقني ، وصـل بي الامـر ، انني استسلمت للنوم في الليل . دخلت في الصباح التالي على زوجـي ، حدث ذلك في الصيف ، كانت الشمس قد انارتها مـن اخمص قـدميها حتى قمة رأسها انارة بالغة السـطوع . رأيت على حين غرة .. (هنالك ارتعش راديلوف دون ارادته) . مـاذا تظن ؟ لم تكن احدى عينيها مغلقة تماماً ، ومرت ذبابة على تلك العين ... فتهاويتُ كالحزمة ، وعندما ثبت الى رشدي ، طفقت ابكي ، بكيت ولم استطع كبح جماح نفسي ...

لاذ راديلوف بالصمت ، رنوت اليه ، ثم الى اولغا ... لن انسى ابداً تعبير وجهها . وضعت العجوز الجورب على ركبتيها ، واخرجت من المثبنة منديلا ومسحت دمعة خفية . نهض فيودور ميخيتش فجأة ، وامسك الكمان وغنى اغنية بصوت أجش موحش . كان يرغب ، على الارجح ، ان يبعث الحبور فينا ، لكننا انتفضنا من اول صوت اطلقة ، وطلب راديلوف منه التزام الهدوء ...

استرسل يقول ، على اية حال ، ما كان كان ، والماضي لا يعود ، واخيراً ... اضاف قائلا بعجالة ، كل شيء يسير نحو الاحسن في العالم الراهن ، حسبما قال فولتير على ما اظن .

قلت ، اجل ، دون ريب . زد على ذلك من الممكن تحمل اية تعاسة مهما كانت ، وليس هناك وضع مهما يبلغ من السوء ، لا يمكن تجاوزه .

علّق راديلوف قائلا : أو تظن ذلك ؟ حسناً ، قد تكون محقاً . اتذكر اني رقدت في مستشفى عسكري في تركيا ، كنت شبه ميت ، اصابتني حمى مقيته . لا يمكن اطراء المبنى ، لان الوضع وضع حربي طبعاً ، ومع ذلك فالحمد لله ! جلبوا فجأة مرضى أخرين ، فأين يمكن وضعهم ؟ ذهب الطبيب هنا وهناك ، لامكان . اقترب مني وسأل مساعد الطبيب : «أمازال على قيد الحياة ؟» اجابه «كان حياً في الصباح» انحنى الطبيب وارهف السمع : مازلتُ اتنفس ، لم يطق صاحبي صبراً ، فقال «ياله من خلق احمق ، ها هو ذا شخص يعاني من سكرات الموت ، وسيموت حتماً ، ومع ذلك يظهر الجلد ويطيل ، ويشغل مكاناً فحسب ، ويعيق الآخرين» . فكرت في دخيلتي : «اجل ، حالك سيء يا ميخائيل ميخايليتش ...» وها انني شفيت ومازلت حياً ارزق حتى اليوم كما ترى . فلعلك على حق .

اجبته ــ مهما يكن الحال ، فانا على حق ، وحتى لو قضيت نحبك ، فانك مع ذلك ستتخلص من وضعك السيء .

اضاف قائلا وضرب يده على الطاولة بقوة ... بالتأكيد ، بالتأكيد ،

حسبك ان تقرر .... فما الفائدة المرتجاة من وضع سيء ؟ ..... وعلام التواني والتماهل ، ...

نهضت اولغا بسرعة وخرجت الى البستان .

هتف راديلوف ــ حسناً يا فيديا ، ارقص !

وثب فيديا ومشى في الغرفة تلك المشية المتأنقة الخاصة التي تمشيها «العنزة» المشهورة حول الدب الاليف ، وغنى «كيف عند بوابتنا ....»

دوى عند المدخل طرق عربة خفيفة سريعة ، وما هي الا لحظات ، حتى دخل الغرفة عجوز طويل القامة ، عريض المنكبين ، مكتنز ، انه المالك المعتوق اوفسيا نيكوف ... ولكن اوفسيا نيكوف ، امرؤ رائع وفريد من نوعه لدرجة نود التحدث عنه ــ ونستميح الاذن من القاريء ــ في حكاية اخرى ؛ واضيف الآن من عندي فحسب ، ذهبنا انا ويرمولاي ، في اليوم التالي مع انبلاج الضوء الى الصيد ، ومن الصيد الى البيت ، بعد اسبوع عرجت على راديلوف مرة اخرى ، بيد اني لم اجده ، لا هو ولا اولغا في البيت ، انقضى اسبوعان وعلمت انه توارى فجأة ، ترك امه وسافر الى مكان ما بصحبة اخت زوجته . اصاب القلق المحافظة برمتها وتحدثت عن هذه الحادثة ، حينئذ فقط فهمت فهماً كاملا تعبير وجه اولغا في اثناء حكاية راديلوف . لم تكن لتشف عن المعاناة وحدها آنئذ ، وانما تلظت غيرة .

زرت قبيل رحيلي من القرية العجوز راديلوفا . وجدتها في صالة الضيوف ، كانت تمزح مع فيودور ميخيتش .

سألتها اخيراً ــ هل لديك انباء عن ابنك ؟

بكت العجوز . ولم اسأل بعدئذ ، عن راديلوف .

المالك المعتوق[1]
اوفسيانيكوف

تخيلوا ، ايها القراء الاعزاء ، امرءاً مكتنزاً طويلا ، عمره يناهز السبعين ، ذا وجه يذكرنا بعض الشيء بوجه كريلوف[2] ، ونظرة صافية ذكية تلوح من تحت حاجبين بارزين ، وطلعة وقورة وحديث متزن ، ومشية بطيئة : هذا هو اوفسيانيكوف . كان مرتدياً سترة فضفاضة داكنة الزرقة ذات كمين طويلين مزررة الى الاعلى ، وشالا من الحرير الليلكي على عنقه وجزمة متألقة النظافة ذات شراريب ، هيئته عموماً تشبه هيئة تاجر ميسور . كانت يداه جميلتين ناعمتين بيضاوين ، وغالباً ما يمسك في اثناء الحديث بازرار سترته . يذكرني اوفسيانيكوف ، بوقاره ورصانته وذكائه وخموله وصراحته وعناده بالبويار[3] الروس قبيل عهد بطرس ... ان ارتداء الفيدياز[4] كان يمكن ان يلائمه . فهو احد البقايا الاخيرة من ابناء العصر القديم . كان جيرانه يحترمونه احتراماً بالغاً ويعتبرون التعارف معه شرفاً لهم . اما نظراؤه ، المالكون الاحرار ، فلا يعوزهم الا ان يصلوا امامه فحَسْب ، فهم يرفعون قبعاتهم له من بعيد ويفتخرون به . واذا تكلمنا

بشكل عام ، فانه ليصعب حتى الآن تمييز المالك الحر عن الفلاح : ممتلكاته تكاد تكون اسوأ من ممتلكات الفلاح . فعجوله لا تأكل سوى الحنطة السوداء ، وخيوله بها رمق من الحياة وسروجها من الحبال .

كان اوفسيا نيكوف استثناء من القاعدة العامة ، رغم انه غير ذائع الصيت بصفته ثرياً . عاش مع زوجه في بيت صغير مريح أنيق ، عنده نفر قليل من الخدم ، يلبس المشتغلون عنده على النمط الروسي يسميهم عمالا . كانوا يحرثون ارضه . لم يعتبر نفسه من النبلاء ولم يدعِ بانه ملاك «ولم يتناس وضعه» قط كما يقولون ، لم يكن ليجلس فوراً ومن المرة الاولى ، وينهض من مكانه حتماً عند دخول ضيف جديد ، لكن بوقار وحفاوة جليلة بحيث ان الضيف ينحني امامه لا ارادياً . يتمسك اوفسيانيكوف بتقاليد قديمة ، لا من جراء اعتقاده بالخرافات ، وانما بحكم العادة (فقد كان حر الاتجاه) . فهو مثلا لا يحب العربة ذات الزنبركات ، ولما كان لا يجد الراحة فيها ، فهو يسافر اما في عربات خفيفة سريعة ، واما في عربة صغيرة جميلة ذات وسادة جلدية ، ويقود هو نفسه جواده الكُمَيْت الطيب (كان يحتفظ بخيول الكميت وحدها) . اما الحوذي ، شعره حليق على شكل اسطواني ، يرتدي سترة سميكة وقبعة واطئة مصنوعة من صوف الغنم ، ويتمنطق الحزام ، ويجلس باحترام الى جانبه . كان اوفسيانيكوف ينام دائماً بعد الغداء ، يذهب الى الحمام في ايام السبت ، يقرأ الكتب الدينية فقط (كان يضع نظارته الفضية المستديرة برصانة على انفه) ينام وينهض مبكراً . بيد انه كان يحلق لحيته ويرتب شعره على الطريقة الالمانية . وهو يستقبل الضيوف بلطف وترحاب بالغين ، لكنه لا ينحني لهم حتى الخصر ، لا ينهمك ولا يقدم لهم انواع المأكولات الشهية من جافة ومالحة . (اعتاد ان يقول ببطء ، دون ان ينهض من مكانه ـ ايتها الزوجة ، ويدير رأسه قليلا نحوها ، احضري للسادة شيئاً من الطعام يتلذذون به) . يعتبر من الخطيئة بيع الخبز ، لانه هبة الله ، وفي سنة الاربعين ، في فترة المجاعة

العامة والغلاء الفاحش وزع على الملاكين والفلاحين المجاورين كل ما عنده من احتياطي القمح ، وفي السنة التالية أعادوا اليه شاكرين دينه من النوع نفسه الذي اخذوه . غالباً ما يهرع الجيران الى اوفسيا نيكوف طلباً للفتوى واحلال الصلح بينهم ، كانوا دائماً يذعنون لحكمه تقريباً ويصغون لنصيحته . كثيرون هم الذين خططوا حدود قطعهم نهائياً بفضل مرؤته ... لكنه بعد مشادتين او ثلاث بين الملأكات اعلن عن رفضه القيام باية وساطة بين افراد الجنس النسائي . لم يكن ليطيق العجالة ، التسرع المثير ، ثرثرة النساء و «الصخب» . اتفق ذات مرة ان احترق داره . هرع العامل راكضاً اليه وهو يصرخ : «حريق ! حريق !» «فقال له اوفسيا نيكوف بهدوء ـ حسناً ما بالك تصرخ ؟! اعطني قبعة وعُكازاً ....» . كان يهوى ترويض الخيول بنفسه . انطلق به ذات مرة بيتوك* مندفعاً تحت الجبل نحو واد ضيق ، فقال له اوفسيانيكوف بطيبة « حسناً ، حسبك ، ايها المهر الصغير العمر ، ستقتل نفسك» وما هي الا لحظة حتى طار الى الوادي مع العربة الخفيفة السريعة والفتى الجالس في الخلف والجواد . من حسن الحظ ان في قاع الوادي اكوام من الرمل . فلم يصب احد باذى ما خلا بيتوك الذي انخلعت قدمه . «استطرد اوفسيانيكوف في كلامه بصوت هادىء وهو ينهض من الارض ـ حسناً ، أرأيت ، أو لم اقل لك» . وجد أيضاً زوجة على نسقه . تاتيانا الينيتشنا او فسيانيكوفا ، امرأة طويلة القامة ، رصينة ، صَمُوتة ، تتشح دائماً بشال بني حريري ، يلوح عليها الفتور ، علماً بأن احداً لم يشتك من شدتها قط ، وانما على العكس ، كان يدعوها كثير من الفقراء بالأم والمحسنة . ما فتئت قسمات وجهها المتناسقة وعيناها الغامقتان الكبيرتان وشفتاها الدقيقتان تدل حالياً

★ بيتوك تسمية لفصيلة خصوصية من الخيول تتكاثر في محافظة فورونيج حول «خرينوف» المشهور (حقل الخيول السابق للكونت اورلوف) . ملاحظة الكاتب .

على وجود امارات جمال رائع في وقت من الاوقات . ولم يكن لدى عائلة اوفسيانيكوف اطفال .

تعرفت عليه كما بات معروفاً لدى القارىء ـ عند راديلوف وبعد يومين تقريباً ذهبت اليه . كان موجوداً في البيت . جلس على كرسي جلد كبيرة وهو يقرأ كتيباً دينياً ، وعلى كتفه تقبعُ قطة رمادية . استقبلني على طريقته المألوفة ، بلطف ووقار . اخذنا نتجاذب اطراف الحديث . سألته في تلك الاثناء ـ قل لي ، لوكا بيتروفيتش الحقيقة ، أو كانت الامور افضل في الماضي ، في زمانكم ؟

اجاب اوفسيانيكوف ـ اقول لك ان بعض الاشياء كانت افضل ، حقاً ، كان العيش اهدأ ، والقناعة اكثر ، بالضبط ... ومع ذلك ، فالآن افضل ، واطفالكم سيكونون بوضع افضل ، بعون الله .

ـ هكذا توقعت ، لوكا بيتروفيتش ، ستطري على الزمان القديم .

ـ كلا ، لا شيء يحملني على الاطراء ، ولا سيما على الزمان القديم . ها انت ذا ، اقول على سبيل المثال ، ملاك الآن ، ملاك شأنك شأن جدك المرحوم ، بيد انه لن تكون لك مثل سلطته ! وانت نفسك شخص تختلف عنه . الآن يضيقّ علينا اسياد آخرون ، ولكن يبدو لا يمكن تفادي ذلك . سيكون كل شيء على ما يرام في نهاية المطاف . كلا ، لا ارى الآن ، مارأيته في شبابي .

ـ وأي شيء مثلا ؟

ـ لنأخذ الحديث عن جدك ، كمثال مرة اخرى . كان صاحب سطوة ! سام «أصحابنا» الضيم ، لعلك تعرف ، وكيف يمكن لك ألا تعرف ارضك ، قطعة الارض تلك الممتدة من تشيبليغين الى مالينين ؟... انها الان مزروعة عندكم شوفان .... لكنها ، كانت لنا ، كانت كلها لنا . لقد انتزعها جدك منا ، امتطى صهوة جواده ، لوح بقبضته وقال : «انها ملك ليّ» . كان والدي المرحوم (ادخله الله فسيح جناته) امرءاً عادلا وشخصاً متوقد الطبع ايضاً ، لم يطق صبراً ، ومن يرغب في فقدان

املاكه ؟ قدم شكوى للمحكمة ، قدّم وحده ، اما الاخـــرون فلم يذهبوا ، استبد بهم الخـــوف . نقلوا الخبر الى جـــدك ، يعني ان بيوتر اوفســـيا نيكوف يشتكي عليك ! لقد قمت بانتزاع الارض ... ارسل جـــدك حـــالا صـــياده باوش مصـــدراً اليه امـــراً ... اخـــــذوا والدي واقتا دوه الى ضيعتكم . كنت حينئذ صبياً صغيراً ، ركضـــت وراءه حـــافياً . ومـــاذا حدث ... احضروه الى بيتكم وجلدوه تحت النافذة . وقف جـــدك ذاك في الشرفة ، اخذ ينظر ، جلست جدتك خلف النافـــذة وتطلعـــت اليه . كان والدي يصرخ « يا أمنا ، ماري فاسيليفنا ، اشـــفعي لي ، ارحميني ولو انت !» كانت فقط تنهض وتتطلع . ثم اخذوا من والدي عهداً ان يتنازل عن الارض وطلبوا ان يزجي لهم الشـــكر لتركهـــم اياه حياً . وهـــكذا اصبحت الارض لكم . اذهب واسأل الفـــلاحين : مـــاذا تُســـمى هـــذه الارض ؟ تسمى ارض الهراوات . لانها انتزعت بالهراوة . ومن جـــرّاء ذلك لا يجوز لنا ، نحن الناس الصغار ، ان نأسف كثيراً على الانظمـــة القديمة .

لم اعرف كيف اجيب اوفســـيانيكوف ، بل لم اجـــرؤ على النظـــر في وجهه .

استقر عندنا جار آخر في تلك الحقب ، وهو كوموف ، ســـتيبان نيكتو بولينونيتش ، كان يعذب والدي بشتى السبل . كان شخصاً سكيراً يحب الولائم ، وما ان يترنح ثملا حتى يقول بالفرنسية سية بون «هذا جيد» ويلعق شفتيه متلذذاً ، حينئذ يجدر بالمرء حمـــل صـــور القـــديسين الى خارج الغـــرفة ! كان يبعـــث الدعواتِ لجميع الجيران للتفضـــل عنده ، وعربات الترويكا[٦] واقفة وهي على اهبة الاستعداد ، فـــاذا لم تذهـــب اليه ، باغتك فوراً بالمجيء ... كان رجلا غريب الاطوار ! لا يكذب عندما يكون في حالة «صَحْو» ، وما ان يتعاطى الخمر حتى يشرع في الحـــديث قائلا ، ان لديه ثلاث بيوت في بطرسبورغ في منطقة فونتانكا : احـــدهما احمر وبه مدخنة واحدة ، والثاني اصـــفر وله مـــدخنتان والثالث ازرق

غامق بدون مدخنة ، وعنده ثلاثة اولاد (علماً بانه لم يكن متزوجاً قط) : احدهما في فرقة المشاة والآخر في الفرسان والثالث بمفرده ... ويقول ان في كل بيت من بيوته يعيش واحد من ابنائه ، الابن الاكبر يزوره الاميرالات ، والثاني يزوره الجنرالات بينما يزور الانكليز ثالثهم ! كان يقف ويقول : «لنشرب من اجل صحة ابني الاكبر ، انه اكثرهم اجلالا لدي» ثم يبكي . والويل لمن يرفض الوقوف اذ يقول «سأطلق الرصاص عليه ! ولا اسمح بدفنه ! ...» أو يثب احياناً ويصيح : «ارقص يا جمهور الله من اجل مسراتك وفي سبيل مؤاساتي !» حسناً يجب ان ترقص ولو كنت تقضي نحبك ، ارقص . اما فتياته الفلاحات فقد سامهن مر العذاب . كن احياناً يغنين طوال الليل وحتى الصباح في جوقة واحدة ، والفتاة التي صوتها اعلى من الاخريات يخرجها ويمنحها مكافأة . يضع يديه على رأسه عندما يغشاهن التعب ويأخذ بالتفجع : «اواه ، انا اليتيم الوُحْدَاني ، يتركنني ، يا عزيزتي !» حينئذ يحضر ساسة الخيل حالا ويوقظوا الفتيات فوراً . اما والدي فقد راق له ، وماذا يفعل لسوء طالعه ؟ كاد ان يودي به الى القبر ، وكان قد اودى به فعلا ، بيد انه توفي والحمدلله : سقط من برج الحمام وهو في حالة سكر ... اولئك هم نماذج الجيران الذين عندنا !

علقت قائلا ، ـ كم تبدلت تلك الازمان !

قال اوفسيا نيكوف مؤكداً ـ اجل ، ومع ذلك لابد من القول ان النبلاء عاشوا في الاعوام الخالية بأبهة اكبر ، ناهيك عن الفيلموجا(٧) الذين لا داعي للتحدث عن بذخهم : لقد شاهدتهم في موسكو . يقولون انه لم يعد لهم وجود هناك الآن .

ـ هل كنت في موسكو ؟

ـ كنت ، منذ أمد بعيد للغاية ، ها انا ذا الان في الثالثة والسبعين من عمري ، ذهبت الى موسكو عندما كان لي ستة عشر عاماً .

تنهد اوفسيانيكوف .

ـ من رأيت هناك ؟

ـ رأيت جمعاً غفيراً من الفيلموجا ، وانماطاً متباينة ، عاشوا طليقين مجيدين رائعين . ومع ذلك لم يضاه احد الكونت المرحوم الكسي غريغوريفيتش اورلوف تشمينسكي[٨] . رأيت الكسي غريغويفيتش في كثير من الاحايين . عمل جدي عنده كمسؤول عن شؤون المنزل . كان الكونت يعيش قرب بوابة كالوج في شارع شابولوفكا . كان فيلموجا بحق وحقيقة ، يالها من قامة وقوة ونظرة ! اذا لم تكن تعرفه ، ولم تدخل اليه فانك تخشاه حتماً ، ويتملكك الارتباك ، واذا دخلت عليه ، فكأن دفء الشمس يحتويك ويغمر الحبور كل اوصالك . كان يأذن للجميع بالدخول عليه ، وكان شغوفاً بكل شيء . كان يسوق هو نفسه الجواد في اثناء الركض ويتسابق مع اي كان ، ولا يسبق احداً فوراً ، ولا يسيء اليه ولا يوقفه مقاطعاً ، لكن يتخطاه عندما تصبح نهاية الشوط وشيكة ، وكم كان لطيفاً ، يعزي منافسه ويمتدح جواده . كان يحتفظ بالحمام البهلواني من احسن الاصناف . يخرج احياناً الى الفناء ويجلس على الكرسي ويأمر الحمام بالصعود ، بينما يقف الناس على السطوح المحيطة به مسددين البنادق نحو البواشق لابعادها . ويضعون عند قدمي الكونت طِسْتا فضياً كبيراً به ماء ، كان يرى الحمام فيه وقد انعكس بالماء . عاش مئات الفقراء والمعوزين على خبزه .... كم وزع من النقود ! لكنه اذا غضب فكأنه زمازم الرعد . يثير كثيراً من الرعب ، ومع ذلك لا شيء يبعث على الشكوى : تتطلع اليه ، فاذا به يبتسم . واذا أولم وليمة ، فان موسكو كلها تغني ! .... كم كان ذكياً لو تدري ! لقد هزم الا تراك . كان يحب المصارعة ايضاً ، جلبوا له ماردين من تولا وخاركوف وتومبوف ومن كل مكان . كان يكافئ الغالب ، واذا صرعه احد فانه يغدق عليه الهدايا ويقبله من شفتيه .... توليت العناية بحديقة لا نظير لها في روسيا في غضون مكوثي في موسكو : كان يدعوا الصيادين كافة ، من كل ارجاء المملكة ، يحلون ضيوفاً عليه ، يحدد لهم

يوماً معيناً ، ويمنحهم مدة ثلاثة اشهر . ها هـم قـد تجمعـوا ، جلبوا الكلاب والصيادين المحترفين ، حسـنـاً ، وصـل الجيش ، انه كالجيش حقاً ، يتناولون طعام الوليمة كما ينبغي ، ثم يتجهون قاصدين البوابة . هرع الجمهور بالآلاف ! ... وماذا تظن ؟ ... سـبقت كلبة جـدك جميع الكلاب .

سألته . أوليست الكلبة ميلوفيدكا ؟

ميلوفيدكا ، ميلوفيدكا .. هـا هـو ذا الكونت بدأ يسـتميله : «بع لي كلبتك : وخذ ما تشاء» ـ «فيجيبه ، كلا ، ايها الكونت ، ما أنا بتاجـر : حتى الخرق الزائدة عن الحاجة لا ابيعها ، انني مستعد ان اتنازل عن زوجتي احتراماً لك ، لكنني لن اعطي ميلوفيدكا مطلقاً ... بالاحـرى لا مانع عندي حتى من دخول السجن» . امتدحة الكسي غريغويفتش وكان يقول «احبُ ذلك» . حملها جدك في العربة لدى عودته ، وعندمـا مـاتت ميلوفيدكا ، دفنها ، بمصـاحبة الموسـيقى ، في الحـديقة ، دفـن الكلبة ووضع على قبرها حجراً يحمل نقشاً .

ـ علقت قائلا : هكذا اذن ان الكسي غريغوريفيتش لم يؤذ حداً .

ـ تلك شيمته دائماً : من يبحر في ماء ضحل ، يعرض نفسه للاذى ـ

ـ سألته بعد برهة صمت وجيزة ، أي نوع من الناس باوش هذا ؟

ـ كيف يمكن ان تسـمع بميلوفيدكا ولا تسـمع بباوش ؟ ... كان هـذا الصياد والسواط الرئيس لدى جدك . لم يكن حب جدك له بأقل من حبه لميلوفيدكا . كان انساناً قانطاً ، ما ان يأمره جـدك بشيء ، حتى ينفـذه بلمح البصر ، ولو رُشق بسكين ... ما ان يصيح ، حتى تدوي صيحته في ارجاء الغابة ، كان احياناً يتوقف ويَحْرن فجأة ثم يترجل عن جـواده ويضطجع ... وعندما لا تسمع الكلاب صوته تتوقف حـالا ! تتخلى عن حماستها ، ولن تستطيع سوقها مهما بذلت من جهد . كان جدك يغضب «لا اريد البقاء حياً ، اذا لم اشنق هذا الخامل ! سأقلب احشـاء هـذا المعادي للمسيح . واسحب كعـب هـذا القـاتل الى رقبته !» وتحسـم

القضية ، بان يبعث احداً ليستفسر ما الذي يريد ، ولماذا توقف عن الصياح ؟ يطلب باوش عادة في مثل تلك الحالات نبيذاً ، فيحتسيه وينهض ثم يهدر مرة اخرى هديراً رائعاً .

ــ يبدو ــ انك انت ايضاً تهوى الصيد ! لوكا بيتروفيتش ؟

ــ كان يمكن ان اهواه ... تماماً ، ليس حالياً : الان أدبر زماني ، وانما في اعوام الشباب ... لكن كما تعلم ، ثمة حرج ، بسبب الرتبة .فلا يتأتى على امثالنا ان يضعوا انفسهم في مصاف النبلاء . بالضبط : ينضم احياناً امرؤ سكير عديم الكفاءة من طبقتنا الى الاسياد ... وأية بهجة في ذلك ! .... انك تلحق العار بنفسك فحسب . يعطونه حصاناً رديئاً متعثراً في سيره ، يرمون قبعته بين فينة واخرى على الارض ، كما لو كانوا يضربون الجواد بالسوط ، لكنهم يضربونه هو ، ومع هذا كله يضحك ويُضحك الآخرين . كلا ، اقول لك ، كلما كانت رتبتك اوطأ ، ترتب عليك ان تكون اكثر حذراً ، وإلا لطّخت نفسك بالعار .

واصل اوفسيانيكوف كلامه متنهداً ــ اجل لقد مضى زمن طويل منذ ذلك الحين ، وانا اعيش في هذا العالم : وحلّت ازمان اخرى . ان ابناء الفئات الدنيا ، فريقان : فريق انخرط في الوظيفة ، وفريق بارح مكانه ، ومن هم احسن حالا ، فاولئك لن تعرفهم اصلا . نظرت ملياً الى اولئك الميسورين ، بمناسبة تخطيط حدود الارض ، ولابد ان اقول لك ، لقد غشىِ السرور قلبي وانا اتطلع اليهم : انهم رقيقو الحاشية ومجاملون ، بيد ان شيئاً واحداً ادهشني : لقد حفظوا جميع العلوم ، ويتكلمون بطلاقة تذوب لها الروح ، لكنهم لا يفهمون القضايا العملية ولا يتحسسون حتى منفعتهم الذاتية : انهم معنيون بالفرد القن والوكيل ، والاضطهاد ، وما تشاء ، كأنهم رماة سهام . لعلك تعرف انت نفسك كوروليف ، الكسندر فلاديميروفيتش ــ بماذا يختلف عن النبيل ؟ انه وسيم ، ثري تعلم في «الجمعات[٩]» وسافر الى الخارج ، يتحدث بطلاقة وتواضع ، يصافح ايدي الجميع . اتعرفه ؟ ... اذن اصغِ الي ، ذهبنا في

الاسبوع المنصرم الى بيريزوفا بدعوة من الحكم نيكيفور اليتش . قال الحكمَ نيكيفور اليتش «يجب ، ايها السادة ، تخطيط الحدود ، هذا مخز ، لقد تخلفت قطعتنا عن قطع الارض الباقية ، بادروا الى العمل» . وها نحن اولاء بادرنا . جرت محادثات ، مناقشات كما يحدث عادة ، شرع وكيلنا يتخذ وضعاً مصطنعاً .. لكن اول من طفق يثير الضجيج اوفتشينيكوف بورفيري ... ولماذا يثير المرء الضجيج ؟ ... مادام لا يملك فيرشوكاً[10] من الارض : انني اتصرف حسب وكالة اصحابنا . وها هو ذا يجأر : «كلا ، ليس بوسعكم مخادعتي ، كلا ، لست من تصطدمون به ! هاتوا مخططكم هنا ! ليأت ماسح الارض ، ياخائني المسيح ، هاتوا هنا !»

ـ «حسناً ، ما هو اخيراً مطلبك» ـ «ها انتم أولاء وجدتم أحمق !هيه ! أتظنون هكذا ، سأعلن لكم مطلبي على التو ؟ ... كلا ، هاتوا المخطط هنا ، هذا ما ابتغيه !» بينما كان يضرب هو نفسه بقبضته على المخطط . أهان مارفا دميتريفنا إهانة قوية . لقد صرخت : «كيف تجرؤ على تلطيخ سمعتي ؟» ـ واجابها «اني لا اتمنى مثل سمعتك حتى لفرسي البني» . سقوه نبيذ الماديرا بجهد جهيد ، وهدّأوا ثورته ، بينما اهتاج الآخرون . اما عزيزي ، كوروليف ، الكسندر فلاديميرويتش ، فقد جلس في الركن واخذ يعض مقبْض العصا ، ويهز رأسه فقط . شعرت بالخجل ، نفدت قواي ، وكان بودي الهروب الى الخارج . لكن ماذا سيظن بنا المرء ؟ تطلعت ، نهض الكسندر فلاديميرويتش وشفت طلعته عن رغبته في الكلام . كان الحكم دائم الحركة ، قال: «ايها السادة ، ايها السادة ، يرغب الكسندر فلاديميريتش ، يرغب في الكلام» . ولا يمكننا الا نطري النبلاء : لقد اخلدوا الى الصمت تواً . وها هو ذا الكسندر فلا ديميريتش شرع يقول : ما بالنا ، يبدو اننا نسينا الغاية التي اجتمعنا من اجلها ، مما لا ريب فيه ان تخطيط الحدود ، نافع للمالكين ايضاً ، لكن لماذا نعمل بمقتضاه في الجوهر ؟ في

سبيل تسهيل امور الفلاح ، كي يشتغل بيسر . ويحسن أداء واجبه ، بينما الذي حصل الآن انه لا يعرف هو نفسه ارضه واحياناً يقطع خمسة فيرستات لغرض الحراثة ، ولا يجوز مؤاخذته على ذلك . استطرد الكسندر فلاديميرويتش يقول ، من الأثم ألا يُعنى الملاك برفاهية الفلاح ، واذا فكرنا ، اخيراً ، تفكيراً سديداً ، فان منفعتهم ومنفعتنا واحدة : ان كانوا بخير ، فنحن بخير ، وان نالهم سوء نالنا سوء ايضاً .. وبناء على ذلك ، فانه لأثم وشيء غير معقول ألا نتفق من جراء امور تافهة ... ومضى ... ومضى ... وياله من كلام ! انه ليفتن الروح ... شعر النبلاء كلهم بالخجل ، اما انا فكادت تخنقني العبرات . اقولها كلمة حق ، انه لا يوجد حتى في الكتب القديمة مثل ذلك الكلام .. وكيف انتهت القضية ؟ لم يتنازل هو نفسه عن اربع ديساتين من المستنقعات الطحلبية ولم يقبل ببيعها ايضاً . قال : «سيجفف فلاحيي المستنقع واشيد عليه معملا لاقمشة الجوخ مع ادخال التحسينات عليه ثم قال : انني اخترت هذا المكان ، ولدي اعتبارات خاصة بهذا الشأن ....» ومع ان هذا حق ، لكن المسألة ببساطة هو ان كاراسيكوف انطون جار الكسندر فلا ديمير قد عزّ عليه ان يدفع لوكيل كوروليف مائة روبل من الاوراق النقدية . وهكذا عدنا أدراجنا دون انجاز القضية . وما برح الكسندر فلا ديميريتش يعتبر نفسه محقاً حتى الآن ويتحدث عن معمل الجوخ ، لكنه لم يشرع بتجفيف المستنقع .

– وكيف يتصرف في عزبته ؟

– يعمل على ادخال انظمة جديدة دائماً . الفلاحون لا يمتدحونه – ولا ضرورة للاصغاء اليهم . ان الكسندر فلا ديمير يتش يسلك سلوكاً صالحاً .

– كيف يمكن ذلك ، لوكا بيتروفيتش ؟ كنت اظنك تتمسك بالقديم ؟

– انا ، لي شأن أخر . انني لست نبيلا ولا ملاكاً . وهل ان ما بحوزتي يمكن تسميته مزرعة ؟ .... ورغم انني لا املك غيرها ، احاول ان

اتصرف بعدالة وبموجب القانون ــ ومع ذلك فالحمد لله ! الاسياد الجدد لا يحبون الانظمة السابقة : وانا امتدحها ... لقد آن الاوان . للعودة الى جادة الصواب ... لكن المصيبة تكمن هنا : الاسياد الشباب يتفلسفون للغاية . يتصرفون مع الفلاح كالدمية . يدورون ، يدورون ، يتعبون ويتركون الامور على عواهنها . الوكيل اما قن واما مدير من الالمان ، ويمسي الفلاح مرة اخرى بين براثنه . وليت امرءاً ولو واحداً من الاسياد الشباب اضحى نموذجاً يحتذى به وبيّن على هذه الشاكلة ، يعني ، كيف يجب تصريف الامور ! ... وما نهاية كل هذا ؟ أومن المعقول ان اموت ولا ارى الانظمة الجديدة ؟ .... ما مغزى هذه الحكاية ؟ لقد مات القديم ، ولم يلد ما هو فتي بعد !

لم ادر كيف اجيب اوفسيانيكوف : التفت اليّ وتحرك مقترباً مني وواصل كلامه بصوت خافت :

ــ وهل سمعت بفاسيلي نيكولايتش لوبوزفونوف ؟

ــ كلا ، لم اسمع به .

ــ وضحّ لي رجاء ، ما هذه الأعاجيب ؟ انني في متاهة . لقد تحدث فلاحوه عنه ، ولم افقه من كلامهم اي معنى . انه امرؤ شاب ، كما تعرف ، تسلم منذ أمد قصير بعد وفاة والدته ارثاً ... وها هو ذا يأتي الى ضياعه . احتشد الفلاحون ليلقوا نظرة على سيدهم . خرج اليهم فاسيلي نيكولايتش . تطلع الفلاحون ــ يا للاعجوبة ؟ ــ جاء السيد مرتدياً بنطلوناً من قماش البليسه ، كالحوذي ، بينما احتذى جزمة ذات حاشية ، وقميصاً احمر وقفطاناً كقفطان السائق ، ارسل لحيته ، على رأسه قبعة غريبة الشكل ايضاً ، تلوح على وجهه كذلك امارات الغرابة ــ أثمل ، ما هو بالثمل ، لكنه فاقد رشده . «قال ، مرحباً يا شباب ! كان الله في عونكم» تجمع الفلاحون كالنطاق حوله ، بيد انهم صامتون : كانوا متهيبين اتدري ؟ ويبدو انه هو نفسه كان كالمتهيب ايضاً . بدأ يلقي خطاباً : «قال ، انا روسي ، وانتم روس ايضاً ، انني

احب كل ما هو روسي .... فان روحي روسية وكذلك دمي روسي ....» وفجأة هتف قائلا : «حسناً ، ايها الاولاد ،غنوا اغنية شعبية روسية»اصطكت رُكب الفلاحين ، واصابهم خدر بليد . شرع احد الشجعان بالغناء ، لكنه قبع على الارض حالا ، واختبأ خلف الآخرين .... وهذا ما ينبغي ان يثير الاستغراب : كان عندنا ملاكون ، ملاكون قانطون ، عاطلون دائماً على وجه التحديد ، يرتدون ملابس كالحوذية ، ويرقصون ويعزفون على القيثارة ، يغنون ويشربون مع الخدم ، يولمون الولائم مع الفلاحين ، لكن فاسيلي نيكولايتش اشبه بالفتاة الحسناء : انه يقرأ الكتب دوماً او يكتب ، او يتلو شيئاً بصوت عال دونما سبب ـ وهو لا يتحدث مع احد ، منطو على نفسه ، يواصل التنزه في الحديقة ، كأنه يتضجر او يكتئب . ارتعب الوكيل السابق منه تماماً في بادىء الامر : طاف قبيل مجيء فاسيلي نيكولافيتش ، بالخدم من الفلاحين ، انحنى لهم ، يبدو ان القطة تعرف لحم من اكلت ! غمر الامل الفلاحين وفكروا : «هراء ، ايها الاخ ! سيجرون معك الحساب ياعزيزي ، ويرشدونك ، يالك من جشع ! .....» ولا ادري كيف اعرض عليك اي منقلب انقلبت الامور ؟ ان الله نفسه لم يحسب حساباً لمثل هذا التحول !دعا فاسيلي نيكولايتش الوكيل اليه وقال له ، وقد تخضب بالحمرة ، وكذلك اتدري ، تسارعت انفاسه : «كن عادلا ولا تضيّق على احد ، اتسمع ؟» لم يطلب منه المثول امامه منذ ذلك الحين ! فهو يحيا في ضيعته كالغريب .... ارتاح الوكيل على اية حال ، اما الفلاحون فلا يتجرأون على الدنو من فاسيلي نيكولايتش : انهم يخافونه ، وهذا شيء آخر يثير الدهشة حقاً : ان السيد ينحني لهم وينظر اليهم ببشاشة ، لكن معدهم تغور في داخلهم من الفزع . ما هذه العجائب ايها السيد ، خبرني ؟ ... او لعلني امسيت غبياً ، أو بلغت من العمر عتيا ، لست ادري .

اجبت اوفسيانيكوف قائلا : لعل لوبوزفونوف مريض .

كيف يمكن ان يكون مريضاً ! ان عرضه مساو لطوله ، وياله من وجه لديه . مالنا وله ، ما ابدنه ، رغم انه مازال شاباً ... ومع ذلك ، فالله اعلم ! (ندت عن اوفسيانيكوف تنهدة عميقة) .

بدأت قائلا ــ حسناً ، دع النبلاء جانباً ، ماذا تستطيع ان تحدثني ، لوكا بيتروفيتش ، عن المالكين المعتوقين ؟

قال بسرعة ــ كلا ، وفرّ علي هذا الامر ، حقاً ... كان يمكن ان أقول لك ... فما يضير ! (لوح اوفسيانيكوف بيده تلويحة يأس) الافضل ان نتناول الشاي ، الفلاحون يظلون فلاحين ، ومع ذلك ، اذا قلنا الحق ، كيف سيضحي حالنا ؟

اخلد الى الصمت . قدموا الشاي . نهضت تاتيانا من مكانها وجلست على مقربة منا . كانت قد خرجت ابان الصباح بضع مرات وعادت ادراجها بلا ضجة . خيّم السكون على الغرفة . احتسى اوفسيانيكوف ، برصانه وبطء ، قدح شاي تلو الآخر .

علقت تاتيانا الينيتشنا ــ جاءنا اليوم ميتيا .

تجهم اوفسيا نيكوف .

ــ وماذا يريد ؟

ــ جاء يطلب الصفح .

هز اوفسيانيكوف رأسه .

استطرد في كلامه ووجهه اليّ قائلا : الآن ، تطلع فحسب ، ماذا تأمرني ان اصنع مع الاقرباء ؟ ان التخلي عنهم غير ممكن ... ها قد أنعم الله علي بابن اخ . ومما لا مرية فيه انه غلام راجح العقل وفتى نشيط ، درس بصورة جيدة ، ومع ذلك لا نفع يُرتجى منه .

أشتغل بوظيفة حكومية ثم ترك العمل ، أترى انه لا امل يرجى من مستقبلة ... وماذا ، فهل هو نبيل ؟ وحتى لو كان نبيلا فلن يصبح في التو جنرالا . وهكذا يعيش الآن بلا عمل... ومهما يكن فالامر محتمل لولم يسيء الى الآخرين ! اخذ يكتب التماسات للفلاحين ، يضع

التقارير ، يرشد ممثلي القرية ، يفضح حقيقة مساحي الارض ، يتسكع في الحانات ، يختلط بالجنود وبرجوازي المدن واصحاب الفنادق الصغيرة في خانات القرى . وهل تظل الرزايا بمنأى عنه في مثل هذه الحال ؟ لقد هدده اكثر من مرة الشرطة ورؤساء الجند رمة . ونظراً لمقدرته على المزاح ، فقد كان يضحكهم ، ويعود فيخلق لهم المشاكل .... على كل حسبي كلاماً ، ثم اضاف قائلا ، موجهاً الحديث الى زوجه ـ ألا يجلس عندك في الغرفة ؟ أجل ، انني اعرفك فأنت رقيقة القلب وتشملينه برعايتك .

غضت الينيتشنا طرفها ، ابتسمت وتخضبت بالحمرة قليلا .

واصل اوفسيا نيكوف كلامه ـ انه هنا اذن .. اواه ، يالك من بلهاء !حسناً دعيه يأتي الينا ، افعلِ هذا من اجل الضيف العزيز ، ليأت هذا الاحمق ... ها ، ليأت ، ليأت ...

دنت تاتيانا الينيتشنا من الباب وصاحت : «ميتيا» !

ميتيا فتى عمره زهاء ثمانية وعشرين عاماً ، طويل ، ممشوق ، اجعد الشعر ، وما ان دخل الغرفة ورآني ، حتى ظل واقفاً عند عتبة الباب . كانت الملابس التي يرتديها المانية ، لكن حجمها غير اعتيادي وسعتها عند المنكبين تدل دلالة واضحة على ان من فصلّها لم يكن خياطاً روسياً فحسب ، وانما خياطاً شعبياً ايضاً .

قال العجوز ـ طيب ، اقترب ، اقترب ، علام تخجل ؟ اشكر خالتك ، وواصل كلامه مشيراً الى ميتيا : هذا هو ايها السيد ابن اخي اللحِ اقدمه لك ، لم استطع ان اسدد خطاه البته . ها قد واتت الاوقات الاخيرة ! (وانحينا لبعضنا بعضاً .) طيب ، قل ما الخطأ الذي وقعت فيه هناك ؟ ولماذا يشتكون منك ، تحدث .

يبدو ان ميتيا لم يرغب في التوضيح والتبرير امامي .

غمغم قائلا ـ فيما بعد ، يا جدي .

واصل العجوز كلامه ـ كلا ، لن يكون فيما بعد ، وانما الآن ..

اعرف . انك تخجل في حضرة السيد الملاك : وهـذا افضـل ، كي تندم .
حسناً ، حسناً تكلم ... اننا نصغي .

بدأ ميتيا يتكلم بحيوية وهز رأسه ـ لا شيء يدعوني للخجل ، ارجـو ان تتفضل يا جدي وتحكم بنفسك . أتى الي مـالكون معتوقـون مـن ريشيتيلوفو : «تشفع انا ، ايها الاخ» ـ «ما الخبر ؟» هذه هي القضية : ان مخازن الحبوب عندنا في حالة حسنة ، ولا يمكن ان تكون افضل مما هي عليه ، وفجأة يجيء الينا موظف ويقـول : لدي اوامـر بتَفَقّـد المخازن . تفقدها وقال : «ان الفوضى تعم مخـازنكم ، وهنالك اهمـال خطير ، لا مندوحة مـن اخبار المسـؤولين بذلك» . ـ «ومـا هـو الاهمال ؟» ـ يجيب «انني اعرف ما هو» .... كنا قد اجتمعنا وقررنا : ان نقدم مكافأة للموظف كما يترتب علينا . لكن العجوز بروخـوريتش حال دون ذلك قائلا : انكم تفسدونهم فحسب . وماذا في الواقع أو ليس ثمة من ينصفنا ؟ ... اخذنا بكلام ذلك العجوز ، غضب الموظـف ، كتب شكوى ضدنا ورفع تقريراً . والآن سيصرون على ان ندفـع الثمـن» . توجهت اليهم بالسؤال «أحقاً ان مخازنكم بحالة حسـنة ؟» «الله يعلم ، انها في حالة حسنة ، وفيها الكمية القانونية من الحبوب ....» ـ «فقلت لهم ، طيب ، لا مبرر للخوف اذن» ـ وكتبت لهم ورقـة .... وليس مـن المعروف لصالح من ستحل المسألة ....

فما هي شكواك مني بشأن هذه الحادثة ، المسألة واضحة والاقربون اولى بالمعروف .

قال العجوز بصوت خافت ـ هذا جلي للجميع ، وليس لك وحـدك ... وما تلك الاضطرابات هنالك مع فلاحي شوتولوموف ؟

ـ وما أدراك بها ؟

ـ بالتأكيد ، أدري .

ـ اسمحوا لي ان اعرض المسألة مرة اخرى ، فانا على حق هنا ايضاً .

ان بيسباندين جار لفلاحي شوتولوموف وقد حرث اربع ديساتين من

الارض . وأعلن انها ارضي . الفلاحون يدفعـون الجـزية عن الارض ، وملاكهم مسافر الى الخارج فمن يدافع عنهم ، احكموا بانفسـكم ؟ لا ريب ان الارض ، ارض الاقنان منذ قديم الزمـان . وهـا هـم أتوا لي وقالوا :

أكتب لنا التماساً ، فكتبت لهم . علم بيسباندين بالامر وأخذ يهـدد : «قال ، سأنتزع عظام عجز ميتكا هذا من تجويفها ، وليس هذا فحسب ، وانما سأقطع رأسه إرباً إرباً من على كتفيه ....» لنر ، كيف سيقطعها ، فمازالت كاملة .

قال العجوز ــ حسناً ، لا تتباه ، لن يفوت رأسك العقاب ، انك امـرؤ احمق تماماً !

ــ ما بالك ياجدي ، أولم تسمح لي انت بالكلام ..

قاطعه اوفسيانيكوف ــ اعرف بالضبط ما سـتقوله لي : «يجـب ان يلتزم الانسان بالعدالة في حياته وعليه مساعدة الاقربين . وينبغـي الا تستبقي لنفسك شيئاً ... لكن أوحقـاً انك تسـلك هـذا السـبيل ؟ أولا يأخـذونك الى الحـانة ، أولا يشربونك الخمـر ، أو لا يتضرعون اليك قائلين : «ديمتري الكسيتش ، سيدنا العزيز ، ساعدنا ، اننا سـنعبر لك عن امتناناً» ويدسون خلسة روبلا فضياً او ورقـة مـالية زرقـاء[١١] في يدك ؟ ها ؟ الم يحدث ذلك ؟ افصح ، ألم يحدث ؟

اجاب ميتيا وقد نكس رأسه ــ انني لمذنب في هـذا الشـأن ، لكني لا آخذ من الفقراء ولا أخون ضميري .

الآن لا تأخُذ ، لكن سيتردى وضـعك ، ولسـوف تأخـذ . ولا تخـون ضميرك ... تباً لك ! لعلك تدافـع عن قـديسين ! ... أونسـيت . بدركا بيريخودوف ؟ ... من سعى له ؟ ومن شملة برعايته ؟ ها ؟

ــ لقد عانى بيريخودوف من جراء ذنب ارتكبه فعلا ....

ــ تصرف باموال الدولة ... ماهي بالذكته !

ــ يمكنك ان تتصور ، ياجدي : الفقر ، العائلة ...

ـ الفقر ، الفقر ... انه امرؤ سكير ، مجازف ، هذا كل ما في الامر !
علق ميتيا بصوت خافت ـ انه يشرب بسبب تعاسته .
ـ بسبب تعاسته ! اذن ، ساعده ، مادام قلبك ينطوي على مثل هذه الحماسة ، ولا حاجة بك كي تجلس مع سكير في الخمارات ـ انه يتكلم كلاماً رائعاً ، أترى ، ياله من اعجوبة !
ـ انه لامرؤ طيب للغاية .
واصل اوفسيانيكوف كلامه موجهاً اياه لزوجه ـ الجميع عندك طيبون .... لقد بعثتِ له ... حسناً ، هنا ، انت تعرفين ...
أومأت تاتيانا ايلينتشنا برأسها .
قال العجوز مرة اخرى ـ اين تواريت هذه الايام ؟
ـ كنت في المدينة .
ـ على الاغلب ، لعبت البليارد وشربت الشاي ، طنطنت على القيثارة ، ذهبت للدوائر ، كتبت الالتماسات في الغرف الخلفية وتغندرت مع ابناء التجار ، أوليس كذلك ؟ .... افصح !
قال ميتامبتسماً ـ الامر كذلك ، على ما أظن .... ها ، اجل ، كدت انسى إلا قليلا : ان فونتيكوف انطون بارفينيتش يدعوك الى وجبةَ طعام نهار الاحد .
ـ لن اذهب عند هذا البَطِين . انه يقدم سمكاً باهظ الثمن ، بينما يضع زبداً فاسداً . لا شأن لي معه البته .
ـ التقيت فيدوسا ميخائيلوفنا ايضاً .
ـ اية فيدوسا ؟
ـ من اقنان الملاك غاربينتشينكو ، التي اشتراها بالمزايدة في ميكولينو . فيدوسا من ميكولينو . عاشت في موسكو وكانت تعمل خياطة ، وتدفع الجزية ، انها تدفع الجزية بانتظام ومقدارها مئة واثنان وثمانون روبلا ونصف في العام ... وهي تحسن عملها ، تلقت طلبات جيدة في موسكو . استدعاها غاربينتشينكو حالياً ، وأبقاها دون

ان يحدد لها عملا . انها صغيرة لتبتاع حريتها ، واخبرت السيد بذلك ، لكنه لم يعلن عن جـواب قـاطع . انت يا جـدي على معـرفة بغاربينتشينكو ، فهل يمكنك ان تقول له كلمـة صـغيرة ؟ ... وسـتدفع فيدوسا له فدية جيدة .

ـ ليس من نقودك ؟ ها ؟ حسناً ، حسناً ، طيب ، سأقول له ، سأقول . ثم واصل العجوز كلامه وقد لاح عدم الرضا على وجهـه ـ فقـط لسـت ادري ، ان غاربينتشينكو هذا ، ليغفر لي الرب ، قد عاش وهو يشـتري الكمبيالات ويقرض النقود بالفائدة ، ويبتاع الممتلكات بالمزاد ... ومـن جاء به الى ربوعنا ؟ اف من هؤلاء الغرباء الوافدين ! لن تدرك ضالتك معه سريعاً ، على اية حال سنرى .

ـ اسع ياجدي .

ـ حسناً سـأسعى ، ولكن انتبه انت ، انتبه الي! حسـناً ، حسـناً ، لا تختلق الاعذار ... لا بأس ، انتبه الى موطىء قدميك فحسـب والا فلن يفوتك القصـاص يا ميتيا ، تالله سـتهلك لامحـالة . وليس بمقـدوري انقاذك ... انني لست امرءاً متنفذاً . طيب ، الآن اذهب في امان الله . خرج ميتاً . وذهبت تاتيانا الينيتشنا في اعقابه .

صاح اوفسيانيكوف في إثرهـا ـ اسـقيه شـاياً حتى يرتوي ايتهـا الماكرة .... وواصل كلامه ، انه غلام ليس بالاحمـق ، وروحـه خيرّه ، ولكنني اخاف عليه ... على اية حال ، اعذرني ، لشَـغْلكِ طـويلا بهـذه التوافه .

فتح باب المدخل . دخل شخص قصير اشيب في سترة مخملية .

هتَف اوفسيانيكوف ـ وي ، فرانتس ايفانيتش ! اهلا وسهلا ! هـل شملك الله برحمته ؟

اسمح لي ايها القاريء العزيز ، ان اعرفك على هذا السيد .

فرانتس ايفانيتش ليجيون (Lejeune) جاري وملاك من اورلوف ، لم يحصل بطريقة مألوفة تماماً على اللقب الفخـري : النبيل الروسي . ولد

في اورليان من ابوين فرنسيين وجـاء كطبّال في جيش نابليون لاحتلال روسيا . سارت الامور باديء بدء على ما يرام ودخـل هـذا الفـرنسي موسكو بهام مرفوع . لكن وقع السـيد ليجيون (Lejeune) ، في طـريق العودة وهو شبه متجمـد ودون طبل ، في ايدي فـلاحي سـمولينسك . وضعه فلاحو سمولينسك لليلة في غرفة معمل قماش فـارغة ، وأقتادوه في صباح الغد الى ثغرة[١٢] في الجليد قرب القنطرة وراحوا يطلبون مـن طبال «الجيش العظيم» «de La grrrrande armée» مداعبين اياه ، ان يحترمهم ويغطس تحت الجليد . لم يوافق السيد ليجيون M-r Lejeune على طلبهم وبدأ يقنع بدوره فلاحي سمولينسك باللهجة الفـرنسية ان يتركوه ليذهب الى اورليان . «قال ــ هنالك ايهـا السـادة messieurs تحيا امي ، أم رقيقة une tendre mére » لكن الفـلاحين لجهلهـم على الارجح ، الموقع الجغرافي لمدينة اورليان ، استمروا يعرضون عليه رحلة تحـت الماء انحـداراً مـع تيار النهير المتعـرج غنيلوتيركا ، وشرعوا يشجعونه بدفعات خفيفة من فقرات عنقه وظهـره ، وبغتة رن صـوت جرس ، فرح ليجيون فرحة لا توصف ، وسـارت على القنطـرة زَلّاقـة ضخمة ، وعلى مقعدها العالي الفخم سجادة مبرقشة تجرها ثلاثة مـن خيول فياتكا[١٣] ــ جلس ملاك بدين مورّد يرتدي فروة ذئب في الزلاقة.

سأل الفلاحين ــ ما هذا الذي تفعلونه هناك ؟

ــ نغطس فرنسياً ، ايها السيد .

قال الملاك بعدم اكتراث ــ أها ! وتحول عنهم .

صاح المسكين ــ مسيو ! Monsieur! monsieur

نطق معطف الذئب مؤنباً ــ أ ، اها ، مررت على اثني عشر شـعباً في روسيا ، وأحرقت موسكو ايها الشيطان اللعين وانتزعت صليب ايفان العظيم[١٤] والان تصـيح مسـيو ، مسـيو ، الآن يلوي ذيله ! ينبغـي الاقتصاص منه جزاء ما اقترفه من اثام ، امضِ يافيلكا أ !

تحركت الخيول للسير .

أضاف الملاك قـائلا ــ هـا ، على اية حـال ، قـف ! ... هيه ، انت يامسيو ، اتعزف الموسيقى ؟

أكد ليجيون قائلا ــ انقذني ، انقذني يا سيدي الطيب !

Sauvez moi, Sauvez moi, mon bon monsieur-

انظر ياله من شعب ! لا احد منهـم يعـرف الروسـية ! الموسـيقى ، الموسيقى هل تعرف الموسيقى ؟ اتعرف ؟ حسناً ، تكلم ! افهمت ؟ هـل تعرف الموسيقى ؟ هل تعرف العزف على البيانو ؟

فهم ليبحيون اخيراً ، ما يرومه الملاك ، وهز رأسه علامة الاثبات .

ــ اجل ، ايها السيد ، اجل ، أجل وانا موسيقار ، اعزف على كل الآلات الموجودة ! اجل ، ايها السيد .... انقذني ، ايها السيد

Oui, monsieur, Oui, Oui, Je suis musicien, Joue tous Les instruments possibles ! Oui, Monsieur...

Sauvez moi, monsieur !

ــ طيب ، يالحسن طالعك ، قال الملاك : اتركوه ايها الفتيان خذوا هـذه العشرين كوبيكاً للفودكا .

ــ شكراً لك ايها السيد ، شكراً . حسناً إجلسوه .

اجلسوا ليجيون في الزلاقة . تلاحقـت انفـاسه مـن الفـرح ، بكى ارتعش ، ركع وشكر الملاك والحـوذي والفـلاحين . كان يرتدي دُراعة خضراء ذات شرائط وردية ، بينمـا كان الجليد في أوج شـدته . نظـر الملاك صامتاً الى اوصاله التي غشتها الزرقة والخدر ولف هذا التعس في فروته واقتاده الى البيت . هرع الخدم اليهما . قاموا بتدفئة الفرنسي على عجل ، اطعموه والبسوه وذهب به الملاك الى بناته ....

قال لهن ــ ها هو ذا يا بنياتي ، لقد وجدتُ لكن معلماً . لقـد الححتن علي : علمنا الموسيقى واللهجة الفرنسية : وهاكن فرنسياً وعازفاً على البيانو ... واصل كلامه مشيراً الى بيانو صغير وسخ ، كان قد اشتراه من يهودي يتجر بالكولونيا ــ حسناً مسيو ، أرنا فنك : اجل !

جلس ليجيون على الكرسي وقلبه يكاد يتوقف عن الخفقان : فهـو لم يلمس البيانو قط في حياته .

كرر الملاك : اعزف ، اعزف .

ضرب المسكين بقنوط على الدساتين ، كما لو انه ينقـر على الطبل ، عزف كيفما اتفق ... «حدثنا فيما بعد قائلا ــ لقـد ظننت ، ان منقـذي سيمسك بي من ياقتي ويقذفني خارج البيت» لكن لشد ما كانت دهشـة العازف ، المرتجل رغماً عنه ، كبيرة ، حيذما تمهـل الملاك قليلا ثم ربّت على كتفه مستحسناً عزفـه . وقـال له : «حسـناً ، حسـناً ، رأيت انك تحسن العزف ، تعال الان واسـترح» . انتقـل ليجيون بعـد زهـاء اسبوعين من هذا الملاك الى آخر ، كان امرءاً ثرياً ومثقفاً ، اعجـب به لمرحة ورقة حاشيته ، تزوج مـن ربيبته ، انخـرط بالوظيفـة واصـبح نبيلا[١٥] ، زوج ابنته من لوبيزانيف وهو ملاك من اوريول اعتزل الخدمة في سلاح الفرسان وكان ينظم الشعر ، ثم أنتقـل هـو نفسـه للعيش في اوريول .

ذلك هو ليجيون ، او كما نسميه الآن فرانتس ايفانيتش ، ومن دخـل بحضوري الى غرفة اوفسيانيكوف ، الذي اقام معه علاقات ودية ....

لكن لربمـا مـلّ القـاريء المكوث معـي عند المالك المعتوق اوفسيانيكوف ، لذلك فالاخلاد الى الصمت ابلغ .

لغـــــوف

ذات مرة قال لي يرمولاي الذي بات معروفاً لدى القاريء ـ لنذهب الى لغوف ، هناك نقوم بقنص كمية وافرة من البط .

ومع ان البط البري لا ينطوي على أية جاذبية خصوصية للصياد المتمرس ، لكن نظراً لقلة الطرائد الاخرى حالياً (حدث ذلك في مستهل أيلول : ان دجاج الغابة لم يأت بعد ، وقد ادركني الملل من العدو في الحقول وراء الحجل) نزلت عند رأي مساعدي ويممت الخطى صوب لغوف .

لغوف ضيعة سهلية كبيرة ، فيها كنيسة مبنية من الحجر قديمة جداً ذات قبة واحدة ، وفيها طاحونتان على نهير روسوتا الملآن بالمستنقعات . يبعد هذا النهير خمسة فيرستات عن لغوف ، ويتحول الى بركة واسعة ، ينمو قصب كثيف على أطرافها وكذلك هنا وهناك في وسطها ، يسمونه في اوريول الدغل المائي . يتكاثر في هذه البركة ، في الاخوَار او الاماكن الهادئة بين القصب ويتجمع حشد لا يحصى من البط يحتوي على كل الفصائل الممكنة : البري ، وشبه البري ، ذو الذيل

المِخَرري الحَذَفات ، الغطاس وهلم جـرا . طـارت مـراراً اسراب غير كبيرة ، انتشرت فوق صفحة الماء وارتفعت على شـكل غمـام بسـبب اطلاق النار ، حتى ان الصياد الذي تشبثت يده تلقـائياً بقبعته ، قـال بصوت ممدود : فو ـ وفو ! كان يمكن ان امضي ويرمـولاي بمحـاذاة البركة ، لكن البط والطير على الشاطيء نفسه حذرة ، لا تمـكث هناك من جهة ، ثم حتى لو اصيب من جهـة اخـرى طـائر غطـاس متخاف بعياراتنا النارية وفارق الحياة فان كلابنا ليس بوسعها التقـاطه مـن الدغل المائي الكثيف ثانياً : فعلى الرغم مـن تفـانيها النبيل ، لم يكن بوسعها السـباحة او المضي الى القـاع ، انهـا لو فعلت ذلك لخـدشت اطراف القصب الحاده انوفها النفيسة .

قال يرمولاي أخيراً ـ كلا ، الأمر ليس على ما يرام : لا مندوحة مـن الحصول على زورق .... لنعد الى لغوف . هُرع كلب متسخ لحد مـا ، من كلاب الصيد لملاقاتنا من وراء الصـفصاف الكثيف ، ولاح في إثره امرؤ مربوع القامة يرتدي سترة داكنة رثة للغـاية ، وصـداراً باهـت الصفرة ، وبنطلون صوف أخضر اللون أو أزرق مائل للخضرة ، وجزمة مثقبة قد دس قدميه فيها على عجالة ، ومنديلا أحمر على عنقه وبندقية ذات ماسورة واحدة على كتفيه . تعارف كلابنا شـماً ، في تلك الاثناء ، وفق المجاملات الصينية المعروفة التي تتصف بهـا فصـيلتها ، بالكلب الجديد عليها والذي على ما يبدو قـد جبن ، فلوى ذيله ، وارخـى اذنيه وادار جسـمه كله بسرعة دون ان يثني ركبتيه وكشّر عن انيابه ، دنا الرجل الغريب منّا وانحنى باحترام بالغ . يلوح مـن طلعته أن عمـره يناهز الخامسة والعشرين ، تناثر شعره الطويل الاشقر المشرب قـوياً برائحة الكفاس ، في خصل صغيرة ثابتة ، رمشـت عيناه الصـغيرتان البنيتان ببشاشة ، ابتسم وجهـه ، المعصـوب كله بمنديل اسـود كأنه يعاني من ألم الاسنان ، ابتسامة حلوة .

بدأ يتكلم بصوت رقيق مستعطف ـ اسمحوا لي ان اقـدم لكم نفسي ،

انا الصياد فلا ديمير ، من هذه البقاع ... سمعت بوجودكم وعرفت انكم تفضلتم بالذهاب الى شاطىء بركتنا ، فقررت ، اذا لم يكن ذلك بغيضاً اليكم ، عرض خدماتي عليكم .

تكلم فلاديمير الصياد ، كممثل بلدي شاب بالضبط يقوم بتمثيل دور العشاق الأوائل . وافقت على اقتراحه ، وما أن اوشكنا على الوصول الى لغوف حتى استطعت ان اعرف قصة حياته . كان خادماً معتوقاً ، تعلم في صباه الغض الموسيقى ثم اشتغل رئيساً للخدم ، تعلم القراءة والكتابة ، طالع بقدر ما استطعت ان الاحظ ، بعض الكتيبات ، يعيش الآن كما هو شأن كثير من العائشين في روسيا ، معدماً دون فلس واحد ، بلا عمل ثابت ، يتغذى الله اعلم كيف ، لعله بمّن السماء ، كانت تعابيره رشيقة بشكل غير مألوف ، ومن الجلي ، أنه يتأنق في اسلوبه ولا بد من ان يكون زير نساء كبير ، وقد كان النجاح حليفه على الارجح : فالفتيات الروسيات يحببن الكلام المعسول . ومن جملة الاشياء التي جعلني على علم بها انه كان يتردد على الملاكين المجاورين ويحل ضيفاً على اصدقائه في المدينة ، يلعب البرفرانس ويعاشر أبناء العاصمة . كان يبتسم بحذاقة ابتسامات بالغة التباين ، وكانت تلائمه خصوصاً تلك الابتسامة المتواضعة المتحفظة التي تتلاعب على شفتيه حينما ينصت الى كلام الأغراب . انه يصغي اليك ويوافقك الرأي تماماً ، لكن لا يفارقه شعوره بعزة النفس ، وكأنه يوحي اليك بمقدرته على الافصاح عن رأيه اذا اقتضى الأمر ذلك . لم يكن يرمولاي شخصاً واسع الثقافة ولا «ضعيف المعرفة» قط ، وها هو ذا يكلمه «بصيغة المفرد ، انت» وكان ينبغي ان ترى بأية سخرية خاطبه فلاديمير بصيغة : الجمع ، «انتم ....»

سألته : لماذا انت معصوب بمنديل ؟ هل تؤلمك اسنانك ؟

أجاب معارضاً ــ كلا ، انها العاقبة الوخيمة لقلة الحذر ، كان لدي صديق ، امرؤ طيب ، لكنه لم يكن صياداً قط ، جاءني ــ كما يصادف

احياناً ـ في يوم من الايام قائلا «صـديقي العـزيز ، اصـطحبني الى الصيد : ان حب الاستطلاع يحملني على معرفة ما تنطـوي عليه هـذه التسلية» . لا شـك ، انني لم ارغب في رفض طلبه : حصـلت له بدوري على بندقية واصطحبته في الصيد . وهكذا قمنا بالصيد معاً كما يجب ، واخيراً خطر لنا ان نرتاح . جلستُ تحت الشجرة ، وجلس هو في الجهة المقابلة لي ، شرع من جهته يمسك البندقية ويحركها مصـوباً نحـوي ، طلبت منه الكف عن ذلك ، لكنه لم ينصع لكلامـي ، بسـبب قلة خبرته . دوّى عيار ناري ، وفقدت ذقني وسبابة اليد اليمنى .

وصلنا الى لغـوف .. وأصر كل مـن فـلاديمير ويرمـولاي على ان القنص مستحيل دون زورق .

علق فلاديمير قائلا ـ لدى سوتشوك يوجد دوماشنيك[1] ، ولا اعلم اين خبأه . ينبغي ان نهرع اليه .

سألتهم ـ الى من ؟

ـ يعيش هنا شخص يلقب سوتشوك .

ذهب فلاديمير مـع يرمـولاي الى سـوتشوك . واخبرتهـم انني سأنتظرهم عند الكنيسة ، طفقـت اتطلع الى لحـود المقبرة ، صـادفت صندوقاً مسوّداً مربع الشكل عليه النقش التالي : كتب على أحد جوانبه بالحروف الفرنسية :

«Ci gi't Theophile Henri, Vicomte de Blangy» وكتب على الجـانب الآخر «يرقد تحت هذه البلاطة جثمـان الكونت بلا نجـي مـن الرعايا الفرنسيين ، ولد عام ١٧٣٧ ، وتوفي عام ١٧٩٩ ، مجمـوع عمـره ٦٢ سنة . وعلى الثالث : «هب السكينة رفاته» وعلى الرابع :

يثوي مهاجِر فرنسي ، تحت هذه البلاطة
من سلالة عريقة وذو موهبة .

---

١ ـ دوماشنيك : زورق مسطح مصنوع من الواح الشخاتير القديمة . (ملاحظة الكاتب) .

تعرضت زوجه وعائلته للتعذيب ، بكاهم ،
ترك وطنه ، بعد ان اضناه الطغاة
وصل الى شواطيء البلاد الروسية
وجد في شيخوخته مأوى كريماً
علّم الأطفال ، وأراح الأباء ...
رقدَ هنا بمشيئة الله .

قطع عليّ ، مجيء يرمولاي وفلاديمير وشخص غريب اللقب ـ سوتشوك ، تأملاتي . يبدو من هيئة سوتشوك ـ كان حافي القدمين ، رث الثياب اشعث الشعر ـ أنه خادم اعتزل العمل ، يناهز عمره الستين سنة .

سألته .. هل لديك قارب ؟

أجاب بصوت خافت متهدم ـ لدي قارب ، لكنه رديء للغاية .

ـ ما العطب الذي به ؟

ـ لقد تفكك ، وارتفعت اضلاع ألواحه بسبب الشقوق .

بادر يرمولاي بالكلام ـ ياللمصيبة الهائلة ! صمّغة ويمكن سدّ شقوقه .

اكد سوتشوك قائلا ـ طبعاً ، من الممكن ذلك .

ـ ومن تكون انت ؟

ـ سمّاك عند السيد .

ـ أأنت سمّاك ، وقاربك في هذه الحالة السيئة ؟

ـ ليس ثمة من اسماك في نهرنا .

علق مساعدي الصياد بوقار ـ السمك لا يحب المستنقعات النتنة .

قلت ليرمولاي ـ حسناً ، اذهب واحصل على مُشَاقَه واصلح لنا القارب ، بأسرع ما يمكن .

مضى يرمولاي .

قلت لفلاديمير ـ وهكذا سنذهب على الارجح ، الى عمق البركة :

أجاب ــ ان شاء الله ، علينا ان نفترض في كل الأحوال ان البركة غير عميقة .

علّق ســوتشوك الذي تكلم بشــكل غريب كأنه في حــالة بين النوم واليقظة ــ اجل ليست عميقــة ، توجــد الاوحــال والاعشــاب حتى في القاع ، وهي برمتها نَبّت عشبي ، اضافة الى وجود كولدوبينا* ايضاً .

علق فلاديمير ــ على اية حال ، مادام العشب على هذه الكثافــة فــلا يمكن التجذيف .

ــ ومن بمقدوره تجذيف الدوماشنيك ؟ لا مندوحة من دفعــه . ســأذهب معكم ، فلدي هناك صَار ، ويمكن استخدام المجرفة كذلك .

قال فلاديمير ــ ليس من الملائم استعمال المجرفة ولا تصل ، على مــا اظن ، الى القعر في مكان آخر .

ــ حقاً انها غير ملائمة .

جلست على القبر في انتظار يرمــولاي . تنحــى فــلاديمير مــن باب اللياقة بضع خطوات جانبياً وجلس أيضاً . ظــل ســوتشوك واقفــاً في مكانه ، نكس رأسه وشَبَك يديه ، حسب العادة القديمة ، خلف ظهره .

بدأتُ الكلام ــ قل لي رجاء ، هل انت صياد منذ أمد طويل ؟

اجاب وقد سرت فيه رعشة ــ هذه هي السنة السابعة .

ــ وماذا كنت تعمل في الماضي ؟ .

ــ اشتغلت في الماضي حوذياً .

ــ ومن منعك من أن تعمل حوذياً ؟

ــ السيدة الجديدة .

ــ أية سيدة ؟

ــ تلك التي ابتاعتنا . لعلك لا تعرفها : الينا تيموفيفنا ، انها سمينة ... وغير شابة .

★ كولدوبينا ــ مكان عميق ، تجويف في البركة او النهر . (ملاحظة الكاتب)

ـ وما الذي خطر ببالها حتى جعلتك سماكاً ؟

ـ الله أعلم ، جاءت الينا من ضيعتها في تامبوف ، وأمــرت ان يجتمــع الخَدَمَة كلهم ، وخرجت الينا . اخذنا في تقبيل يدهــا في البداية ، وكانت حسنة : لم تغضب ... ثم شرعت تسألنا بالتعاقب : ماذا تعمل واي مهنة تؤدي ؟ وجاء دوري ، واذا بهــا تســأل : «مــاذا كنت تعمــل ؟» قلت : «حوذياً» ـ «حوذياً ؟ اي حــوذي انت ، تطلع الى نفســك : اي حــوذي انت ؟ لا ينبغي ان تكون حوذياً ، ستعمل عندي سماكاً ، واحلق لحيتك . اذا اتفق ان جئتُ ، فعليك ان تضــع على مــائدة الســـيدة ســـمكاً ، أتسمع ؟ .... ومنذ ذلك الحين امسيت في عداد صيادي الســمك ، انظــر الى البركة التي عندي ، عليّ تنظيمها ....» . وكيف يمكن ان انظمها ؟

ـ ومن كان يملكك من قبل ؟

ـ سرغي سرغيتش بيختيريف . انتقلنا اليه بالأرث . ولكن لم تطل فترة ملكيته لنا سوى ستة أعوام لا غير . كنت أعمل رائحــاً غادياً كحــوذي عنده .... ليس في المدينة وانما في القرية ، فهناك لديه آخرون .

ـ وهل كنت تشتغل دائماً حوذياً ومنذ حداثتك ؟

ـ كيف كنت حوذياً دائماً ! غدوت حوذياً عند سرغي سرغيتش ، وقبلها عملت طباخاً ، ليس طباخاً في المدينة ايضاً ، بل في القرية كذلك ؟

ـ وعند من كنت طباخاً ؟

ـ عند الســيد الســابق ، لدى افــــاناسي نيفيديتش ، وعند عم سرغي سرغيتش . لقد اشترى لغوف ، اشتراها افاناسي نيفيديتش ، وحصــل سرغي سرغيتش على هذه العزبة بالوراثة منه .

ـ ممن ابتاعها ؟

ـ من تاتيانا فاسيليفنا .

ـ اية تاتيانا فاسيليفنا ؟

ـ تلك التي توفيت في العــام المنصرم قــرب بولخـــوف ... اعني التي عاشت عانســاً قــرب كاراتشــيف .... ولم تتزوج ابداً . الا تعــرفها ؟

انتقلنا اليها من ابيها فاسيلي سيميينتش . ودامت ملكيتها لنا طويلا ... عشرين عاماً .

ــ وهل عملت عندها طباخاً ؟

ــ كنت باديء بدء طباخاً على وجه التحديد ، ثم اصبحت خادم بوفيه .

ــ ماذا ؟

ــ خادم بوفية .

ــ وما طبيعة تلك المهنة ؟

ــ لست ادري ايها السيد . كنت اقف في البوفية وسمونني انطون بدل كوزماً . ذلك ما ارادته السيدة وأمرت به .

ــ وهل اسمك الحقيقي كوزما ؟

ــ كوزما .

ــ أعملت طوال الفترة خادم بوفية ؟

ــ كلا ــ ليس كل الوقت .. كنت ممثلا ايضاً .

ــ أحقاً ؟

ــ بالتأكيد ، كنت ... مَثلتُ في المسرح . اقامت سيدتنا مسرحاً عندها .

ــ واي أدوار قمت بتمثيلها ؟

ــ ماذا من فضلك ؟

ــ ماذا تفعل في المسرح ؟

ــ أتدري ؟ كانوا يؤخذونني ويلبسونني ثياباً فاخرة ، وهكذا أسير متأنقاً ، أو أقف ، أو اجلس ، كما يقتضي الحال . يقولون لي : يجب ان تقول هذا ، فأقوله . مثّلت مرة دور ضرير ... وضعوا لي حِمّصِة تحت كل جفن ... اجل انه اليقين بعينه .

ــ وماذا اشتغلت بعد ئذ ؟

ــ بعدئذ اشتلغت طاهياً .

ــ ولماذا خفضوك الى طاه ؟

ــ لان اخي هرب .

ـ حسناً ، وماذا كنت تعمل عند أبي سيدتك الأولى ؟

ـ قمت بمهن شتى : كنت خادماً صبياً باديء الامر ، ثم حوذياً ، وراكب جواد في العربة وبستانياً وحتى سواطاً .

ـ سواطاً ؟ ... وتجر الكلاب ؟

ـ اجر الكلاب وكدت اموت ذات مـرة : سـقطت عن الحصـان وتكدم الحصان . كان السيد العجوز شـديداً فـأمر بجلدي ، وارسـالي الى موسكو لاتعلم صنعة عند اسكافي .

ـ اي تعليم هذا ، فانت ، بالتأكيد ، لم تكن طفلا وأصبحت سواطاً ؟

ـ كان عمري يربو على العشرين تقريباً .

ـ واي تعليم يمكن ان يكون في العشرين ؟

ـ اظن ، لا بأس في ذلك ، وممكن اتيانه مادام السيد قد أمـر به . مـن حسن الحظ انه سرعان ما توفي ـ فأرجعوني الى القرية .

ـ ومتى تعلمت فن الطهو ؟

رفع سوتشوك وجهه النحيف الأصفر وابتسم .

ـ وهل يتعلمون ذلك ؟ ... النساء يستطعن القيام بالطهو .

استرسلت في الحديث ـ حسناً ، يا كوزما ، لقد رأيت العجب العجاب في حياتك ! وماذا تفعل كصياد سمك الآن ، مادام السـمك غير مـوجود عندكم ؟

ـ انني ، لا اتشكى ، ايها السيد . احمدُالله ان جعلوني سماكاً . ها هو ذا عجوز آخر مثلي ، اندريه بوبير ، امرت السيدة ان يشتغل غرافـاً في معمل الورق . تقول من الاثم ان يأكل الخبز بلا عمـل ..... ومـا فتيء يأمل مرحمة منها : فعنده ابن اخـي خـالته ، يعمـل كاتبا في مـكتب السيدة ، ووعد ان يعرض حاله على السيدة ويذكرها به . وهـا هـو ذا يذكرها ! .... لقد شاهدت بوبير بأم عيني يركع على قـدميه امـام ابن اخيه .

ـ أولديك عائلة ؟ وهل كنت متزوجاً ؟

ـ كلا ، ايها السيد ، لم اكن . ان المرحومة تاتيانا فاسيليفنا ـ ادخلها الله فسيح جناته ـ لم تسمح لاحد ان يتزوج . كانت تقول ، لا سامح الله : «ها انني اعيش هكذا ، فتاة غير متزوجة ، فما بالهم يتدللون ! وماذا يريدون ؟» .

ـ وكيف تعيش الآن ؟ هل تتقاضى مُرَتّباً ؟

ـ اي مُرَتّب ايها السيد ! ... يقدمون لي المأكل ، واحمد الله على هذا ، فانا راض كثيراً ، أطال الله عمر سيدتنا !

عاد يرمولاي .

قال بصرامة ـ لقد أصلح القارب ، اذهب انت ، اذهب انت ، واجلب الصَاري ! ..

ركض سوتشوك ليجلب الصاري . كان الصياد فلاديمير ، في غضون حديثي مع العجوز المسكين ، ينظر اليه مبتسماً ابتسامة ازدراء .

قال عندما غادرنا العجوز ـ امرؤ غبي ، شخص غير متعلم البتة ، انه ليس اكثر من فلاح ... يباهي بعمل كل شيء ... كيف يتأتى له ان يكون ممثلا ، تفضلْ واعمل فكرك في ذلك ! عبثاً ازعجت نفسك ، وتلطفت بمحادثته !

بعد ربع ساعة جلسنا في قارب سوتشكوف . (تركنا الكلاب في الكوخ تحت رقابة الحوذي ايغوديل .) لم نكن على نصيب وافر من الراحة ، لكن الصيادين جمهور لا يصعب ارضاؤه . وقف سوتشوك عند الطرف الخلفي المثلّم راح «يدفع» ، جلسنا انا وفلاديمير على عارضة القارب ، اتخذ يرمولاي له مكاناً الى الامام ، في المقدمة تماماً . ومع وجود المشَاق ، فان الماء سرعان ما ظهر تحت اقدامنا . ومن حسن الحظ ان الجو كان هادئاً وبدت البركة كالوسنانة .

مخرنا ببطء نوعاً ما . انتزع العجوز بمشقة الصاري الطويل من الوحل الكثيف الذي التصقت به خيوط خضر من الأعشاب النامية تحت الماء ، أعاقت الاوراق المستديرة المتراصة لزنابق المستنقعات سير

قاربنا ايضاً . وصلنا اخيراً الى القصب وحدث شيء مضحك ، ارتفع البط صاخباً ، «وانطلق» من البركة فزعاً من ظهورنا المفاجيء في ممتلكاته ، دوّت الطلقات في اعقابهم في آن واحد ، وكان مما يبعث على السرور ان ترى كيف ترنحت هذه الطيور البتراء الذنب في الهواء وارتطمت بثقل على صفحة الماء .

لا ريب اننا لم نحصل على جميع البط الذي اصابته العيارات النارية : فقد غطس البط الذي اصيب اصابات خفيفة ، وقتل عدد آخر وغاص في دغل مائي كثيف ، بحيث لم تستطع حتى عيون يرمولاي السريعة اكتشافهم ، ومع ذلك فقد طفح القارب بالطرائد حينما حان وقت الغداء .

لم يكن فلاديمير يجيد اطلاق النار ، مما شكلّ عزاء كبيراً ليرمولاي ، وكان يعرب عن دهشته بعد كل عيار ناري مخفق ، يتفحص البندقية ، ينظفها بالنفخ ، تعتريه الحيرة ، واخيراً يبين لنا سبب فشله في اصابة الهدف . كانت اطلاقات يرمولاي دائماً موفقة ، أما انا فكانت اطلاقاتي كالعادة رديئة لحدما . تطلع الينا سوتشوك بنظرات امرىء اعتاد الخدمة لدى الملاكين منذ صباه ، وكان يصيح بين فينة وفينة : «ها هو ذا ، طير آخر !» ويحكّ ظهره مراراً ، ولكن ليس بيديه وانما بحركة يأتي بها من منكبيه . كان الجو رائعاً : تحرك الغمام الأبيض المستدير مندفعاً عالياً هادئاً فوقنا ، منعكساً بجلاء على صفحة الماء ، وشوش القصب من حولنا ، سطعت البركة في بعض الأماكن كصفيحة فولاذية تحت الشمس . عقدنا العزم على الرجوع الى القرية ، وقعت لنا بغتةً حادثة مزعجة .

كان بمقدورنا أن نلحظ منذ مدة طويلة ان الماء يتجمع رويداً رويداً في القارب . وكنا قد عهدنا الى فلاديمير للقيام بازاحته الى الخارج بالمِغْرَفة التي اختطفها صيادي المتبصر للحالات الطارئة ، من امرأة ذاهلة . سارت الامور على ما يرام ، عندما لم ينس فلاديمير مهمته .

بيد ان البط أخذ يحلق باسراب كبيرة في نهــاية الصــيد ، كمــا لو كان يودعنا ، بحيث كنا نفلح بالكاد في حشو البندقية ، وعندما تعــالى غبار الاطلاقات النارية لم نعر اهتماماً لحالة القارب ، وفجأة ، ومن جــراء حركة عنيفة بدرت من يرمــولاي (فقــد حــاول تناول طير قتيل وأحنى جسمه برمته على الحافة) ، فمال قاربنا العتيق واغترف الماء ، وســار بجلال الى القاع ، من حســن الحــظ انه لم يغص الى مــكان عميق . اخذنا نصيح ، لكن بعد فوات الأوان : وما هي الاهنيهة حتى غطسنا في الماء الى اعناقنا وعامت اجسام البط المائت محيطــة بنا . لا اســتطيع الان ان اتذكر ، دون اطلاق قهقهة ، وجــوه رفــاقي الوجلة الشــاحبة (وعلى الارجح ، فان وجهي لم يتميز حينئذ بلون احمــر) ولكن اقــول الحق ، لم يخــطر لي ببال ان ابتســم في تلك اللحــظة . امســك كل منا بندقيته فوق رأسه ، ورفع سوتشوك الصاري ، لابد انه فعل ذلك حسب عادة تقليد الأسياد ، الى الاعلى . كان يرمــولاي أول مــن قــطع حبل الصمت .

قال وهو يبصق على الماء ــ تبّا لك ! يالها من مفاجأة ! واضاف يقول بحمية ــ كل هذا بسببك ايها الشيطان العجوز ! ما هذا القــارب الذي عندك ؟

همهم العجوز ــ انا الملوم ...

ــ وانتَ ايها الصالح ، واصل مساعدي الصياد كلامه مستديراً برأســه صوب فــلاديمير ــ الى اين كنت تتطلع ؟ لماذا لم تغــرف ؟ انتَ ، انتَ ، انت ...

لكن فــلاديمير لم تكن له رغبة في المعــارضة : ارتعش كالورقــــة ، اصطكت أسنانه وابتسم ابتسامة لا معنى لها بتاتاً . اين توارى كلامه المعسول وشعوره باللياقة الرفيعة والكرامة الشخصية !

طقطق القارب اللعين واهناً تحت أقدامنا .... تحطم القارب في لحظة وبدا لنا الماء بارداً للغاية ، لكننا سرعان ما اعتدنا تحمله . تلفتُ بعد ما

تلاشى الفزع الأول ، واذا بالقصب قد نما حولنا على مسافة عشر خطوات منا ، وبان الشاطىء بعيداً من فوقه . فكرت في دخيلتي ـ «الوضع رديء» .

سألت يرمولاي ـ ما العمل ؟

اجاب ـ سنرى : لن نبيت هنا ، وقال لفلاديمير ، هاك ، امسك انت البندقية .

أقر فلاديمير بذنبه بلا اعتراض .

ـ سأمضي وابحث عن مَخَاضَةً ، واصل يرمولاي كلامه بثقة ، كأنه لا مندوحة من وجود مخاضة في كل بركة ، تناول الصاري من سوتشكوف ومضى باتجاه الشاطيء مجتساً القاع بحذر .

سألته ـ وهل تعرف ان تسبح ؟

رّن صوته من بين القصب ـ كلا ، لا اعرف .

ـ اذن ستغرق ، علق سوتشوك دون اكتراث ، الذي لم يكن ليخشى الخطر من قبل ، بقدر ما كان يخشى غضبنا ، واصبح الآن هادئاً تماماً ، لكنه كان يلهث أحياناً ، وبدا انه لا يشعر بأية حاجة لتغيير وضعه .

أضاف فلاديمير قائلا بانقباض ـ وتهلك دون اي جدوى .

استغرق يرمولاي اكثر من ساعة حتى بدت لنا هذه الساعة دهراً كاملا . دأبنا على التصايح معه كثيراً باديء الامر ، بعد ئذ ، تناقصت اجاباته على هتافنا ، واخيراً لاذ بالصمت التام .

قرعوا في القرية نواقيس صلاة المغرب . لم نتجانب اطراف الاحاديث فيما بيننا ، بل حتى حاولنا ألا نتطلع الى بعضنا بعضاً .

انتشر البط حتى فوق رؤوسنا ، تأهب أخر للجلوس قربنا ، ولكن حلق فجأة الى الاعلى على شكل «عمود» كما يقولون وطار صائحاً . بدأنا نتجمد . حرك سوتشوك عينيه ، كأنه أزمع النوم .

أخيراً ، ويا لفرحتنا التي لا توصف ، عاد يرمولاي .

ـ ها ، ماذا ؟

ـ وصلت الى الشاطىء ، ووجدت المَخَاضَة .... هيا بنا .

كان بودنا الذهاب توا ، بيد أنه أخرج من جيبه تحت الماء حبلا وربط البط الميت من أخفافه ، وأخذ كلا الطرفين بأسنانه وسار ببطء الى الامام ، وخلفه فلا ديمير ثم أنا ، مشى سوتشوك في آخر الركب . تبلغ المسافة الى الشاطىء حوالي مئتي خطوة ، مضى «يرمولاي بشجاعة دون توقف (فقد لاحظ الطريق جيداً) كان يصيح احياناً : «الى اليسار ، فعلى اليمين حفره» ! او «يميناً ، فعلى اليسار تطمس .....» وصل الماء أحياناً الى أعناقنا ، وقد شَرَقَ المسكين سوتشوك بالماء مرتين ، لانه أقصر الجميع وقذف فقاقيع الماء . صاح به يرمولاي مهدداً . «هيا ، هيا ، هيا» ! سار سوتشوك في مشقة ، محركاً قدميه ، وواثبا كي يصل الى مكان ماؤه ضحل ، لكنه لم يقرر ان يمسك باطراف سترتي حتى في الحالات القصوى . وصلنا أخيراً الشاطيء ونحن منهكون ، متسخون ، مبتلون .

جلسنا بعد مضي ساعتين ، وقد جفت ملابسنا لحدما ، في عنبر تبن كبير واجتمعنا لتناول العشاء . الحوذي ايغوديل شخص بالغ البطء ، ثقيل في النهوض ، حصيف ، داعب النعاس أجفانه ، وقف عند البوابة وقدم التبغ الى سوتشوك بدأب . (لاحظت ان الحوذية في روسيا تنعقد بينهم أواصر المودة بسرعة بالغة) . استنشق سوتشوك السعوط بعنف ولدرجة القرف : بصق ، سعل ، وقد شعر براحة كبيرة على ما يبدو . لاحت سحنة فلاديمير قاتمة ، أحنى رأسه جانبا وتكلم قليلا . مسح يرمولاي بنادقنا . حرك الكلاب ذيولهم بسرعة فائقة انتظاراً للطيور ، ضربت الخيول الارض بأرجلها وهي تأكل تحت السقيفة . توارت الشمس وانتشرت اشعتها الأخيرة على شكل خطوط قرمزية واسعة ، امتدت الغيوم الذهبية ضئيلة متضائلة ، كأنها موجة مستحمة ممشوقة وصدحت الاغاني في القرية .

مرج بيجين

كان يوماً رائعاً من ايام حزيران التي لا نصادفها الا عند استقرار حالة الجو على وضعها لفترة طويلة . السماء صافية منذ الصباح الباكر ، الشروق لا يتوهج بالحريق : وانما ينساب حمرة رقيقة ، الشمس ماهي بالمتوقدة ولا الحامية ، كما هو شأنها إبان جفاف الهاجرة ، ولا قرمزية باهتة ، كما هو شأنها قبيل العاصفة وانما مضيئة مشرقة ببشاشة وهي تعوم بسكون وراء الغيمة النحيفة الطويلة ، تتلألأ ثم تغوص في ضبابها الليلكي . يسطع الطرف الاعلى النحيف للغيمة المستلقية كثعابين صغيرة منيره ، يشبه بريقها بريق الفضة المطروقة ... لكن ها هي ذي الأشعة المتراقصة تتدفق مرة أخرى ، وترتفع الشمس الماردة مرحة عظيمة كأنها تروم الانطلاق . تتراءى في الظهيرة عادة غيوم مستديرة سامقة كثيرة ، رمادية مذهبة ، ذات حواش رقيقة بيض . انها لا تكاد تتحرك من مكانها كأنها جزر مبثوثة في نهر فائض مترام ، يجري حولها في جداول عميقة شفافة ذات زرقة متناسقة ، ثم تتحرك في المنأى ، متزاحمة نحو الافق بحيث لا تُرى

من بينها زرقة السماء ، لكنها اتشحت هي نفسها بلون لازوردي كالسماء ، وتسلل الضوء والدفء اليها حتى الأعماق . لم يتغير الضوء الخفيف الليلكي الشاحب في أرجاء السماء طوال النهار . لم تغمر العتمة أي مكان ، مامن أمارات توحي بتجمع العاصفة ، رغم انسياب خطوط زرق باهتة من الأعالي هنا وهناك ناثرة رذاذاً لا يكاد يلحظ . اخذت هذه الغيوم تتوارى في المساء ، استلقت بقاياها الخفيفة السواد ، وغير المحددة كالدخان ، مثل أعمدة من السحب الوردية مقابل الشمس الغاربة ، ظل الهدوء يغشى المكان الذي غابت منه ، كما تعالت بهدوء نحو السماء ، اطل شعاع قرمزي فوق الأرض المعتمة لبرهة من الزمن ، تألقت فيه نجمة المساء كشمعة محمولة بعناية وتلألأت بسكون . تمسي الالوان باهتة مشرقة في تلك الأيام ، لكنها غير ساطعة وتتسم جميعاً بميسم رقة مثيرة . يكون القيظ في تلك الأيام تارة شديداً للغاية ، وتارة «يحوم بخاره» على منحدرات السهول ، بيد ان الريح تُشتت القيظ المتراكم ، تجرفه ، تطوف العواصف المدوّمة ـ العلامة التي لا ريب فيها للجو المستقر ـ بأعمدة بيض سامقة في الدروب والحقول المحروثة . يفوح عبير نبات الشيح والجودار المحصود والحنطة السوداء في الانسام الجافة النقية ، ولا تشعر حتى قبيل ساعة من حلول الليل بالرطوبة . وهذا هو الجو الذي يتمناه الفلاح لحصاد الحبوب .

خرجت مرة في مثل هذا اليوم بالذات ، لصيد الطيْهوج في منطقة تشير نسك ، في محافظة تولا . وجدت عدداً وافراً من الطرائد واصطدت منه كمية طيبة ، حزّت الحقيبة ، الملأى بالطرائد ، كتفي دون رحمة . حينما قررت اخيراً العودة الى البيت كان الألق المسائي قد خبا ، طفقت تتكاثف ظلال باردة وتنساب في الهواء الذي مازال مضيئاً ، رغم ان اشعة الشمس الغاربة لم تمده بالنور . عبرت قاطعاً «ساحة» الشجيرات الطويلة بخطى سريعة ، صعدت الربوة ، رأيت أماكن اخرى

مجهولة لدي تماماً بدل السهل المألوف المتوقع الذي يضم غابة بلوط صغيرة الى يمينه وتقع كنيسة واطئة بيضاء على مسافة منه . امتدت عند قدمي وهدة ضيقة وارتفعت مباشرة في المقابل مني ، غابة الحور الرجراج الكثيفة ، مثل جدار منحدر . وقفت حائراً ، تطلعت .... «فكرت قليلا : اها ! ما أنا في المكان الذي اقصده بتاتاً : لقد توغلت كثيراً نحو اليمين» هبطت بخفة من الربوة وانا نفسي متعجب من غلطتي . احتوتني حالا رطوبة بغيضة جامدة ، كأنني دلفت الى سرداب تماماً ، العشب الكثيف العالي على ارض الوهدة مثقل بالندى حتى بات ابيض كغطاء المنضدة ، كان المسير فيه مرعباً . مضيت بأسرع ما يمكن الى الجانب الآخر وسرت متوغلا الى اليسار على امتداد غابة الحور . حامت الخفافيش فوق قمم اشجارها الوسنانة وهي تدور بغموض وترتعش تحت السماء الكدرة الباهتة ، طار باشق متأخر على ارتفاع عال بانتباه واستقامة مسرعاً نحو عشه ... «فكرت في دخيلتي – اذا ما خرجت الى ذلك الركن فاني واجد – لامحالة – الدرب ، لقد قطعت فيرستاً خارج طريقي !»

وصلت اخيراً الى ركن الغابة ، لم يكن هناك اي طريق : ثمة شجيرات واطئة لم تقتلع ، انتشرت برحابة امامي وخلفها بعيداً تراءى حقل قفر . وقفت مرة أخرى . «ما الخطب ؟ ... أين أنا اذن » شرعت أتذكر كيف واين سرت في غضون النهار ...» «هتفت أخيراً – ها ! هذه شجيرات باراخين ! بالتأكيد ! وتلك لا ريب غابة سينديف ... كيف جئت انا الى هنا ؟ بعيداً الى هذا الحد ؟ .... انه لأمر عجيب ! ينبغي الآن الاتجاه يميناً مرة اخرى» .

سرتُ يمنة عبر الشجيرات . كان الليل يدنو في تلك الأثناء ، ويتنامى كغيمة رعدية ، لاح وكأن العتمة تنداح جنباً الى جنب الضباب المسائي ، من كل صوب ، بل تنساب حتى من الاعالي . عثرت على درب غير مطروق مكسو بالعشب ، اتجهت فيها وانا أنظر بانتباه أمامي .

حطت الظلمة سريعاً فيما حولي وخيّم الهــدوء ، ظلت طيور السُــماني تصيح وحــدها أحياناً . اندفــع طير ليلي صــغير مــــرفرفاً بجناحيه الرقيقتين بسكون وعلى مستوى خفيض ، كاد ان يصطدم بي ثم غاص على جهة وهو مرتعب . خرجت الى طرف حرش الشجيرات وطفت على تخوم الحقل . امسيت لا اميز الاشياء البعيدة الا بمشقة ، اخذ الحقــل فيما حولنا يغدو ابيض غامضاً ، كانت تتحــرك وراءه كل لحــظة غيوم هائلة وتتصاعد دياجير عابسة . تردد صدى خطواتي أصم في الهــواء البارد . وما فتئت السماء الشاحبة أن احتوتها الزرقة مرة ثانية . لكن تلك الزرقة كانت زرقة الليل ، طفقت النجوم تمر بسرعة وتتحرك .

تكشف ما حسبته غابة ، عن هضبة صغيرة مستديرة مــظلمة . كررت الهتاف بصوت عال مرة اخرى «اين أنا إذن ؟» وقفــت للمــرة الثالثة ، نظرت مســتفسراً الى كلبتي الانكليزية ديانا ، المبقعــة بلون اصــفر ، والتي تُعتبر قطعاً مــن أذكى جميع المخلوقــات ذات القــوائم الاربع . اكتفت بهز ذيلهــا القصــير ، رمشــت بعينيهــــا المتعبتين بكآبة ، ولم تمحضني أية نصيحة عملية . تملكني الخجل أمامها ، فاندفعت قــانطاً الى الأمام ، كأنني حدست على حين غرة الطريق الذي ينبغــي الســير فيه ، استدرت حول الهضبة ، وجــدت نفسي عند وهــدة محــروثة غير عميقة . غشاني تواً شعور غريب . تتخذ هذه الوهدة شكل مِــرْجل دقيق تقريباً ، له جانبان منحدران تدريجياً ، وتنتشر في قاعها بضعة أحجــار كبيرة بيض منتصبة ، يبدو انها تسللت الى هنا لعقــد اجتمــاع سري ، كان كل شيء في الوهدة أخرس مقفراً ، ويا لكآبة السماء التي انبسطت فوقها ، حتى إن قلبي تملكه الانقباض . صأصأ حيوان ما واهناً حزيناً بين الاحجار . اسرعت لأعود ادراجي الى الهضبة . لم يفارقني الأمــل حتى اللحظة الفائتة في العثور على الدرب المفضي الى البيت ، امــا الآن فقد أيقنت نهائياً ، اني ضللت طريقي تمــاماً ، لم اســع ولو قليلا ، الى معرفة الأمــاكن المحيطــة بي ، التي غرقــت كلياً في الظــــلام ، سرتْ

باستقامة امامي مسترشداً بالنجوم ، يحدوني الرجاء بشيء افضل ... امضيت زهاء نصف ساعة على هذا النسق وكنت اجرّ قدمي بصعوبة ـ بدا لي أنني لم ازر في حياتي بتاتاً مثل تلك الأماكن المقفرة : لم يلح بصيص نور اينما كان ، لم يسمع اي صوت . كانت الهضاب المنحدرة يتبع بعضها بعضاً ، تمتد الحقول المترامية واحداً تلو الآخر ، تنتصب الشجيرات وكأنها تنبعث فجأة من الارض ، امام انفي . بقيت سائراً ، كنت ازمع أن أضطجع في أي مكان حتى الصباح ، واذا بي اجد نفسي على حين غرة فوق هاوية مروعة .

سحبت على عجالة قدمي الممدودة ، رأيت سهلا رحباً بعيداً تحتي من خلال عتمة الليل الشفافة قليلا . تلوى نهر عريض حوله على شكل نصف دائرة ابتداء من المكان الذي اقف عليه ، جعل مجراه واضحاً لمعان المياه الفولاذي الذي شع بوهن احياناً . انحدر فجأة التل الذي كنت فوقه ، انحدار هاوية شاقولية تقريباً ، تجلى شكله الضخم المسوّد من خلال الفراغ الهوائي الازرق ، اضطرمت شعلة حمراء لنارين موقدتين جنباً الى جنب وتعالى دخانهما تحتي مباشرة في الركن المتكون من تلك الهاوية والسهل ، وعلى مقربة من النهر الذي يصبح ، في هذا المكان ، مرآة معتمة جامدة الحركة وفي أسفل منحدر التل تماماً . عَجّ الناس حولهما ، اهتزت الظلال ، كانا يضيئان أحياناً بسطوع النصف الامامي لرأس صغير اجعد الشعر ...

عرفت أخيراً المكان الذي أنا فيه ، ان هذا المرج مشهور في ربوعنا باسم مرج بيجين ... بيد أن امكانية العودة الى البيت أمست مستحيلة ، لاسيما في اثناء الليل ، لقد تخاذلت ركبتاي من الاعياء . قررت الذهاب باتجاه النار ، كي انتظر بزوغ الفجر بصحبة اولئك الناس الذين حسبتهم من الرعاة . هبطت بسلامة الى الاسفل ، لكن ما كدت أفلت من يدي الغصن الأخير الذي تمسكت فيه حتى هاجمني بغتة كلبان كبيران أبيضان أشعثان وقد أطلقا نباحاً مسعوراً . تعالت

اصوات طفولية رنانة حول النار ، نهض صبيان أو ثلاثة بسرعة من الأرض . اجبت على صيحاتهم المستفسرة . هرعوا نحوي ، منادين الكلبين اللذين أدهشهما خصوصاً ظهور كلبتي ديانا وسرت صوبهم .

اخطأت حينما ظننت اولئك الناس الجالسين حول النار رعاة . كانوا اولاد فلاحين ليس غير ، جاءوا من القرى المجاورة لحراسة الخيول. يسوقون عندنا الخيول ليلا إبان فترة الصيف الحار لترعى في الحقول : لا يتركها الذباب العادي وذباب الخيول في النهار في سلام . تعتبر قيادة الخيول قبيل حلول الليل واعادتها مع الفجر عيداً كبيراً لأولاد الفلاحين ، فهم يركبون على اكثر الأفراس حيوية ، بلا قبعات وعليهم معاطف قصيرة عتيقة من فرو الضأن ، يتسابقون زاعقين صارخين بحبور ، يؤرجحون ايديهم وارجلهم وهم يثبون عالياً ويقهقهون قهقهات رنانة . يرتفع غبار خفيف كعمود اصفر ويتدفق في الطريق ، ترن بعيداً ضربات حوافر ودية ، فالخيول تتراكض ، تنتصب آذانها ، ويثب أمامها جميعاً ، رافعاً ذيله ومغيراً خطواته باستمرار ، جواد كستنائي اللون له شيء خشن في عرفه المعقود .

اخبرت الغلمان انني ضللت الطريق وجلست معهم . سألوني من أين انا ، أخلدوا الى الصمت برهة ، تنحوا جانباً . تجاذبنا اطراف الاحاديث قليلا . استلقيت تحت شجيرة قُضمت كل اوراقها وطفقت اتطلع فيما حولي . كان المنظر رائعاً : اختلج انعكاس مستدير باهت الحمرة حول النار ، لاح وكأنه يتلاشى وهو يميل نحو العتمة ، الشعلة تتوهج أحياناً ملقية دفقات سريعة من النور وراء تخوم ذلك الانعكاس ، ثمة لسان رقيق من الضوء يمس أغصان الصفصاف العارية ثم يتوارى على الفور ، اندفعت لومضة خاطفة ظلال حادة طويلة وتدفقت بدورها نحو النيران نفسها : احتدم صراع بين الظلام والضياء . احياناً عندما كانت تضعف وتضيق دائرة الضوء ، يطل فجأة من الظلام الغامر رأس حصان كمَيْت ذي خطوط متعرجة او

ابيض تماماً ويرنو الينا بانتباه وغباوه ، يقضم بسرعة أعشاباً طويلة ، يهبط مرة اخرى ليختفي حـالا : لم يعد يسمع الا صوت اجترارة وصهيله المتواصل . يصعب ان تستبين من المكان المضيء ما يجري في الظلام الخارجي ، لذلك كاد يبدو كل ما هو قـريب ، محجـوباً بسـتار أسود ، غير أن تلالا وغابات غير واضحة كانت تلوح في الأفق ، اشـبه بسُفَح طويلة . ارتفعت السماء الداجية الصافية مهيبة مترامية سـامقة فوقنا ، بكل جلالها الغامض . ضاق صدري بالحلاوة ، وهو يتنشق تلك الرائحة المؤلمة الطرية المتفرده ، رائحة ليالي الصيف الروسية . لا يكاد يسمع حولنا اي صوت تقريباً .... ما خلا سـمكة كبيرة تطبّش احياناً برنة مباغتة في النهر القريب ، ويتململ قصـب الشـاطىء بوهـن ، ولا تهتز الأمواج الجارية سوى هـزات خفيفـة ... كانت النيران وحـدها تهسهس بهدوء .

جلس الصبيان حول النار ، وجلس هناك ايضـاً ذانك الكلبان اللذان رغبا في نهشي . لم يستطيعا طويلا ان يوطنا نفسيهما على وجودي بين ظهرانيهما ، كانا يضيقان عينيهما وينظران الى النار ، يزأران أحياناً يساورهما احساس فريد بجـدارتهما الذاتية ، زأرا بادىء بدء ، ومـن ثمة زعقا زعيقاً خفيفـاً ، كأنهمـا يأسـفان على عدم امـكانية تحقيق رغبتهما . ان مجموع الصبيان خمسـة : فيديا ، بافلوشـا ، ايلوشـا ، كوستا وفانيا . (عرفت اسماءهم في غضون احاديثهم وأود الآن تعريف القارىء بهم .) .

الأول فيديا وهو اكبر الجميع ، لربما تقـدرون عمـره باربعـة عشر عاماً . كان صبياً ممشوقاً ، وجهه ذو قسـمات جميلة رقيقـة صـغيرة قليلا ، شعره أشقر أجعـد ، عيناه رائقتان ، يفتر ثغـره عن ابتسـامة دائمة ، هي مزيج من السرور والشرود الذهني ، تدل جميع الأمـارات على انه ينتمي الى اسرة ثرية ، لم يخرج للحقل بسبب الحاجة وانمـا للتسلية . كان يرتدي قميصاً قطنياً ملوناً ذا حـاشية صـفراء وسـترة

صغيرة جديدة تتهدل مفتوحة غير مستقرة على كتفيه الضيقتين ، وقد تدلى مشط من حزامه الباهت الزرقة . كانت الجزمة الواطئة الساق التي يلبسها جزمته فعلا وليست جزمة ابيه . الصبي الثاني هو بافلوشا ، شعره اسود اشعث ، عيناه رماديتان ، عظماً وجنتيه عريضان ، وجهه شاحب مجدور ، فمه كبير ، لكنه متناسق مع ملامحه ، رأسه ضخم كبرميل الجعة ، كما يقولون عادة ، جسمه دَحْداح غليظ . كان غلاماً خالياً من الجمال ــ وليس بوسعنا إنكار هذا ! ــ ورغم ذلك كان موضع اعجابي : فنظرته مباشرة ذكية وصوته يرن بالقوة لكن ملابسه لا تسمح له بالتباهي : فهي تتكون من قميص كتان عادي وبنطلون مرقع . الشخص الثالث ايلوشا ، ذو شأن ضئيل لحدما : له انف معقوف طويل ، بصره ضعيف ، يلوح عليه نوع من انشغال البال البليد السقيم . لا تتحرك شفتاه المطبقتان ابداً ولا ينبسط حاجباه المقطبان ، يبدو وكأنه يضيق عينيه من النار . تناثر شعره الأصفر او الأبيض تقريباً بخصل وخازة من تحت قبعة لباد واطئة كان يميلها مراراً بكلتا يديه نحو أذنيه ، يحتذي خُفاً جديداً مع لفافات قماش على ساقية ، ينجدل حبل سميك ، ثلاث مرات ، حول خصره ويشد سترته السوداء النظيفة بعناية . يدل مظهره ومظهر بافلوشا على ان عمرهما لا يتجاوز الاثنتي عشرة سنة . الرابع كوستا ، صبي يبلغ العاشرة من عمره أو يكاد ، وقد أثارت فيَّ نظرته المتألمة الكئيبة حب الاستطلاع . ان وجهه عموماً غير كبير ، نحيف وأنْمَش ، القسم الأسفل منه مدبب كما هو شأن السنجاب ، اما شفتاه فلا تكادان تلحظان ، لكن عينيه الواسعتين السوداوين اللامعتين ببريق خفيف يتركان انطباعاً غريباً ، انهما تلوحان وكأن بودهما ان تقولا شيئاً لا يجد اللسان ــ أو على الأقل لسانه ــ كلمات للتعبير عنه . كان قصير القامة ضئيل البنية ، ملابسه بائسة تقريباً . الاخير هو فانيا ، كدت لا الحظ وجوده بادىء الامر ، فقد استلقى هادئاً على الأرض والتف تحت قماش جنفاص ذي

زوايا ، كان لا يخرج رأسه البني الأجعد من تحته إلا لماماً . يبلغ عمر هذا الطفل سبع سنوات .

هكذا انتحيت جانباً واضطجعت تحت شجرة ومن هناك تطلعت اليهم بين فينة واخرى . ثمة قدر صغير فوق النار ، تُطهى فيه «البطاطس» . قام بافلوشا بالاشراف عليه ، وهو جاث على ركبتيه ، كان يخبط الماء الفائر بعود خشبي . انبطح فيديا ، واتكأ على كوعه ونشر سترته حوله . جلس اليوشا الى جنب كوستا وهو يزّر بين عينيه متوتراً . خفّض كوستا رأسه قليلا ونظر بعيداً في مكان ما ، لم تند عن فانيا اي حركة من تحت قماش الكيس . تظاهرت بالنوم . شرع الصبيان مرة اخرى يتجاذبون اطراف الحديث تدريجياً .

اخذوا بادىء بدء يثرثرون حول هذا وذاك من أعمال الغد والخيول ، التفت فيديا على حين غرة الى اليوشا وكأنه يتابع مجدداً الحديث الذي انقطع حبله ، فسأله :

ــ حسناً ، وماذا عنك ، هل رأيت جنياً ؟

أجاب اليوشا بصوت أبح واهن تتناسب نغمته مع تعبير وجهه تماماً ــ كلا ، لم أره ، ولا يمكن رؤيته ، لقد سمعت به ... لست وحدي دون ريب .

سأل بافلوشا ــ وأين يحيا عندكم ؟

ــ في غرفة اللفات الاسطوانية القديمة(*) .

ــ اتعني أنك تشتغل في المعمل ؟

ـ طبعاً ، اشتغل أنا واخي افدوشكا صَاقِلين(**) .

ـ اذن ، انتما عاملان في المعمل ! ....

★ ــ تسمى «غرفة اللفات الاسطوانية» و «حجرة الغَرْف» في معامل الورق ذلك المكان حيث يغترفون الورق في الخوابي . ويقع عادة عند القنطرة تحت العجلة ««ملاحظة الكاتب» .

★★ ــ الصَاقِلان ــ يصقلان ويحجبان الورق (ملاحظة الكاتب) .

سأل فيديا ـ طيب ، كيف سمعته ؟
ـ على هذا النسق . كنت بصحبة اخي افدوشكا وفيدور ميخيفسكي وايفاشكا كوسيا وايفاشكا الآخر من تلال كراسني وكذلك ايفاشكا سوخوروكوف ، كان معنا فتيان آخرون ، بلغ عددنا حوالي عشرة أشخاص ، أعني وَرْدِيّة المعمل كلها ، اتفق ان قضينا الليل في غرفة اللفات الاسطوانية ، اعني لم يتفق ذلك مصادفة ، وانما منعنا المراقب نزاروف من الانصراف ، وقال : «أترون ايها الصبيان ، لا حاجة «ان تتسكعوا قاصدين البيت ، غداً . لدينا عمل كثير ، فلا تذهبوا ايها الصبية الى البيت» . بقينا آنئذ واضطجعنا جميعاً معاً . ثم شرع افدوشكا يتحدث وقال : تصوروا ايها الصبية أن جنياً سيظهر ؟ ... لم يكن افدي قد أنهى كلامه بعد عندما سمعنا بغتة احداً يسير فوق رؤوسنا ، بيد »أننا رقدنا أسفل الدولاب وسار هو الى الاعلى . سمعناه : يسير متنقلا ، تثنت الألواح تحته وطقطقت . ثم مر فوق رؤوسنا ، وهدرت المياه فجأة في الدولاب ، قرقع الدولاب وقرقع وبدأ يدور انخفضت البوابات عند الواقي . «***» اخذنا العجب : من ذا الذي رفعها بحيث دخل الماء اليها ، ومع ذلك دار الدولاب ودار ثم توقف . سار مرة اخرى نحو الباب ثم الى الاعلى وطفق يهبط بالسلم ، هبط وكأنه غير متعجل ، السلالم تحته تئن من ثقله ... ها هو ذا قد دنا من بابنا ، انتظر ، انتظر قليلا ، واذا بالباب ينفتح بدفعة واحدة . استبد بنا الرعب ، تطلعنا فلم نر شيئاً ... حدقنا بغتة ، واذا باحدى خوابي الشكل**** قد تحركت ، ارتفعت ، غطس ، مشى ومشى في الهواء كما لو ان امرءاً يلاطفه ، ثم عاد ثانية الى مكانه . انخلع بعدئذ المِشْبَك

★★★ ـ الواقي ـ يسمى عندنا الواقي ذلك المكان الذي تتدفق منه المياه الى العجلة (ملاحظة الكاتب) .

★★★★ خابية الشكل ـ شبكة لغرف الورق . (ملاحظة الكاتب) .

عن مسماره وعاد اليه مرة اخرى . كأن احداً تحرك بعدئذ نحو الباب وسعل على حين غرة سعالا عاليا ، غصّ كما لو انه خروف يثغو ... انبطحنا جميعاً كالكومة ، زحفنا تحت بعضنا بعضاً ... وكم تملكنا الفزع في تلك اللحظة !

قال بافل ـ هكذا إذن ! لماذا سعل على تلك الشاكلة ؟

ـ لست ادري ، لعله بسبب الرطوبة .

اخلد الجميع الى الصمت .

سأل فيديا ـ وماذا عن البطاطس هل تم طهوها ؟

تحسسها بافلوشا .

ـ كلا لم يكتمل طهوها بعد ، ثم اضاف قائلا ، بعد ان أدار وجهه صوب النهر : هناك طرطشة ، لاشك انها سمكة الكراكي .... انظر ثمة نجيمة تنساب .

قال كوستيا بصوت رقيق ـ كلا يا اخوتي ، لدي حقاً ما احدثكم به ، اصغوا الى ما قصّه علي ابي عندما كان هناك .

قال فيديا بمظهر من يحسن بسط حمايته على الآخرين : حسناً ، نحن نصغي اليك .

ـ انتم تعرفون النجار غافريلا في الضيعة ؟

ـ طبعاً ، نعرفه .

ـ أتدرون لماذا هو كئيب وصامت دائماً ، أتدرون ؟ هذا هو مبعث كآبته : قال أبي ، ذهب ذات مرة ، ذهب يا اخوتي الى الغابة لجمع الجوز . ذهب الى الغابة من اجل الجوز وضل طريقه ، وصل الى مكان ما ، الله اعلم ، الى اين وصل . سار ، سار يا اخوتي ، كلا ! لم يستطع الاهتداء الى الطريق ، كان الليل قد هبط في الخارج . جلس تحت شجرة ، وقال لنفسه ، لانتظر حتى الصباح ، جلس وأغفى . وبينما هو كذلك اذا به يسمع فجأة احداً يناديه . تطلع فلم ير احداً . اغفى مرة اخرى ، نادوه ثانية . تطلع مراراً واذا بحورية تجلس على الغصن ،

أمامه ، تتأرجح وتدعوه اليها ، بينما هي تموت من الضحك ، وظلت تضحك ... اضاء القمر بقوة ووضوح كبيرين ، حتى اصبح كل شيء مرئياً يا اخوتي ، ها هي ذا تدعوه ، كم كانت هي نفسها مضيئة كلها ، تجلس بيضاء على الغصن كأنها سمك المِنوة الصغيرة او الشبوط او لعلها تشبه نوعاً من الشبوط الأبيض كله او الفضي ... كاد النجار غافريلا ياأخوتي ان يموت يا اخوتي هلعاً ، وهي ، أتعرفون ، تقهقه وتظل تومىء اليه بيدها داعية إياه للدنو منها . أوشك غافر يلا على النهوض إلا قليلا واطاعة الحورية ، لكن الرب ، يا اخوتي أوحى اليه بفكرة : ان يرسم اشارة الصليب ... كم كان عسيراً عليه رسم اشارة الصليب ، يا اخوتي ، لأن يده كانت حقاً كالحجر لا تتحرك ... لم يستطع المسكين القيام بذلك ! ... لكنه ما إن أفلح برسم إشارة الصليب ، يا اخوتي حتى كفت تلك الحورية عن الضحك ، واذا بها تنحب فجأة ... انتحبت يا اخوتي ، ساطت عينيها بشعرها ، وكان شعرها أخضر كخيوط القنب . رنا ، رنا غافريلا اليها وطفق يسألها : «ما بالك تنتحبين يا فاجرة الغابة ؟» واذا بالحورية تجيبه : «لو لم ترسم علامة الصليب أيها الكائن البشري ، لعشت معي مسروراً حتى آخر ايامك ، انتحبُ ويقتلني الاسى بسبب رسمك إشارة الصليب ، لن يقتلني الحزن وحدي فحسب ، وانما ستظل انت حزيناً ايضاً الى آخر أيام حياتك» . توارت حينئذ يا اخوتي ، وأدرك غافريلا تواً ، أعني ، كيف يخرج من الغابة ... لكنه منذ ذلك الحين أصبح يروح ويغدو تغشاه الكآبة . قال فيديا بعد هنيهة من الصمت ــ اها ! كيف يمكن لمثل تلك الروح الشريرة في الغابة ان تفسد روحاً مسيحية ، لقد ذكرت انه لم يطعها أوليس كذلك ؟

قال كوستيا ــ لا تصدق هذا ، لكن ذلك ما حصل . زعم غافريلا ، ان صوتها نحيف ، نحيف وشجي كصوت العُلْجُوم .

تابع فيديا كلامه ــ هل أبوك نفسه روى لك ذلك ؟

ـ هو نفسه ، كنت مستلقياً على سريري ، وسمعت ذلك كله .

ـ يالها من حكاية عجيبة ! لكن لماذا أمسى كئيباً ؟ واذا كانت قد دعته اليها ، فهذا يعني انه كان موضع إعجابها .

قاطعهم اليوشا ـ اجل ، كان موضع اعجابها ، ولم لا ؟ خالجتها رغبة في مداعبته ، ذلك ما رغبت به ... وهذا من شيمتهن ، حوريات البحر تلك ،

علق فيديا قائلا ـ لا شك في وجود حوريات الماء هنا ايضاً ...

اجاب كوستيا ـ كلا ، المكان هنا نظيف وطليق . شيء واحد فقط ـ النهر قريب .

لاذ الجميع بأذيال الصمت . ضج فجأة في مكان ناء صوت متواصل رنان اشبه بالنواح ، انه احد الاصوات الليلية المبهمة وهو يتعالى أحياناً من السكون العميق ، يرتفع ، يحوم في الأثير ، ثم ينتشر ببطء ، كما لو انه يتلاشى اخيراً . ترهف سمعك وكأنه لا يوجد شيء ، ومع ذلك فثمة طنين . تبين فيما بعد ، ان مجهولا يصيح صيحات لمدة طويلة عند الأفق وأن احداً آخر يجيبه من الغابة بقهقهة رفيعة حادة ، انطلق صفير ضعيف مهموس عبر النهر . تطلع الصبيان الى بعضهم بعضاً واعترتهم الرعشة ... همس ايليا ـ احفظنا ايها الرب !

صرخ بافل ـ تبأ لكم من حمقى ! ما الذي حملكم على القلق ؟ انظروا هل تم طهو البطاطس ؟

(اقترب الجميع من القدر الصغير وشرعوا يأكلون البطاطس والبخار يتصاعد منها ، ماعدا فانيا فانه لم يحرك ساكنا) . سأله بافل ـ ما بالك؟

بيد انه لم يتسلل من تحت قماش الجنفاص . سرعان ما فرغ القدر الصغير برمته .

ابتدأ اليوشا الحديث ـ هل سمعتم ايها الصبيان ما وقع عندنا من مغامرات في فارنافيتسي؟

سأل فيديا ـ اتعني عند ذلك السد؟
ـ أجل ، أجل ، عند السد المتصدع . انه مكان غير نظيف حقا ، مقزز وموحش . كم من الاخاديد والمسايل حوله ، وفي المسايل مجموعات من الافاعي .
ـ حسنا ، وما هي الحادثة التي وقعت؟ احك لنا ..
ـ اليكم ما حدث ... لعلك لا تعرف يا فيديا ، أن أحد غرقانا دفن في ذلك المكان ، لقد غرق منذ أمد بعيد ، حينما كانت البركة ما تزال عميقة ، بيد أن ثمة بلاطة يمكن رؤيتها ، وهي لا ترى الا قليلا كالأكمة الصغيرة ... دعا الوكيل ، يرميل ناظر الكلاب قبيل أيام وقال له : ((اذهب يا يرميل واجلب البريد)) . اعتاد يرميل السفر دائما لجلب البريد عندنا ، ان جميع كلابه لا تظل على قيد الحياة ، لا تعيش عنده لسبب ما ، ولم تكن لتعيش قط ، رغم انه ناظر كلاب جيد ، تتوافر لديه جميع المزايا اللازمة . على اية حال مضى يرميل لجلب البريد ، تباطأ في المدينة ، ثم عاد أدراجه وهو ثمل . هبط الليل ، ليل ساطع ، القمر مضيء ... وها هو يرميل يعبر السد : حسبما يقتضيه الطريق الذي يسير فيه . يمضي يرميل ناظر الكلاب ويرى حملا أبيض اجعد جميلا يتمشى حول قبر الغارق . خطرت ليرميل فكرة : ((فلاخذه معي ، لماذا يضيع سدى هنا)) . ترّجل عن حصانه وأمسكه بيده .... لم يحرك الحمل ساكنا . رجع يرميل الى الحصان واذا بالحصان يحملق به ، يبتعد عنه ، يشخر ويهز رأسه ، ومع ذلك افلح في تهدئته ، امتطى صهوته ومعه الحمل وسار مرة اخرى ، وضع الحمل أمامه وأمسك به : نظر اليه واذا بالحمل يحدق مباشرة في عينيه . استولى الرعب على يرميل ناظر الكلاب ، قال في نفسه ، لا اذكر انني رأيت حملا يحدق هكذا في العينين ، ولكن لا خير في ذلك ، طفق يربت على صوفه ويقول ((أيها الحمل ، الحمل)) فجأة كشر الجمل عن اسنانه واخذ يردد ايضا : ((ايها الحمل ، الحمل ....)) .

لم يكد الراوي يفوه بهذه الكلمة الاخيرة حتى نهض الكلبان بغتة ، ابتعدا دفعة واحدة عن النار ، اندفعا وهما ينبحان نباحاً متشنجا وتواريا في الظلام . فزع الصبيان جميعهم ، وثب فانيا من تحت جديلة القماش . انطلق بافلوشا وهو يزعق وراء الكلاب . سرعان ما اصبح نباحها على مدى بعيد ..... سمعت جلبة مضطربة بين الخيول القلقة . صاح بافلوشا بصوت عال :((الأشهب الخنفساء)) مضت بضع لحظات ثم تلاشى النباح ، كان صوت بافل يأتي من بعيد ... مرت برهة وجيزة اخرى .. نظر الصبيان الى بعضهم بعضا نظرات حيرى ، كما لو انهم يتوقعون شيئا ما .... رن بغتة وقع اقدام حصان يعدو نحوهم ووقف بقوة مفاجئة عند حافة النار ، كان بافلوشا فوقه ، قفز بخفة عنه ، وقد تشبث بعرفه . وثب الكلبان ايضا في دائرة الضوء ، جلسا في الحال ومدا لسانهما الاحمرين ..

سأل الصبية ــ ماذا هناك؟ مالخبر؟

أجاب بافل ، وهو يومى بيده للحصان طالبا منه الابتعاد ــ

ــ لا شيء ، شم الكلاب رائحة ما ، استطرد قائلا بصوت لا مبال وصدره يتنفس تنفسا حثيثا : أظن أنه ذئب .

أثار بافلوشا اعجابي دون وعي مني . كان حلوا في هذه اللحظة . تألق وجهه العادي ، المنتعش ، من العدو السريع ، ببسالة مقدامة وعزيمة صلبة . عدا بمفرده وراء الذئب ليلا ، دون عصا في يده للسيطرة على الحصان ، ولم يتردد قيد انملة .... فكرت وأنا أتطلع اليه ((ياله من فتى رائع !)) .

سأل كوستيا بجبن ــ وهل رأيتهم ، اولئك الذئاب ، أرأيتهم؟)) .

أجاب بافل ــ انهم كثيرون هنا دائما ، لكنهم لا يهيجون الا شتاء فحسب .

عاد واخذ مكانه امام النار . القى يده ، وهو يفترش الارض على القذال الكث لاحد الكلبين ، لم يدر الكلب المنشرح رأسه لمدة طويلة ،

كان ينظر جانبيا بامتنان فخور الى بافلوشا . توارى فانيا مرة اخرى تحت جديلة القماش .

انشأ فيديا بالحديث ـ الذي ينبغي ان يكون له فيه دور القائد باعتباره ابن فلاح ثري (كان مقلا في كلامه كأنه يخشى ان يفقد هيبته) ـ اليوشا ، يالها من اشياء مريعة حدثتنا عنها ، اجل لابد من وجود ارواح شريرة جعلت الكلاب تنبح ... لقد سمعت ، بالضبط ، ان هذا المكان غير خال من الارواح .

ـ أتعني فارنافيتسي؟ .... بالتأكيد انه حافل بالارواح .

يقول البعض انهم رأوا هناك السيد الكبير ، السيد المتوفي ، اكثر من مرة . كان يطوف مرتديا قفطانا طويلا يتدلى الى كعبه ، ويتأوه طوال الوقت ، انه يبحث عن شيء على وجه الارض . التقاه مرة جدي تروفيميتش وسأله : ((ما الذي تبحث عنه في الارض ، أيها السيد الطيب ايفان ايفانيتش؟))

قاطعه فيديا المذهش ـ هل سأله حقا؟

ـ أجل ، سأله .

ـ اذن يا لشجاعة تروفيميتش بعد كل ذاك ... حسنا وماذا أجاب الآخر؟ يقول انه يقطع العشب ، وهذا ما يقوم بالبحث عنه . وياله من صوت خافت ، خافت حينما يقول : يقطع : يقطع العشب ـ وما يجديك قطع العشب ايها السيد ايفان ايفانيتش؟

أجاب ، القبر يضغط علي ، يضغط يا ترو فيميتش واريد الخروج منه ، الخروج ...

علق فيديا قائلا ـ هكذا اذن ، يعني انه عاش حياة قصيرة .

قال كوستيا ـ يا للاعجوبة ! ظننت انه لا يمكن رؤية الموتى الا يوم السبت ، يوم الوالدين .[١]

قال اليوشكا بثقة ، يمكن رؤية الموتى في كل ساعة ـ وبقدر ما استطعت ان الاحظ فقد كان أفضل من الآخرين معرفة بالمعتقدات

الريفية ـ لكن بمقدورك أن ترى في السبت يوم الوالدين ، الاحياء الذين سيأتي دورهم ، اعني من سيموت منهم في تلك السنة . حسبك ان تجلس فقط في الليل عند طنف الكنيسة وتتطلع دائما الى الطريق . حينئذ يمر في الدرب على مقربة منك ، اولئك الذين ستوافيهم المنية في تلك السنة : ذهبت المرأة اوليانا في العام المنصرم الى طنف الكنيسة .

سأل كوستيا بفضول ـ حسنا ، هل رأت احدا؟

ـ لا ريب في ذلك . جلست باديء بدء لمدة طويلة ، طويلة ، لم تر ولم تسمع احدا ..... بيد انه لاح كأن كلبا ينبح وينبح في مكان ما .... نظرت فجأة : واذا بصبي يسير في الدرب مرتديا قميصا لا غير ، حدقت فيه فرأت ايفاشكا فيدوسييف سائراً ...

قاطعه فيديا ـ هل ذلك الذي توفي في الربيع ؟

ـ هو عينه . كان يسير ولا يرفع رأسه .... عرفته اوليانا .... نظرت بعدئذ : رأت امرأة تمشي . تفرست فيها وتفرست ، رباه رحماك انها هي ، اوليانا نفسها تسير في الطريق .

سأل فيديا ـ احقا هي نفسها؟

ـ وأيم الله هي نفسها .

ـ لكنها لم تقض نحبها بعد ، أو ليس كذلك ؟

ـ لم ينصرم العام بعد . وانظر اليها ، الروح متعلقة بخيط واه بالحياة .

لاذ الجميع بالصمت مرة اخرى . كان بافل يرمي حفنة من الاغصان الجافة في النار . اسودت الاغصان اسودادا شديدا من اللهيب الذي اندلع فجأة ، طقطقت ، دخنت ، تغضنت ورفعت اطرافها المحترقة . تدفقت انعكاسات الضوء ، المرتعشة ارتعاشا مندفعا ، في جميع الجهات ولا سيما نحو الاعلى . طارت فجأة ، الله اعلم من أين أتت ، حمامة بيضاء في الانعكاسات مباشرة ، حامت وجلة في مكان واحد ، وقد استحمت كلها ببريق لاهب ثم توارت وهي تصفق جناحيها .

علق بافل قائلا ـ لا ريب انها ضلت الطريق نحو عشها . ستطير الآن حتى تصادف شيئا ، وعندما تعثر عليه تبيت هناك حتى الفجر .

قال كوستيا ـ اسمع ، بافلوشا ، اولا يمكن ان تكون هذه روح انسان طيب تطير الى السماء ، ها؟

رمى بافل حفنة اخرى من الاغصان في النار .

أجاب بعد هنيهة ـ ربما .

بدأ فيديا بالكلام ـ قل لنا من فضلك ، هل امكن رؤية تلك النبوءة السماوية(*) عندكم في شالاموفو؟

ـ اتعني كيف حجبت الشمس عن الرؤية؟ بالطبع .

ـ ألم يستبد بكم الخوف اذن؟

ـ دون ريب ، لسنا وحدنا فحسب . لقد اخبرنا سيدنا ، سلفاً وقال : ((حسناً ، ثمة نبوءة لكم)) . يقولون ، ما ان حطت العتمة حتى غشاه الفزع هو نفسه لدرجة فقد معها وعيه وما ان أغسقت حتى قامت الطاهية في كوخ الخدم ، اتسمع ، واخذت تحطم جميع القدور في الفرن بالملقط : ((انشأت تقول : من به حاجة الى الطعام الان ، هذه نهاية العالم)) وسال حساء الكرنب في كل مكان ويالها من شائعات انتشرت عندنا في القرية تفيد يا اخي ، بان ذئابا بيض تجري على الارض تفترس الناس ، وان طائراً مفترساً يطير ، بل حتى تريشكا** سيظهر ويراه الجميع.

سأل كوستيا ـ من هو تريشكا هذا؟

قال اليوشا في حماسة ـ اولست تعرفه؟ حسنا ، يا أخي ،اين تعيش أنت حتى لا تعرف تريشكا؟ اليس عندكم سوى المغفلون في قريتكم ،

★ يطلق الفلاحون عندنا هذه التسمية على كسوف الشمس (ملاحظة الكاتب) .

★★ ثمة خرافة حول تريشكا ، من المحتمل انها تعكس الاسطورة حول المسيح الدجال . ملاحظة الكاتب) .

فقط لا غير ! ان تريشكا هذا لانسان مدهش حقا ، سيأتي ، ويأتي كأنسان مدهش حقا ، فليس بمقدور احد الامساك به ، او عمل اي شيء له ، انه لانسان مدهش حقا . اراد الفلاحون ، مثلا ، الامساك به ، خرجوا اليه بالعصي ، احاطوا به ، لكنه حول اعينهم بشكل ، حتى انهم اخذوا يضربون بعضهم بعضا . يضعونه في السجن مثلا ، يطلب منهم جلب الماء له بالمغرفة ليشرب منها : يجلبون له المغرفة ، يثب فيها ويصبح اثرا بعد عين . هبهم يضعون السلاسل في يديه ، لكنه يصفق راحتيه فتتهاوى السلاسل . يظل تريشكا هذا بعدئذ ينتقل في القرى والمدن ، وسيظل ، تريشكا هذا امرءأ داهية ، يغري الجمهور المسيحي ... ولا يمكن عمل اي شيء له ... سيظل امرءأ مدهشاً داهية على هذه النسق ..

واصل بافل كلامه بصوته غير المتعجل ـ اجل هذا هو ديدنه ـ ها هوذا من انتظره الجميع . قال الشيوخ . ما ان تظهر النبوءة السماوية ، حتى يأتي تريشكا . وها قد بدأت النبوءة . تدفق الناس كلهم الى الشارع والحقل ، انتظارا لما سيحدث . المكان مرتفع ، فسيح عندنا ، كما تعرفون ، ويمكن رؤية كل شيء . الجميع يتطلعون ، جاء على حين غرة من الضيعة الى الجبل امرؤ ما ، يا لغرابة شكله ويا لرأسه العجيب ..... اخذ الجميع يصرخون .... ((اي ، تريشكا آت ! أي ، تريشكا آت!)) ركض الجميع في كل الاتجاهات بحثا عن مكان يختبئون منه ... تسلل كبير القرية الى حفرة ، بينما رمت زوجه نفسها في كوة تقع الى اسفل رتاج البوابة وزعقت زعيقا اخاف كلبها الذي يقوم بالحراسة ، حتى انه حطم سلسلته ، وثب فوق السياج وولى هاربا الى الغابة . قفز الأب كوزكين دوروفيتش بين الشوفان ، جلس هنالك القرفصاء وشرع يصرخ مثل طير السماني : ((لاشك ان تلك الروح عدو مهلك للانسان ، لكن لتأخذها الشفقة ولو على طائر مسكين .)) هكذا سرى الهياج في الجميع ! بينما كان الشخص القادم هو فافيلا ، صانع

البراميل عندنا : الذي ابتاع وعاء معــدنيا جــديدا ، ووضـــع الوعاء الفارغ ، في اثناء سيره ، فوق رأسه .

ضحك الصبية كلهم ثم اخلدوا هنيهة الى الصمت مرة اخرى ، كمـا يفعل غالبا الناس الذين يتحدثون في الهواء الطلق . تطلعت حولي : واذا الليل يتجلى مهيبا جليلا ، حلت حرارة منتصـف الليل الجـافة محـل الغضارة الرطبة لاواخر المســاء ، كان يتأتى ان تسـتلقي طـويلا مثل غلالة طرية فوق الحقول الوسنانة ، وما فتيء الوقـت مبكرا لانتظـار همهمـــة الصـــباح الاولى ، ونداوة الفجـــر الاولى وحفيفهمـــا وخشخشتهما . لم يطل القمر بعد في السماء ، فهو يبزغ متأخــرا في تلك الحقبة . لاح عدد لا يحصى من النجوم الذهبية ، عامــت بهــدوء وهــي تومض احيانا باتجاه درب المجرة ، حقا ، حينما ترنو اليهــا يسـاورك شعور مبهم ، بجــريان الارض الحثيث غير المتصــل .... دوى مــرتين متتابعتين ، وعلى حين غرة ، صراخ مرعب حاد عرضي عبر النهر ، تردد بعيدا بعد مضي بضع لحظات .....

انتفض كوستيا مختلجا : ((ما هذا؟)) .

أجاب بافلوشا بهدوء ــ هذا صراخ مالك الحزين .

كرر كوستيا ــ مالك الحزين ، ماهو يا بافلوشا ، اضاف بعــد برهــة صمت قصيرة ــ سمعته مساء امس ، لعلك انت تعرف ....

ــ ماذا سمعت؟

ــ هذا ما ســمعته . كنت ســائرا في ذلك المكان حيث ســلسلة الربوات الحجرية في شاشكينو ، مضــيت في البداية على امتداد اشــجار البلوط العائدة لنا ، ثم مشيت عبر المرج ، أتدري ، هناك حيث يتشكل ما يشبه الملف الضـــيق*، هنالك توجـــد بحيرة جبلية**، اتدري ، ان

★ الملف الضيق ــ انعطاف حاد في الوادي (ملاحظه ...)

★★ البحيرة الجبلية ــ تجويف عميق ملاته مياه الربيع يظــل مــوجودا حتى بعــد الســيول الربيعية ولا يجف حتى في الصيف (ملاحظة الكاتب)

القصب نما فيها ، سرت قرب هــذه البحيرة الجبلية يا اخــوتي ، واذا بكائن ما يئن فجأة أنينا مثيرا ، مثيرا في تلك البحيرة : اووه ...اووه ... اووه ! اي فزع انتباني يا اخوتي : كان الوقــت متأخــرا ، ويالـه مــن صوت عليل ـ لاح لي انني على وشك البكاء انا نفسي .... ماذا يمكن أن يكون ذلك؟ ها؟

علق بافلوشا قائلا ـ في الصيف المنصرم اغرق اللصــوص حــارس الغابة اكيم في هذه البحيرة ، اذن ، لعل روحه تتظلم .

عارض كوستيا مــوسعا عينيه الكبيرتين في الاصــل ـ حســنا ، يا اخوتي ، لابد ان يكون هكذا .... لكني لســت ادري ان اكيم هــو الذي اغرقوه في البحيرة : ولو عرفت لما استبد بي الفزع لتلك الدرجة .

استطرد بافل قائلا ـ يقولون ايضا ثمة نوع من الضفادع الصــغيرة تطلق مثل هذا الصراخ المتظلم .

ـ ضفادع؟ كلا ، ماهذه بالضفادع،انها ضرب ... (صاح مالك الحزين مرة اخرى فوق النهر) ثم قال كوستيا عفويا اصــغ اليه! كأن عفــريتا يصيح .

أوضح اليوشا مفسرا ـ العفريت لا يصيح ، فهــو ابكم ، انه يصــفق راحتيه ويطقطق فقط ....

قاطعه فيديا باستهزاء ـ انت رأيت ذلك العفريت ، اوليس كذلك؟

ـ كلا لم أره ، وقاني الرب رؤيته ، لكن الاخرين رأوه : قبيل أيام التف حول فلاح عندنا ، طاف به في الغابة وحول ســهل واحــد فحســب ... استطاع العودة الى بيته عندما اوشك الضوء ان ينبلج .

ـ حسنا ، وهل رآه؟

ـ رآه . يقول انه كبير كبير ، معتم ومتدثر ، كأنه واقف وراء شــجرة ، فلا تراه بوضوح ، كما لو انه يختبيء من القمر ، يتطلع ، يتطلع بعينيه الخبيثتين ، يرمش ويرمش ....

هتف فيديا الذي اعترته رعشة خفيفة وهــز كتفيه ـ حســبك هــذا ،

فو ! ....

علق بافل ـ لماذا وجدت هذه المخلوقات الشيطانية في العالم؟ انني لا افقه حقا سببا لوجودها .

قال ايليا ـ لا تشتمه : فهو يسمعك ، سترى .

خيم الصمت مرة اخرى .

رن على حين غرة صوت فانيا الطفولي ـ انظروا الى الاعلى انظروا الى الاعلى ايها الفتيان ، تطلعوا الى نجوم جلالته تعالى ، انها تعج كالنحل ؟

اخرج وجهه الصغير الغض من تحت جديلة القماش ، اتكأ على قبضته الصغيرة ، رفع عينيه الواسعتين الوادعتين الى الاعلى . اشرأبت ابصار الصبية جميعهم الى السماء ولم يخفضوها الا بعد برهة من الوقت .

قال فيديا ملاحظاً ـ قل لي ، يافانيا هل اختك انوتكا موفورة الصحة؟

أجاب فانيا بلثغة جفيفة ـ انها بخير .

ـ سلها ، ما سبب عدم مجيئها الينا؟ ....

ـ لست ادري .

ـ قل لها ، ان تأتي .

ـ سأقول لها .

ـ قل لها ، سأعطيها هدية .

ـ هل تعطيني انا كذلك؟

ـ سأعطيك انت كذلك .

تأوه فانيا .

ـ كلا ، لا حاجة ان تعطيني هدية . الافضل ان تقدمها لها ، انها لطيفة معنا كثيرا .

القى فانيا رأسه مرة اخرى على الارض . نهض بافل وتناول بيده

القدر الفارغ .

سأله فيديا ـ الى اين انت ذاهب؟

ـ الى النهر ، لاجلب شيئا من الماء ، اريد ان أشرب ماء .

نهض الكلبان وسارا خلفه .

صاح اليوشا في اعقابه ـ احذر ان تسقط في النهر !

قال فيديا ـ لماذا يسقط؟ سيكون محترسا .

ـ أجل ، احترس . كل شيء ممكن الحدوث : سينحني ويشرع بغرف الماء ، ويمسكه عفريت الماء من يده ويسحبه نحوه يقولون بعدئذ : سقط الفتى المسكين في الماء .... لكن اي شكل من السقوط هذا؟ اضاف وهو يرهف السمع ـ ها هو قد اصبح بين القصب .

حقا تحرك القصب او ((خشخش)) كما يقولون عندنا .

سأل كوستيا ـ احقا ان اكولينا الدميمة تلك قد فقدت رشدها منذ ان ذهبت الى الماء؟

ـ منذ ذلك الحين .... وهي على وضعها الحالي ! ومع ذلك يقولون ، انها كانت حسناء في السابق ، لكن الذي افسدها عفريت الماء . لم يتوقع على الارجح ان يجروها من الماء سريعا . لقد افسدها عنده هنالك في القاع . (التقيت اكثر من مرة اكولينا تلك . تغطيها الاسمال ، هزيلة هزالا مخيفا ، وجهها اسود كالفحم ، نظرتها غائمة ، اسنانها مكشرة دائما . تتسمر في موضعها ، لساعات طويلة ، في اي مكان من الطريق ، تضغط بشدة يديها المعظمتين الى صدرها ، تنقل ثقل جسمها ببطء مسندة اياه من قدم الى اخرى كأنها حيوان وحشي في قفص . انها لا تفقه شيئا مهما قيل لها ، وتقهقه فقط ، بين الفينة والفينة ، قهقهة متشنجة) .

تابع كوستيا حديثه ـ لكن يقولون ان اكولينا رمت بنفسها في النهر لان حبيبها خدعها .

ـ ذلك هو السبب تماما .

اضاف كوستيا بكآبة ــ اتذكر فاسيا؟

سأل فيديا ــ اي فاسيا؟

أجاب كوستيا ــ ذلك الذي غرق في هذا النهر نفسه . يا له من فتى رائع ، اجل ياله من فتى رائع! كيف كانت امه فيكليستا تلك تحب فاسيا ذاك ! وكأن فيكليستا احست سلفا ان الماء سيكون سببا في موته . كان فاسيا يأتي معنا ، نحن الاولاد ، في الصيف الى النهر لنسبح احيانا ، ويستبد بها القلق عليه دائما . تمر النساء الاخريات على مقربة منا متهاديات وهي يحملن طسوت الغسيل بينما تضع فيكليستا الطست على الارض وتنشأ تناديه : «عد ، عد يا نور حياتي ! آه عد يا صقري الصغير !»

اما كيف غرق فالعلم عند الله وحده . كان يلعب على الشاطيء وأمه هناك ايضا تكوم التبن ، سمعت بغتة كأن احدا يطلق الفقاقيع في الماء ، تطلعت ولم تر سوى قبعة فاسيا تعوم على صفحة الماء . منذ ذلك الحين اختل عقل فيكليستا ، اصبحت تأتي وترقد في ذلك المكان الذي غرق فيه . تضطجع ، يا اخوتي وتبدأ تغني تلك الاغنية ــ اتذكرها ــ التي كان يغنيها فاسيا ، وقد كانت تغني تلك الاغنية وهي تبكي وتبكي ، رافعة شكواها المرة الى الله ...

قال فيديا ــ ها هو ذا بافلوشا قادم .

دنا بافل من النار حاملا بيده القدر الملآن بالماء .

شرع يتكلم بعد توقف قصير ــ حسنا ايها الاولاد ، الامور ليست على ما يرام .

سأل كوستيا متعجلا ــ ماذا جرى؟

ــ سمعت صوت فاسيا .

سرت رعشة في الجميع .

دمدم كوستيا ــ ماذا تقول ، ماذا تقول؟

ــ وأيم الله ما ان اخذت اميل نحو الماء حتى سمعت فجأة صوتا

كصوت فاسيا يناديني كأنه آت من تحت الماء : ((بافلوشا ، هاي بافلوشا)) ارهفت السمع وناداني ثانية ((بافلوشا ، بافلوشا ، تعال هنا!)) فابتعدت . ومع ذلك استطعت ان اغرف بعض الماء .

قال الصبية وهم يرسمون علامة الصليب ، رحماك ايها الرب! رحماك ايها الرب !

أضاف فيديا ـ يقينا ان عفريت الماء دعاك ، وها نحن اولاء كنا نتحدث عنه منذ هنيهة ، عن فاسيا .

قال اليوشا وهو يتوقف بين الكلمات ـ هذا فأل شؤم .

ـ لا شيء البتة ، تناسوه ، نطق بافل ذلك بحزم وجلس مرة اخرى ثم اضاف ـ لن يفلت احد من مصيره .

اخلد الصبية الى الصمت . بدا ان كلمات بافل قد تركت انطباعا عميقا في انفسهم . اخذوا يستلقون امام النار كأنهم يستعدون للنوم .

سأل كوستيا فجأة ورفع رأسه ـ ماهذا؟

اصاخ بافل السمع .

ـ هذه طيور الشنقب تطير وتصفر ابان طيرانها .

ـ الى اين تطير؟

ـ يقولون انها تطير الى ذلك المكان الذي لا وجود للشتاء فيه؟

ـ وهل يوجد مثل ذلك المكان؟

ـ يوجد

ـ اهو بعيد كثيرا؟

ـ ناء ، ناء ، وراء البحار الدافئة .

تأوه كوستيا واغمض عينيه .

مضت اكثر من ثلاث ساعات وانا بجوار الصبية . بزغ القمر اخيرا ، لم الحظ ظهوره اول الامر : لانه كان صغيرا ونحيفا . بدت تلك الليلة غير المقمرة ، مهيبة شأنها شأن ما كانت عليه من قبل ..... لكن اطلت نجوم جمة ، عاليا في السماء منذ قليل ، طفقت تميل نحو الطرف

الداجي من الارض ، خيم سكون مطبق حولنا ، كما يركن عادة كل شيء الى السكون قبيل انبلاج الصبح : اغفى كل شيء تلك الاغفاءة العميقة الساكنة التي تسبق الشروق . لم يعد الهواء فواح الرائحة ، كأن الرطوبة قد شابته مرة اخرى .... يالها من ليال قصيرة ليالي الصيف! .... خمد حديث الصبيان سوية مع خمود النار .... حتى الكلاب اخذتها سنة نعاس ، اضطجعت الخيول ايضاً واحنت رؤوسها فبمقدار ما استطعت ان ارى على الضوء الخافت المنساب واهنا من النجوم ..... استولى علي النعاس واستسلمت للرقاد ....

هب تيار من النسيم الغض على وجهي . فتحت عيني : لقد اطل الصباح . لم يتجل بعد شفق الفجر في اي مكان ، لكن الضوء اخذ يلوح من جهة الشرق . اضحت المناظر كلها مرئية من حولنا ، رغم انها رؤية غير جلية . اضاءت السماء الرمادية الشاحبة وغدت باردة زرقاء ، ومضت النجوم وميضا خافتا تارة وتوارت تارة اخرى ، اصبحت الارض ندية ، اكتست الاوراق بالطل ، صدحت اصوات الحياة وانغامها هنا وهناك ، مرت انسام الصباح الباكر خفيفة تطوف وتخفق على الارض . استجاب بدني لها باختلاجة سرور رقيقة . نهضت برشاقة وسرت نحو الصبيان . كانوا جميعا يغطون في نوم كنوم الموتى حول مكان النار الخابية ، قام بافل وحده ، نهض الى نصفه وتطلع الي بامعان .

اومأت له برأسي وقفلت راجعا الى البيت على امتداد ضفة النهر المجلل بضباب داخن . وما كدت ابتعد فيرستين حتى انساب الشعاع حولي على المرج الفسيح الرطب ، هاهو ذا امامي فوق التلال المخضوضرة ، من غابة لغابة اخرى وورائي على الدرب المغبر الطويل وعلى الشجيرات الساطعة المضرجة بحمرة قانية ، وعلى النهر الذي التمع بلون ازرق خفر من تحت الضباب الاخذ بالاضمحلال ـ تدفق في البداية سيل قرمزي فأحمر ، فذهبي من النور الفتي الدافيء .... تحرك

كل شيء بنبض الحياة ، استيقظ ، ضج ، ثرثر . تلألأت في كل مكان قطرات ندى كبيرة كالماس المشع ، ترامت صوبي اصوات جرس صافية جلية كأنها قد استحمت ايضا ببرودة الصباح الغضة ، وبغتة مرت سراعا الخيول المرتاحة يتعقبها معارفي من الصبيان ...

لابد لي ان اضيف قائلا ان بافل وافته المنية، ويا للاسف ، في تلك السنة – لم يغرق لكن اصيب اصابة قاتلة عندما سقط عن ظهر جواد . وا أسفاه ، كان فتى رائعا !

★ ★ ★

كاسيان من الارض الجميلة

كنت عائدا من الصيد في عربة كثيرة الاهتزاز ، يضايقني قيظ خانق في يوم من أيام الصيف الرطبة (من المعروف ان الحر في مثل تلك الايام يكون احيانا اثقل مما هو عليه في الايام الصافية ولا سيما عندما ينعدم وجود النسيم) . استولى علي النعـــاس ، تأرجحـــت وانا اتجلد بكآبة ، تاركا نفسي فريسة للغبار الابيض الناعم الذي كان يتصاعد بلا انقطاع من تحت عجلات العربة المتصدعة المرتجـــة على الطــريق المحفــورة ، وفجأة اثارت انتباهي حركات جسم الحوذي المضطربة القلقة بصورة غير مألوفة ، كان قد اغفى منذ هنيهة اغفاءة اعمق من غفــوتي . جــر الزمام ، ظل يتحرك في مقعده واخذ يصيح بالخيول ، ناظرا الى جـــانب بين فينة واخرى . تطلعت فيما حولي . كنا نســـير في ســـهل محـــروث منبسط فسيح ، تنحدر نحوه ايضا تلال محـــروثة ، واطــئة كمـــوجات متدفقة بالغة الرقة . احاط نظري بمساحة مقفرة تبلغ حوالي خمســـة فيرستات لا غير ، وفي المنأى حجبت غابات البتولا الصغيرة وحـــدها ، بقممها المستديرة المسننة ، الملامح المستقيمة تقريبا للأفق الســـماوي .

امتدت ممرات ضيقة عبر الحقول ، تاهت في الوهاد ، تصاعدت نحو الهضاب . ترتب علينا ان نشق طريقنا عبر هضبة من تلك الهضاب ، وهي تبعد زهاء خمسمائة خطوة امامنا ، استطعت ان الحظ هنالك موكبا ما . كان سائقي يرنو اليه بالذات .

كان ذلك تشييع جنازة . سارت امام الموكب ببطء عربة تجرها فرس واحدة وقد جلس فيها قس والى جانبه قندلفت كان يقوم بقيادتها ، بينما مشى وراء العربة اربعة فلاحين رؤوسهم عارية ، حاملين التابوت المغطى بقماش ابيض ، سارت امرأتان خلف التابوت ، تناهى الى سمعي فجأة صوت احداهن ، كان رقيقا شجيا ، ارهفت السمع واذا بها تنوح . رن ذلك النواح حزينا متغير النغمة رتيبا قانطا متفجعا وسط الحقول المقفرة . ساط الحوذي الخيل آملا ان يتحاشى الالتقاء بالموكب . انه لنذير سيء الالتقاء بجثة ميت في الطريق . لقد افلح حقا ان يثب الى الطريق قبيل ان يصل موكب الميت اليه ، لكننا لم نكد نقطع مئة خطوة ، حتى اصطدمت عربتنا بغتة وبقوة ، مالت جانبيا ، وأوشكت على السقوط . اوقف الحوذي الجياد المسرعة في العدو ، لوح بيده وبصق .

سألته ــ ماذا حدث؟

نزل الحوذي صامتا ، دون عجالة .

ــ ماذا حدث؟ اجاب متجهما ، انكسر الدنجل .... واحترق ، سحب فجأة بنفس الامتعاض ثفر الفرس ، حتى اوشكت الفرس ان تميل الى جنب تماما ، ومع ذلك فقد وقفت متوازنة ، صهلت ، حركت نفسها وشرعت تحك باسنانها الجزء الاسفل من ساقها الامامية بهدوء بالغ .

ترجلت ، وقفت برهة وجيزة في الطريق ، استسلمت لشعور غامض من الحيرة البغيضة . اوشكت العجلة اليمنى ان تقع كليا تحت العربة وظهر انه يرفع قب الدولاب الى الاعلى بقنوط أبكم .

سألته اخيرا ــ ماذا نعمل الان اذن؟

أجابني الحوذي وهو يومىء بسوطه الى الموكب الذي استطاع ان ينعطف الى الطريق واقترب منا ، وتابع كلامه ـ لقد لاحظت دائما انه لنذير سيء ان تلتقي بجنازة ميت .... انني لعلى يقين من ذلك ..
عاد مرة اخرى لازعاج الفرس التي شاهدت اضطرابه وصرامته فقررت ان تبقى دون حراك ، ظلت تهز ذيلها فقط بوداعه بين فينة واخرى . مشيت بضع خطوات ذهابا وايابا ، توقفت ثانية امام العجلة .

استطاع الموكب في ذلك الوقت اللحاق بنا . حاد بهدوء عن الطريق وانحرف صوب العشب ، مر الركب الحزين بالقرب من عربتنا . رفعنا انا والحوذي قبعتينا ، تبادلنا الانحناء مع القس والنظرات مع حاملي الجثمان . ساروا بمشقة ، ارتفعت صدورهم العريضة عاليا من جراء الثقل . كانت احدى المرأتين السائرتين وراء التابوت طاعنة في السن وشاحبة ، تحتفظ ملامح وجهها الجامدة ، التي شوهها الحزن بفظاظة ، بوقار مهيب . مشت صامتة ، كانت ترفع احيانا يدها النحيلة الى شفتيها الرفيعتين الغائرتين . المرأة الاخرى شابة يناهز عمرها الخامسة والعشرين ، عيناها حمراوان ، نديتان من الدموع ، انتفخ وجهها برمته من البكاء ، وما ان اصبحت تسير بمحاذاتنا حتى كفت عن النواح وغطت وجهها بكمها .... هاهو ذا موكب الميت قد تجاوزنا وسار مرة اخرى في الطريق ، عاد النواح الشجي الذي يمزق الروح يتعالى مرة ثانية . تابع الحوذي بعينيه التابوت المتمايل بصمت ورتابة ثم التفت الي .

قال ـ انهم يدفنون النجار مارتين من ريابوفو .

ـ وكيف تسنى لك معرفة ذلك؟

ـ عرفته من النسوة . فالكبيرة امه والشابة زوجته .

ـ هل كان مريضا اذن؟

ـ اجل .... انها الحمى .... ارسل مدير الاعمال لليوم الثالث على

الدكتور ، لم يجدوه في البيت .... كان نجارا طيبا ، يهوى شرب الخمر قليلا ، ومع ذلك فهو نجار طيب ... اترى كيف تنوح زوجة عليه .... رغم المعروف ان : الدموع عند المرأة لا قيمة لها ، فهي تجري كالماء ... انه اليقين بعينه .

انحنى بعدئذ وتسلل تحت زمام الفرس واخذ عدة الفرس بكلتا يديه . علق قائلا ـ لكن ماذا بمستطاعنا ان نفعل الآن؟

ثنى حوذيي ، في بادىء الامر ركبته مقابل الكتف الاخرى للفرس ، هز قوس الفرس مرتين واصلح لبادة السرج ، عاد فزحف ثانية تحت عنان الفرس الايسر ، لكزها بشكل عابر في وجهها ، اقترب من العجلة ، اقترب ولم يحول طرفه عنها ، اخرج ببطء من تحت طيات القفطان علبة السعوط ، سحب ببطء الغطاء بواسطة سير صغير ، حشر ببطء اصبعين ثخينين في العلبة . (من الصعوبة بمكان ادخال اصبعين فيها) غضن التبغ وغضنه ، أمال أنفه مسبقا ، تنشقه بوقفات وصاحب تعاطي كل دفعة ، تأوه طويل ، ضيق عينيه بألم ثم استغرق في تفكير عميق .

قلت اخيرا ـ اذن ما رأيك؟

وضع حوذيي علبة السعوط في جيبه بعناية ، أمال قبعته نحو حاجبيه بحركة من رأسه دون ان يمسها بيده ، تسلل مستغرقا في التفكير وهو يصعد الى المقعد . سألته بلهجة لا تخلو من الدهشة ـ الى اين؟

اجاب بهدوء وامسك بالزمام ـ تفضل بالجلوس .

ـ لكن كيف نسير؟

ـ نسير على ما يرام .

ـ لكن الدنجل ...

ـ تفضل بالجلوس .

ـ لكن الدنجل انكسر ....

ـ انكسر الدنجل ، انكسر بالتأكيد ، ومع ذلك سنصل الى القرية

ونصلحه ... نسير سيرا وئيدا .. هنالك قرية حديثة النشوء يسمونها يودين وراء الغابة الصغيرة والى اليمين منها .

ـ اوتظن اننا نستطيع الوصول اليها بالعربة؟

لم يمّن الحوذي على حتى بالاجابة .

قلت ـ من الافضل الذهاب مشيا على الاقدام .

ـ كما تحب ...

حرك سوطه وسارت الخيل .

وصلنا فعلا الى القرية الجديدة . رغم ان العجلة اليمنى الامامية ثبتت بصعوبة في مكانها ، كانت تتحرك حركة بالغة الغرابة . اوشكت ان تفلت عند احدى الهضاب بيد ان حوذيي صرخ صرخة غضب وهبطنا المنحدر بسلامة .

تتكون قرية يودين من ستة اكواخ ، اخذت تميل على جنب ، علما بأنها على الارجح ، لم تشيد منذ بعيد : لم تكن حتى الفناءات محاطة لدى الجميع باسيجة . دخلنا الى تلك القرية ، لم نلتق بأي مخلوق فيها ، كان الشارع خاليا حتى من الدجاج ، بل حتى من الكلاب ماخلا كلبا اسود ابتر قفز مسرعا من حفرة جافة تماما دفعه العطش نحوها على الاغلب ، ارتمى حالا ، مندفعا دون نباح تحت البوابة . عرجت على اول كوخ ، فتحت باب المدخل ، ناديت المالك ، لكن ما من مجيب . ناديت مرة اخرى . تردد مواء قطة جائعة خلف الباب الاخر . لكزتها بقدمي : انسلت قطة هزيلة على مقربة مني ، لمعت عيناها الخضراوان في العتمة . دسست رأسي في الغرفة وتطلعت : انها مظلمة داخنة وخاوية . توجهت نحو الفناء لم يوجد احد هناك ... هممهم عجل في الحديقة ، خطت اوزة رمادية عرجاء بضع خطوات نحو احدى الجهات . ذهبت الى الكوخ الثاني ليس هناك من نَفْس قط . مضيت الى الفناء . استلقى في منتصف الفناء المضاء بسطوع وفي قلب اشعة الشمس ، كما يقولون ، صبي كما تبين لي ، وقد اولى وجهة صوب الارض وغطى

رأسه بسترة . وقفت فرس هزيلة ، عليها عدة بالية على بضع خطوات منه ، قرب عربة صغيرة رديئة ، تحت سقيفة القش . ترامت حزم ضوء الشمس ببقع ساطعة غير كبيرة ، على صوف الحصان الاحمر الاشعث ، من خلال الثقوب الضيقة لسقف القش المتداعي ، ثرثرت الزرازير هنالك ايضا في اعشاشها الصغيرة العالية ونظرت بفضول هادىء الى الاسفل من بيتها الهوائي . دنوت من النائم وشرعت في ايقاظه ....

رفع رأسه ، وما ان رآني حتى وثب حالا ووقف على قدميه .... اخذ يتمتم منذهلا ـ ((ماذا ، ماذا تريد ، ماذا حدث؟)) .

لم اجبه توا ، لان هيئته اثارت دهشتي . تخيلوا قزما يناهز عمره الخمسين ، له وجه صغير اسمر متغضن وأنف مدبب وعينان صغيرتان عسليتان يصعب تمييزهما وشعر اجعد اسود كثيف يستقر واسعا على رأسه البالغ الصغر كقبعة سويقة الفطر ، ان جسمه برمته ضئيل ونحيف للغاية ، ولا تستطيع الكلمات التعبير قط عن مدى غرابة نظراته وشذوذها .

سألني مرة اخرى ـ ما بغيتك؟

اوضحت له فحوى القضية ، اصغى الي دون ان يحول عني عينيه الرامشتين ببطء .

قلت اخيرا ـ الا يمكننا الحصول على دنجل جديد ، سأدفع لك ثمنه بكل غبطة .

سألني والقى علي نظرة من قمة رأسي الى اخمص قدمي ـ ومن تكون انت؟ أأنت صياد؟

ـ صياد .

ـ أنت تطلق النار على الطيور في الهواء ، اوليس كذلك؟ .... وعلى الحيوانات البرية في الغابة؟ .... أوليس من الاثم ان تقتل طيور الله وتريق الدماء البريئة؟

تكلم العجوز الصغير الغريب وهو يمدد النطق . لقد اثارت دهشتي رنة صوته ايضا . لم يكن خاليا من وهن الشيخوخة فحسب وانما كان حلوا حلاوة رائعة ، فتيا ، رقيقا كالصوت النسوي تقريبا .

اضاف قائلا بعد برهة صمت قصير ــ ليس لدي دنجل ، وهذا لا ينفعكم (مشيرا الى عربته) فعربتكم ، كما ارى كبيرة .

ــ هل يمكننا العثور على واحد في القرية؟

ــ وأي قرية عندنا !.. لا يوجد لدى اي واحد هنا دنجل ، ولن تجدوا احدا في البيوت : الجميع في العمل .

قال بغتة ــ انصرف من هنا ، ثم عاد واستلقى على الارض . لم اتوقع قط مثل هذه النهاية .

بدأت اقول له بينما لامست يدي كتفه ــ اصغ الي ايها العجوز ، اعمل معروفا وساعدني .

ــ اذهب في ذمة الله! انا متعب : كنت مسافرا الى المدينة ، قال لي ذلك وسحب السترة على رأسه .

تابعت كلامي ــ لكن اعمل معروفا ، وانا .... انا سادفع لك .....

ــ لا حاجة بي الى نقودك .

ــ ارجوك ايها العجوز .....

ــ عدل جسمه الى وسطه ، جلس وشبك رجليه النحيفتين على شكل علامة صليب .

ــ يمكنني ان اقودك على ما أظن الى مكان قطع الاشجار . هنالك اشترى التجار غابة ، الله شاهد على ما يفعلون ، وهم يقطعون اشجار الغابة تلك ، يشيدون بناية دائرة ، الله شاهد على ما يفعلون ، يمكنك ان تطلب منهم ان يصنعوا لك دنجلا او تبتاع واحدا جاهزا .

هتفت بسرور ــ هذا رائع ! رائع ! ... لنذهب .

واصل كلامه دون ان ينهض من مكانه ــ دنجل خشب البلوط جيد .

ــ وهل المسافة بعيدة الى مكان قطع الاخشاب؟

ـ ثلاثة فيرستات .
ـ حسنا اذن في مقدورنا الوصول الى المكان بعربتك .
ـ لا أظن بمستطاعي ....
قلت ـ لنذهب ، لنذهب ايها العجوز! الحوذي ينتظرنا في الشارع .

قام العجوز بتثاقل وخرج في اثري الى الشارع . كان حوذيي في حالة قلق نفسي : اراد ان يسقي الجوادين ، لكن الماء في البئر قليل للغاية ، طعمه حريف ، وهذا ، كما يقول الحوذيون ، في مقدمة الاشياء ..... ومع ذلك فعندما رأى العجوز كشر تكشيرة عريضة ، اومأ برأسه ونادى :

ـ أها ، كاسيان الصغير ! انا مسرور لرؤيتك .

اجابه كاسيان بصوت شجي ـ وانا مسرور لرؤيتك يا يروفي ايها الانسان المنصف .

اخبرت الحوذي حالا باقتراحه ، اعرب يروفي عن موافقته وساق العربة الى الفناء . حينما كان يخلع عدة الجوادين بمثابرة متبصرة ، وقف العجوز ، اسند كتفه الى البوابة ، تطلع بلا سرور تارة اليه ، وتارة الي . بدا وكأنه في حيرة من امره : لم تفرحه كثيراً زيارتنا المفاجئة بقدر ما استطعت ان الحظ .

سأله يروفي على حين غرة وهو يخلع العدة ـ هل غيروا مكان اقامتك انت ايضا؟

ـ وانا ايضا .
ـ آخ ! قال الحوذي ذلك من بين اسنانه . اتعرف مارتين ، النجار ..... انت تعرف مارتين من ريابوفو؟
ـ اعرفه .
ـ اتدري ، لقد وافته المنية ، التقينا الآن بتابوته .
اعترت كاسيان رعشة .
قال ثم نكس طرفه ـ هل توفى؟
ـ اجل ، توفى . لماذا لم تشفه ، ها؟ يقولون انك تعالج المرضى وتكسبهم

الشفاء؟

كان حوذيي ، على ما يظهر ، يتسلى ويسخر من العجوز .

اضاف قائلا وهو يشير الى العربة بكتفه ـ هذه عربتك ، اوليس كذلك؟

ـ عربتي .

ـ اذن ، يالها من عربة .... عربة ! كرر ذلك وامسك عريش العربة ، كاد ان يقلب عاليها سافلها .... اجل عربة !.. لكن ماذا سنركب كي نذهب الى مكان قطع الاشجار؟ .... لا يمكن ان نطقم جيادنا بهذا العريش : فخيولنا كبيرة ، انظر اليه ، ماهذا؟

اجاب كاسيان ـ لست ادري ماذا تركبون ، ثم اضاف متأوها ، هل يمكنكم ركوب هذا المخلوق المسكين؟

اكد يروفي كلامه قائلا ـ أتركب هذا؟ اقترب من حصان كاسيان ونقر بازدراء على رقبته بالاصبع الاوسط من يده اليمنى . واضاف موبخا ـ انظر ، لقد اغفى انه عديم الجدوى!

طلبت من يروفي ان يعد العربة على جناح السرعة ، لانني كنت راغبا في الذهاب بنفسي مع كسيان الى مكان قطع الاشجار . ان طيور الطيهوج توجد في تلك الاماكن على الاغلب . جلست انا وكلبي على ارضها غير المستوية وحصيرها الرخيص ، كيفما اتفق ، بعدما اصبحت العربة جاهزة تماما ، لف كاسيان نفسه كالكومة ، جلس ايضا في صدر العربة ، وعلى وجهه التعبير الشجي السابق نفسه ، دنا مني يروفي ، همس وهو ينظر نظرة مبهمة :

ـ حسنا فعلت ايها السيد بذهابك معه . انه واحد من اولياء الله اولئك ، ولقبه الحقيقي هو ((البرغوث)) لست ادري كيف استطعت فهمه ....

اردت التعليق على كلام يروفي ، بأن كاسيان تكشف لي حتى اللحظة الراهنة عن امرىء متبصر للغاية ، لكن حوذيي استطرد في حديثه توا ،

بالصوت السابق نفسه :
ــ لاحظ فقط فيما اذا كان يقودنا الى ذلك المكان .
تستطيع انت نفسك ان تختار الدنجل : لنأخذ واحدا متينا .... وأضاف بصوت عال ــ ماذا تقول ، ايها البرغوث ، هل ثمة من مكان نأكل فيه لقمة؟
اجاب كاسيان ، وقد سحب العنان فسارت العربة متدحرجة .
ــ فتش تجد .
عدا حصانه الصغير ، لدهشتي الحقيقية ، بشكل لا يمكن اعتباره رديئا . لاذ كاسيان بصمت مطبق طوال الطريق ، اجاب عن اسئلتي على مضض وباقتضاب . بلغنا سريعا مكان قطع الاخشاب ، وصلنا الى الدائرة ، وهي عبارة عن منزل ريفي عال ينتصب وحيدا فوق واد صغير اقتطع بسد وحول الى بركة . وجدت في الدائرة شابين من الوكلاء التجاريين ، لهم اسنان بيض كالثلج ، عيونهم جميلة ، كلامهم حلو طلق ، ابتسامتهم حلوة مراوغة ، ساومتهم على الدنجل وتوجهت الى مكان قطع الاخشاب . حسبت ان كاسيان سيبقى قرب الحصان وينتظرني ، لكنه دنا مني على حين غرة .
قال ــ وماذا بعد ، اتذهب ، لقنص الطيور ، ها؟
ــ اجل ، اذا وجدتها .
ــ سأرافقك ... أتسمح بذلك؟
ــ طبعا ، طبعا .
مضينا . كانت مساحة قطع الاشجار لا تربو على فيرست واحد . اقول الحق ، انني كنت انظر الى كاسيان وأتأمله اكثر مما كنت انظر الى كلبي . ليس عبثا ان يلقب ((بالبرغوث)) ، كان شعر رأسه الصغير الاسود العاري من اي غطاء (علما بان شعره يمكن ان يحل محل اي قبعة) يظهر بين حين وآخر من خلال الشجيرات . كان يسير بخفة فريدة كأنه ينط في سيره ، ينحني باستمرار ، يقطع الاعشاب ، يدسها

تحت قميصه ، يخنخن بعض كلمات ويدمدم بها ، ينظـر الى والى كلبي دائما نظرات ثاقبة غريبة . غالبا مـا توجـد في الشـجيرات الواطـئة و((الشجيرات الصغيرة النامية حولها)) وفي مكان قطع الاشجار طيور رمادية تنتقل بين حين واخر من شجيرة الى شجيرة ، تصـفر ، تنطلق فجأة في الطيران . كان كاسيان يغيظهم ويتناغى معهم . طارت سـمانه من تحت قدمه وهي تصيح بصخب ، فصاح هو في اثرها . اخـذت قبرة تهبط فوقه مرفرفة بجناحيها ، مـطلقة اغنية رنانة ، التقـط كاسـيان اغنيتها . ولم يتجاذب معي اطراف الحديث البته .

اصبح الجو بديعا ، بل ابدع ممـا كان عليه سـابقا ، لكن القيظ لم تخف حدته . تحركت رويدا رويدا ، في السماء الصافية ، غيوم خفيفـة ضاربة الى الصـفرة والبياض ، تشـبه الثلج المتأخـر في الربيع ، ذات شكل مستو طويل اشبه بزورق ارخى شراعه . كانت اطرافها مـوشاة زغباء وخفيفة كالقطن ، تتغير ببطء وجلاء من لحـظة لاخـرى : كانت تلك الغيوم تتلاشى ولم تترك ظـلالا على الارض . تجـولنا طـويلا انا وكاسيان في مكان قطع الاخشاب . نشرت العساليج الصغيرة ، التي لم تكد تمتد اعلى من قدمين ، سيقانها النحيفـة الملس حـول الجـذامير الواطئة المسودة للاشجار المقطوعة . تشبثت فطريات نامية مسـتديرة اسفنجية ذات جوانب رمادية ، من نوع الفطريات التي يحفرون منهـا الصوفان ، بتلك الجـذامير . حـط التوت الارضي فـوقها باطـــرافه الوردية ، استقرت الكمأة هناك كعوائل متراصة ! ان قدمي المرء تتعثر دائما ، تلتصق بالاعشاب ألطويلة المشبعة بالشـمس اللاهبة ، حيثمـا كان يغشى العيون اللمعان المعدني الحاد من اوراق الشـجيرات الفتية الضاربة للحمرة ، حيثما كانت تظهـر عناقيد الجلبان الزرق الكثيرة ، كؤوس الحوذان ، أزهار ايفان وماريا ، نصـفها بنفسـجي ونصـفها الآخر اصفر ، ارتفعت اكوام الحطب الداكنة ، بفعـل الريح والامـطار هنا وهناك قرب الممرات المهملة التي تحمل آثار العجـلات ، كخـطوط

من العشب الاحمر الناعم ، امتدت على مدى ستة اقدام وحطت منها ظلال خفيفة على شكل مستطيل مائل ، لم تترام ظلال اخرى من اي مكان ما . هبت رياح خفيفة تارة وهجعت تارة اخرى : كانت تعصف فجأة ، وفي الوجه مباشرة كأنها تسترسل في المداعبة ، تضج بمرح ، تهتز وتتمايل فيما حولها فتتأرجح اطراف الخنشار اللدنة برشاقة مما يبعث الحبور في النفس .... لكنها تعود لتهجع ثانية ويسود السكون مرة اخرى . تطقطق الجنادب وحدها بوئام كما لو كان الحقد يستبد بها ، ويا له من صوت مضن متواصل كاب وجاف . انه يلائم قيظ الظهيرة المقيم ، بل هو اشبه بوليدها فكأنها قد دعته من الارض المتوهجة .

وصلنا اخيرا الى مكان قطع الاخشاب دون ان نصادف اية طيور . هنالك ترامى الحور المقطوع ، منذ امد قريب ، كئيبا على الارض ضاغطا الاعشاب والشجيرات الصغيرة تحت ثقله ، ما فتئت الاوراق خضراء على بعض اغصانه الهامدة ، لكنها ميتة رغم خضرتها تتعلق بها متراخية ، بينما ادركها الجفاف والانكماش في الاشجار الاخرى . فاحت رائحة متميزة زكية للغاية ولاذعة من الشظايا الطرية الذهبية ـ البيض المتكدسة اكواما حول الجذامير الرطبة الساطعة . تناهت الينا من مدى بعيد على مقربة من الغابة اصوات ضربات الفؤوس الخافتة ، كانت تسقط شجرة كثيفة الاوراق بمهابة وهدوء بين فينة واخرى ، كأنها تنحني ثم تنشر اذرعها ...

لم اعثر لمدة طويلة على اية طرائد ، اخيرا طار كراكي من شجيرة البلوط العريضة عبر نباتات الشيح النامية بكثافة . اطلقت النار فتأرجح في الهواء وهوى . ما ان سمع كاسيان العيار الناري حتى اغلق عينيه بسرعة واضعا يده عليهما ، لم يأت بحركة ما دمت لم احش البندقية بعد ، ولم ارفع الكراكي عن الارض . ما ان واصلت السير حتى اقترب من المكان الذي سقط فيه الطير المقتول ، انحنى على

العشب الذي تناثرت فوقه بضع قطرات من الدم ، هز رأسه ونظـر الي فزعا .... سمعت ماهمس به بعدئذ : ((اثم .. آه ، ان هذا لاثم)) .

اضطرنا القيظ اخيرا على الولوج في الغابة الصغيرة . ارتميت تحت شجرة جوز عالية ، مد القيقب الفتي الاهيف اغصانه الخفيفـة عليهـا بصورة جميلة . جلس كاسيان على الحافة السميكة لشجرة من اشجار البتولا المقـطوعة . نظـرت اليه ، اهتزت الاوراق واهنة في العـلاء ، انسابت ظلالها الخفيفة الخضر هادئة متأرجحـة الى الامـام والخلف على الجسد الضئيل ، المتلفع ، كيفما اتفق ، بسترة قـاتمة تمتد ايضـا فوق وجهه الصغير . لم يرفع رأسه . اضجرني صمته ، فاستلقيت على ظهري ، واخـذت امتع بصري بمـلاحظة اللعـب الهـادىء للاوراق المتشابكة مقابل السماء البعيدة المضيئة . اي عمل لطيف رائع ان ترقد على ظهـرك في الغـابة وترسـل بصرك الى الاعالي ، يتراءى اليك انك تتطلع في بحر لا قرار له يمتد تحتك ، لا ترتفع الاشـجار مـن الارض ، لكن كأن جذور النباتات الضخمة تهبط وتهوى شاقوليا في تلك الامواج الزجاجية الصافية ، تتألق اوراق الاشجار تارة كالزمرد وتتكاثف تارة اخرى في خضرة ذهبية او سوداء تقريبا : تنتصب في مكان بعيد ، ورقة منفردة ساكنة في آخر طرف غصن رقيق ، مقابل الجزء الازرق للسـماء الشفافة ، والى جانبها تهتز ورقة اخرى تذكر حركتها بالتموجات التي يحدثها السمك على سطح النهر ، كأن حـركتها منبعثة منهـا حينا او بتأثير الريح حينا آخر . تعوم الغيوم البيض المستديرة بهـدوء ، تمـر ساكنة كالجزر السحرية تحت الماء ، يتدفق فجأة هذا البحر كله ، وهذا الهواء المشع وهذه الافنان والاوراق المغمورة بالشمس ويختلج بلمعان عابر ، تتعالى تمتمة غضة حائمة تشبه اللمعـان الخفيف اللامتناهـي للتموجات التي اخذت تعدو فجأة . هـا انت ذا تسـتلقي دون حـراك وترنو .. لا يسع الكلمات ان تعبر عن مدى الفرحة والهدوء والحـلاوة التي يستشعرها الفـؤاد ، تديم النظـر : واذا بتلك الزرقـة العميقـة

الصافية تبعث على شفاهك ابتسامة بريئة براءة الزرقة ذاتهـا وبراءة الغيوم في السماء، وكأنما تمـر في ذهنك بمعيتهـم، كمـوكب متوان، ذكريات سـعيدة، ويلوح لك مـع ذلك، ان بصرك يسرح بعيدا، بعيدا، يجذبك وراءه الى تلك اللجة الهادئة المتألقة، ولا تقدر ان تحول بصرك عن ذلك العلو وعن تلك الاعماق ...

نطق كاسيان فجأة بصوته الرنان ـ ايها السيد، ها، ايها السيد!

نهضت مندهشا، فهو لم يكد يجيب حتى الان عن اسـئلتي، واذا به يتكلم فجأة.

سألته ـ ماذا تريد؟

بدأ الكلام وهو يحـدق في وجهـي مباشرة ـ حسـنا، لماذا قتلت ذلك الطائر؟

ـ ما تعني لماذا؟ .... الكراكي ـ هي طريدة: ويمكن اكلها.

ـ لم تقتله لهذا الغرض ايهـا السـيد: لن تقـدم على اكله: انك قتلته لغرض التسلية الذاتية.

ـ لكنك انت نفسك تأكل يقينا الاوز او الدجاج على سبيل المثال؟

ـ تلك طيور اباحها الله للانسان، بينما الكراكي طـائر طليق، طـائر الغابة. وليس هو الوحيد في ذلك: كثرة هي مخلوقات الغابة والحقـول ومخلوقات الانهار ومخلوقات المستنقعات والمروج والاعالي والاعماق ومن الاثم قتلها، دعها تعيش على الارض الى امـدها المحـدود ..... الانسان مقرر له طعام آخر، له طعام وشراب آخـر: الخبز هبة الله له ومياه السموات، والمخلوقات التي الفها اباؤنا الاقدمون.

نظرت مندهشا الى كاسيان. انطلقت كلماته ذلقة، لم يفتش عنهـا، تكلم بحماسة هادئة ووقار متواضع وكان يغمض عينيه احياناً.

سألته ـ ماذا تعتقد هل من الاثم قتل السمك ايضا؟

اعترض وهو موقن من رأيه ـ السمكة دمها بارد، السـمكة مخلوق ابكم. انها لا تعرف الخوف او السرور، السـمكة مخلوق بلا لسـان.

السمكة لا تشعر ، فهي خالية من الدمـــاء الحية .... الدم ، تابع كلامـــه بعد توقف ، الدم قضية مقدسة : الدم لا يرى ضـــوء شـــمس الله ، الدم يختبيء من الضوء ..... انه لاثم عظيم ان يرى الدم الضوء ، اثم عظيم ومخيف ..... آه ياله من اثم عظيم !

ندت عنه آهة ونكس طرفه . لا مندوحة لي من الاعتراف ، اني نظرت بدهشة حقيقية الى هذا العجوز الغريب . فكلامه ليس بكلام فـــلاح : لا يتحدث الناس البسطاء على هذا النسق ، ولا يتكلم المتبجحـــون ايضـــا بهذه الطريقة . فهذه لغة متبصرة مهيبة وغريبة .... لم اسمع نظيرا لها من قبل .

بدأت اتحدث معه دون ان احول بصري عن وجهه الذي تشرب بحمرة خفيفة ــ كسيان ، اخبرني رجاء ، ما شغلك؟

لم يجب عن سؤالي في الحال . فقد تاهت نظرته قلقة للحـــظة . نطـــق اخيرا : اعيش كما امر الرب ، اما بشأن ، اعني ، الشغل ــ كلا ، فليس ثمة من عمـــل لي ، عندي تخلف عقلي منذ صـــغري ، اعمـــل بقـــدر استطاعتي ، انني لعامل رديء .... وكيف باستطاعتي ان اعمل ! انني غير معافى الجسم ، ويداي غبيتان ، لكنني اصطاد البلابل في الربيع .

ــ اتصطاد البلابل؟ .... لكن كيف قلت لا يجوز مس مخلوقات الغابات والحقول وغيرها من المخلوقات؟

ــ القضية على وجه التحديد انك لا تحتاج لقتلهـــا ، فـــالموت آت باجله الموعود . هاهو مارتين النجار : عاش مارتين النجار ، لم يعش عمـــرا مـــديداً وقضى نحبه ، تنوح زوجته الان على زوجهـــا واطفـــالها الصغار .... لن يحتال انســـان او حيوان على الموت . المنية لا تتعجـــل المجيء ولكن لا مفر منها ، ولا ينبغي تقديم العون لهـــا ..... انا لا اقتل البلابل ، ليحفظني الرب .... لا اصطادها كي تتألم او من اجل ازهـــاق حياتها ، وانما في سبيل ابتهاج الانسان وسلواه وانشراحه .

ــ وهل تذهب الى منطقة كورسك لاصطيادها؟

ـ اذهب الى كورسك وابعد منها ، كما تقتضي الحال . ابيت في المستنقعات ، في الغابات ، أبيت وحيدا في الحقل وفي الاماكن المقفرة : هنالك تطلق طيور الشنقب صفيرها ، هنالك تصيح الارانب ، هنالك يشقشق العلجوم ..... الاحظها في الاماسي ، اصغي اليها في الاصباح ، انشر شبكتي تحت الشجيرات عند الفجر ..... ثمة انواع من البلابل تشدو بصوت شجي ، حلو ...... بل وحزين .

ـ وهل تبيعها؟

ـ اعطيها للناس الطيبين .

ـ وماذا تعمل اضافة الى ذلك؟

ـ ما تعنى ماذا اعمل؟

ـ بماذا تشغل نفسك؟

لزم العجوز الصمت برهة .

ـ لست مشغولا بأي شيء .... انا شغيل ضعيف . ومع ذلك استطيع القراءة والكتابة .

ـ أأنت متعلم؟

ـ يمكنني ان اقرأ واكتب . اعانني الرب والناس الطيبون على ذلك .

ـ وهل انت تنتمي لعائلة؟

ـ كلا ، لست من عائلة .

ـ وكيف يمكن ذلك ....؟ هل ماتوا ، ام ماذا؟

ـ كلا ، الامر على هذه الصورة . ليس عندي واجب في الحياة . كل هذا بمشيئة الله ، كلنا نسير بمشيئة الله ، وينبغي على المرء ان يكون عادلا ، هذه هي المسألة ، اعني ان يحيا حياة ترضي الرب .

ـ وهل عندك اقرباء؟

ـ عندي .... اجل .... عندي ....

احس العجوز بالارتباك .

ابتدأت كلامي ـ قل لي من فضلك ، لقد سمعت الحوذي يسألك لماذا

لم تشف مارتين النجار؟ فهل بمقدورك ان تشفي؟

اجاب كاسيان مفكرا ـ ان حوذيك امرؤ عادل ، ومع ذلك لا يخلو من الاثم .... يقولون ان بحوزتي الشفاء ...... اية قوة بحوزتي !..... ومن بمقدوره ان يبريء؟ كل هذا بمشيئة الرب . توجد اشـياء ..... توجـد اعشاب وزهور تساعد حقا . خذ مثلا اعشاب القطيفة ، فهي اعشـاب نافعـة للانسـان ، كذلك نبات مـزمار الراعي ، وليس معيبا ان نتكلم عنها : فهي اعشاب نظيفة من صنع الله . بينمـا الاعشـاب الاخـرى لاتشبهما ، لعلها تفيد ، لكنها اثيمة ، ومن الاثم ان نتكلم عنهـا . ربمـا يمكن ان تساعد بمعونة الصلوات ... لكن ثمة كلمات خصـوصية دون ريب .... استطرد قائلا بعد ان خفض صوته ـ ومع ذلك يمكن انقاذ من يمتلك الايمان .

سألته ـ هل اعطيت مارتين شيئا؟

اجاب العجوز ـ علمت متأخرا ، وما نفع ذلك ، فكل امرىء مـكتوب على جبينه منذ ولادته . لم يكن مارتين النجار ليبقى حيا ، وليس هـو من قاطني الارض : هـكذا كانت المسـألة . لا يسـتشعر المرء الذي لن يحيا على الارض دفء الشـمس ولا تعـود عليه خيرات الارض بأي نفع ، بل كأن احدا يدعوه للذهاب ..... اجل ليهب الرب السكينة روحه .

سألت بعد برهة صمت قصيرة ـ هل اعيد اسـكانك عندنا منذ امـد طويل؟

ارتعش كاسيان .

ـ كلا ليس من مدة طويلة : منذ حوالي اربع سـنوات . عشـنا كلنا في عهد السيد الكبير في امـاكننا السـابقة ، لكن الوصـية على الضـيعة نقلتنا . كان السيد الكبير روحا رقيقة وانسانا متواضـعا ، ادخله الله فسيح جناته ! لكن الوصية طبعاً ، كان قرارها يبدو عادلا ، هكذا ينبغي ان يكون الامر .

ـ واين عشت سابقا؟

ـ عشت في الارض الجميلة .
ـ وهل هي بعيدة من هنا؟
ـ زهاء مئة فيرست .
ـ وهل العيش هناك افضل؟
ـ افضل ..... افضل . الاماكن هناك فسيحة ، الانهـار كثيرة ، انهـا عش حقيقي لنا ، بينما هنا الاماكن ضـيقة جـافة ..... هنا امسـينا يتامى ..... هنالك في الارض الجميلة ترتقي ربوة وماذا ترى يا الهي ، ايها الرب ، ها؟ ..... النهر هناك والمرج والغابة ، هناك كنيسة وبعدها تمتد المروج ايضا بعيدا بعيدا ... تنظر وتنظـر الى مـدى ناء ، يالذاك الجمال الحقيقي ! بينما هنا الارض اخصب فعلا : انهـا مـزيج رملي طيني ، مزيج رملي طيني جيد كما يقول الفلاحون ، أمـا بالنسـبة لي فهناك طعام كاف اسد به رمقي في كل مكان .
ـ قل لي الحقيقة ايهـا العجـوز ، الا ترغب ان تزور مـكان مسـقط رأسك؟
ـ اجل ، احب ان القي نظرة عليه . ومع ذلك ، فـكل مـكان طيب . انا امرؤ بلا عائلة ولا ارتبط بأي مكان . وماذا سأفعل ! واذا بقيت طويلا في بيتي؟ عندما تسير ، فأنت تسير واضاف رافعـا صـوته ـ وتصـبح الامور اسهل . حينئذ تشرق لك الشمس وتصبح اكثر جـلاء لله وتغني بلحن موفق . تتطلع هنا واذا بالاعشاب تنمو ، واذا مالاحظت وجودها تقطف ما تشاء . المياه تجري هنا وتجد مثلا مياها مقـدسة في الينابيع والعيون ، فاذا مـاشاهدتها ترتوي منهـا ايضـا . الطيور تشـدو في الهواء ...... السهول تمتد وراء كورسك ، ويالها من ارض سهلية ، هذه هي الروعة ، وهذه هي الغبطة للانسان ، ان تلك الرحابة رمـز للبركة الالهية ! تترامى تلك السهولة وتترامـى ، كمـا يتحـدث الناس ، حتى تصل الى البحـار الدافـئة ، حيث يعيش طـائر غامـايون[1] ذو الصـوتالجميل ، حيث لا تتسـاقط اوراق الاشـجار في الشـتاء او

الخريف ، وينمو التفاح الذهبي على الاغصان الفضية ، ويحيا كل فرد في رضى وعدالة مع الآخرين ..... انني اود الذهاب الى هناك ..... مع ذلك فقد رحلت كثيرا ، ذهبت الى روميون والى سينبيرسك ايضا ، انها لمدينة جميلة والى موسكو نفسها بقببها الذهبية ، والى اوكا نهر حليب الام وتسنا الحلوة كالحمامة ، والى امنا الفولغا ، رأيت عددا غفيرا من الناس ، والمسيحيين الصالحين ، زرت المدن الشريفة .... ومازلت اروم الذهاب الى هناك ... اجل .... ومع ذلك ..... لست وحدي ، انا الاثم ..... كثيرون هم اولئك المسيحيون المنتعلون احذية من الليف فحسب والجوالون في العالم بحثا عن الحقيقة ..... بالتأكيد ..... اما ما يتعلق بالبيت ، ها؟ فليس ثمة من عدالة لدى الانسان ، هذا كل مافي الامر .

لفظ كاسيان الكلمات الاخيرة بسرعة بالغة وبشكل غير واضح تقريبا ، ثم اردف قائلا شيئا ما ، لم استطع حتى ان افقهه ، اتخذ وجهه تعبيرا غريبا ، بحيث تذكرت تلقائيا تسمية ((ولي الله)) التي نعته بها يورفي ، نكس طرفه ، سعل وبدا كما لو عاد الى وضعه الطبيعي .

قال بصوت خافت : يالها من شمس حلوة ! يالها من بركة ايها الرب ! اي دفء هنا في الغابة .

هز كتفيه ، لاذ بالصمت ، تطلع بشرود فيما حوله وشرع يغني غناء خافتا . لم يكن بمقدوري ان التقط جميع كلمات اغنيته القصيرة الممدودة اللحن ، لكني سمعت الكلمات التالية : يسمونني كاسيان ، بينما لقبي البرغوث .....

((فكرت في سريرتي اها ! انه ينظم ....)) انتفض على حين غرة ، صمت وحدق بثبات في ادغال الغابة . التفت فرأيت فلاحة صغيرة لم يتجاوز عمرها الثامنة ترتدي سارفان[٢] ازرق ومنديلا ذا رسوم مربعة على رأسها ، تحمل سلة مصنوعة من الوَتَل في يدها العارية التي

سفعتها الشمس .. انها ، على الارجح ، لم تتوقع قط الالتقاء بنا ، كما يقولون ووقفت بلا حراك في روضة ظليلة من العشب بين اجمة اشجار الجوز الخضر ، نظرت الي وجلة بعينيها السوداوين ، ما كدت ارنو اليها : حتى توارت فورا خلف الشجرة .

ناداها العجوز بصوت لطيف ـ آنوشكا ! انوشكا ! تعالي هنا ، لا تخافي .

اجاب صوت رقيق ـ اخاف .

ـ لا تخافي ، لا تخافي ، تعالي عندي .

تركت آنوشكا مخبأها بصمت ، وسارت بهدوء حول المكان ـ لم تكد قدماها الطفليتان تحدثان صوتا على العشب الكثيف ـ خرجت في الاجمة قرب العجوز تماما . لم يكن عمر هذه الصبية ، كما تراءى لي باديء الامر من قامتها القصيرة ، زهاء ثمانية اعوام ، وانما ثلاثة عشر أو اربعة عشر عاما . كان جسمها كله صغيرا مخيفا ، لكنه ممشوق لدن ، ووجهها الصغير الجميل يشبه وجه كاسيان نفسه شبها مذهلا ، علما ان كاسيان لم يكن على شيء من الوسامة ، فلها تلك الملامح الحادة عينها والنظرة الغريبة ذاتها ، المنطوية على الفراسة والثقة ، التفكير والفطنة ، والحركات نفسها ايضا ....

القى كاسيان اليها نظرة ، ووقفت الى جنبه .

سألها ـ اتجمعين الكمأة؟

أجابت بأبتسامة خجلة ـ أجل أجمع الكمأة .

ـ هل وجدت كثيرا؟

ـ كثيرا (رمقته بسرعة وابتسمت مرة اخرى) .

وهل هناك كمأة بيضاء؟

ـ توجد بيضاء ايضا .

ـ أريني ، اريني ...... (انزلت السلة من يدها ، رفعت عنها قليلا ورقة راعي الحمام العريضة التي غطت بها الكمأة .) قال كاسيان وهو

ينحني نحو السلة ـ اها ! ما اجودها ! اجل ما احسنها يا انوشكا !
سألته ـ هذه ابنتك ، يا كاسيان اوليس كذلك؟ (تخضب وجه انوشكا بحمرة خفيفة) .

اجاب كاسيان بعدم اكتراث متكلف ـ كلا انها من اقربائي ، واضاف توا ـ حسنا ، اذهبي يا انوشكا ، اذهبي في رعاية الله . ولاحظي جيدا أين تسيرين ...

قاطعته قائلا ـ ولماذا تعود مشيا على الاقدام ، يمكننا ان نوصلها معنا في العربة ...

احمر وجه آنوشكا كوردة الخشخاش ، وامسكت ، بحبل السلة بكلتا يديها ونظرت مضطربة الى العجوز .

عارض بنفس ذلك الصوت اللامكترث ـ كلا ، ستمشي الى البيت ولم لا .... ستصل على احسن ما يكون .... اذهبي الآن .

مضت آنوشكا بخفة في الغابة ـ تابعها كاسيان بنظره ، ثم غض طرفه وضحك ضحكة ساخرة . انطوت هذه الضحكة الطويلة ، والكلمات القليلة التي تحدث بها الى آنوشكا ورنة صوته ذاتها حينما تكلم معها على حب مبهم غريب ورقيق . تطلع مرة اخرى في الجهة التي سارت بها ، ضحك ثانية ، مسح بيده على وجهه وهز رأسه بضع مرات .

سألته ـ لماذا طلبت منها الانصراف بهذه العجالة ، كان بودي ان اشتري منها كمأة ....

اجابني وهو يستعمل صيغة ((أنتم)) للمرة الاولى ـ على كل حال تستطيع ان تشتريها في منطقتكم متى تشاء .

ـ انها لجميلة صبيتك تلك .

اجاب ، كما لو كان غير راغب ـ كلا ..... اي جمال .... انها اعتيادية ، وعاد منذ تلك اللحظة الى صمته السابق . رأيت ان جميع جهودي لحثه على الكلام مرة اخرى ذهبت هباء ، فتوجهت الى مكان

قطع الأشجار . كان الحر قد خف قليلا في تلك الاثناء . لكن استمر سوء الحظ او ((التسكع)) كما يقــولون عندنا ، وعدت الى القــرية بكراكي واحد والدنجل الجديد . وما ان دنا كاسيان من الفناء ، حتى اســتدار فجأة نحوي .

قال ــ ايها السيد ، ايها السيد ، انني لملوم امامك ، فأنا الذي ســقت الطرائد كلها من طريقك .

ــ وكيف فعلت ذلك .؟

ــ اعرف ما افعل ، وها هــو ذا كلبك المدرب الجيد ، لم يســتطع شــم شيء . حينما تفكر تجد ان الناس هم الناس ها؟ وكذلك الحيوان مــاذا صنعت منه؟

علمت انه من العبث ان اشرع في اقناع كاسيان باســتحالة ((عمــل الرقــى)) للطــرائد ، لذلك لم اجبه بشيء . اســتدرنا في تلك الاثناء على الفور صوب بوابة الفناء .

لم تكن آنوشكا في الكوخ ، كانت قد اتت وتركت سلة الكمأة . استطاع يروفي وضع الدنجل الجديد ، بعد ان لواه بشدة في باديء الامر ولم يكن تقديره صائبا ، بعد ســاعة غادرنا المكان ، تركت لكســيان قليلا مــن النقود ، التي لم يقبلها في البداية ، لكنه فكر بعدئذ ، امســكها في راحــة يده ثم وضعها داخل قميصه . لم ينطق بكلمة واحدة تقريبا في خلال تلك الســاعة ، وقــف كشــأنه متكأ على البوابة ، ولم يرد على تعنيف حوذيي له وودعني ببرود بالغ .

حالما التفت ، استطعت ان الحــظ ان يروفي ، عاد مــرة اخــرى الى وضعه المتجهم .... حقا لم يجد شيئا صالحا للاكل في القرية وكذلك كان الماء رديء الطعم لارواء الخيول . واصلنا السفر . لاح التعبير عن عدم رضاه حتى على قذاله ، جلس في مقعده تمضه رغبة ملحــة في الحــديث معــي ، لكنه اقتصر ، في انتظــار مبادرتي بتوجيه الســؤال اليه ، على الدمدمة الخفيفة الخافتة ، موجها احيانا كلامــا فيه توجيهــات لاذعة

للخيل . (همهم ـ قرية ! يالها من قرية ! تريد ولو شراب الكفاس ، لكن حتى الكفاس غير موجود ..... اعوذ بالله ! اما الماء فما اقذره (وبصق بصوت عال .) لا خيار لا كفاس لاشيء البته . اضاف بصوت مرتفع موجها الحديث الى الجواد الايمن ـ لكن انت ، فأني اعرفك ، يالك من متسامح تحب ان تتغاضى على الاغلب .... (وضربه بالسوط .) داهية تماما ، بينما كان في السابق حيوانا مطيعا تماما ..... اذن ، انظر فيما حولك !...))

قلت له ـ خبرني ، رجاء ، اي نوع من الناس كاسيان؟

لم يجبني يروفي توا ـ فهو امرؤ مترو متأن عموما ، لكني استطعت ان احدس حالا ، ان سؤالي افرحه وادخل الهدوء الى نفسه .

بدأ يتحدث اخيرا وشد الاعنة ـ اتعني البرغوث؟ انه لشخص عجيب : كما هو شأن الاولياء ، لن تجد بسرعة امرءاً آخر نظيراً له . فهو مثلا لا يأخذ ولا يعطي مثل ذلك الحصان الرمادي : شق عصا الطاعة .... اعني عن العمل . لكن ، بالتأكيد لا يستطيع العمل ، وبالكاد يدب على الارض ، ومع ذلك .... فمن المؤكد انه كان دائما على هذه الشاكلة . عمل بالنقل في باديء الامر ، مع اعمامه ... وكان لديه ثلاثة اعمام ـ بعدئذ ، حسنا ، اتدري اضجره ذلك العمل فتركه . اصبح يعيش في البيت ، لكنه لم يستقر في البيت ، فهو لا يعرف الهدوء كالبرغوث تماما . حظي بسيد طيب والحمد لله ، لم يرغمه على العمل . ظل يتجول هكذا منذ ذلك الحين كالخروف الطليق . لكن ياله من اعجوبة ، الله وحده يعلم ذلك : حينما يلوذ بالصمت ، فأنه كجذمور الشجرة ثم يتكلم بغتة ، والله وحده يعلم ما يفوه به . فهل هذه طريقة بالحديث؟ كلا ، ليست بالطريقة . وهو في واقع الحال امرؤ غير معقول ، ومع ذلك يجيد الغناء ، ويغني بشيء من الرصانة ، انه لا بأس به ، لابأس به .

ـ وهل حقا يشفي المرضى؟

ـ وأنى له ان يشفي ..... كيف يتأتى له ذلك ! انه شخص عادي . ومع

ذلك فقد شفاني من داء الخنازير ... فهو نافع احيانا واضاف بعد وقفة صمت ، انه لانسان غبي ، كما هو في واقع الحال .

ـ وهل تعرفه منذ امد بعيد؟

ـ منذ امد بعيد . كنا جيرانه في سيتشوفكا ، في الارض الجميلة .

ـ ومن تكون تلك الصبية آنوشكا التي صادفناها في الغابة ، اهي من أقربائه؟

ـ نظر يروفي الي ملتفتا عبر منكبه وكشر فاتحا فاه كله . ـ هيه ... اجل ، اقرباء . انها يتيمة : لا أم لها ، وليست معروفة من هي امها . حسنا ، ينبغي ان تكون قريبة ، انها تشبهه شبها بالغا .... وهي تعيش معه . انها لفتاة جميلة ، ولا يمكن انكار ذلك ، فتاة جيدة ، وهو عجوز ، لكنه مدله بها : انها فتاة جيدة . بلى وعلى الاغلب ، لعلك لا تصدق ذلك ، وعلى الاغلب حسب ما اظن سيخطر له ان يعلم آنوشكا القراءة والكتابة . تالله سيبدر منه مثل هذا التصرف : يا له من شخص غريب الاطوار . كم هو قلق وغير معقول وحتى .... يه ، يه ، يه ! وفجأة قاطع حوذيي نفسه ، اوقف الجوادين ، مال الى جانب واخذ يستنشق الهواء ، او ليس ثمة من رائحة حريق ؟ حقاً هناك رائحة حريق ! حقاً هناك رائحة ويلي من هذه الدناجل الجديدة ... تصورت انني زيتها بما فيه الكفاية ، علي ان اجلب شيئا من الماء : ثمة بركة قريبة .

نزل يروفي ببطء من المقعد ، فك الدلو ، مضى الى البركة ، عاد بالماء ، كان ينصت مسرورا الى وشوشة ثقب الدنجل ، عندما غمره الماء فجأة ... اضطر ان يسكب الماء على الدنجل المرتفع الحرارة زهاء ست مرات وعلى مسافة كل عشرة فيرستات تقريبا ، هبط المساء تماما ، حينما عدنا الى البيت .

الـــــــوكـــــيل

يعيش اركادي بافليتش بينوتشكين على مسافة تقارب خمســـة عشر فيرستا من ضيعتي ، وهو احد معارفي ، ومــلاك شــاب ، ضــابط مــن الحرس اعتزل الخدمة ، كانت ربوعه غنية بالطــرائد ، بنى بيته وفــق تصميم وضعه معمار فرنسي ، خــدمه يرتدون الزي الانكليزي ، يقــدم غداء ممتازا ، يستقبل الضيوف بترحاب ، ومع ذلك فــالمرء يذهــب اليه على مضض ، انه انسان متروي التفــكير عملي ، تلقــى تعليمــاً رفيع المستوى ، خدم في صفوف الحرس ، تعرف بالمجتمــع الراقــي ، ويدير مــزرعته حــالياً بنجــاح كبير . كان اركادي بافليتش ـ اذا اســتعرنا كلماته نفسها ـ صــارما ، لكنه عادل ، يعنى برفــاه اتباعه ويعــاقبهم لاجل صالحهم)) يقول في مثل تلك الحالة ـ ينبغي معاملتهم كالاطفــال من جراء الجهل . Mon cher , il faut prendre cela en consideration.

يا عزيزي ، علينا اخذ ذلك بنظر الاعتبار)) . يتحاشى هو نفسه عندما يكون في حالة تسمى ، الضرورة المحزنة ، يتحــاشى الحــركات الحــادة العصبية ولا يرغب في رفع صوته ، لكنه يدفع يده ، على الاغلب ، امامه

مباشرة ويتحدث بهدوء : ((لقــد طلبت منك بالتأكيد ، يا عزيزي)) او : ((ماذا دهاك يا صــديقي ، ثب الى رشــدك)) . يطبق ، في تلك الاثناء ، اسنانه اطباقة خفيفة ثم يلوي فمه قليلا . لم يكن طــويل القــامة ، لكنه رشيق وغير سيء الطلعة قط ، يحافظ دائما على أناقة يديه واظــافره ، تفيض العافية من شفتيه الحمراوين وخديه المتوردين . يضحك ضحكة رنانة غير مكترثة ، يضيق عينيه العسليتين الساطعتين مرحبا . يرتدي ملابس فاخرة تنم عن حسن الذوق ، يكتتب في الكتب الفرنسية والصور ويشترك في الجرائد ، لكنه غير مولع في المطالعة ، فقد واتته القوة بالكاد على قراءة ((اليهودي التائه))[١] يلعب الورق بمهــارة . ويعتبر اركادي بافليتش واحدا من اثقف النبلاء وافضــل خــطيب للباحثات عن زوج مرموق في محافظتنا ، النساء شديدات الاعجاب به ، يمتدحن خصوصا اسلوب تصرفه . فهو مــدهش في ســلوكه الحميد ، حــذر كالقــطة ، لم يتورط قط في اي شيء مشين رغم انه يفصــح عن مــاهية ذاته احيانا حينما يتسلى بارباك امرىء مستضعف ونهشه . يتحاشى معشر الرذلاء تماما خشية ان تناله الشبهات ، ومع ذلك ففي ســاعة السرور يعلن انه من المعجبين بابيقور[٢] رغم ظنه السيء بالفلسفة عموما ويسميها الغذاء الضبابي للعقول الالمانية تارة ، او مجرد هذيان تارة اخــرى ، يهــوى الموســيقى كذلك ، يغني في اثناء لعــب الورق مــن بين اســنانه ، لكن بعاطفه ، ويتذكر ايضا بعض المقطوعات من لوسيا[٣] وســومنا مبولي[٤] بيد انه يبالغ في رفع صوته . يسافر شتاء الى بطر ســبورغ ، يحتفــظ بيته بنظام فريد من نوعه ، اذعن الحــوذيه لنفــوذه ، فلم يقتصروا على غسل سترهم وطوق الخيول كل يوم فقط ، وانما كانوا يغســلون حتى وجوههم ذاتهــا . حقــا ، ان خــدم اركادي بافليتش يبدون وكأنهــم مقطبين ، لكن يصعب عندنا في روسيا تمييز المقــطب مــن النعســان .. يتحدث اركادي بافليتش بصوت ناعم لطيف وبوقفــات بين الكلمــات ، كما لو كان يشعر بالغبطة عند اطلاق كل كلمة من بين شواربه الجميلة

المعطرة ، يستعمل كذلك كثيرا من العبارات الفرنسية مثل :
mais cet impayable ومـن المضـحك mais comment donc ((وكيف اذن !))

وغيرها . مع اخذ كل ذلك بنظر الاعتبار ، فأنني لم تخالجني رغبة كبيرة ــ على الاقل ــ في زيارته ، ولولا الطيهوج والحجل لافترقت عنه نهائيا على الارجح . ان ضربا من القلق الغريب تحس به في بيته ، لا تخلق حتى الراحة السرور في نفسك ، تتمنى كل مساء حينما يظهر امامك رئيس الخدم بشعره الاجعد وسترته الزرقاء ذات الازرار المطبوعة بشعار ثم يشرع بخلع جزمتك بخضوع ، تتمنى لو يظهر امامك فجأة بدل هيئته الشاحبة النحيفة ، شاب قوي البنية له عظما وجنتين عريضتين للغاية وأنف منفرج غريب قد جلبه السيد توا من وراء المحراث ، وافلح في فتق درز قفطانه القطني ، الذي اعطي له قبل مدة وجيزة ، في عشرة اماكن ، ولتملكك فرح لا يوصف وعرضت نفسك ، عن طيب خاطر ، لخطر فقدان ساقك مع جزمتك ، الى رأس عظم الفخذ .

كنت مضطرا ذات مرة رغم عدم ارتياحي من اركادي بافليتش ان اقضي الليل عنده . امرت بوضع عدة العربة في الصباح الباكر ، لكنه لم يرض ان اغادر قبل تناول الفطور على الطريقة الانكليزية واقتادني الى مكتبه . قدموا مع الشاي ضلع كستليته وبيضا نصف مسلوق وزبدة وعسلا وجبنا وغيرها . كان خادمان يرتديان قفازين ابيضين نظيفين ، يلبيان بسرعة وصمت ادنى رغبة لنا . جلسنا على اريكة فارسية . كان اركادي بافليتش يلبس سروالا حريريا فضفاضا ، صدارا مخمليا اسود ، طربوشا جميلا له شرّابه زرقاء ، نعالا صينيا اصفر بلا كعب . احتسى الشاي ، ضحك ، تفحص اظافره ، دخن واضعا وسادة وراء جنبه وشعر عموما على احسن ما يرام ، تناول اركادي بافليتش فطورا قويا وبسرور باد ثم صب لنفسه قدحا من النبيذ

الاحمر ، رفعه الى شفتيه وقطب فجأة .
سأل بصوت حاد نوعا ما ، احد الخادمين ـ لماذا لم يسخن النبيذ؟
ارتبك الخادم ، وقف كما لو تسمر في مكانه وشحب .
واصل اركادي بافليتش كلامه بهدوء ، دون ان يحول طرفه عنه ـ اترى انني اسألك يا عزيزي؟ تململ الخادم التعس في مكانه ، لف منديل المائدة ولم ينبس بكلمة واحدة . حنى اركادي بافليتش رأسه وتطلع اليه متأملا من تحت حاجبيه .
قال وعلى ثغره ابتسامة لطيفة pardon mon cher المعذرة يا عزيزي ، نقر ركبتي بضربة خفيفة من يده ، حدج الخادم مرة اخرى واضاف بعد برهة صمت قصيرة ـ حسنا ، اخرج ، رفع حاجبيه ودق الجرس .
دخل رجل بدين اسمر ، اسود الشعر ، ذو جبين منخفض عيناه مطمورتان تماما في وجهه .
قال اركادي بافليتش بصوت خافت وسيطرة تامة على نفسه ـ خذ ما يلزم ، ازاء .... فيوردور .
اجاب البدين ـ سمعا وطاعة ياسيدي .
علق اركادي بافليتش بانشراح ـ Voila mon cher les deagrements de la compagne
((هذه هي يا عزيزي منغصات الحياة الريفية)) . الى أين انت ذاهب؟ ابق وأجلس قليلا من الوقت .
اجبت ـ كلا ، لقد حان وقت ذهابي .
ـ آه منكم ايها الصيادون دائما ترومون الصيد والى اين تذهب الآن؟
ـ الى ريابوفو على بعد زهاء اربعين فيرستا من هنا .
ـ أتذهب الى ريابوفو؟ أيه يا الهي ، سأرافقك عندئذ . ان ريابوفو لا تبعد سوى خمسة فيرستات عن ضيعتي شيبيلوفكا ، لم ازر شيبيلوفكا منذ امد طويل . لم تسنح لي الفرصة قط . هكذا واتت المصادفة الان : ستصطاد نهاراً في ريابوفو ، وتكون في ضيافتي مساء . ce sera

charment((سيكون هذا رائعا)) . نتناول العشاء معا ، نصطحب الطاهي ، وتبيت عندي . استطرد قائلا دون ان ينتظر جوابا مني : رائع ، رائع !.. cest arrange ((لقد رتب كل شيء ...)) هاي ، من هناك؟ آمر بتحضير العربة ، وعلى جناح السرعة . لم تزر شيبيلوفكا اوليس كذلك؟ اقترح عليك ان تقضي الليل في كوخ وكيلي ، اجل اعرف انك متواضع ، وكنت ستبيت ليلتك ، على الارجح ، في مخزن التبن .... لنذهب ، لنذهب !

غنى اركادي بافليتش اغنية حب فرنسية .

واصل كلامه وهو ينقر الارض بقدميه ــ اترى ، انت لا تدري ، على الاغلب ، بأن الفلاحين هناك يدفعون الجزية . يجب تنفيذ القانون ، وماذا بوسعك ان تفعل؟ ومع ذلك فهم يدفعون الجزية بشكل حسن . اعترف لك ، كان بودي ان اجعلهم يعملون بالسخرة ، لكن الارض قليلة اني لاعجب كيف يفلحون في التوفيق بين دخلهم القليل وحاجاتهم . على اية حال . cest leur affaire ((هذا الامر يخصهم)) .

الوكيل عندي هنالك شاب جيد une forte tete ((حصيف العقل)) انه رجل دولة ! سترى .... حقاً سترى كيف ان الامور تسير على ما يرام .

لم يكن باليد حيلة . غادرنا في الثانية ظهرا عوضاً عن الرحيل في التاسعة صباحاً . الصيادون يقدرون مدى نفاذ صبري . كان اركادي بافليتش يحب ــ حسب تعبيره ــ ((ان يعنى بنفسه)) في مثل تلك الحالات ، فأخذ كمية لا تحصى من الاغطية ، المؤن ، الملابس ، العطور ، الوسائد والحقائب المتنوعة ، بحيث يجد اي الماني ، حسن التدبير وله السيطرة على نفسه ، ما يكفيه لسنة كاملة في هذه التجهيزات . كان اركادي عند اي هبوط على الجبل ، يوجه كلاما مقتضباً ، لكنه يتسم بالعنف الى الحوذي مما جعلني استنتج ان زميلي جبان حقا ، ومع ذلك فقد تمت الرحلة بشكل مرض للغاية ماخلا سقوط العربة التي تقل

الطاهي عند جسر صغير تم اصــلاحه منذ مــدة غير بعيدة وســحقت العجلة الخلفية معدته .

ارتعب اركادي بافليتش لدى رؤية سقوط كاريم(٥) طــاهيه المنزلي ، ولم ير ذلك مضحكا قط ، حينما امر بالســؤال فــورا : أمــا زالت يداه سالمتين؟ عادت الطمأنينة الى نفسه ، حالما تلقى ردا ايجابيا . على كل حال . استغرقتنا السفرة فترة طويلة لحد ما ، جلست في عربة واحــدة مع اركادي بافليتش ، وقد غشتني كآبة قاتلة لا سيما عندمــا اوشــكت الرحلة على نهايتها ، وممــا زاد في كآبتي ، ان زميلي انطلق بالحــديث تماماً ، في غضون بضع ساعات وزعم نفسه ليبراليا . اخيرا وصــلنا ، بيد اننا وصلنا مباشرة الى شيبيلوفكا بدل ريابوفو ، هــذا مــا حــدث لسبب او لآخر . بيد انه لم يكن ممكنا الذهاب الى الصيد في ذلك اليوم ، فاستسلمت لمصيري بقلب مثقل .

وصل الطاهي قبلنا بدقائق معــدودة ، لكنه افلح فيمــا يبدو ، بتوجيه الاوامر وتنبيه الاشــخاص المعنيين ، فجــاء لاســتقبالنا الرئيس (ابن الوكيل) حال وصولنا الى سور القرية ، كان فلاحا قوى البنية ، احمــر الشعر ، طوله ينيف على المترين ، يمتطي صهوة جــواد ، دون قبعــة ، وعليه ســترة جــديدة مفتوحــة الازرار . ســأله اركادي ـ ((لكن اين سوفرون؟)) قفز الرئيس في البداية بخفة عن صــهوة الجــواد ، انحنى للسيد انحناءة واطئة ثم قال : ((طاب نهــارك ، ايهــا الســيد اركادي بافليتش)) ، بعدئذ رفع رأسه ، تحرك واخبره ، بأن سوفرون قد ذهــب الى بيروف ، وقد ارسلوا شخصا لاعلامــه . قــال اركادي بافليتش ـ ((اذن ، سر وراءنا)) ، نحى الرئيس جواده ـ احترامــا لنا ـ جــانبا ، القى نفســه عليه وعدا خلف العــربة ، ممســكا قبعته بيده . سرنا عبر القرية . التقينا في طريقنا ببضعة فلاحين في عربات فارغة ، لقــد عادوا من البيادر وهم يغنون الاغاني ، تتمايل اجسامهم برمتهــا وتتأرجــح اقدامهم في الهواء ، لكنهم لزموا الصــمت فجــأة عندمــا رأوا عربتنا

والرئيس ، خلعوا قبعاتهم الشتوية (علما بأن الوقت كان صيفا) نهضوا ، كما لو انهم يتوقعون اوامرنا . انحنى اركادي بافليتش لهم بشفقة . ان قلقا مثيرا شاع في القرية على ما يبدو . طفقت النساء المرتديات تنورات صوفية ذات رسوم مربعة يرمين قطعا من الخشب على الكلاب غير الفطنة او الكثيرة الضوضاء ، جر عجوز اعرج ذو لحية ، على مرأى منا ، حصانا لم يرتو من البئر بعد ، ضربه على جنبه دون سبب بيّن ، ثم انحنى فورا . عدا الاولاد الصغار في قمصانهم الطويلة صارخين من اكواخهم ، استلقوا على بطونهم فوق العتبة العالية ، طأطأوا رؤوسهم ، رفعوا اقدامهم الى الاعلى ، تدحرجوا على هذا النسق بخفة بالغة خلف الباب نحو المدخل المعتم ، ولم يطلوا مرة اخرى . ركض حتى الدجاج بسرعة وتوارى خلف البوابات ، ثمة ديك نشط ذو صدر اسود يشبه صدارا من الاطلس ، له ذيل احمر ملتف الى عرفه كان ينوي البقاء في الطريق واوشك تماما على الصياح ، لكنه ارتبك بغتة وجرى ايضا .

تقع عزبة الوكيل وسط حقل من القنب الاخضر الكثيف بعيدة عن الآخرين . توقفنا امام البوابة ، نهض السيد بينوتشكين ، خلع عنه معطف السفر بصورة بهية ، ترجل من العربة وهو ينظر ببشاشة فيما حوله . استقبلتنا زوجة الوكيل بانحناءة واطئة ثم دنت من يد السيد . تركها اركادي بافليتش تقبلها بقدر ما تريد وصعد نحو العتبة . وقفت الزوجة الكبيرة في ركن معتم من مدخل العزبة . انحنت ايضا ، لكنها لم تتجرأ على الاقتراب من يده . كانت امرأتان منهمكتين في العمل في الغرفة الباردة – كما يسمونها – والواقعة الى يمين المدخل ، فقد حملتا من هناك كل ما يعد من سقط المتاع ، الاباريق الخاوية ، معاطف الضأن المتصلبة ، يرام الزبد ، مهدا يضم كومة من الخرق وطفلا يلبس ملابس متناثرة كانتا تكنسان الاقذار بمقشة حمام . طردهم اركادي بافليتش من هناك وجلس على مقعد تحت الايقونات . شرع الحوذية

ينزلون الصناديق الصغيرة والكبيرة وغيرها من الاشياء ، ساعين جهدهم التخفيف من طقطقة جزمهم الثقيلة .

سأل اركادي بافليتش في تلك الاثناء الرئيس عن الحصاد والزراعة والامور الاقتصادية الاخرى . اجاب الرئيس اجابة مرضية ، لكنه كان فاترا وثقيلا ، كأنه يزرر قفطانه باصابع متجمدة . وقف عند الباب ، كان يرتد بين فينة واخرى ، يتلفت وهو يفسح الطريق امام رئيس الخدم الرشيق الحركة . استطعت ان ارى من وراء منكبيه الضخمين زوجة الوكيل وهي تضرب خلسة امرأة اخرى في المدخل . فجأة قرقعت عربة ، وتوقفت امام المدخل : دخل الوكيل .

كان رجل الدولة هذا – حسب وصف اركادي بافليتش له – مربوع القامة ، عريض المنكبين ، اشيب ، مكتنز البنية ، احمر الانف ، له عينان زرقاوان صغيرتان ولحية على شكل مروحة . واود ان ابدي ملاحظة – بالمناسبة – انه منذ وجود روسيا ، لم تشهد بعد نموذجا لامرىء اكتنز واثرى دون ان يمتلك لحية عريضة كثيفة ، ثمة امرؤ آخر عاش حياته كلها له لحية خفيفة مثلثة الشكل ، وبغتة تنظر اليه واذا بها تمتد محيطة بوجهه كأنها الشعاع الساطع ، يا للعجب ، من اين اتى بكل هذا الشعر ! مما لا ريب فيه ان الوكيل قد مر على بيروف . ان وجهه البدين ينضح بالقوة وتفوح منه رائحة الخمر .

ابتدأ الكلام بصوت مترنم والرقة تلوح على وجهه حتى بدا كأن الدموع ستنهمر الا قليلا ، من مقلتيه – اواه ، يا اباءنا ، ايها المحسنون علينا ، لقد صدعتم انفسكم بزيارتنا ... استطرد قائلا – اسمح لي بيدك ، يدك ايها السيد ومد شفتيه اليها منتظرا . لبى اركادي بافليتش رغبته .

سأله بصوت رقيق – حسنا ايها الاخ سوفرون ، كيف تسير الامور عندك؟

هتف سوفرون – اواه ، يا أبانا الحقيقي وكيف يمكن ان تسير

امورنا بصورة سيئة ! فأنت يا ابانا الحقيقي ، انت ايها المحسن ، يا من شرفت قريتنا الصغيرة بزيارتك ونورتها ووهبتنا السعادة حتى آخر ايام حياتنا . المجد لك ، ايها السيد اركادي بافليتش ، المجد لك ، ايها السيد ! كل شيء يسير على ما يرام بفضل عطفك علينا .

لزم سوفرون عندئذ الصمت لحظة ، تطلع الى السيد وكأن سورة من المشاعر قد استحوذت عليه مرة اخرى (لا ريب ان الخمر لعبت دورها في ذلك) وطلب يده مرة ثانية ، وانطلق يعزف على الوتر ذاته بصورة اقوى من قبل .

ـ اواه يا أبانا الحقيقي ، المتعطف علينا ... و ... انظر ماذا جرى ! تالله ، لقد اصبحت احمق تماما من الفرح .... تالله ، انني انظر ولا اصدق ... اواه يا أبانا الحقيقي ...

نظر اركادي بافليتش الي وضحك ثم سألني Nést- ce pas que cest toucgant? حقا ، أوليس هذا مؤثرا؟

واصل الوكيل ، الذي لا يعرف الكلل ، كلامه ـ اجل ايها السيد اركادي بافليتش ، كيف فعلت هذا؟ لقد حطمتني تماما ايها السيد ، حينما لم تتكرم وتحيطني علما بمجيئك . ثم أين ستقضي الليلة؟ فالمكان هنا وسخ ، قذر ...

أجاب اركادي بافليتش مبتسما ـ لا بأس ، لا بأس ، المكان هنا حسن .

ـ ولكن يا أبا الجميع ، لمن هو حسن؟ حسن لصاحبنا الفلاح ، اما لك انت .... اواه ، يا ابانا الحقيقي ، ايها المتفضل علينا ، اواه يا ابا الجميع اصفح عني ، انا المخبول ، لقد فقدت صوابي ، وايم الله لقد تبلدت تماما .

في تلك الاثناء ، قدموا العشاء ، شرع اركادي بافليتش يأكل . طرد العجوز ابنه بحجة انه يتسبب في انحباس هواء الغرفة .

سأل السيد بينوتشكين ، الذي يرغب بجلاء ، محاكاة كلام الفلاحين

ـ حسنا ، هل خططتم الحدود ايها الشيخ ، وكان يغمز لي .

ـ خططنا ، ايها السيد بفضل عطفكم علينا . وقعنا الاتفــاقية في اليوم الثالث . خلق آل خلينوف في بداية الامر لنا صعوبات .... الصعوبات يا ابانا ، بالضبط ... طلبوا ... وطلبوا .... الله وحده يعلم ماذا بقــي ولم يطلبوه ، لكنه ضرب من الحماقة ايها السيد ، انهــم اناس بلداء . امــا نحن ، ايها الســيد ، فقــد اعربنا عن امتناننا لاحســانك ، ولبينا رغبة الوسيط ميكولاي ميكولايتش ، فعلنا كل شيء وفق اوامرك ايها السيد ، تصرفنا تماما كما تفضلت وامرتنا ، وجــرى كل شيء بمعــرفة يغــور دميتريتش .

علق اركادي بافليتش مزهوا ـ لقد احاطني يغور علما بذلك .

ـ طبعا ، السيد يغور ديمتريتش ، طبعا .

ـ حسنا،لا ريب انك مرتاح الآن؟

ـ هذا ما كان ينتظره سوفرون بالذات .

عاد يعزف لحنه السابق مرة اخرى ـ اواه ، يا ابانا ، ايها المحســن الينا ! ..... كن رحيما بي ..... أوليس من اجلك يا أبانا ، نصلي نهارا وليلا للباري ربنا ..... مما لا ريب فيه ان الارض قليلة ....

قاطعه بينوتشكين :

ـ لا بأس ، حسنا حسنا يا سوفرون ، اعرف انك دؤوب في خدمتي ..... وكيف هو المحصول؟

ندت عن سوفرون آهة .

ـ ومع ذلك ، يا أبانا ، فالمحصول ليس جيدا للغــاية ، ثمــة شيء ايهــا السيد اركادي بافليتش ، دعني احيطــك علمــا به . (عندئذ اقترب مــن السيد بينوتشكين ، اطلق يديه ، انحنى الى الامــام وزر احــد عينيه) . وجدت جثة هامدة في ارضنا .

ـ وكيف حدث ذلك؟

ـ اعملت فكري في ذلك دون نتيجة ايها الســيد ، يبدو يا أبانا ان عدوا

فعل فعله شيطانية . أجل ومن حسن الحظ انها من عمل يد غريبة ، لكنها ارادت ان تخفي اثمها لاغير ، فظهرت على ارضنا . طلبت توا سحبها الى ارض اخرى ، مادامت تسنح لنا الفرصة بذلك وضعت حراسة وقلت لمواطنينا : لا تنبسوا ببنت شفة ، هكذا كلمتهم . جعلت الرئيس على بينة من الامر حسبانا للطوارىء : قلت له ، هكذا هي القضية ، اعطيته شيئا من الشاي واعرب عن امتنانه ... فما رأيك ايها السيد؟ لقد بقي على ارض الغير وظل في اعناقهم . ثم ان الجثة ربما تكلف مائتي روبل ـ كالخبز الابيض .

ضحك السيد بينوتشكين كثيرا على تحايل وكيله ، قال لي مرارا وهو يومىء برأسه صوبه : Quel gaillard ah (ياله من حاذق اها؟)

هبط الظلام في تلك الاثناء كليا في الخارج ، امر اركادي بافليتش بتنظيف المائدة وجلب الحشائش الجافة ، فرش الخادم الشراشف وضع الوسادات واستلقينا عليها . ذهب سوفرون الى مكانه ، بعد ان تلقى التعليمات ليوم الغد . تحدث اركادي بافليتش قليلا ، وهو يستسلم للنعاس ، عن الصفات الرائعة للفلاح الروسي ، وفي الحال ابدى ملاحظة ، انه منذ تولي سوفرون الاشراف على فلاحي شيبيكوفا ، لم يبق فلس واحد دينا في عنقهم من الضريبة المستحقة عليهم .... وحينما يقرع الحارس على اللوحة ، كأن الطفل الذي لم يتمكن بعد من التشبع بالشعور اللازم في انكار الذات ينشج في مكان ما في الكوخ ..... استسلمنا للرقاد .

نهضنا في صباح اليوم التالي مبكرين نوعا ما . كنت ازمع المضي الى ريابوفو ، بيد ان اركادي بافليتش ابدى رغبته في اطلاعي على عزبته والتمس مني ان ابقى . لم اكن انا نفسي عازفا عن التيقن ، في الواقع العملي ، من الصفات الرائعة لرجل الدولة ذاك ـ سوفرون . أتى الوكيل . ارتدى سترة فلاحية زرقاء ذات حزام احمر . كان أقل كلاما من الامس ، حدق بفطنه وثبات في عيني السيد ، اجاب اجوبة متزنة

حاذقة . ذهبنا معـــا الى البيدر . تدل جميع المظـــاهر على ان الرئيس ، ابن سوفرون ، البالغ طوله سبعة اقدام امرؤ غبي للغـــاية وقــد ســـار وراءنـا ايضاً ، انضم الينا كذلك فيدوسيتش كاتب الوكيل وهــو جندي متقاعد ذو شوارب ضخمة وتعابير وجهه بالغة الغرابة : تنثي تماما بأن فزعا هـائلا اذهله منذ أمـــد بعيد للغـــاية ، ولم يعـــد منذ ذلك الحين الى رشـــده . اطلعنا على البيدر ، مخـــزن الحبوب ، العنبر ، الطـــــاحونة الهوائية ، زريبة المواشي ، مـــزرعة الخضروات ، حقــل القنب ، كان كل شيء في نظام فاخر حقا ، ماخلا وجوه الفلاحين الكئيبة التي جعلتني في نوع من الحيرة . لم يعن ســـوفرون بالناحية النفعية وحـــدها ، وانمـــا بجمالية المكان ايضاً : زرع الصـــفصاف على جـــوانب القنوات وشـــق الممرات بين اكداس البيدر وغطـــاها بالرمـــل ، وضـــع في الطـــــاحونة الهوائية دوارة ريح على هيئة دب مفتوح الفم ، أحمر اللسان ، الصـــق بزريبة الماشية القرميدي شيئا يشبه النافورة الاغريقية وكتب تحتهـــا بخط ابيض : ((بنيت زريبة الماشية هذه في قرية شيبيلوفكا ســـنة الف وثمانمائة واربعين(٦))) .

غمـــر السرور اركادي بافليتش كلياً ، انطلق يعـــرض لي باللغـــة الفرنسية فوائد نظام دفع الجـــزية ، ومـــع ذلك علق قـــائلا بان نظـــام السخرة اكثر نفعاً للملاك بلاشك ـ وماذا يضـــير على اية حـــال ! .... شرع يقـــدم الارشـــادات للوكيل ، كيف يزرع البطـــاطس ، كيف يحضر العلف للمواشي وغيرهـا . اصغى سوفرون لحديث السيد بانتباه ، ابدى احيانا ملاحظاته الخـــاصة ، لكنه لم يخلع على اركادي بافليتش لقـــب الاب او المحسن ، وانما يؤكد على ان الارض لديهم صـــغيرة ولا بأس من شراء ارض اخرى .

قال اركادي بافليتش اخيرا : ((اذن ، اشتر ارضـــا باســـمي ، فـــلا اعتراض لي على ذلك)) .

لم يجب سوفرون على هذه الكلمـــات بشيء ، وكل مـــا فعله انه مســـد

لحيته . قال السيد بينوتشكين : ((مهما يكن الامر ، فأنه لا مانع من ذهابنا الان الى الغابة .)) جلبوا لنا الخيول في الحال ، ركبنا الى الغابة ـ او كما يقولون عندنا الى ((الاحتياطي)) . وجدنا في هذا ((الاحتياطي)) وفرة مدهشة من الاحياء والاجمة الكثيفة ، بحيث اطرى اركادي بافليتش سوفرون وربت على كتفه . يتمسك السيد بينوتشكين بالمفهوم الروسي حيال زراعة الغابات ، قص علي حينئذ حادثة طريفه للغاية ، حسب كلماته ، انتزع احد الملاكين المحبين للمزاح ما يقارب نصف لحية حارس غابته لافهامه بالبراهين على ان قطع الاشجار لا يزيد في كثافة نموها ..... ورغم ذلك فان كلا من سوفرون واركادي بافليتش لا يعدمان الاحاديث المبتكرة في الحالات الاخرى . اقتادنا الوكيل لدى عودتنا الى القرية لمشاهدة المذراة التي ارسل في طلبها من موسكو منذ امد قريب . كانت المذراة تشتغل حقا بصورة جيدة ، لكن لو كان سوفرون يدري اي ازعاج ينتظره هو والسيد في خاتمه هذه النزهة لآثر ، على الارجح ، البقاء معنا في البيت .

وهذا ما حدث . عندما خرجنا من العنبر رأينا المشهد التالي . وقف فلاحان على بعد بضع خطوات من الباب ، قرب بركة قذرة تخوض فيها ثلاث بطات بلا اكتراث ... الاول عجوز يناهز عمره الستين ، والآخر شاب يبلغ العشرين عاما تقريبا ، كلاهما في قميصين مصنوعين من قماش خشن ، حافيا القدمين ، على خصر يهما حزام من الحبال .«انشغل الكاتب فيدوسيمتش معهما بدأب ، ومن الراجح انه افلح في اقناعهما بالابتعاد لو تأخرنا في العنبر ، لكنه ما ان رآنا حتى استقام كوتر القيثارة وتسمر في مكانه . وقف الرئيس هناك فاغرا فاه واطبق قبضته مرتبكا . قطب اركادي بافليتش ، عض على شفته ودنا من الملتميسين . ركع كلاهما صامتين على اقدامهما .

سأل بصوت صارم صادر من الانف قليلا ـ ماذا يلزمكما ، وماذاتلتمسان؟ (نظر الفلاحان الى بعضهما بعضا ولم ينطقا بكلمة صغيرة ، وانما

ضيقا عينيهما ، كما لو فعلا ذلك من الشمس واخذت انفاسهما تتلاحق سريعة .

واصل اركادي بافليتش كلامه ــ حسنا ، ما الخبر؟ التفت في الحال الى سوفرون قائلا ــ من اي عائلة هما؟

أجاب الوكيل ببطء ــ من عائلة توبوليييف .

تكلم السيد بينوتشكين مرة اخرى ــ ما بغيتكما اذن؟ ماذا ، اوليس لديكما لسان؟ استطرد وقد اومأ برأسه الى العجوز ــ او ما تقول لي ، ما الخبر؟ لا تخف ايها الاحمق .

مد العجوز رقبته البنية القاتمة المغضنة . لوى شفتيه المزرقتين جانبيا ونطق بصوت ابح : ((اغثني ايها السيد !)) أرتطم جبينه بالارض مرة اخرى . وسجد الفلاح الشاب ايضا . نظر اركادي بافليتش بوقار الى قفا رقبتيهما ، أرسل رأسه الى الوراء وباعد قليلا ما بين قدميه .

ــ ما الخطب؟ ومما تشتكيان؟

(تكلم العجوز بصعوبة) ــ رحماك ايها السيد ! دعني التقط انفاسي .... لقد اهلكنا تماماً .

ــ ومن اهلكك ؟

ــ سوفرون ياكوفليتش ايها السيد .

صمت اركادي بافليتش هنيهة .

ــ ما اسمك؟

ــ انتيب ايها السيد .

ــ ومن هذا؟

ــ ابني ايها السيد .

صمت اركادي بافليتش مرة اخرى وحرك شواربه .

ــ حسنا ، وكيف اهلكك؟

ــ لقد دمرنا تماما . ارسل اثنين من ابنائي ، ايها السيد ، قبل ان

يجيء دورهما الى التجنيد ، والان ينتزع الثالث مني . اخذ في الامس آخر بقرة عندي من الحوش وضرب زوجتي . ها هوذا صاحب المقام (واشار الى الرئيس) .

نطق اركادي بافليتش ـ هم !

ـ لا تتركنا في الخراب الشامل يا معيلنا .

قطب السيد بينوتشكين .

وجه السؤال الى الوكيل بصوت خافت ونظرة مستاءة ـ ماذا يعني هذا على اية حال ؟

اجاب الوكيل ـ شخص مخمور ايها السير Sir ، واستعمل ((كلمة سير)) لاول مرة ، انه لا يعمل . يتأخر وللسنة الخامسة عن دفع بقايا الديون .

واصل العجوز كلامه ـ ان سافرون ياكوفليتش يدفع اقساط الديون عني ايها السيد ، وها هوذا العام الخامس يمضي وانا مدين بالاقساط تلو الاقساط ، لانه جعلني في عبودية له ايها السيد ، وهذه هي المسألة ...

سأل السيد بينوتشكين مهددا ـ لماذا ظلت في ذمتك بقايا الضريبة؟ (نكس العجوز رأسه) لانك تحب ان تسكر وتتسكع في الحانات ؟ (اوشك العجوز ان يفتح فاه) وواصل اركادي بافليتش كلامه بانفعال ـ اعرفكم انا ، فشغلكم الشاغل الشرب والاستلقاء على سطح الموقد ، وعلى الفلاحين الجيدين تحمل المسؤولية عنكم .

حشر الوكيل نفسه في كلام السيد ـ زد على ذلك انه وقح ايضا .

ـ اجل ، هذا من تحصيل الحاصل . فغالبا ما يكون الامر على هذه الشاكلة ، لقد لاحظت ذلك اكثر من مرة .. يقضي العام كله بالفسق والوقاحة والان يركع على اقدامه .

تكلم العجوز بقنوط ـ ايها السيد اركادي بافليتش ، كن رحيما بي وساعدني ، أي وقح أنا؟ أقول أمام الله عز وجل ، انني أصبحت في

حال لا تطاق . أن سوفرون ياكوفليتش يمقتني ، ولماذا يمقتني ، ليكن الله قاضيا له ! لقد دمرني كليا ايها السيد .... ها هو ذا ابني الأخير ... وسيأخذه ايضا ... (لمعت عبرات في عيني العجوز الصفراوين المحاطتين بالغضون) رحماك ايها السيد ، ساعدني ...

اراد الفلاح الشاب ان يبدأ الكلام ـ ولسنا وحدنا هكذا ...

فجأة ثار اركادي بافليتش .

ـ ومن سألك أنت ، ها؟ اذا لم يسألوك ، فلذ بالصمت ! ما هذا؟ الزم الصمت ، اقول لك الزم الصمت ..... آه ، رباه أنه لتمرد حقا . كلا ، ايها الاخ ، لا انصحك بالتمرد على ملكيتي .... على ملكيتي ... (وخطا اركادي بافليتش خطوة الى الامام لكنه تذكر على الارجح ، وجودي ، فعاد ووضع يديه في جيبيه .) قال بابتسامة متكلفة ، خافضا صوته لحد كبير : Je vous demande bien padon mon cher cest le mauvais côté de la medaille... ارجوك المعذرة يا عزيزي هذا الجانب الرديء من الميدالية .

واصل كلامه وهو ينظر الى الفلاحين ـ حسنا ، لا بأس ، سأصدر امرا .... حسنا اذهبا . (لم ينهض الفلاحان .) حسنا .... ألم أقل لكما ..... اذهبا وسأصدر امرا ، اقول لكما .

ادار اركادي بافليتش ظهره لهما . قال من بين اسنانه ((لا نهاية للامور المزعجة)) وسار بخطى واسعة الى البيت مشى سوفرون في اعقابه . حملق الكاتب بعينيه ، كأنه يدفع على القفز الى مكان مرتفع للغاية . طرد الرئيس البط من البركة . وقف الملتمسان هنيهة في مكانهما ونظر احدهما الى الآخر ، ومشيا بتثاقل الى بيتهما دون ان يلتفتا الى الخلف .

بعد ساعتين خلت ، كنت في ريابوفو بصحبة انباديست ، وهو فلاح لي معرفة به ، تهيأنا للذهاب الى الصيد . ظل بينوتشكين متبرما من سوفرون حتى لحظة رحيلي . تحدثت مع انباديست عن فلاحي

شيبيلوفكا وعن السيد بينوتشكين ، سألته عما اذا كان يعرف الوكيل فيها .

ـ تعني سوفرون ياكوفليتش؟ ... بالتأكيد !

ـ وأي نمط من الناس هو؟

ـ انه كلب ، وليس بانسان . لن تجد كلبا نظيرا له في منطقة كورسك كلها .

ـ وماذا تعني؟

ـ هذا هو الوضع ، ان شيبيلوفكا لم تعد مسجلة باسم ، ماهو اسمه . بينكين ، فهو لا يملكها في الحقيقة ، وانما غدت من ممتلكات سوفرون .

ـ أحقا تعني ذلك؟

ـ أنه يتحكم فيها كما يتحكم بممتلكاته . الفلاحون غارقون بالديون له ، انهم يعملون كعبيد عنده : فهذا يرسله مع مجموعة عربات وذاك في مكان آخر .... لقد انهكهم تماما .

ـ يبدو ان الارض قليلة عندهم؟

ـ قليلة؟ لقد استأجر من فلاحي خلينوف وحدهم ثمانين ديساتين ، ومن فلاحينا مئة وعشرين ، اذن تلك مئة وخمسون ديساتين كاملة . وهو لا يتاجر بالارض وحدها ، وانما يتاجر بالخيول ، المواشي ، القطران ، الزيت ، الزبدة ، تيل القنب وغيره من هذا وذاك .... انه ذكي ، ذكي للغاية ، وثري ايضا هذا المحتال لكن السيء فيه انه يضرب . انه وحش وليس بانسان ، اقول لك عنه : كلب ، كلب هجين ، كما يكون عليه حال الكلب الهجين .

ـ اذن لماذا لا يشتكون عليه؟

ـ هاه ! لا حاجة للسيد ان يزعج نفسه ! ليس ثمة من ديون على احد ، فأي شأن له به؟ ... اضاف قائلا بعد لحظة صمت ـ اجل ، تعال وحاول ان تشتكي . كلا فهو ... سينزل بك العقاب ... أجل سينزل بك شيئا من ذلك ... تذكرت انتيب وحدثته عما رأيته .

قال انباديست ــ اذن سيلتهمه الآن ، ســيلتهمه كليا . الرئيس يضربه حاليا . يا له من بائس منكود الحظ عندما تفكر به ! وعلام يتحمــل كل ذلك ....؟ لقد اختلف معه في الاجتماع ، مع ذلك الوكيل ، ولم يعد يطيقه قط ... يا لها من قضية عظيمة ! بدأ يعنفــه ، يعذف انتيب . الآن يقضي عليه نهائيا . انه من ذلك النمط من الكلاب ، الكلاب الهجينة ــ اغفر لي ايها الرب ذنوبي ــ التي تعرف اين تغرز اسنانها . ان ذلك الشــيطان الاقرع لا يتعرض لكبار الســن اذا كانوا اكثر ثراء واكبر أسرة لكنه في تلك الحــالة ثارت ثائرته ! أترى انه ارســل ابناء انتيب قبل ان يحين موعدهم الى التجنيد ، ياله من محتال وقح ، كلب ، اغفر لي ايهــا الرب ذنوبي .

ذهبنا الى الصيد .

زاتسيرون ، في سيليزيا

تموز ١٨٤٧

المكتب

حدث ذلك وقت الخريف . حملت بندقيتي وقمت بجولة في الحقول استغرقت بضع ساعات ، وما كنت لاعود ، على الارجح ، قبيل المساء الى النزل الصغير في طريق كورسك العريض حيث تنتظرني الترويكا[1] ، لو لا قليل من رذاذ المطر الشديد البرودة الذي الح في مضايقتي ـ بما لا يقل سوءا من مضايقة العانس في هذا الشأن ـ منذ الصباح دون كلال او رحمة ، مما حملني اخيرا على البحث عن ملجأ مؤقت بالقرب مني في أي مكان . بينما كنت افكر في الجهة التي يترتب علي المضي فيها ، وقعت عيني فجأة على خص خفيض على مقربة من حقل مزروع بالحمص . دنوت من الخص ، القيت نظرة الى اسفل كومة من القش فرأيت عجوزا هرما لدرجة تذكرت معها فورا قصة الماعز الذي اشرف على الموت حينما وجده روبنسون[2] في احد كهوف جزيرته . جلس العجوز القرفصاء ، عيناه الصغيرتان المعتمتان ، عابستان ، كان يمضغ بعجالة ، لكن بحذر ، اشبه ما يكون بالارنب (فلم يبقى لدى المسكين سن واحد) حمصة جافة صلبة ، ويدحرجها

باستمرار من جهة الى اخرى . استغرق في عمله ذلك لدرجة ، انه لم يلحظ مجيئي .

قلت له ــ ايها الجد ، ها ، ايها الجد .

توقف عن المضغ ، رفع حاجبيه عاليا ، فتح عينيه ، بعد ان بذل جهده .

نطق بصوت ابح ، ماذا؟

سألته ــ اتوجد قرية قريبة؟

عاد العجوز يمضغ مرة اخرى : فلم يستطع ان يسمعني . كررت سؤالي بصوت اعلى من قبل .

ــ القرية؟ ... وماذا تريد منها؟

ــ أوترى اني ، أريد الاختباء من المطر .

ــ ماذا؟

ــ الاختباء من المطر .

ــ اجل ! (حك قفاه الذي لفحته الشمس) ثم قال فجأة وهو يومىء بيديه كيفما اتفق ، اذهب أنت من هنا ، هاهي .... هناك ، تسير قرب الحرش ، وما ان تمضي ، حتى تجد الطريق هناك ، اترك ذلك الطريق ولا تسر فيه ، وانما امش الى اليمين دائما ، انعطف الى اليمين دائما ، انعطف وانعطف ، وانعطف دائما .... حسنا ، هنالك تقع انانيفو . والا وصلت سيتوفكا .

فهمت العجوز بمشقة . اعاقته شواربه عن الايضاح ، وكذلك لسانه الذي طاوعه بشكل سيء .

سألته ــ ومن أي مكان أنت؟

ــ ماذا تقول؟

ــ من أي مكان أنت؟

من انانيفو .

ـ وماذا تعمل هنا؟

ـ ماذا تقول؟

ـ ماذا تعمل هنا؟

ـ انني اجلس للحراسة .

ـ وماذا تحرس؟

ـ الحمص .

ـ لم استطع الامتناع عن الابتسام .

ـ اعذرني ، لكن ، كم عمرك؟

ـ الله اعلم .

ـ مما لا ريب فيه ، ان بصرك رديء .

ـ ماذا؟

ـ اولست ترى بشكل رديء؟

ـ رديء . يصادف احيانا ، انني لا اسمع شيئا .

ـ ارجو المعذرة ، وكيف يمكن أن تكون حارسا؟

ـ الكبار اعرف بذلك .

فكرت قليلا ـ ((الكبار)) ، ونظرت الى العجوز المسكين بشيء من الشفقة . تحسس بيده تحت عبه ، اخرج قطعة من الخبز اليابس وشرع يمصها كالطفل وهو يسحب بجهد خديه الغائرين في الاصل .

سرت باتجاه الحرش ، استدرت نحو اليمين ، وبقيت ملازما تلك الجهة ، كما ارشدني العجوز ، وصلت اخيرا ، الى قرية كبيرة ذات كنيسة مبنية من الحجر على الطراز الحديث ، اعني ، ذات اعمدة ، ودار ملاك رحبة لها اعمدة ايضا . لاحظت من بعيد ، من خلال شبكة المطر المتواصلة منزلا ريفيأ ، له سقف من الواح الخشب ومدخنتان ، كان اعلى قليلا من المنازل الإخرى ، وهو على الارجح مسكن رئيس القرية ، فيممت خطاي صوبه ، يحدوني الامل ان اجد فيه السماور والشاي والسكر والقشدلة غير المحمضة تماما . صعدت بصحبة كلبي

الذي احس بالبرد ، الى عتبة الباب ودلفت الى المدخل ، فتحت الباب ، لكنني رأيت ، عوضا عن اللوازم الاعتيادية ، بضع طاولات مطمورة بالاوراق ، وخزانتين حمراوين ، ومحابر ملوثة ، وساعة رملية يبلغ وزنها حوالي البود ، وريش طويلة وغيرها . جلس على احدى الطاولات فتى يبلغ العشرين من عمره ، منتفخ الوجه عليله ، له عيناه صغيرتان وجبهة غليظة وفودان متصلان . كان حسن الملبس ، يرتدي قفطانا رماديا ، ذا حاشية لامعة عند ياقته وبطنه .

سألني وارسل رأسه فجأة الى الاعلى ، كالجواد الذي يتوقع ان يمسك من وجهه ـ ما حاجتك ؟

ـ هل يعيش ناظر الضيعة هنا .... او ...

ـ قاطعني قائلا ـ هنا المكتب الرئيس للملاكة ، وانا الخفير .... ألم تر اللوحة ؟ لقد دقت اللوحة لهذا الغرض .

ـ أين يمكنني ان اجفف ثيابي؟ وهل يوجد سماور لدى احد في القرية ؟

اعترض الفتى ذو القفطان الرمادي بزهو ـ وكيف لا توجد سماورات؟ اذهب اذا شئت الى الاب تيموفي ، او الى فناء المنزل الريفي ، او الى نزار تاراسيتش ، او الى اغرافينا مربية الطيور .

رن صوت في الغرفة المجاورة ـ مع من تتكلم ايها الابله؟ انك لا تدعني اغفو ايها الابله .

ـ عرج علينا سيد يتساءل ، اين يمكنه تجفيف ثيابه .

ـ اي سيد هناك؟

ـ لست ادري .... معه كلب وبندقية .

صر سرير في الغرفة المجاورة . انفتح الباب ، ودخل امرؤ يناهز عمره الخمسين عاما ، سمين ، قصير القامة ، ذو رقبة بدينة قصيرة ، جاحظ العينين ، خداه مدوران بشكل غير طبيعي ، ويعلو شيء من اللمعان وجهه برمته .

سألني ــ ماذا تريد؟

ــ تجفيف ثيابي .

ــ ماهذا بمكان لتجفيف الثياب .

ــ لم ادر ، بأنه مكتب ، ومع ذلك فأنا مستعد ان ادفع ..... اعترض البدين قائلا ــ اظن انك تستطيع القيام بذلك هنا ، فهل يروق لك المكان هنا (وقادني الى غرفة اخرى ، لكن ، لم تكن الغرفة التي خرج منها .) ايناسبك هذا المكان؟

ــ انه على ما يرام ..... اممكن تناول الشاي مع القشطة ؟

ــ دون ريب ، حالا . تفضل واخلع ملابسك وارتح ، سيكون الشاي جاهزا في لحظة .

ــ ولمن تعود هذه الضيعة؟

ــ للسيدة لوسنياكوفايا ، يلينا تيكولا يفنا .

خرج . اخذت اتطلع حولي : توجد اريكة ضخمة مصنوعة من الجلد على امتداد الحاجز الذي يفصل غرفتي عن المكتب وكرسيان من الجلد ايضا ، لكل منهما مسند عال ، برزا على كلتا جهتي النافذة الوحيدة المطلة على الشارع . علقت ثلاث لوحات كبيرة مرسومة بالاصباغ الزيتية . على الجدران المغطات بالورق الاخضر الموشى باللون الوردي ، اللوحة الاولى عليها صورة كلب صيد ، له طوق ازرق وقد كتب تحته : ((انت سلوتي)) يجري نهر عند قدمي الكلب . يجلس ارنب بحجم ضخم وقد انتصبت اذناه على الشاطىء المقابل تحت شجرة صنوبر . في اللوحة الاخرى عجوزان يأكلان البطيخ الاحمر ، وثمة رواق يلوح من خلف البطيخ الاحمر كتب تحته : ((معبد الراحة)) . تمثل اللوحة الثالثة امرأة شبه عارية ، في حالة استلقاء en raccurci حمراء الركبتين ، ولها كعبان بالغا السمنة . اندست كلبتي ، دون توان وبعد بذل جهود خارقة ، تحت الاريكة ، ويبدو انها عانت هناك من كثرة الغبار فاسترسلت في عطاس شديد . دنوت من النافذة . توجد الواح خشبية

عبر الشـــارع ابتداء مـــن بيت الســـيدة وحتى المكتب ، باتجـــاه غير مستقيم ، ان الحذر مفيد للغاية ، فالاوحال من حـــولنا ، بفضـــل تربتنا السوداء والامطار المتواصلة ، كثيرة للغاية . ان الاعمال التي تجـــري حول عزبة السيدة القائمة عند الشارع .. خلف الدار ، تجري عادة حول عزب السادة : الفتيات في ثياب من قماش الشـــيت الباهـــت رائحـــات غاديات بعجلة ، الخدم يمشون بمشقة في الاوحال ، يتوقفون ، يحـــكون ظهورهم مفكرين ، يحرك جواد ، قام العـــامل بربطـــه ، ذيله بتمـــاهل ، يرفع وجهه عاليا ، يأكل من اغصان السياج ، يطلق الدجـــاج قـــوقأة ، يتصايح الدجاج الهندي السقيم دون انقطاع ، ثمة مبنى معتم عفن عند العتبة ، لعله حمام على الارجح ، جلس شاب قوي البنية ومعـــه قيثارة اخذ يردد بشيء من الشجاعة ، الاغنية المشهورة :

ايه ، سأبتعد من هذه الربوع الفاتنة

واذهب الى الفلوات ....

وغيرها .

دخل الرجل البدين الى الحجرة .

قال مبتسما ابتسامة حلوة ـ هـــاهم يجلبون الشـــاي اليك . وضـــع الفتى ذو القفطان الرمادي وخفير المكتب ، على منضدة قديمة عتيقـــة ، السماور والقوري ، والقدح في صحن مثلوم ، مـــع قـــدر مـــن القشـــطة وحزمة من كعك بولوخوف الصلب كالصوان . خرج الرجل البدين ...

سألت الخفير ـ من هذا ، اهو ناظر الضيعة؟

ـ لم يكن ناظرا قط ، كان امينا للصـــندوق ، والان نقـــل للعمـــل مـــع الكتاب الرئيسيين .

ـ وهل لديكم مدير؟

ـ بالطبع ، وهو الماني ، لينداماندول ، كارلو كارليتش ، لكنه لا يقـــوم باصدار الاوامر .

ـ ومن يقوم باصدار الاوامر اذن ؟

ـ السيدة نفسها .
ـ هكذا اذن ..... اوليس لديكم جمع غفير من الناس في المكتب ؟
فكر الفتى قليلا .
ـ لدينا ستة اشخاص .
سألته ـ وما هي وظيفة كل منهم؟
هذه هي وظائفهم : اولا ، فاسيلي نيكولا يفتيش امين الصندوق الرئيس ، ويليه بيوتر كاتب وايفان اخ بيتروف كاتب ، ايفان آخر كاتب ، كوسكينكين ناركيزوف كاتب ايضا وليس بوسعي تعداد الجميع .
ـ اظن ، ان لدي سيدتكم جمعا وافرا من العاملين ؟
ـ كلا ، ليسوا بالجمع الوافر .
ـ ومع ذلك فكم عددهم؟
ـ يبلغ مجموعهم ، على ما اظن ، زهاء مئة وخمسين شخصا .
اخلد كلانا الى الصمت لحظة .
انشأت في الحديث مرة اخرى ... حسنا ، انت تحسن الكتابة اذن ؟
ابتسم الفتى بملء فيه ، نكس رأسه ، مضى الى المكتب ، وجلب ورقة مكتوبة .
قال والابتسامة لا تفارق وجهه ـ هذه كتابتي .
نظرت : واذا الامر التالي مكتوب على ورقة مربعة رمادية بخط غليظ جميل :

أمر

صادر من المكتب الرئيس للملاكة في انانيفو
الى الوكيل ميخائيل فيكولوف ، رقم ٢٠٩
((نأمر بالبحث فورا ، عند تسلم هذا الكتاب : عمن مر في الليلة

الماضية وهو في حالة سكر وغنى اغاني بذيئة عندما مر في الحديقة الانكليزية فايقظ المربية ، السيدة انجين الفرنسية وأثار قلقها ؟ ومن هم الحراس القائمون بالحراسة ، وأي حارس منهم كان في الحديقة وسمح بمثل هذه الفوضى؟ نأمرك ان تستطلع بالتفصيل عن كل ما ورد اعلاه وتخبر المكتب بذلك فورا .

الكاتب الرئيس ، نيكولاي خفوستوف)) .

مهر الامر بختم كبير ذي شعار وكتب تحته ((ختم المكتب الرئيس للملاكة في انانيفو)) وذيل ادناه : ((ينفذ بدقة . يلينا لوسلينا كوفا .))

سألته ــ وهل ذيلت الامر السيدة نفسها؟

ــ بالتأكيد ، هي نفسها ، تفعل ذلك دائماً ، والا فلا يصبح الامر نافذ المفعول .

ــ حسنا ، وهل ترسلون هذا الامر الى الوكيل؟

ــ كلا ، انه يأتي هو نفسه ويقرأه . اعني يقرأ له ، فهو لا يعرف القراءة والكتابة . (لزم الخفير الصمت قليلا مرة اخرى) . واضاف مبتسما ــ ما رأيك ، هل كتب كتابة جيدة ؟

ــ جيدة .

ــ واصدقك القول لست انا الذي اعد النص . ان كوسكيكين ماهر في هذا الشأن .

سالته ــ وماذا تفعلون ؟ هل تضعون نص الاوامر باديء بدء؟

ــ وكيف لا نعد النص في بداية الامر؟ لا يمكن الكتابة مباشرة على المبيضة .

سألته ــ وكم الراتب الذي تستلمه ؟

ــ خمسة وثلاثون روبلا وخمسة روبلات للجزمة .

وهل انت راض به ؟

ــ بالتأكيد . لا يستطيع العمل في هذا المكتب كل من هب ودب . واقول

الحق ، كل شيء يجري بمشيئة الله : كان جدي يعمل ناظرا للخدم .
ـ وهل حالك على ما يرام؟
ـ على ما يرام ، استطرد في كلامه وندت منه تنهدة : اذا اردت الحقيقة ، فان امثالنا العاملين عند التجار مثلا ، افضل حالا منا . ان احوال نظرائنا عند التجار جيدة جدا ، لقد وصل الينا مساء تاجر من فينيوف ، واخبرني عامله بذلك ..... فالوضع حسن ، ليس ثمة من اعتراض ، حسن .
ما السبب ، هل التجار يدفعون رواتب اعلى؟
ـ استغفر الله ! التاجر يطردك بخشونة اذا ما طلبت منه راتبا . كلا ، عش عند التاجر على الثقة والخوف ايضا . انه يطعمك ، يشربك ، يلبسك ويفعل لك كل شيء . واذا حظيت برضائه منحك اكثر .... وما قيمة راتبك بالمقايسة معه : لا لزوم له البتة .... ثم ان التاجر يعيش ببساطة على الطريقة الروسية وعلى نمطنا : تسافر معه ، فاذا شرب الشاي في الطريق ، تشرب انت معه ، اذا اكل تأكل مثله . التاجر .... يمكن القول : التاجر امرؤ غير السيد . التاجر ليس نزوانيا ، لكنه حين يغضب ، يضرب وتنتهي القضية ، لا يتبرم ولا يناكد ... اما السيد ، فمصيبة ! لا يرضى عن شيء . هذا رديء ، وذاك لا يريحه . اذا قدمت له قدح ماء او طعاما . ـ ((اف ، الماء نتن ! آه ، الطعام فاسد)) تأخذه ، وتقف وراء الباب ، وتجلبه مرة ثانية ـ ((هذا حسن ، الان جيد ، هذا حسن ، الان لا نتن فيه)) اما السيدات الملاكات ، فأقول ، الويل لنا من السيدات ... والآنسات لا يحتملن البته !
رن صوت الرجل البدين في المكتب ـ فيدوشكا !
خرج الخفير بخفة . اكملت شرب قدح الشاي ، استلقيت على الاريكة وغفوت . نمت زهاء ساعتين .
استيقظت ، هممت بالنهوض ، لكن الكسل غلبني ، فاغمضت عيني ، بيد اني لم اغف مرة اخرى . كانوا يتحدثون في المكتب ، خلف الحاجز

بهدوء . اخذت اصغي اليهم تلقائيا .

قال احدهم ـ حقا ، حقا ، نيكولاي يريميتش ، لا يجوز الا نأخذ هذا بنظر الاعتبار ، حقا لا يجوز .... هِم (وسعل المتحدث) .

سمع صوت الرجل البدين معترضا ـ صدقني غافريلا انتونيتش كيف يمكن لي الا اعرف التعليمات هنا ، فمن يعرفها اذن ؟

ـ بالطبع ، ومن يعرفها غيرك نيكولاي يريميتش : انت هنا ـ يمكنني القول ـ الشخص الاول : تابع الصوت المجهول لدي كلامه ـ اذن ما نحن فاعلون ؟ وماذا سنقرر نيكولاي يريميتش ؟ اسمح لي ان استطلع الامر .

ـ وماذا نقرر ، غافريلا انتونيتش؟ فالمسألة تعتمد عليك كما يقال : يظهر ، انك غير راغب في الشراء

ـ ارجو المعذرة ، نيكولاي يريميتش ، ما هذه الظنون؟ ان عملنا هو التجارة ، بيع وشراء ، التجارة مهنتنا وبفضلها ، يمكن القول ، نيكولاي يريمتش ، نعيش .

قال الرجل البدين وهو ينطق الكلمات متباعدة ـ ثمانية روبلات . سمعت آهه .

ـ نيكولاي يريميتش ، اسمح لي ، انك تطلب مبلغا باهظا .

ـ لا يمكنني ، غافريلا انتونيتش التصرف بشكل مغاير ، اقول لك امام ربنا عز وجل ، لا يمكنني ..

خيمت برهة من الصمت .

نهضت على مهل ونظرت عبر شق في الحاجز . جلس الرجل البدين موليا ظهره الي . جلس مقابله تاجر ، عمره يناهز الاربعين ، هزيل ، شاحب ، كأنه مدهون بزيت نباتي ، كانت ترتج لحيته باستمرار وعيناه ترمش بخفة وشفتاه تختلج .

أمسك بأطراف الحديث مرة اخرى ـ يمكنني القول ان الغلال مدهشة في السنة الحالية ، تمتعت بمنظرها وانا مسافر . امتدت ابتداء

من فورونيج امتدادا رائعا ، بل استطيع القول انها من الصنف الاول .

اجاب الكاتب الرئيس ـ حقا الغلة حسنة ، انت تعرف غافريلا انتونيتش ، القول المأثور ، قد يبشر الخريف بالجمال ، وقد يكون الربيع بشعا .

ـ حقا ، نيكولاي يريميتش : كل شيء بمشيئة الله ، لقد تكلمت فأصبت كبد الحقيقة .... الم يستيقظ ضيفك ذاك .

استدار الرجل البدين ..... وارهف السمع .....

ـ كلا ، مافتىء نائما . ومع ذلك فمن المحتمل ان .....

دنا من الباب .

كرر القول كلا ، مافتىء نائما وعاد الى مكانه .

امسك التاجر بأذيال الحديث مرة اخرى ـ حسنا ، ماذا تقول ، نيكولاي يريميتش ؟ ينبغي حسم القضية ..... ليكن الامر هكذا ، نيكولاي يريميتش ، ليكن الامر هكذا ، واستطرد في كلامه وهو يرمش دون توقف ـ ورقتان ماليتان رماديتان وواحدة بيضاء ، مكرمة منك ، وهناك (اومأ برأسه الى فناء السيدة) ستة روبلات ونصف . اتفقنا ، أوليس كذلك؟

اجاب الوكيل ـ أربع رمادية .

ـ ارجوك ، ثلاث .

ـ اربع رمادية دون بيضاء .

ـ ثلاث ، نيكولاي يريميتش .

ـ ثلاث ونصف ، ولن ينقص كوبيك واحد .

ـ ثلاث ، نيكولاي يريميتش .

ـ لا موجب للكلام ، غافريلا انتونيتش .

دمدم التاجر يالك من عازف عن الكلام ، اظن من الافضل انهاء الصفقة مع السيدة نفسها .

اجاب الرجل البدين ـ كما تشاء ، من الافضل لو تصرفنا هكذا .
حقا ، علام تقلق نفسك معي؟ .... سيكون الأمر أفضل .
حسنا ، حسبك ، حسبك ، نيكولاي يريميتش . لاح عليك الغضب الآن ، قلت ذلك على سبيل المزاح .
ـ كلا ، انه افضل لك في الواقع ....
ـ قلت حسبك ... قلت انني امزح . اذن ، خذ ثلاث ونصف ، اتصرف وفق ارادتك .
تمتم الرجل البدين ـ كان يتأتى علي اخذ اربعة روبلات ، اجل ، لكنني ، انا الاحمق ، تسرعت .
ـ وما هو موجود في البيت ثمنه ستة ونصف ، نيكولاي يريميتش ؟ فهل تبيعني الحبوب لقاء ستة ونصف ؟
ـ لقد قلت لك ستة ونصف .
ـ حسنا ، اتفقنا نيكولاي يريميتش (نقر التاجر باصابعه المنشورة على راحة الكاتب) ياله من اتفاق ! (نهض التاجر) . اذن سيدي نيكولاي يريميتش ، اذهب الان الى السيدة واقدم لها نفسي واقول : لقد اتفقنا انا ونيكولاي يريميتش ، اعني على دفع ستة ونصف .
ـ حسنا ، غافريلا انتونيتش .
ـ والان تفضل بالتسلم .
سلم التاجر الى الكاتب حزمة غير كبيرة من الاوراق ، انحنى له ، هز رأسه ، تناول قبعته باصبعين صغيرين ، هز كتفيه ، حرك خصره حركة متموجة وخرج بحشمة ، وهو يصر بجزمته صريرا خافتا :
دنا نيكولاي يريميتش من الجدار وبدأ ، بقدر ما استطعت ان الحظ ، يفك الاوراق التي سلمه اياها التاجر . اطل من الباب رأس احمر الشعر ، ذو فودان كثيفان .
سأل الرأس ـ حسنا ، ماذا فعلت ، هل تم كل شيء على ما يرام؟
ـ كل شيء على ما يرام .

ـ وكم اخذت ؟
اومأ الرجل البدين بيده مغتاظا ، وأشار الى حجرتي .
عارض الرأس ـ اها ، حسنا . وتوارى .
اقترب الرجل البدين من المنضدة ، جلس ، فتح كتابا ، جلب الحاسبات وشرع يحسب بالخرز مستخدما اصبعه الثالث بدل سبابة اليد اليمنى : فهذا اكثر ملاءمة له .
دخل الخفير .
ـ ماذا تريد؟
ـ وصل سيدور من غولوبليوكا .
ـ اها ! طيب ناده . تمهل ، تمهل ... تعال وانظر باديء بدء ، فيما اذا كان السيد الغريب ما يزال نائما ام انه استيقظ .

دخل الخفير بحذر علي في الغرفة . وضعت رأسي على حقيبة الصيد التي تقوم لدي مقام الوسادة واغمضت عيني .
همس الخفير ، عائدا الى المكتب ـ ما زال نائما .
دمدم الرجل البدين من بين اسنانه .
وأخيرا قال ـ اذن ، ناد سيدور .
نهضت مرة اخرى . دخل فلاح ضخم القامة ، يناهز عمره الثلاثين ، تبدو عليه امارات الصحة ، احمر الخدين ، اشقر الشعر ، ذو لحية غير كبيرة مجعدة ، ابتهل امام الايقونة ، انحنى للكاتب الرئيس ، اخذ قبعته بكلتا يديه ووقف منتصبا .
قال الرجل البدين وهو ينقر على الحاسبات ـ مرحبا سيدور .
ـ مرحبا ، نيكولاي يريميتش .
ـ حسنا ، كيف كان الطريق؟
ـ لا بأس به ، نيكولاي يريميتش . موحل قليلا . (تكلم الفلاح بتريث وبصوت غير مرتفع .)

ـ هل زوجتك في صحة جيدة؟
ـ وماذا يمكن ان يحدث لها !
ندت عن الفلاح آهة ومد قدمه . وضع نيكولاي يريميتش الريشة خلف اذنه ومخط .
استمر يسأله وهو يضع المنديل ذا المربعات في جيبه ـ حسنا ، ما الذي جاء بك الى هنا؟
ـ اتدري ، نيكولاي يريميتش ، انهم يطلبون نجارين من قريتنا .
ـ طيب ، اوليس لديكم نجارون ، ما الخبر ؟
ـ بالتأكيد لدينا نيكولاي يريميتش : فمن المعروف ان مواردنا كلها تأتي من الخشب ، الان فترة يكثر فيها العمل نيكولاي يريميتش .
ـ فترة يكثر فيها العمل ! زد على ذلك ، فانتم ترغبون في العمل لدى الآخرين ولا تحبون ان تشتغلوا لدى سيدتكم ... العمل كله واحد .
ـ العمل كله واحد ، بلا ريب ، نيكولاي يريميتش .... أما بخصوص ...
ـ ماذا ؟
ـ الأجرة قليلة جدا .... وتلك ...
ـ ماذا تبغي من وراء هذا ! انكم تتدللون ، هذا كل مافي الأمر .
ـ لابد ان اقول لك نيكولاي يريميتش ، ان مدة العمل اسبوع واحد فحسب ، لكنهم يؤخروننا شهرا . تارة المواد غير كافية وطورا يرسلوننا الى الحديقة لتنظيف الممرات .
ـ ماذا تبغي من وراء هذا ! السيدة نفسها تفضلت واصدرت أوامرها ، لذلك ليس ثمة من شيء نتناقش حوله .
ـ لزم سيدور الصمت ، وراح يبدل رجلا بأخرى .
لوى نيكولاي يريميتش رأسه الى جانب وأخذ ينقر الخرز بشدة . طفق سيدور يتكلم اخيرا وهو يتلعثم عند كل كلمة ـ فلاح ... ينا .... نيكولاي يريميتش ... يطلبون عفوك .... هناك .... سيكون ... (أدخل يده الكبيرة في عبه وبدأ يسحب من هناك منشفة مطوية ذات وشي

أحمر) .

ــ قاطعه الرجل البدين بسرعة ــ ما بالك ، ما بالك ، ايها الاحمق ، هل فقدت صوابك ، ام ماذا ؟ تابع كلامه وهو يدفع تقريبا الفلاح المذهول ــ اذهب ، اذهب الى كوخي ، هنالك اطلب مــن زوجتي .... ستحضر لك الشاي ، سآتي توا ، امض . قلت لك ، اذهب .

خرج سيدور من هناك .

همهم الكاتب الرئيس في اعقابه وهز رأسه ــ اف ... ياله مــن دب ! وعاد للعمل في الحاسبات مرة اخرى .

دوى فجأة صراخ في الشارع وتحت السقيفة : ((كوبريا ! كوبريا ! كوبريا لا يجوز تحطيمه)) دخل بعد هنيهة الى المكتب امرؤ قصير القامة عليل المظهر ، ذو انف طويل بشكل غير طبيعي ، وعينين واسعتين جامدتين وقيافة رصينة للغاية ــ كان يرتدي سترة عتيقة بالية ذات لون اخضر فاتح او اوديلودا كما يقولون عندنا ، ياقتها مــن البليسة وازرارها صغيرة . حمل حزمة مــن الحطب على منكبيه . احتشد حوله زهاء خمسة اشخاص مــن الخدم وكلهم يصيحون : ((كوبريا ! كوبريا ! لا يجوز تحطيم كوبريا ، نقلوه ليعمل وقادا ، وقادا)) لكن الشخص الذي يرتدي سترة ذات ياقة بليسة لم يعر صخب اصحابه اي اهتمام ، لم يطرأ اي تغيير على وجهه . سار بخطى متزنة نحو المدفأة ، القى حمله ونهض ، اخرج مــن جيبه الخلفي علبة السعوط ، حملق بعينيه وبدأ يحشو انفه بعشب عطر ممزوج بالملة .

كاد الرجل البدين ان يقطب حاجبيه وينهض من مكانه لدى دخول الزمرة الصاخبة ، لكنه ما ان عرف القضية حتى ابتسم وطلب منهم الكف عن الصياح : ففي الغرفة المجاورة صياد نائم ، سأل شخصان في صوت واحد ــ اي صياد ؟

ــ ملاك .

ــ اها !

قال الشخص ذو ياقة البليسة فارشا ذراعيه ــ دعهم يضجون ، وما شأني بهذا الأمر ! المهم ألا يمسني احد . لقد شغلوني وقاداً ايضا ...

تابع الحشد جذلا ــ وقادا ! وقادا !

استطرد في كلامه وهز كتفيه ــ امرت السيدة بذلك ، وانتم رويدكم ... سيجعلونكم رعاة للخنازير . اما أنا فخياط وخياط جيد ، فقد تعلمت مهنتي عند الماهرين الاوائل في موسكو ، وخيطت ثيابا للجنرالات .... ولا يمكن لأحد ان ينتزع مني ذلك . أما انتم فبماذا تشجعون انفسكم؟ .... بماذا؟ وماذا تفعلون لو تحررتم من سلطة السادة؟ أنتم طفيليون ومتطفلون معا لا غير . اذا اعتقوني فلن أموت جوعا ، لن اهلك ، اعطني وثيقة الانعتاق وسأدفع جزية جيدة وارضي السيد . أما أنتم فماذا تفعلون؟ ستهلكون ، ستهلكون ، كالذباب ، هذا كل ما في الأمر .

قاطعه شاب مجدور أشقر ، ذو رباط احمر ممزق الثوب من الكوع ــ ها أنت ذا تكذب ، فحتى لو حصلت على وثيقة الانعتاق فلن يرى السيد منك كوبيكا واحدا تدفعه جزية له ، لن تكسب لنفسك فلسا : أنت تجر قدميك بمشقة الى البيت ، ومنذ ذلك الحين تعيش مرتديا القفطان نفسه .

عارضه كوبريان قائلا ــ وماذا يفعل المرء كونستانتين ناركيزيتش ! أحب مرة وتحطم ، هلك . عش كونستانتين ناركيزيتش باديء الأمر تجارب الحياة التي عشتها ، وبعد ئذ يمكنك ان تحكم علي .

ــ ومن وجدت لتحبها ! انها لمسخ حقيقي !

ــ لا ، لا تقل هذا ، كونستانتين ناركيزيتش .

ــ ومن تريد ان تقنع ؟ أتعرف أنني رأيتها في السنة المنصرمة في موسكو ، رأيتها بأم عيني .

قال كوبريان ــ حقا انها تغيرت قليلا في السنة الماضية

بدأ الحديث ، بصوت يشوبه الازدراء وعدم الاكتراث ، شخص طويل

القامة نحيفها ، وجهه طافح بالبثور ، شعره اجعد ولامع من الدهن ولابد انه رئيس الخدم في دار السيد ـ كلا ، أيها الاصحاب ، دعوا كوبريان افاناسيتش يغني لنا أغنيته . حسنا ، ابدأ ، كوبريان أفاناسيتش !

استرسل الآخرون ـ أجل ، أجل .. أها ، لتعش الكسندرا ، اوقعت كوبريا في هواها ، لاشيء يمكن أن نقوله ..... غن ، كوبريا .... مقدامة الكسندرا (يتحدث الخدم غالبا ، امعانا في الرقة ، عن الفلاح مستخدمين حروف التأنيث) غن !

عارض كوبريان بحزم ـ ليس هذا بمكان للغناء ، انه مكتب الملاكة .

أجاب كونستانتين بمزاح فظ ـ وما شأنك بهذه المسألة ؟ أترى ، أنت نفسك تود أن تصبح كاتبا ! يجب ان يكون الامر كذلك .

علق المسكين ـ مقاليد الامور كلها بيد السيدة :

ـ انظروا ، انظروا ، الى أين يتطلع ، ياله من امرىء اوه ، اوه ، ها !

قهقه الجميع ، وثب آخرون . انفجر صبي في الخامسة عشرة من عمره ضاحكا بصوت اعلى من الجميع ، انه على الارجح ، ابن أرستقراطي حشر نفسه بين الخدم : يرتدي صدارا ذا ازرار برونزية وربطة بنفسجية اللون ، واصبح له بطن كبير منذ الآن .

بدأ نيكولاي يريميتش الكلام مزهوا يظهر أنه تسلى ورق ـ اصغ ياكوبريا وقل الحق ، هل تعد من السيء ان تعمل وقادا؟ هل تعده عملا بليدا ، ها ؟

قال كوبريان ـ حسنا ، نيكولاي يريميتش ، ها أنت ذا المسؤول الرئيس عندنا ، ولا خلاف في ذلك البته ، اترى لقد تعرضت انت ايضا للعقوبة ، وعشت كذلك في كوخ الفلاح .

قاطعه الرجل البدين بحدة ـ من الأفضل ان تعرف ولا تنس انهم يمزحون معك ايها الأحمق ، كان يجدر بك ان تعرب عن امتنانك ، لأنهم يعيرون اهتمامهم لأحمق مثلك .

ـ أسألك المعذرة ، نيكولاي يريميتش ، أنها لهفوة لسان .
ـ أجل ، انها هفوة لسان بالتأكيد .
فتح الباب وهرع خادم صبي .
ـ نيكولاي يريميتش ، السيدة تطلب منك الحضور لعندها .
استفسر من الصبي ـ ومن عند السيدة؟
ـ اكسينيا نيكيتيشنا وتاجر من فينيوف .
ـ لحظة وسأكون عندها . واصل كلامه بصوت حازم ، من الافضل لكم ، ايها الاخوة ان تنصرفوا من هنا بمعية ذلك الذي اصبح يعمل وقادا : ما أن يأتي شخص الماني حتى يشرع بالشكوى دون ريب .
عدل الرجل البدين شعر رأسه وصففه ، سعل في يده التي يكاد يغطيها كليا كم سترته ، زرر ملابسه ثم توجه قاصدا السيدة الملاكة مباعدا ما بين ساقيه في اثناء المشي . تمهل الرهط قليلا وسار متثاقلا في اعقابه بصحبة كوبريا . بقي الخفير الذي عرفته سابقا لوحده . اراد ان يشرع في بري الريشة بيد انه جلس واستسلم للنوم ، استغلت بضع ذبابات توا هذه الفرصة البهيجة والتصقت به محيطه بفمه . حط البعوض على جبينه ، باعد رجليه الصغيرتين وغرز على مهل ابرة برمتها في الجسم اللدن . اطل الرأس الاحمر السابق ذو الفودين مجددا من وراء الباب ، تطلع وتطلع ثم دخل الى المكتب بجسمه القبيح لحد ما .
قال الرأس ـ فيدوشكا ! ها فيدوشكا ! أنت دائما نائم .
فتح الخفير عينيه ونهض عن الكرسي .
ـ هل ذهب نيكولاي يريميتش الى السيدة ؟
ـ لقد ذهب الى السيدة ، فاسيلي نيكولايتش .
((فكرت قائلا ـ اها ، اها ، ها هو ذا أمين الصندوق الرئيس))
شرع أمين الصندوق الرئيس يمشي بالغرفة رائحا غاديا . انه بالاحرى يتلصص اكثر مما يمشي وكان شبيها بالقطة عموما . تدلت

على كتفيه بدلة سوداء عتيقة ، طرفها الخلفي ضيق للغاية ، وضع احدى يديه على صدره وامسك باستمرار ربطته العالية الضيقة المصنوعة من شعر الخيل بيده الاخرى ، كان يدير رأسه بعصبية . احتذى حذاء من جلد الماعز لا يحدث صريرا وسار فيه بليونة فائقة .

اضاف الخفير ـ اليوم سأل عنك الملاك ياغوشكين .

ـ هيه ، سأل عني ؟ وماذا قال ؟

ـ قال ، اترى ، انه سيذهب مساء الى توتوريوف ويكون بانتظارك . ينبغي ، اعني ، ان اتداول مع فاسيلي نيكولايتش في قضية معينة ، أما أية قضية ، فانه لم يشر اليها : يقول ان فاسيلي نيكولايتش يعرفها .

اعترض امين الصندوق الرئيس مطلقا صوت ، هم ! ودنا من النافذة .

دوى صوت عال في الرواق ـ هل نيكولاي يريبييف في المكتب ؟ وتخطى العتبة امرؤ طويل القامة ، تلوح عليه امارات الغضب ، قسمات وجهه غير متناسقة ، لكنها معبرة وجريئة ، ثيابه أنيقة لحد ما .

سأل وهو يتطلع سريعا فيما حوله ـ أليس هو هنا؟

أجاب أمين الصندوق ـ نيكولاي يريميتش عند السيدة .

ماحاجتك قل لي ، بافل اندريتش . بمستطاعك ان تقول لي .... ماذا تريد ؟

ـ ماذا اريد ؟ اتود ان تعرف ، ماذا اريد ؟ (احنى امين الصندوق رأسه بضعف .) اريد ان القن المكرش الخبيث النمام السافل درسا ..... لن اسمح له بالوشاية !

تهافت بافل على الكرسي .

ـ ما بالك ، ما بالك بافل اندريتش ؟ هدىء من روعك ... كيف لا يغشاك الخجل ؟ تمتم امين الصندوق : لا تنس ، بافل اندريتش ، عمن تتكلم .

ـ عمن ؟ وما شأني بقضية ترقيته الى واحد من الكتاب الرئيسيين !

اجل ، لقد وجدوا شخصا جيدا كي يقوموا بترقيته ، استطيع القول على وجه الدقة انهم اطلقوا الماعز في الحقل !

ـ حسبك ، حسبك بافل اندريتش ، حسبك دعك من هذا ..... ما هذا الهراء الذي تفوه به؟

ـ اذن ، ذهب الثعلب باتريكيفيا [٣] يراوغ ! ... سأنتظر سأنتظره ، نطق بافل ذلك بحماسة وضرب بقبضة يده على المنضدة . استطرد وهو ينظر من النافذة ـ زد على ذلك ، انه يشتكي ، لقد جاء ، ابن حلال ... اهلا وسهلا (نهض واقفا) .

مرحبا ، نيكولاي يريميتش ـ قالها بافل بصورة معبرة ودنا متوانيا للقائه ، ـ مرحبا .

لم يجب الكاتب الرئيس بأي شيء . اطل عند الباب وجه التاجر . استطرد بافل في كلامه .... ما بالك لا تتفضل بالاجابة . ثم اضاف

ـ ومع ذلك ، لا .... لا ، ما هكذا تحل الامور ، فلن تحصل على شيء بالصياح والشتائم . بلى ، من الافضل ان تتكلم بالحسنى ، نيكولاي يريميتش ، ماسبب ملاحقتك لي ؟ ولماذا تروم هلاكي ؟ طيب ، لتتكلمن ، لتتكلمن .

اعترض الكاتب الرئيس بنبرة لا تخلو من الانفعال ـ ما هذا بمكان للتفاهم معك ، ولا بالوقت المناسب ايضا . ومع ذلك اقول الحق ، ان شيئا واحدا ليدهشني : من اين استنتجت ، انني ارغب في هلاكك ، واني الاحقك ؟ وكيف بمستطاعي ، اخيرا ان الاحقك ؟ مادمت لا تعمل عندي في المكتب .

اجاب بافل ـ دون ريب ، هذا ما يعوزني فحسب . لكن ما بالك تتظاهر ، نيكولاي يريميتش؟ ..... فأنت تفهمني جيدا كما تعرف .

ـ كلا ، لا افهمك .

ـ اجل ، تفهمني .

ـ كلا ، وايم الله لا افهمك .

ـ وتقسم بالله ايضا مادام قد وصل الامر الى هذا الحد، قل اذن، الا تخشى الله! حسنا، لماذا لا تدع الفتاة المسكينة وشأنها؟ وماذا تريد منها؟

سأل الرجل البدين بدهشة مصطنعة ـ عمن تتحدث، بافل اندريتش؟

ـ اها! انه لا يعرف عمن اتكلم، عن تاتيانا. اخش الله، ما الذي يدفعك للانتقام؟ اخجل من نفسك: انت امرؤ متزوج، ان اولادك في مثل سني، بينما، انا لا أريد شيئا آخر ... سوى الزواج منها، انني اتصرف بشرف.

ـ وما ذنبي في ذلك، بافل اندريتش؟ السيدة لا تسمح لك بالزواج: هذه مشيئة الملاكة وما علاقتي بذلك؟

ـ ما علاقتك أنت؟ ألم تدبر أنت وتلك العجوز الخبيثة، مدبرة المنزل المكائد لها؟ او لعلكما لم تشيا بها؟ قل لي، الم تلفقوا ضد تلك الفتاة، التي لا حماية لها، مختلف انواع التلفيقات؟ لعلك لم تبارك نقلها من غسالة ثياب الى غسالة صحون، الم تضرب وتؤخر في عملها كل يوم بمباركتك؟ .....

اخجل، اخجل! ايها الرجل الكبير! الا ترى ان الشلل سيصيبك يوما ما ..... وعليك ان تجيب عن حساب الله.

اشتم بافل اندريتش اشتم .... سنرى فيما اذا كان سيتعين عليك مواصلة الشتم مدة طويلة.

تملك الهياج بافل.

قال بحدة ـ ما بالك، اتفكر بتهديدي؟ او تظن انني أخافك؟ كلا، أيها الأخ، أنني لست الذي كنت تظنه وممن أخاف؟ ..... سأجد لقمة عيشي اينما كان، اما انت، فلك شأن آخر فلن تعيش الا هنا فحسب، تشي، تختلس ....

قاطعه الكاتب، الذي بدأ ينفد صبره ايضا ـ انظر كيف يزهو بنفسه، انك طبيب، مجرد طبيب، حكيم فارغ، ومن يسمعك ـ وي،

اي شخصية مهمة انت !
ـ اجل طبيب ، ولولا هذا الطبيب لكنت الان ايها المحسن متعفنا في المقبرة .... ثم اضاف متكلما من بين اسنانه ـ ان الشيطان وحده هو الذي اغراني بشفائه .

أمسك ، الكاتب بزمام الكلام ـ أأنت شفيتني ؟ .... كلا ، انت اردت ان تسمني ، لقد سقيتني السابور .

ـ وماذا في ذلك مادام لا يمكن لشيء ان يؤثر فيك ماخلا السابور ؟

واصل نيكولاي كلامه ـ منعت الدائرة الطبية استعمال السابور وسأشتكي عليك ايضا . لقد اردت موتي ، هذه هي القضية ! لكن الرب لم يشأ ذلك .

تدخل امين الصندوق قائلا ـ حسبكم ، حسبكم ، ايها السادة .

صاح الكاتب ـ دعنا لقد اراد ان يسممني اتذكر انت ذلك ؟

شرع بافل يتكلم بقنوط ـ انني بحاجة ماسة .... اسمع نيكولاي يريمييف ، اطلب منك للمرة الاخيرة .... لقد ارغمتني على ذلك ، لم اعد اطيق صبرا .... دعنا في سلام ، اتفهم؟ والا ، والله ، لن ينال احد منا خيرا ، انني اوجه هذا الكلام اليك .

ابتعد الرجل البدين .

صاح ـ انني لا اخافك ، اتسمع ايها الغر ! لقد تغلبت على ابيك واستسلم لي ، ليكونن لك عظة ، ولتنظرن !

ـ لا تذكرني بوالدي ، نيكولاي يريمييف ، لا تذكرني ،

ـ هكذا ! من انت حتى تصدر لي الاوامر ؟

ـ قلت لك لا تذكرني ....

ـ وقلت لك ، لا تنس نفسك ! ... مهما تكن حاجة السيدة اليك

ـ حسب ما تظن ـ فاذا قدر لها ان تختار واحدا منا ، فلن تكون انت يا عزيزي ولن يسمح بالتمرد ، حذار ! (ارتعش بافل من شدة الغيظ) اما الفتاة تاتيانا فتستحق ما سينزل بها من عقاب .... وستكون في

حال اسوأ مما هي عليه الآن .

وثب بافل الى الامام ويداه مرفوعتان ، وتدحـــرج الكاتب بعنف على الارض .

تأوه نيكولاي يريمييف قائلا ــ كبلوه في القيود ، في القيود ....

لن اواصل وصف نهاية المشهد ، ومع ذلك فاخشى أن أكون قد صدمت شعور القاريء .

قفلت عائدا في ذلك اليوم الى البيت . علمــت بعــد مضي اســبوع ان السيدة لوسنياكوفا ابقت عندها في الخدمة كلا من بافل ونيكولاي ، اما الفتاة تانيا فقد اقصتها : يبدو انها ليست بها حاجة اليها .

★ ★ ★

بيريوك ★

عدت وحيدا من الصيد بعربة سريعة في المساء . وما زال امامي ثماني فيرستات كي اصل الى البيت . كان فرسي الطيب السريع يعدو جذلا في الطريق المغبر ، ويصهل احيانا محركا اذنيه ، اما الكلبه المتعبة فلم تتخلف ولو خطوة واحدة عن العجلتين الخلفيتين كأنهما شدت اليهما . طفقت العاصفة الممطرة بالاقتراب . ارتفعت امامنا ببطء غمامة هائلة بنفسجية من وراء الغابة . تحركت غيوم رمادية طويلة فوقي واقبلت صوبي ، اهتز الصفصاف مضطربا وهسهس . حلت بغتة برودة رطبة محل القيظ الخانق ، تكاثفت الظلال سريعا . ضربت الجواد بالمقود ، هبطت في واد ضيق ، قطعت نهيرا جافا غطته شجيرات الصفصاف برمته ، صعدت الى الربوة ودخلت الى الغابة . تعرجت الطريق امامي بين شجيرات الجوز الكثيفة التي غمرها الظلام ، شققت طريقي الى الامام بصعوبة . تواثبت العربة على الجذور الصلبة لاشجار البلوط والزيزفون المعمرة ، تركت عجلات العربات آثارا دائمية ، اذ رسمت فيها اخاديد عميقة طويلة ، تعثر جوادي في باديء

★ يطلق اسم بيريوك في محافظة اورلوف على الشخص الوحيد المتجهم (ملاحظة الكاتب)

الامر . هبت فجأة ريح شديدة في الاعالي ، اهتزت الاشجار ، قـرقعت بشـدة قـطرات مـطر كبيرة وسـقطت على الاوراق ، اومض البرق وانطلقت العاصفة الممطرة . هطل المطـر كالسـيول . سـارت العـربة ببطء ، لكن سرعان ما اضطررت الى التوقف :

لم يستطع فرسي الخروج من الاوحال ، لم ار شيئا في الظـلام . اويت كيفما اتفق الى شجيرة عريضة . احدودبت وغطيت وجهي ، انتظـرت صابرا نهاية هذا الجو الرديء . لمع البرق فجأة فتراءت لي في الطـريق هيئة امريء طويل ، اخذت امعن النظر في تلك الجهـة واذا بتلك الهيئة وكأنها انبعثت من الارض ، تقف قرب عربتي ..

سأل صوت رنان ـ من هذا؟

ـ ومن تكون انت نفسك ؟

ـ انا حارس الغابة هنا .

اخبرته باسمي .

ـ اها ، اعرف ، أأنت ذاهب الى البيت ؟

ـ الى البيت . لكن اترى ، اي عاصفة ممطرة ....

اجاب الصوت ـ اجل ، عاصفة ممطرة .

اضاء برق ابيض حارس الغابة من قمـة رأسـه الى اخمص قـدمه ولعلع حالا قصف رعد مدو قصير في اعقـابه . هـطل المطـر بقـوة مضاعفة .

استطرد حارس الغابة في كلامه ـ لن تمر العاصفة بسرعة .

ـ ما العمل !

نطق بكلام متقطع ـ لربما اخذك الى كوخي .

ـ اعمل معروفا .

ـ تفضل واجلس .

دنا من رأس الجواد ، امسكه مـن عنانه وجـره مـن المكان . طفقنا نسير . تمسكت بسنادة العـربة التي اخـذت تطقـطق ، ((كقـارب في

البحر)) وناديت الكلبة . ارتطمت اقدام فرسي المسكين بقوة في الاوحال انزلق ، تعثر ، تمايل حارس الغابة امـــام عريش العـــربة يمنة ويسرة كالشبح ، قطعنا مسافة طويلة لحد ما . اخيرا وقـــف مـــرافقي . قـــال بصوت هـادىء ــ ((هـا نحن اولاء قد وصلنا الى البيت ، ايها السيد)) . صرت البوابة ، نبحت بضعة جراء في آن واحـــد . رفعـــت رأسي ، رأيت على ضوء البرق ، كوخا صغيرا وسط فناء واسع يحيطه ســياج مـــن الاغصان . اضاءت نار خابية مـــن احـــدى النوافـــذ الصـــغيرة . اقتاد حارس الغابة الجـــواد حتى المدخـــل وطـــرق الباب . رن صـــوت رقيق ((حالا ، حالا)) سمع وقع قدمين حـــافيتين ، صر المزلاج وظهـــرت عند عتبة الباب صـــبية في الثانية عشر مـــن عمـــرها ، ترتدي قميص نوم ، متحزمة بزنار مخرم وتمسك مصباحا بيدها .

قال لها ــ اضيئي للسيد ، اما انا فسأضع عربتك تحت السقيفة .

نظرت الصبية الي ثم دلفت الى الكوخ . سرت في اثرها . يتألف كوخ الحارس من غرفة واحدة سخماء واطئة طويلة ، بدون اسرة او حاجز . علقت فروة ممزقة على الجدار . القيت بندقية ذات ما سورة واحدة على المقعد ، تكدست في الركن كومة من الخرق ، ثمة قـــدران كبيرتان قـــرب الموقد . اشـــتعلت شـــظايا الخشـــب على المنضـــــدة ، التهبت بكآبة ثم انطفأت . علق مهد في وسط الكوخ تماما ، مشدود بطرف عمود طويلة . اطفأت الصبية المصباح ، جلست على مقعد صغير وشرعت تهـــز المهـــد بيدها اليمنى وتعالج شظايا الخشـــب بيسراهـــا . تطلعـــت حـــوالي ــ فأوجعني قلبي : ليس بهيجا الدخول الى كوخ الفلاح ليلا . كان الطفـــل يتنفس بمشقة في المهد وبسرعة .

سألت الصبية ــ وهل انت وحدك هنا ؟

ــ وحدي ، لفظت ذلك بصوت لا يكاد يسمع .

ــ أنت ابنة الحارس؟

همست ــ ابنته .

صر الباب ، خطا الحارس عبر العتبة وقد حنى رأسه . رفع المصباح عن الارض ، دنا من المنضدة واشعل الفتيل .

نفض شعره الاجعد وقال ــ احسب انك لم تعتد على شظايا الخشب؟

تطلعت اليه ، قلما اتفق لي ان رأيت مثل هذا الرجل المقدام . كان طويل القامة ، عريض المنكبين ، متين البنية : بانت عضلاته المفتولة بجلاء من تحت قميصه المتسخ المبلل . غطت لحيته السوداء الجعداء نصف وجهه الصارم الرجولي ، اطلت عيناه واسعتان عسليتان بجرأة من تحت حاجبيه العريضين الملتحمين . اسند يديه اسنادا خفيفا الى جانبيه ووقف امامي .

عبرت له عن امتناني وسألته عن اسمه .

أجاب ــ ان اسمي فوما ، ولقبي بيريوك .

ــ هل انت بيريوك؟

نظرت اليه بحب استطلاع مضاعف . فقد سمعت غالبا من يرمولاي والآخرين عن بيريوك ، حارس الغابة ، الذي يخافه فلاحي الضياع كلهم كما يخافون النار . لم يوجد في الدنيا ــ حسب قولهم ــ امرؤ حاذق في مهنته نظير له ((لا يمكن ان تختلس ولو حزمة حطب ، مهما تكن اوقات اليوم ، يداهمك فجأة ، حتى في منتصف الليل ، لا حاجة للتفكير في ابداء المقاومة ابدا ــ انه مارد ، اعني ، داهية كأبليس ... لا يمكن استرضاؤه بأي شيء : لا بالنبيذ ولا بالنقود ولا ينقاد لاية غواية . حاول الناس الطيبون اكثر من مرة العمل على التخلص منه ، لكن كلا ، لم يستسلم .))

هكذا يتحدث الفلاحون المجاورون عن بيريوك .

كررت القول ــ اذن بيريوك ، لقد سمعت بك ايها الاخ ، يقولون انك تعاقب دون تساهل .

اجاب مقطبا ــ أؤدي واجبي ، لا يجوز عبثا اكل مال الملاك .

اخرج فأسا من تحت نطاقه ، جلس على الارض وشرع يفلع شظايا

من الخشب .

ــ أوليس عندك ربة بيت ؟

أجاب ــ كلا ، ودفع الفأس بقوة .

ــ أتعني ، انها توفيت ؟

اضاف قائلا ــ كلا .... اجل .... توفيت واشاح بوجهه .

لزمت الصمت ، رفع عينيه ونظر الي .

قال وهو يبتسم ابتسامة صارمة ــ هربت مع عابر سبيل من المدينة . غضت الصبية طرفها ، استيقظ الطفل وصرخ ، اقتربت الصبية من المهد ، قال لها بيريوك وقد دس في يدها زجاجة رضاعة وسخة ، خذي اعطه ، اياها ، واصل كلامه بصوت خافت واومأ الى الطفل ــ هاهي ذي قد تركته .

دنا من الباب وتوقف ثم نكص على عقبيه .

انشأ يقول ــ احسب ايها السيد انك لن تستطيع اكل خبزنا وليس لدي سوى الخبز .

ــ لست بجائع .

ــ حسنا ، اقول ، كان بودي ان اعد لك السماور ، لكن لا شاي عندي .... سأذهب والقي نظرة على جوادك .

خرج وصفق الباب . تطلعت حوالي مرة اخرى . لاح لي الكوخ اكثر كآبة من قبل . ضاقت انفاسي بشكل مزعج من رائحة الدخان البارد الحريفة . لم تتحرك الصبية من مكانها ولم ترفع عينيها ، ظلت تهز المهد بين فينة واخرى وتعيد بحياء وضع قميصها المنهدل ، على كتفيها ، كانت قدماها العاريتان متدليتين لا تتحركان .

سألتها ــ ما اسمك؟

نطقت وقد نكست وجهها الصغير الحزين اوطأ من السابق .

ــ اوليتيا .

دخل الحارس واخذ مجلسه على المقعد .

علق بعد برهة صمت وجيزة ـ العاصفة تتلاشى ، فاذا امرت ، سأرافقك لتخرج من الغابة .

نهضت ، تناول بيريوك البندقية وتطلع الى السبطانة . سألته ـ ولم هذه ؟

انهم يعبثون في الغابة .... واضاف اجابة على نظراتي المتسائلة ، يقطعون شجرة عند وادي كوبيلي .

ـ وهل تسمع من هنا ؟

ـ انها مسموعة في الفناء .

خرجنا معا . توقف المطر . ما فتئت تحتشد من بعيد غيوم ثقيلة هائلة ، يومض احيانا برق متواصل ، لكن اخذت تتراءى السماء الغامقة الزرقاء فوق رؤوسنا في بعض الاماكن . النجيمات تتلألأ بخفوت من خلال الغمام الخفيف المسرع في عدوه . طفقت تلوح ملامح الاشجار التي رشها الغيث واهاجتها الريح ، في العتمة . شرعنا نرهف السمع . خلع حارس الغابة قبعته واطرق . ((قال فجأة ومد يده ، ها .... هكذا ، اترى اي ليل اختار)) . لم اسمع شيئا ، ماخلا حفيف الاوراق . اخرج بيريوك الجواد من تحت السقيفة .

((اضاف بصوت عال ـ ومع ذلك ، احسبه ظن انني لن اراه .))

ـ ((سأذهب معك ... أترضى؟))

ـ ((أجاب ـ لا بأس ورجع بالجواد الى الخلف ، سنمسك به فورا ، وهناك سأوصلك . لنذهب .))

مضينا ، سار بيريوك في المقدمة وانا خلفه ، الله وحده يعلم كيف اهتدى للطريق ، بيد انه كان يتوقف قليلا فحسب ، كيما يصيخ السمع لضربات الفأس . ((دمدم من خلال اسنانه ـ تطلع ، اتسمع ؟ اتسمع ؟)) ـ ((ولكن اين ؟))

هز بيريوك كتفيه .

هبطنا الى الوادي . هدأت الريح للحظة ، ترامت الى سمعي ضربات

منتظمة جلية . نظر بيريوك الي وهز رأسه . واصلنا السير على الخنشار المبلل والقراص . دوت ضجة موحشة متواصلة ....
تمتم بيريوك ــ سقطت ...

ظلت السماء تعاود صفاءها في غضون ذلك . اضاء الغابة نور خافت . خرجنا اخيرا من الوادي . همس الحارس ((انتظر هنا .)) انحنى ورفع البندقية الى الاعلى ثم توارى بين الشجيرات . اخذت ارهف السمع باهتمام . تناهت الي اصوات ضعيفة غير بعيدة من بين ضجيج الريح الدائم : فأس يضرب الاغصان بحذر ، عجلات تطقطق ، حصان يحمحم ..... دوى فجأة صوت بيريوك الحديدي

ــ ((الى اين ؟ قف)) صاح الصوت الآخر حزينا كصوت الارنب .... وبدأ الصراع . ((قال بيريوك مؤكدا ، وهو يلهث ــ تكذب ، تكذب ... لن تذهب ...» هرعت في اتجاه الضجة وعدوت ، متعثرا في كل خطوة ، الى مكان المعركة قام الحارس بعمله على الارض عند الشجرة المقطوعة ، وضع السارق تحته وشد يديه الى خلف ظهره بزنار . دنوت منهما نهض بيريوك واوقفه على قدميه . رأيت فلاحا مبتلا ، يرتدي اسمالا ، لحيته طويلة شعثاء . كان حصانه القذر المغطى حتى نصفه بقماش ذي زوايا ، واقفاً هناك في طريق العربات ، لم ينبس الحارس ببنت شفه ، لاذ الفلاح بالصمت ايضا ، كان يهز رأسه فقط بين حين وآخر .

همست في اذن بيريوك ــ خل سبيله وسأدفع لك ثمن الشجرة .

امسك بيريوك الحصان صامتا من شعر رأسه بيده اليسرى ، وأمسك اللص من نطاقه باليمنى : قال بصرامة ــ ((حسنا ، استدر ايها الابله)) . تمتم الفلاح ((خذ الفأس الصغير من هنا)) . قال الحارس ورفع الفأس ((حقا ، لماذا يذهب سدى؟)) مضينا في طريقنا . سرت الى الخلف ... بات المطر ينث مرة اخرى ، وسرعان ما انهمر كالسيل . وصلنا بمشقة الى الكوخ . القى بيريوك الحصان الصغير الذي قبض عليه في الفناء ، اقتاد الفلاح الى الغرفة ، فك عقدة الزنار واجلسه في

الزاوية . وثبت الصبية ، التي كانت غافية قرب الموقد ، واخذت ترنو الينا بفزع صامت .. جلست على المقعد .

قال الحارس معلقا ـ يا للمطر كيف ينهمر ، لابد من الانتظار مرة اخرى . ألا تريد ان تستلقي ؟

ـ شكرا لك .

واصل كلامه مشيرا الى الفلاح . كنت سأضعه في الكرار ، لولا رحمتك به ، اجل واوصد الباب دونه بالمزاج ...

قاطعت بيريوك ـ اتركه هناك ، ولا تمسسه .

نظر الفلاح الي مقطبا . قطعت على نفسي عهداً في سري ان اطلق سراح المسكين مهما كلف الامر . جلس دون حراك على المقعد . استطعت ان اتفحص على ضوء المصباح وجهه المضنى المتغضن وحاجبيه الصفراوين المتهدلين وعينيه المضطربتين واعضاءه النحيفة .... استلقت الصبية على الارض عند قدميه مباشرة ونامت مرة اخرى . جلس بيريوك قرب المنضدة ، مسندا رأسه الى يديه . صوّت صرصار في الزاوية .... قرع المطر السطح وانزلق على النوافذ ، اخلدنا جميعا الى الصمت .

بدأ الفلاح فجأة في الكلام بصوت خافت محطم ـ فوما كوزميتش ، يا فوما كوزميتش .

ـ ماذا تريد؟

ـ خل سبيلي .

لم يحر بيريوك جوابا .

ـ خل سبيلي .... دفعني الجوع ... خل سبيلي ..

اعرض الحارس عابسا ـ اعرفك يا هذا ، ان ضيعتكم كلها على هذا النمط ـ سارق في سارق .

قال الفلاح مؤكدا ـ خل سبيلي ايها الوكيل .... انني في فاقة رديبة .... خل سبيلي .

ـ الفاقة !.. لا ينبغي لأحد ان يسرق .

ـ خل سبيلي ، فوما كوزميتش .... لاتحطمني . انت نفسك تدري ، ان سيدي لن يرحمني .

أعرض بيريوك عنه . ارتعش الفلاح كأنه مصاب بالحمى . ارتج رأسه وتنفس تنفسا غير منتظم .

كرر بقنوط حزين ـ خل سبيلي ، خل سبيلي ، بالله عليك خل سبيلي ! سأدفع ، الله شاهد على ما أقول ، والله ، الجوع دفعني ... الاطفال يبكون من الجوع ، انت نفسك تدري . وضعنا سيء ، الوضع عسير للغاية .

ـ ومع ذلك ، لا يجوز ان تذهب وتسرق .

واصل الفلاح كلامه ـ الحصان ، ولو ذلك الحصان .... الحيوان الوحيد لدي ... خل سبيلي .

ـ قلت لك لا يمكن . فأنا ايضا شخص غير حر ، يطلبون مني . فلا يجوز لي ان اتنعم عليك ايضا .

ـ خل سبيلي انها الحاجة يافوما كوزميتش ، انها الحاجة ، انه العسر البالغ ، خل سبيلي .

ـ اعرفك يا هذا !

ـ لكن خل سبيلي !

ـ ايه ، ما جدوى الكلام معك ، اجلس والتزم السكينة ، الا تدري من عندي ؟ ما بالك ، الا ترى السيد؟

غض المسكين طرفه . تثاءب بيريوك والقى برأسه على المنضدة . لم يتوقف المطر طوال الوقت . انتظرت ، ما سيحدث .

اعتدل الفلاح فجأة في جلسته ، توهجت عيناه واحمر وجهه . ((بدأ الكلام وقد زر مابين عينيه وتهدلت زاويتا شفتيه ـ حسنا ، خذه ، كل لحمي وغص به ، خذ ، ايها السفاح اللعين ، اشرب من الدم المسيحي ، اشرب ....))

التفت الحارس .

ـ اتكلم معك انت ، ايها ، الاسيوي [٣] ، مصاص الدماء انت ! .

قال الحارس مندهشا ، مـا بالك أأنت مخمـور ، حتى خـطر لك ان تشتم؟ هل فقدت صوابك؟

ـ مخمور .... لم اسكر بنقودك ايهـا السـفاح اللعين ، وحش وحش ، وحش !

ـ ويحك ... سأريك !

ـ وماذا يهمني ؟ الامر سيان لدي ـ لقد هلكت فأين أولي وجهـي دون حصان ؟ اقتلني ، انها لنهاية واحدة ، سـواء كانت مـن الجـوع ، أم هكذا ، الامر سيان عندي . سيهلك الجميع جوعا : الزوجة والاطفـال ، كلهم سيموتون ... ومع ذلك انتظر ، فسوف :قتص منك .

نهض بيريوك .

تابع الفلاح كلامه بصوت يتميز غيظا : اقتلني ، اقتلني ، خذ ، خـذ ، اقتل .... (وثبت الصبية بسرعة عن الارض وحملقت به .) أقتل ! أقتل !

هدر الحارس ـ صه ! وخطا مرتين .

صحت ـ حسبك ، حسبك ، يافوما دعه وشأنه ... اتركه لحال سبيله .

واصل التعس كلامه ـ لن اسكت ، الامر سيان ، العائلة كلها ستهلك ، ايها السفاح ،ايها الوحش ، لم يصـل اليك الموت ... ولكن انتظـر ، لن تدوم هيمنتك طويلا ستخنقك الحاجة ايضا سنرى !

امسكه بيريوك من كتفه ..... واندفعت لمساعدة الفلاح ....

صاح الحارس بي ـ ابتعد عنه ، ايها السيد !

لم اكن لاخشى تهـديداته ، وكنت سـأمد يد المسـاعدة ، لكن لعـظيم دهشتي ، انتزع بعطفة واحدة الزنار من مرفق الفلاح وامسـك بتلابيبه وأمال قبعته على عينيه وفتح الباب ودفعه الى الخارج .

صاح في اثره ـ اذهب الى الشيطان ، انت وحصانك ! لكن حـذار في المرة الاخرى .

عاد الى الكوخ وانزوى في الركن .

قلت اخيرا ـ حسنا ، بيريوك ، لقد ادهشتني ، ارى انك شخص مجيد .

قاطعني بغيظ ـ ما اكثر الحوادث ايها السيد ، لا ضرورة للكلام فيها . واضاف قائلا : من الافضل ان ارافقك . يبدو ان المطر لن يتوقف فورا ...

طقطقت عجلات عربة الفلاح في الفناء .

تمتم ـ حذار ، ومشى بتثاقل ! سألقنه درسا ...

بعد نصف ساعة ودعني عند طرف الغابة .

★ ★ ★

مــلاكان

كان لي شرف تعريفك ، ايها القارىء الكريم ، على بعض السادة من جيراني ، واسمح لي الآن بالمناسبة (فكل شيء لدينا نحن الكتاب ـ بالمناسبة) ان اعرفك ايضاً على اثنين من الملاكين ، غالباً ماكنت اقوم بالقنص في أراضيهما وهما شخصان غاية في الوقار ، مخلصان ويتمتعان باحترام عام في مناطق عديدة .

اصف لكم في بادىء الامر الميجر جنرال المتقاعد فياتشيلاف ايلاريوفينش خفالينسكي . تخيلوا امرءاً طويلا ، كان ممشوق القامة في يوم ما ، اما حالياً فهو مترهل لحدما ، لكن ماهو بالمتهدم قط ، ولا بالمرء المسن ، وانما كما يقولون ، في أوج عمر النضج . حقاً تغيرت قليلا قسمات وجهه القويمة في الماضي ، التي ما برحت لطيفة الآن ، احاطت بعينيه غضون متكاثرة اشبه بخيوط الشعاع ، تساقطت هنا وهناك بعض الأسنان ، كما قال سعدي[1] ـ حسب تأكيد بوشكين لذلك ـ اما الشعر الأشقر ، او على الأقل ماتبقى منه سالماً ، فقد تحول الى رمادي ـ ليلكي بفضل تركيب اشتراه في سوق رومين للخيول من

يهودي ادعى أنه أرمني ، غير ان فياتشيلاف ايلاريوفيتش ظل يتحدث بنشاط ، يضحك ضحكة مرنانة ، يصلصل بالمهاميز ، يفتل شواربه واخيراً يتحدث عن نفسه كضابط قديم من ضباط الفرسان ، رغم المعروف عن المسنين فعلا انهم لا يتكلمون قط عن انفسهم كمسنين . يرتدي عادة سترة مزررة كلها الى العنق ، ربطة عالية ، ياقة منشاة ، سروالا رمادياً منقطاً مفصلا على الطراز العسكري ، يلبس قبعة ويميلها على جبينه مباشرة ، تاركاً قفاعنقه عارياً برمته ، انه امرؤ بالغ الطيبة ، لكن مفاهيمه وعاداته غريبة لحد ما . فهو لا يستطيع مثلا ان يعامل النبلاء غير الأثرياء او من هم بلا رتبة كأناس على قدم المساواة معه . ينظر اليهم عادة بتعال عندما يتحدث معهم ، فيسند خده الى ياقته الصلبة البيضاء ، او يشرع فجأة في التحديق اليهم بنظرة جلية ثابتة ، يلزم الصمت ، يشد جلد رأسه تحت شعره ، بل يتلفظ كلمات غير اعتيادية ، فهو لا يقول مثلا : «اشكرك ، بافل فاسيليتش» او «تعال هنا من فضلك ميخائيلو ايفانيتش» وانما «اشرك ، يابال اسيليتش» و «تال هنا من فضك ميخائيل فانيتش» . أما معاملته للناس الذين يشغلون درجات ادنى في السلم الاجتماعي فاكثر غرابة : انه لا ينظر اليهم مطلقاً ، وقبيل ان يوضح لهم رغبته او يصدر امراً ، يكرر بضع مرات متوالية ، بمظهر المتشاغل الحالم : «ما اسمك ؟ .... ما اسمك ؟» مؤكداً بنبر غير اعتيادي على الكلمة الاولى «ما» ، بينما يلفظ الكلمات الباقية بسرعة بالغة ممّا يضفي على كلامه شبهاً قريباً لحد ما بصياح ذكر السمانة : انه مزعج للغاية ، مخيف ، لكنه ضعيف في ادارة شؤون مزارعه : اختار لنفسه مديراً لاعماله ، رقيباً اول متقاعداً ، من روسيا الصغرى[٢] وهو شخص مفرط الغباء .

لابد من القول ايضاً ، انه لم يفق امروء عندنا في امور إدارة المزارع ، احد موظفي بطرسبورغ المرموقين ، فهو يطلع من تقارير الوكيل على ان منشف الحبوب يتعرض غالباً للحريق في الضيعة مما يتسبب في تلف

كثير من الحبوب ، فأصدر أمراً مشدداً : لا تضعوا حزم السنابل في منشف الحبوب مادامت النار لم تخمد تماماً . ثم يخطر ببال ذلك الموظف نفسه أن يزرع حقوله كلها بالخشخاش في أعقاب عملية حسابية تبدو بسيطة للغاية على مايظهر . فمن الواضح أن الخشخاش أغلى من الجودار ، وبالتالي فان زراعة الخشخاش اكثر ربحاً . وهو نفسه الذي فرض على النسوة ، الأقنان ان يضعن على رؤوسهن ملاءة شبه دائرية طويلة ، ارسل نموذجاً منها من بطرسبورغ ، ومازالت النسوة يرتدين بالفعل هذه الملاءات حتى الآن في ضياعه .. باستثناء طيها من الاعلى . لكن لنعد الى فياتشيلاف ايلاريوفيتش . ان فياتشيلاف ايلاريوفيتش مولع مدله بالجنس اللطيف ، ما ان يلمح في شارع مدينة مركز المنطقة فتاة حسناء حتى يمضي في إثرها فوراً ، بيد انه يشرع في الحال ايضاً يعرج ، وهذا هو الامر العجيب . يهوى لعب الورق ، لكن مع من هم اقل منه رتبة فقط ، لانهم يخاطبونه «ياصاحب السعادة» وهو يعاملهم بحنق وكما يحلو له . اما اذا اتفق ان لعب مع المحافظ او اي موظف كبير المنزلة ، فيطرأ عليه حينئذ تبدل غريب . انه يبتسم ، او يومىء برأسه ، او يتطلع في عيونهم ، ولا ريب انه يقطر عسلا ... وهو يخسر ايضاً ، لكنه لايتذمر .

يطالع فياتشيلاف ايلاريوفيتش قليلا ، يحرك في اثناء المطالعة حاجبيه وشاربيه باستمرار ، كأن موجة تهبط ثم تعلو مارّة على وجهه . تلاحظ تلك الحركة التموجية الشكل خصوصاً على وجه فياتشيلاف ايلاريوفيتش ، اذا صادف ان قرأ (بحضرة الضيوف طبعاً) اعمدة من «Journal des Debats» . يتمتع بدور مهم لحد ما في الانتخابات ، لكنه يتخلى عن اللقب الفخري لممثل النبلاء لبخله : ومن عادته ان يقول للنبلاء الذين يتحدثون معه حول الموضوع ، بصوت مفعم بلهجة الحماية والثقة بالنفس ــ ايها السادة ، انني كثير الامتنان لهذا الشرف الذي اوليتموني اياه ، لكنني عقدت العزم على ان

اخصص أوقات فراغي للاختلاء مع نفسي» ، عندما يتفوه بتلك الكلمات يدير رأسه بضع مرات يميناً ويساراً ومن ثمة يدع ذقنه وخده يمسان بوقار ربطة عنقه .

اصبح في ايام شبابه ضابطاً مساعداً عند صاحب مقام ذي شأن ، ولم يكن يدعوه قط الا باسمه ولقبه ، يقولون إنه لم يأخذ على عاتقه القيام بواجبات مساعد القائد وحدها ، كان يرتدي ، على سبيل المثال ، بزة المواسم بكاملها ، يزرر ازرارها كلها ويقوم بأداء كل الخدمات التي يحتاجها رئيسه بالحمام ، لكن المرء لا يمكنه تصديق كل ما يسمعه . الى جانب ذلك لا يرغب الجنرال خفالينسكي نفسه في التحدث عن سيرته في الوظيفة ، مما يبدو غريباً على وجه العموم ، ويظهر أنه لم يشترك في الحرب ايضاً . يحيا الجنرال خفالينسكي وحيداً في بيت صغير ، فهو لم يجرب السعادة الزوجية بعد ، لذلك مازال يعتبر خطيباً لحد الآن ، بل وحتى خطيباً له افضلية . تبلغ المرأة المشرفة على منزله ، الخامسة والثلاثين من عمرها ، ذات عينين سوادوين وحاجبين سوداوين ايضاً ، ممتلئة الجسم ، ناضرة الوجه ، لها شوارب ، تتمشى في الايام العادية بثياب منشاة ، وتضع ايام الأحد ، اضافة الى ذلك ، اكماماً من الموسلين .

رائع سلوك فياتشيسلاف ايلاريونيتش ابان ولائم الغداء الكبيرة التي يقيمها الملاكون على شرف المحافظين والشخصيات الأخرى من المسؤولين : يمكننا القول انه يجد نفسه حينئذ في الجو الملائم له . يجلس عادة في مثل تلك المناسبات الى يمين ذراع المحافظ او على مسافة غير بعيدة منه ، يحاول ، في مستهل الوليمة الحفاظ ، اكثر من اي شيء آخر على الشعور بجدارته الذاتية ، فيرسل رأسه الى الوراء ، ملقياً نظرة متعالية ، دون ان يدير رأسه ، على القفا المستدير لأعناق الضيوف وياقاتهم المنتصبة ، لكن يغشاه الانشراح في نهاية الوليمة ويشرع في توزيع الابتسامات في جميع الجهات (اما في اتجاه المحافظ

فكان قد ابتسم عند بدء الغداء) او يدعو احياناً الى شرب نخب على شرف الجنس اللطيف، زينة كوكبنا حسب تعبيره، ان الجنرال خفالينسكي حسن ايضاً في جميع الاحتفالات المهيبة والعامة، في التحقيقات والتفسيرات الكنسية، في الاجتماعات والمعارض، وهو حاذق كذلك في اسلوب تلقي بركة القس. ان خدم فياتشيلاف ايلاريونونيتش لايضجون في السفرات او في اثناء عبور نهر او غيرها من الأماكن المماثلة، انما هم على النقيض من ذلك، يفسحون الطريق له وسط الجمهور او ينادون على عربة بصوت لطيف صادر من الحنجرة: «من فضلكم، من فضلكم، افسحوا الطريق ليمر الجنرال خفالينسكي»ان عربة خفالينكسي، والحق يقال، ذات طراز قديم تماماً (يبدو اننا لا نحتاج الا قليلا للتنويه بلونها الرمادي ذي الحواشي الحمر)، عاشت خيوله مدة طويلة ايضاً وقُدمت الخدمات في زمانها، لكن فياتشيسلاف ايلاريونيتش ليس به ميل نحو المظهر المتأنق، بل لا يعتبر حتى من اللائق بمنصبه ان يذر الرماد في العيون. لا يتمتع خفاليتسكي بموهبة متميزة في الحديث، او لعله بالاحرى لم تسمح له الفرصة للتفوه بكلام معسول، ومبعث ذلك انه عموماً يضيق ذرعاً بالمعارضة ـ ناهيك عن الجدال ـ وكل الاحاديث الطويلة ولاسيما مع الشباب التي يتحاشاها باتقان. انها حقاً الطريقة الفضلى في التعامل مع الناس الحاليين، والا تحول الوضع الى نكبة: سيشقون عصا الطاعة وتفقد احترامهم. يلوذ خفالينسكي غالباً بالصمت امام الشخصيات الكبيرة، اما الاشخاص ذوو المنزلة الصغيرة، الذين يزدريهم على مايظهر، لكنهم الوحيدون الذين يختلط بهم، فيتحدث معهم كلاماً متقطعاً حاداً، مستخدماً باستمرار عبارات من قبيل: «مع ذلك فان ماتقولونه تفا ـ ها ـ ت» او «اخيراً ينبغي ان تعرف، رغم كل شيء، مع من تتعامل» الخ. ان مديري البريد ورؤوساء الجمعيات وناظري المحطات يخشونه بشكل خاص. وهو لا يستقبل

احداً في بيته ويحيا كما يشاع عنه حياة البخيل . ومع ذلك فهو ملاك ممتاز . يقول عنه الجيران انه «امرؤ اكمل خدمته ، شخص بلا مآرب ، صاحب مبدأ و متذمر قديم» . المدعي العام وحده في المحافظة يبيح لنفسه ان يبتسم حينما يشيرون في حضوره الى الصفات الممتازة الراسخة التي يتصف بها الجنرال خفالينسكي . لكن اي فعلة لا يفعلها الحسد ! ...

لننتقل الآن الى الملاك الآخر .

ما من ادنى تشابه بين مارداري ابولونيتش ستيغنوف وخفالينسكي ، فهو لم يكد يمارس العمل في اي مكان ولا يعتبر وسيماً باي حال من الأحوال . مارداري ابولونيش عجوز قصير ثخين منفوخ اصلع ، له ذقنان ، يدان صغيرتان ناعمتان ، بطن كبير نوعاً ما . وهو مضياف جليل ومزّاح ، يعيش ، كما يقولون ، حسبما يطيب له ، يظل مرتدياً ، صيف شتاء ، بُرداً مخططاً محشواً بالقطن . لايجمعه بالجنرال خفالينسكي إلا أمر واحد : فهو اعزب مثله . تبلغ ملكيته خمسمائة قن .

لكن اهتمامات مارداري ابولونيتش بضيعته سطحية نوعاً ما ، لقد اشترى ، كيلا يتأخر عن عصره ، ماكنة لدرس الحنطة قبل عشر سنوات من بوتينوب في موسكو وأوصد عليها باب العنبر وغمره الشعور بالرضا . يأمر احياناً ، في يوم صيفي جميل ، بتجهيز عدة عربة السباق ويذهب الى الحقل للاطلاع على نمو الحبوب وقطف ازهار العنبر .

يعيش مارداري ابولونيتش على النمط القديم تماماً . فبيته مبني على الطراز القديم : المدخل تفوح منه ، كما يُتوقع رائحة الكفاس والشموع الشحمية والجلود ، الى اليمين منه خزانة تحتوي على غلايين ومناشف ، في غرفة الطعام لوحات العائلة ، ذباب ، قدر كبيرة تضم ازهار إبرة الراعي ، بيانو غير مدوزن ، في غرفة الاستقبال ثلاث أرائك ، ثلاث طاولات، اثنتان من المرايا ، ساعة تصدر صوتاً ، ذات عقربين مطليين بميناء مسودة ومزخرفين بالبرونز . في المكتبة منضدة

تعلوها الاوراق ، ذات ستائر زرقاء اللون ، ملصقة على جدرانها صور مأخوذة من نتاجات مختلفة من القرن المنصرم ، خزانات ملأى بالكتب المتعفنة وخيوط العنكبوت والغبار الاسود ، كرسي منتفخ ، نافذة ايطالية ، باب يطل على الحديقة موصد بالمسامير .... وصفوة القول ، كل شيء متناسب . لدى ماردراي ابولونيتش عدد كبير من الخدم ، يرتدون كلهم الزي القديم : قفطان طويل أزرق ، ياقة عالية ، سروال معتم اللون ، صدار قصيرة ضارب للصفرة . يخاطبون الضيوف : «ايها السيد الطيب» . يقوم وكيل من الفلاحين بادارة مزارعه . له لحية تمتد على طول سترته المصنوعة من جلد الظأن ، مدبرة منزله عجوز تتلفع بمنديل بني تعلوها الغضون وبخيلة . يضم اسطبل ماردراي ابولونيتش ثلاثين جواداً من مختلف الاحجام ، يسافر في عربة مصنوعة في البيت ، يبلغ وزنها طنين ونصف . يستقبل الضيوف بحرارة ويضيفهم بكرم ، اعني وفق سمات المطبخ الروسي المذهلة ، يحرمهم من امكانية عمل شيء آخر ماخلا اللعب بالبرفرانس حتى المساء . وهو لا يشغل نفسه بأي عمل ، لقد كف حتى عن قراءة «كتاب الأحلام» ، بيد ان هذه النماذج من الملاكين مازالت كثيرة لحدما عندنا في روسيا . لعل البعض يتساءلون : مالذي حملني على الحديث عنه ولماذا ؟ .... اسمحوا لي ان اقص عليكم عوض الجواب احدى زياراتي الى ماردراي ابولونيتش .

ذهبت اليه صيفاً ، حوالي الساعة السابعة مساء ، كان المصلون صلاة العشاء قد انصرفوا تواً من عنده ، جلس القس،وهو شاب خجول للغاية على مايبدو ، أنهى المدرسة الدينية حديثاً ، في غرفة الاستقبال قرب الباب على حافة الكرسي تماماً . ان ماردراي ابولونيتش يستقبلني عادة بلطف فائق : فهو يبتهج باي ضيف دونما تكلف ، كان عموماً امرءاً طيباً للغاية . نهض القس وتناول قبعته .

قال ماردراي ابولونيتش له ، دون ان يترك ذراعي تفلت منه ـ تمهل ،

تمهل ، ايها المرء الطيب ، لا تذهب ... لقد امرت بجلب الفودكا لك .

تمتم القس مضطرباً وتخضب وجهة بالحمرة حتى اذنيه ـ لا أشرب ايها السيد .

رد عليه مارداري ابولونيتش ـ ماهذا الكلام الفارغ ! كيف لا تشرب وانت في هذا المنصب ! ميشكا ! يوشكا ! هات الفودكا للسيد !

دخل يوشكا ، وهو عجوز طويل نحيف يناهز عمره الثمانين عامــاً ، معه كأس فودكا في صينية مطلية بلون غامض ومرقشة بنقــط ذات لون لحمي .

ظل القس يرفض الشرب .

علق الملاك بلهجة تعنيف ـ اشرب ايها السيد ، لا تتصــنع ، ولا يليق هذا بك .

استجاب الشاب المسكين له .

ـ حسناً ، الان يمكنك ان تنصرف ايها السيد .

ـ انشأ القس ينحني لنا .

واصل مارداري ابولونيتش وهــو ينظــر في إثره ـ لابأس ، لأباس ، امض ... امرؤ رائع ، انني راض عنه للغاية ، الشيء الوحيد انه مــازال شاباً . يقوم بالوعظ ، ومع ذلك لا يشرب النبيذ .

حسناً ، كيف حالك ايها السيد ؟ ... ماذا تفعل ، وكيف امورك ؟

لنذهب الى الشرفة ، اترى ما اروع المساء !

مضينا الى الشرفة ، جلســنا ، ثم طفقنا نتحــدث . نظــر مــارداري ابولونيتش الى الأسفل استبد به فجأة اضطراب مريع .

اخذ يصيح ـ لمن هذه الدجاجات ؟ لمن هــذه الدجــاجات ؟ لمن هــذه الدجاجات التي تمشي في الحديقة ؟ ... يوشكا ؟ يوشكا ؟ اذهــب واعلم توآ ، لمن هذه الدجاجات التي تمشي في الحديقة ؟

... لمن هذه الدجاجات؟ كم مرة منعت ذلك ، وكم مرة قلت ذلك !

ركض يوشكا .

قال مارداري ابولونيتش مؤكداً ـ ماهذه الفوضى ! هذا فظيع !

واصلت الدجاجات السيئات الطالع ، وكما اتذكر الان ، اثنتان منهما منقطتان وواحدة بيضاء لهــا قنبرة ، مشــيهن ، دون ان يظهــرن ادنى اكتراث ، تحت اشجار التفــاح ، معبرات احياناً عن شــعورهن بقــرق متواصل ، وفجأة قام يوشكا ، دون ان يلبس قبعته ، وبيده عصا ، مــع ثلاثة خدم آخرين قد بلغوا سن الرشد ، بمهاجمتهم معاً ، علا الصــياح قرقت الدجاجات ، خفقت باجنحتها ، وثبت ، قامت بصوت مــدو ، عدا الخدم في إعقابهن ، تعثروا ، ســقطوا ، صــاح الملاك مــــن الشرفــــة كالموس : «امســكوها ، امســكوها ، امســكوها ! ، امســـكوها ! امسكوها ... لمن هذه الدجاجات ؟» اخيراً تسنى لأحد الخدم ان يمسك الدجاجة ذات القنبرة بضغط صدرها على الأرض ، قفزت من الشارع عبر سياج الحديقة في ذلك الوقت تماماً ، صبية تبلغ الحادية عشرة مــن العمر ، مهوشة وبيدها عود يابس .

هتف الملاك بلهجة المنتصر ـ اها ، ذلك هو الذي يملك الدجــاجات ! انها دجاجات يرميل الحوذي ! ها هو ذا قد ارســل ناتالكا الصــغيرة لسوقها ... اضاف الملاك قــائلا بصــوت خــافت وكشر تكشــيرة ذات مغزى ، ليس عبثاً انه لم يرسل باراشــا ، هـــاي ، يوشــكا ! اترك تلك الدجاجات : اجلب لي ناتالكا .

قبيل ان يفلح يوشكا اللاهــث في الوصــول الى الصــبية الفــزعة ، امسكتها مدبرة المنزل ـ التي ظهرت فجأة ـ من ذراعها وضربتها بضع مرات على ظهرها ...

كان الملاك يصاحب ضرباتها قائلا : هكذا ينبغــي ، هــكذا ينبغــي ، اجل ، اجل ، اجل ، اجل ، اجل ! ... اســتطرد بصــوت عال ، امــا تلك الدجاجات فخذيها افدوتيا والتفت الي بوجه مشرق :

ـ ياله من صيد ، ايها السيد ، ما هذا ؟ انظر الي ، لقد نضحت عرقاً .

ثم قهقه مارداري ابولونيتش .

بقينا في الشرفة، كان المساء بالغ الروعة حقاً.

قدموا لنا الشاي.

بدأت الكلام ـ خبرني ماردراي ابولونيتش، هل تعود لك تلك المساكن في الطريق الواقع خلف الوادي؟

ـ لي ... وماذا في الامر؟

وكيف يمكن ان تسمح بذلك ماردراي ابولونيتش؟ انها لخطيئة.

الاكواخ التي اعطيت للفلاحين رديئة للغاية، ضيقة، لاترى حولها ولو شجرة، او حتى بحيرة، ثمة بئر واحدة، لانفع منها، أمن المعقول أنك لم تستطع ايجاد مكان آخر؟ ... يقولون ايضاً انك انتزعت منهم حقول القنب القديمة؟

اجابني ماردراي ابولونيتش ـ وماذا افعل ازاء تخطيط الحدود؟

ان تخطيط الحدود هذا يجلس علي هنا (واشار الى قفا رقبته).

ولا ارتجي اي خير من تخطيط الحدود هذا. اما بشأن انتزاع حقول القنب منهم، او عدم حفر بحيرة لهم، فاني على علم بتلك الأمور ايها السيد. انني امرؤ بسيط، اتصرف وفق النمط القديم. ومادمت سيداً، حسب اعتقادي، فانت السيد، ومادمت فلاحاً، فانت فلاح ... هذا كل ما في الامر.

لايمكن الاجابة ـ دون ريب ـ بشيء عن تلك الحجة الواضحة المفحمه.

تابع كلامه قائلا ـ زد على ذلك، ان اولئك الفلاحين رديئون وانا غاضب عليهم. هناك عائلتان على الاخص، حتى والدي المرحوم، ليسكنه الله فسيح جناته، لم يرتح اليهما، لم يرتح اليهما قط. واقول لك ان لدي هذه الملاحظة: اذا كان الاب لصاً، فان الابن لص ايضاً. ولا يعني شيئاً ماتريده انت .... ايه من رابطة الدم، رابطة الدم قضية عظمى، اقول لك الحق دون مواربة، لقد ارسلت بعض ابناء تلك العائلتين، قبل ان يأتي دورهم، للتجنيد ووزعتهم هنا وهنالك كيفما

اتفق . لكن ما العمل معهم ؟ انهم يتكاثرون ، انهم كثيرو التوالد ، اللعنة عليهم . كانت تهب احياناً نفحات من الأنسام فحسب ، تتلاشى اخيراً حول البيت ، حاملة الى اسماعنا صوت ضربات مكررة منتظمة ترن في اتجاه الاسطبل . قرب ماردراري ابولوينتش تواً الى شفتيه صحن الشاي وكان على وشك توسيع منخريه ، من المعروف ان اي روسي اصيل لايحتسي الشاي دون ذلك ، لكنه توقف وارهف السمع ، هز رأسه ، شرب ، وضع الصحن الصغير على الطاولة ، قال وقد لاحت عليه ابتسامة رقيقة للغاية ، في اثناء الضربات نفسها ، كما لو كان دون وعي منه :« تشوكي ــ تشوكي ــ تشوك ! تشوك ! تشوكي ــ تشوك !»

سألت منذهلا ــ ما هذا الذي اسمعه ؟

ــ انهم يعاقبون وغداً صغيراً بأمر مني .. لعلك تعرف مصادفة فاسيا خادم البوفية ؟

ــ اي فاسيا ؟

ــ ذلك الذي خدمنا اخيراً في اثناء الغداء ــ له فودان كبيران ايضاً .

لم يكن اي اشمئزاز مهما بلغ من القوة ليثبت امام نظرة ماردراري ابولونيتش الصافية الوديعة .

قال وهو يهز رأسه ــ مالذي يغيظك ايها الشاب ، مابالك ؟ أتظن انني شرير ، تمحلق بي على هذا النسق ؟ اتبعُ اللين والشدة : انت نفسك تعرف ذلك ايضاً .

ودعت ماردراري ابولونيتش بعد ربع ساعة . رأيت ، في اثناء مروري بالقرية ، فاسيا ، خادم البوفية ، سار وهو يأكل الجوز .

امرت الحوذي ان يوقف الخيول وناديته .

سألته ــ لماذا عاقبوك اليوم ايها الاخ ؟

اجاب فاسيا ــ وكيف علمت بمعاقبتي ؟

ــ اخبرني سيدك .

ــ السيد نفسه ؟

ـ لماذا أمر بجلدك ؟
ـ انه على حق ، ايها السيد ، على حق . لا يمكن ان تعاقب هنا دونما سبب . لم تنتظم الامور بهذه الصورة هنا ، كلا ، كلا ، سيدنا ليس هكذا ، سيدنا ... لن تجد مثل هذا السيد في كل ارجاء المحافظة .

قلت للحوذي ـ سر ! فكرت في طريق عودتي : «ها هو ذا نمط روسيا القديمة !»

★ ★ ★

ليبيديان

تتمثل احدى فوائد الصيد الرئيسة ، ايها القراء الكرام ، في حملها اياك على التنقل باستمرار من مكان الى آخر ، وذلك شيء بالغ اللطافة لامرىء لا يشغله شاغل . حقاً ، لا يطيب كثيراً التجوال احياناً في الطرق الريفية (لاسيما في اوقات المطر) ، والمرور بها (جميعاً) موقفاً كل عابر سبيل من الفلاحين كيما تسأله : «هاي ، ياعم ! كيف يمكننا الوصول الى موردوفكا ؟» في موردوفكا تستعلم من امرأة بليدة (فالعاملون يكونون جميعهم في الحقل) : هل المسافة بعيدة الى نزل صغير في الطريق العام ، وكيف يمكن الوصول اليه ، ثم تقطع زهاء عشرة فيرستات وتجد نفسك بدل النزل الصغير ضمن ملكية قرية خود وبوبنوف الصغيرة الخربة للغاية ، يصادفك في منتصف الشارع تماماً ولعظيم دهشتك قطيع كامل من الخنازير وقد غاصت حتى اذانها بالاوحال البنية الغامقة فهي لم تتوقع قط ان يقلقها احد ما . لا يساورك شعور بالسرور ايضاً عندما تجتاز جسيرات تهتز اهتزازاً شديداً ، وتهبط الى الوديان وتخوض نهيرات من المستنقعات ، لا يحلو

لك ان تسافر اياماً برمتها في بحر قليل الخضرة من الطرق العمومية او ــ وقاك الله ــ من ان تظل ملطخاً بالاوحال لبضع ساعات امام الاعمدة المتنوعة المشيرة للمسافات وعليها ارقام : ٢٢ الى هذه الجهة و ٢٣ الى الجهة الاخرى ، ولايلذ لك ان تتغذى اسابيع بطولها على البيض والحليب وخبز الجودار المحمود ... ومع ذلك فان انواعاً اخرى من الفوائد والمتعة تعوض عن كل هذا الحرج والنكد ، ولنبدأ بالقصة نفسها .

لا حاجة ان اوضح للقارىء ، في اعقاب ماقلته اعلاه ، كيف وصلت قبل خمسة اعوام خلت الى ليبيديان إبان تدهور السوق بالذات . بمستطاع صياد من الصيادين امثالنا ان يبارح في صباح يوم رائع مكانه المألوف كثيراً او قليلا وفي نيته ان يعود في مساء اليوم المقبل ، لكنه لا يكف عن اطلاق العيارات النارية ، رويداً رويداً على طيور البكاشين ، حتى يجد نفسه قد وصل الى شواطىء بيتشورا المباركة ، ومع ذلك فان كل صياد ، مولع ومدله قبل البندقية والكلب بأنبل مخلوق في العالم : الجواد . وهكذا وصلت الى ليبديان ، نزلت في الفندق ، بدلت ملابسي ومضيت الى السوق (استطاع في تلك الاثناء ان يخبرني فتى راشد طويل نحيف ، يبلغ العشرين من العمر ، صوته تينوري جميل خارج من الانف بان صاحب السعادة الامير ن و المسؤول عن تزويد الوحدات العسكرية بالخيول نزل عندهم في الفندق وان جمعاً غفيراً من السادة قد وصلوا ، وسوف يغني الغجر مساء ويعرض على خشبة المسرح بان تفاردوفسكي[1] ، الخيول ، يالها من غالية الثمن ــ ومع ذلك ستعرض خيول جيدة) .

امتدت في ساحة السوق صفوف لا نهاية لها من العربات ، وخلف العربات خيول من كل الاصناف الممكنة : للسباق والمصانع والاثقال والحمل والحفر وخيول الفلاحين البسيطة . بعضها شبعان املس ، منتقاة حسب انواعها ، مغطاة بأجلال متنوعة الالوان مربوطة قليلا

الى عارضة عالية في مؤخرة العربة ، وقد مالت خائفة الى الخلف نحو سياط ملاكيها وتجارها المألوفة لديها جداً ، اما جياد الملاكين ، التي ارسلها اشراف المناطق السهلية مسافة مائة او مائتي فيرستاً تحت حراسة حوذي هرم من الحوذيه وسائسين او ثلاث من الساسه الاقوياء ، فقد هزت اعناقها الطويلة وضربت الأرض بسنابكها،قضمت قطعاً من الاخشاب ، تراصت الخيول الصغيرة تراصاً متيناً الى بعضها بعضاً في سكون مصمت كأنها الليوث ، وقفت الجياد الخابة ذات القفا العريض والذيول المتموجة والقوائم الكثة الشعر ذات الالوان الرمادية المبقعة ، الدهماء والكميت . وقف الخبيرون امامها بجلال . في الشوارع المتكونة من اصطفاف العربات ، ازدحم الناس من كل رتبة وعمر وشكل : تجار الخيول في قفاطينهم الغامقة الزرقة وقبعاتهم العالية ، وكانوا يتطلعون بمكر مترقبين المشترين ، ظل الغجر بعيونهم العدسية وشعورهم الجعداء غادين رائحين يحدقون كالمخبولين في اسنان الخيول ، يرفعون اقدامها وذيولها يصيحون ، يشتمون ، يعملون كوسطاء ، يسحبون القرع او يلازمون احد مسؤولي الخيول وقد ارتدى قبعة ومعطف فرو عسكري ، ثمة قوزاقي قوي البنية لبث راكباً حصانة الاعجف ذي الرقبة الأيلية وباعه «برمته» يعني بسرجه ولجامه . شق الفلاحون المرتدون فروات ممزقة تحت اباطهم ، طريقهم بقنوط بين الجمهور وتكوموا بالعشرات فوق العربة التي يجرها حصان ترتب عليه ان «يجرب» ، او ساوموا ، اينما كان على جانب وبمعونة غجري نشط ، على الاسعار حتى اخذهم الاعياء ، صفق بعضهم ايدي الآخر مائة مرة متتابعة ، مصراً كل منهم على سعره ، علماً بان موضوع نقاشهم هو فرس رديء مغطى بجلال بالي القماش ، كان يرمش بعينيه فحسب ، كأن الامر لا يعنيه .. وفي الواقع أليس سواء لديه فيمن سيلهب ظهره بالسوط ! تكلم الملاكون بجباههم العريضة وشواربهم المصبوغة ، تعلو وجوههم تعابير الوقار ، يضعون

على ذراع واحدة ، سترة طويلة من الصوف ، وتحتها ثياب بلا اكمام ، تكلموا وقد غشيهم شعور من التفوق مع الملاكين المكترشين ، بقبعاتهم ذات الريش القصير وقفازاتهم الخضر .

ازدحم الضباط من أفواج مختلفة هنالك ايضاً ، سأل فارس طويل من اصل الماني ، بعدم اكتراث ، تاجر خيل أعرج : « كم الثمن الذي يحدده لهذا الجواد الاحمر ؟» اختار الفارس الاشقر البالغ من العمر عشرين عاماً حصاناً مشدوداً الى جانب حصان ثان نحيف رهوان ، بحث حوذي ، يرتدي قبعة واطئة محاطة بريش الطاوس وسترة رمادية بنية ذات اكمام من الجلد حشرها في حزامه الاخضر الضيق ، عن حصان اصيل . تشاتموا ، ضحكوا وقد وصلت الاوحال الى ركبهم . اردت ان اشتري ثلاثة جياد جيدة لعربتي : فقد شرعت جيادي تخونها قواها . وجدت اثنين ولم افلح في اختيار ثالث لهما . بعد الغداء ، الذي لن اتولى وصفه (اذ يعرف اينياس[٢] ، كم هي مقيتة ذكرى حزن سالف) ذهبت الى مايسمونه بالمقهى ، حيث يجتمع كل مساء العسكريون المسؤولون عن الخيول واصحاب المصانع وغيرهم من الوافدين . كان في غرفة البليارد التي تغشاها امواج رصاصية من دخان التبغ ، زهاء عشرين شخصاً . هناك الملاكون الشباب الجسورون المرتدون بنطلونات رمادية واحذية عالية الكعوب ، لهم افواد طويلة وشوارب صغيرة مدهونة ، كانوا ينظرون بجلال ووقاحة فيما حولهم ، ثمة نبلاء آخرون يلبسون قفاطين محيوكة ، ذو رقاب قصيرة للغاية وعيون عائمة ، يتنفسون بثقل ، جلس التجار على جانب وهم ((متيقظون)) كما يقال ، تحدث الضباط بانطلاق مع بعضهم بعضا . لعب الامير البليارد ، وهو شاب يبلغ من العمر حوالي اثنتين وعشرين سنة ، ذو وجه منشرح يلوح عليه الازدراء قليلا ، يرتدي سترة مفتوحة وقميصا من الحرير الاحمر وسروالا مخمليا فضفاضا ، كان يلعب مع الملازم المتقاعد فيكتور خلوباكوف .

الملازم المتقاعد فيتكور خلوباكوف ، امرؤ قصير القامة ، اسمر نحيف ، عمره يناهز الثلاثين ، شعره اسود ، عيناه عسليتان ، انفه اقنى منفرج ، يتردد باستمرار على الاجتماعات المحلية والاسواق . ينط في مشيته ، يحرك يديه البدينتين بحماسة ، يلبس القبعة على جانب رأسه ويشمر عن اكمام سترته العسكرية المبطنة ببفتة زرقاء ضاربة الى الرمادي . يمتلك السيد خلوباكوف المقدرة على مداراة فتيان بطرسبورغ الاثرياء ، فهو يدخن ، يشرب ، يلعب الورق معهم ، يخاطبهم بصيغة المفرد ((أنت)) مما يحملهم على العطف عليه ، وهم لا يفهمونه الا قليلا . ماهو بالذكي ولا حتى بالمضحك : انه لا يصلح حتى كمهرج . كانوا يعاملونه في الحقيقة بود واستخفاف ، باعتباره امرءا طيبا وتافها ، يعاشرونه لمدة اسبوعين او ثلاث ، ثم يحجمون فجأة عن تحيته ، حينئذ يمتنع عن السلام عليهم ايضا . تتجلى السمة المميزة للملازم خلوباكوف في كونه يستعمل في غضون سنة او سنتين عبارة واحدة بعينها سواء كانت مناسبة او غير مناسبة ، العبارة ليست مسلية قط ، لكنها كانت ، والله اعلم لماذا ، تثير ضحك الجميع ، ظل يردد دائماً قبل ثمانية اعوام : ((اجلالي لك ، واعبر عن امتناني بكل طاعة)) كان اولياؤه حينئذ يهلكون من الضحك كل مرة ويحملونه على تكرار)) ((اجلالي لك)) . بعد ذلك اخذ يستعمل عبارة معقدة لحد ما : ((كلا ، اوليس انت نفسك ، ماهذا[٣] ماهذا ، هكذا حدث ويحدث)) ، ابتكر بعد مضي سنتين ، قولا فكها جديدا لا معنى له ولقي النجاح الرائع نفسه : ((لست انت ، خطوة اكثر حماسة ، مخلوق الله ، يخيط جلد الظأن)) الخ ... وحسبه انه بقي يجني نفعا من ورائها ! فانتم كما ترون ، ان تلك الكلمات الساذجة اطعمته واشربته وكسته . (لقد عبث بضيعته منذ امد بعيد ، وهو يعيش على حساب صحابه فقط) . ولابد ان تلاحظوا انه ما من صفة ممتعة اخرى لديه ، حقا انه يدخن مائة غليون من نوع جوكوف في اليوم ، يلعب البليارد ، يرفع قدمه اليمنى

اعلى من رأسه ، وعندما يلمس العصا فانه يحركها بهياج في يده ـ لكن ليس كل فرد هاو لمثل تلك المناقب . وهو يجيد شرب الخمر ايضـــا .... بيد انه من الصعب التفرد بتلك الميزة في روسيا . وصـــفوة القـــول ، ان نجاحه احجية كاملة بالنسبة لي ..... ماخلا شيئا واحدا : انه حذر ، لا يرفع القمامة من المنزل[٤] ، ولا يقول كلمة سوء بحق احد ....

((فكرت لدى رؤية خلوباكوف ـ حسنا ، ماهو قوله الاثير حاليا؟))

دفع الامير الكرة البيضاء .

قال الحاسب العليل ، ذو الوجه القـــاتم والعينين المنتفختين ، اللتين اسود ما تحتهما ـ ثلاثون لا غير .

وضع الامير ، مصلصلا ، الكرة الصفراء في طرف جيب البليارد .

صاح التاجر المكتنز معربا عن اعجابه ، وقد اثنى بطنه ـ ((اهـــا))! كان جالسا في الركن وراء منضدة غير مستقرة ذات رجل واحدة ، صاح وقد غمره شعور بالخجل ، لكن ، ولحسن حظه ، لم يلحظه احد . فارتاح واخذ يمسد لحيته .

صاح الحاسب من تلقاء نفســـه ـ ســـت وثلاثون ، بقيت كرات قليلة جدا !

تساءل الامير لدى خلوباكوف ـ ماهذا ،كيف ايها الاخ؟

ـ ما هذا؟ من المعـــروف ان ، رررراكاليووون ، يعني رررراكاليووون

اطلق الامير ضحكة .

ـ اعدها ، كيف ، كيف لفظتها؟

اعاد الملازم المتقاعد بخيلاء ـ رررراكاليووون .

قلت في سريرتي ـ ((ها هي ذي ، الكلمة الجديدة!)) .

وضع الامير الكرة الحمراء في جيب البليارد .

وفجأة تمتم ضابط صغير اشقر وقد احمرت عيناه ، ذو انف صغير، وجه وسنان طفولي ـ هيه! ما هكذا ، ايها الامير ، ما هكذا ، ما هكذا . اللعب .... كان ينبغي ... ماهكذا!

سأله الامير من خلف كتفه ـ كيف؟

ـ كان ينبغي ... تلك ... في المثلث .

دمدم الامير من بين اسنانه ـ احقا؟

تابع الشاب المرتبك كلامه متعجلا ـ هل ستذهب ايها الامير مساء اليوم الى الغجر؟ ستغني ستيشكا ... وايلوشكا ....

لم يرد الامير على سؤاله .

قال خلوباكوف وهو يزر عينه اليسرى بدهاء ـ ررررا كاليوون يا اخي .

قهقه الامير .

أعلن المحاسب تسع وثلاثون ، ولم تبق اية كرة .

ـ كيف لم تبق .... انظر الى تلك الكرة الصفراء كيف ....

حرك خلوباكوف العصا في يده ، سددها ولكنه اخطأ الهدف .

صاح بغيظ ـ ايه ررررا كاليووون .

ضحك الامير مرة اخرى .

ـ كيف تنطقها ، كيف ، كيف؟

بيد ان خلوباكوف لم يرغب في اعادة كلمته : فلا بد له من ان يتدلل .

علق الحاسب اسمحوا ان اسجل عدم اصابة الهدف ، تفضل وحاول مرة اخرى اربعون ولم تبق اي كره!

قال الامير ، موجها كلامه لجميع الحاضرين ، دون ان ينظر الى احد بالذات ـ اجل ايها السادة ، تعرفون انهم دعوا اليوم فرجيمبيتسكايا الى المسرح .

هتف رهط من السادة منافسين بعضهم بعضا وقد غشاهم غرور مدهش لاستطاعتهم الاجابة على كلام الامير ـ فيرجيمبيتسكايا ....

قال باستكانة شخص مسكين ، ذي شوارب صغيرة يلبس النظارات

ـ ان فيرجيمبيتسكايا ممثلة ممتازة وافضل بكثير من سوبنياكوفايا .

ياللبأس ! انه يتلهف بقوة في سريرته نفسه على سوبنياكوفايا ، ومع

ذلك فان الامير لم ينعم عليه ولو بنظرة واحدة .

تفوه احد السادة من وراء ربطة عنقه ، كان طويل القامة ذا وجه متناسق وقيافة محترمة ، تشير جميع الدلائل على انه مقامر محتال ـ لمن هذا ، هذا الغليون!

هرع امرؤ لتناول الغليوم وعندما عاد ، اخبر صاحب السعادة ان الحوذي باكلاغا يسأل عنه .

ـ ها! حسنا مره ان ينتظر واحضر له الفودكا .

ـ سمعا وطاعة .

يدعى باكلاغا ، كما اخبروني فيما بعد ، حوذي شاب وسيم ، مدلل للغاية ، حظي بحب الامير وقد اهداه الخيول وتسابق معه وقضى ليال بطوالها بمعيته .... لعلكم لن تستطيعوا الآن ان تعرفوا هذا الامير نفسه ، المقامر المحتال ، المسرف في الماضي ... كيف اضحى متعطرا متريثأ فخورا! منهمكا في عمله الوظيفي والشيء المهم ـ كم هو متبصر؟

ومع ذلك فقد بدأ دخان التبغ يغشى عينيه . سمعت للمرة الاخيرة هتاف خلوباكوف وقهقهات الامير، مضيت الى غرفتي ، حيث وضع لي خادمي الفراش على اريكة ضيقة من الشعر ، مضغوطة وذات ظهر عال مقوس .

ذهبت في نهار الغد لمشاهدة الجياد في الافنية ، ابتدأت من تاجر الخيل المشهور سيتنيكوف . دلفت من مدخل السياج الى الفناء المغطى بالرمل . وقف امام باب الاسطبل المفتوح على مصراعيه صاحب الخيول نفسه ، وهو امرؤ قد تخطى عمر الشباب ، طويل بدين ، يرتدي معطفا من فرو الارنب ، ذا ياقة مرتفعة ومنثنية ، ولما رآني تقدم ببطء لملاقاتي ، امسك بكلتا يديه القبعة على رأسه ونطق بصوت غنائي :

ـ آ ، نعبر عن اجلالنا لك . احسب انك تريد القاء نظرة على الخيول؟

ـ أجل ، جئت لارى الخيول .

ـ أأجرؤ على ان اسأل اي نوع بالذات تود رؤيته؟

ـ ارني ، ما عندكم؟

ـ بكل سرور .

دخلنا الاسطبل . نهضت بضعة كلاب بيضاء من الرواق راكضة نحونا ، وهي تهز ذيولها ، تنحى ماعز كبير ذو لحية طويلة على وجهه ، انحنى لنا بصمت ثلاثة ساسة خيول ، يرتدون ستر ظأن جيدة ، لكنها متسخة . وقف عند المعالف المرتفعة المشيدة اصطناعيا الى اليمين واليسار زهاء ثلاثين جوادا ، تم الاعتناء بهم وتنظيفهم جيدا . طار الحمام على العوارض وشرعوا بالهديل .

سألني سيتنيكوف ـ لِمَ ، اعذني ، لاي شيء تطلب الجواد : للركوب او لتربيتها واستيلادها؟

ـ لكلا الغرضين .

تكلم تاجر الخيول متوقفا بين كلماته ـ واضح ، واضح ، واضح . صاح : بيتيا ، ار السيد غورنوستاي (القاقم) .

خرجنا الى الفناء .

ـ الا تأمر بجلب مقعد من المنزل؟ .... ألا تحتاجه؟ .... حسب ما تشاء .

طقطقت حوافر الخيل على الالواح ، قرقع السوط ، وقفز بيتيا ـ الذي يناهز عمره الاربعين ، وهو مجدور الوجه اسمره ، من الاسطبل مع فرس رمادي ممشوق تماما ، وفسح له المجال كي يشب ، عدا مرتين حول الفناء ثم اوقفه بمهارة في المكان المشار اليه ، انتصب الغورنوستاي (القاقم) ، نخر صافرا ، ارسل ذيله الى الاسفل ، حرك وجهه ومال نحونا .

فكرت في دخيلتي ((طائر عليم!))

قال سيتنيكوف ـ اطلق حريته ، اطلق حريته ، وحدق الي .

سألني اخيرا ـ ما رأيك به؟

جواد لا بأس به ان قدميه الاماميين ليست متينة تماما .

عارض سيتنيكوف باصرار ـ قدماه ممتازتان! اما ردفاه .... فتفضل وانظر ... يالهما من عريضان كسطح الموقد ، بوسعك حتى النوم عليهما .

ـ كعابها طويلة .

ـ عفوك ماذا تقول! ومن أين لها بالطول! اركض يا بيتيا ، أركض بها ، اجل ، خببا ، خببا ، خببا ، لا تدعها تثب .

عدا بيتيا مرة اخرى في الفناء مع الغورنوستاي . اخلدنا جمعا الى الصمت . قال سيتنيكوف ـ حسنا ، ارجعها الى مكانها ، هات لنا السوكول (الصقر) .

كان السوكول ادهم كالخنفساء ، جواد من الفصيلة الهولندية ، قفاه متدل وضامر ، بدا افضل قليلا من الغورنوستاي . ويعتبر في عداد الجياد التي يقول عنها الصيادون ((انها تسوط الهواء وتشقه وتفتنك) ، اعني انها تنفلت في السير وترسل قدميها الاماميتين يمينا ويسارا ، بينما تتقدم قليلا الى الامام،يحس التجار ذوي الاعمار المتوسطة بهوى نحو تلك الخيول : ان عدوها يذكرهم بمشية خادم نشط ، خفيف الحركة ، فهي جيدة للانزواء وللنزهة بعد الغداء : انها تخب بانطلاق ، تلوي اعناقها وهي تجر بحمية العربة الغليظة والحوذي المتخم لحد الخدر والتاجر المغتم الذي يعاني من الحرقة وزوجة التاجر البدينة المتهدلة ، المرتدية معطفا حريريا ازرق ومنديلا بنفسجيا على رأسها . رفضت السوكول . اراني سيتنيكوف بضعة جياد اخرى .... اعجبني اخيرا جواد رمادي ابلق من فصيلة فيكوف . لم استطع ان اتمالك نفسي وربت على عرفه بارتياح . تظاهر سيتينكوف حالا بعدم الاكتراث :

سألت ـ هل يسير جيدا (لا يقولون يسير عن الجواد الخاب وانما : يعدو) .

اجاب تاجر الخيول بهدوء ـ يسير .

ــ الا يمكن مشاهدته؟

ــ ولم لا ، ممكن . هاي ، كوزيا ، ادركه وشده الى العربة .

كوزيا فارس ، حاذق في عمله ، مر راكبا زهاء ثلاث مرات على مقربة منا في الشارع . الجواد يعدو جيدا ، لا يزوغ ، لا يدفع مؤخرته ، يقدم رجله بطلاقة ، يفرد ذيله ، ((يبقيه)) مستقيما وقلما يلوح به .

ــ كم تطلب ثمنا له ؟

طلب سيتنيكوف ثمنا باهضا للغاية . شرعنا نتساوم هنالك في الشارع ، وفجأة انطلقت مدوية في منعطف الشارع عربة ترويكا منتقاة انتقاء ماهرا وتوقفت باقدام امام بوابة بيت سيتنيكوف . جلس الامير ((ن)) في عربة الصيد الانيقة والى جواره تراءى خلوباكوف . ساق باكلاغا الخيول .... ويالها من سياقة! انه ليستطيع النفوذ من حلقة القرط ، ياله من وغد! الجوادان اللذان يضرب لونهما الى الاسود والاحمر صغيران ، نشطان ، سوداوا العيون والاقدام ، وكما يندفعان متحمسين كذلك ينكمشان قرب بعضهما ، وحالما تصفر لهما ، ينطلقان! الحصان الرئيس كميت يعرف قدر نفسه ، ارسل عنقه ، كالاوز ، صدره الى الامام ، اقدامه كالسهام ، غالبا ما يمد رأسه ويزر عينيه فخورا .... ما اروعه! بمستطاع حتى القيصر ايفان فاسيليفيتش[٥] ان يركبه في عيد الفصح!

هتف سيتنيكوف ــ تفضل وشرفنا يا صاحب السعادة!

قفز الامير من العربة . نزل خلوباكوف ببطء من الجهة الاخرى .

ــ مرحبا ايها الاخ .... هل توجد لديكم خيول؟

ــ بالتأكيد ، وكيف لا توجد لسعادتكم تفضل وادخل .... بيتيا هات البافلين (الطاووس)! وليهيئوا البخفاعي ((الممدوح)) . تابع كلامه قائلا لي :

أما بشأنك أيها السيد فنحسم الامر في وقت لاحق .... فومكا ، اجلب مقعدا لصاحب السعادة .

اخرجوا البافلين من اسطبل خصوصي ، لم الحظه باديء الامر ، شب الجـواد القـوي الكميت الداكن بكل اقـــدامه في الهـــواء ، حتى ان سيتنيكوف ادار رأسه وأغضى عينيه .

هتف خلوباكوف ـ اوه ، رراكاليون! جيما .

ضحك الامير .

لم يكن يسيرا عليه ايقاف البافلين ، لقد واصل نقل السائس في الفناء واخيرا استطاعوا ايقافه عند الجدار . فشـــخر ، وانتفض ثم انكمش ، زد على ذلك ، ان سيتنيكوف اثاره ، اذ لوح بالسوط . قال تاجـــر الخيل بوعيد ملاطفا اياه ، فقد كان معجبا هونفسه بالجواد ـ الى اين تنظر؟ ها أنا ذا! اوه!

سأل الامير ـ كم تطلب؟

ـ اكراما لسعادتك خمسة آلاف روبل .

ـ ثلاثة .

ـ لا يمكن ، يا صاحب السعادة ، عفوا ....

تكلم خلوباكوف ـ قلت لك ، ثلاثة ، (راكاليون) .

مضيت ولم انتظر نهـــاية الصـــفقة . لحـــظت عند الركن القصي مـــن الشارع ، قطعة ورق كبيرة ، قـــد الصـــقت عند بوابة بيت صـــغير لونه رمادي باهت رسم بالريشة في القسم الاعلى منه جواد له ذيل مســـتدير وعنق طويل جدا ، وكتبت الكلمات التالية تحت حوافر الجواد ، بخـــط قديم : ((هنا تباع اصـــناف مختلفـــة مـــن الخيول ، جلبت الى ســـوق ليبديان من المزرعة السهلية المشهورة للمـــلاك اناســـتاسي ايفـــانيتش تشيرنوباي من اقليم تامبوف . ان هذه الخيول من اصـــناف ممتازة : مدربة جيدا على السفر ، وذات طابع وديع . بمستطاع السادة المشترين ان يتقدموا للاستيضاح الى اناســـتاسي ايفـــانيتش نفســـه ، واذا كان اناستاسي ايفانيتش غائبا ، فاسألوا الحوذي نزار كوبيشـــكين . ايهـــا السادة المشترون تفضلوا وشرفوا العجوز!))

توقفت . فكرت في دخيلتي ، دعني اشاهد خيول المزرعة السهلية المشهورة للسيد تشيرنوباي ، اردت ان ادخل من بوابة السياج ، لكنني ، وجدتها مغلقة على عكس المألوف ، طرقتها .

رد صوت نسائي ضعيف ــ من هناك؟ ... مشتر؟

ــ مشتر .

ــ هنيهة ، ايها السيد ، هنيهة .

فتحت البوابة ــ رأيت امرأة تبلغ الخمسين من عمرها ، مكشوفة الرأس ، تنتعل حذاء ، وترتدي معطفا مفتوحا من جلد الظأن .

ــ تفضل ، ايها المحسن ، بالدخول ، اما انا فسأذهب على التو واخبر اناستاسي ايفانيتش .... نزار ، ها نزار!

دمدم من الاسطبل صوت عجوز يناهز السبعين من العمر ــ ما الخبر؟

ــ احضر جوادا ، جاء مشتر .

هرعت العجوز الى البيت .

جمجم نزار مجيبا اياها ــ مشتر ، مشتر ، انني لم اغسل بعد ذيول جميع الخيول .

فكرت مع نفسي ــ ((اها ، اركاديا!))

رن ببطء صوت غض لطيف ــ مرحبا ايها السيد ، اهلا وسهلا . التفت : واذا امامي يقف عجوز يرتدي معطفا طويل الاذيال ازرق غامضا ، مربوع القامة ، ابيض الشعر ، تنم ابتسامته عن الطيبة ، وله عينان زرقاوان جميلتان .

ــ اتريد حصاناً؟ طيب ، ايها السيد طيب .... الا ترغب في الدخول ، باديء الامر كي تحتسي الشاي؟

رفضت واعربت له عن شكري .

ــ اذن ، كما يحلو لك . ارجوك ان تعذرني ايها السيد : فانا كما ترى ، على النمط القديم : (يتكلم السيد تشيرنوباي بلا عجالة وبحرف[٦] O)

ان كل شيء عندي على البساطة ، كما تعرف .... واضاف بصوت ممدود غير مرتفع نزار ، ها نزار .

اطل نزار عند عتبة الاسطبل ، وهو عجوز تعلوه الغضـــون ، ذو انف حاد ولحية اسفينية .

واصل السيد تشير نوباي كلامــه ــ اي نوع مــن الخيول تريد ايهــا السيد؟

ــ ليست غالية الثمن ، مدربة على السفر في العربة .

ــ اذن .... لدينا هذا النوع ، حسنا ،... نزار ، نزار ، أر السيد الفرس الاشهب ، أتعرف ، ذلك الذي يقف في اقصى الاســطبل ، وكذلك الكميت الاصلع ، او الكميت الآخر ، ذلك المهر الجميل ، انك لتعرفه؟

عاد نزار الى الاسطبل .

صاح السيد تشير نوباي في اعقابه ــ اجلبها في الارسان ، كما هـــي عليه . وتابع حديثه وهو ينظر بوضـــوح ووداعة في وجهـــي ــ الوضـــع عندي يختلف عما هو عليه عند تجار الخيول ، الذين يرومـــون اخـــلاء المكان! انهم يستعملون مختلف انواع الزنجبيل والملح ونفايات صناعة النبيذ★. مالنا ولهم ، الله يجازيهم! اما عندي فتفضل وانظـــر ، كل شيء على راحة الكف ، لامكر فيه .

جلبوا الخيول . لم يعجبني اي واحد منها .

قال اناستاسي ايفـــانيتش ــ حســـنا ، اعدهـــا ، على بركة الله ، الى اماكنها وأره غيرها .... شاهدت جيادا اخرى . اخترت اخيرا واحـــدا ارخص من الآخرين . شرعنا نتســـاوم . لم تغش الســـيد تشـــيرنوباي الحماسة . تحدث بحصافة ورصانة رائعـــة ، داعيا الله ليكون شـــاهدا عليه ، بحيث لم استطع الا ان ((احترم العجوز)) وسلمته العربون .

قال اناستاسي ايفانيتش ــ اذن ، تفضـــل الان لاعطيك الحصـــان ــ

★ سرعان ما يصبح الحصان سمينا من تناول نفايات النبيذ والملح (ملاحظة الكتاب)

حسب العادة القديمة من يد الى يد .... ستزجي لي الشكر لقاءها اترى انها غضة كالجوز .... لم تمس ، جاءت من السهل! وتلائم اي عدة خيل .

رسم اشارة صليب ، رفع طرف معطفه على يده ، فك الرسن وسلمني الجواد .

ـ انت الآن صاحبها على بركة الله .... ومع ذلك الا ترغب في تناول الشاي؟

ـ كلا ، شكرا جزيلا .

ـ كما يحلو لك .... اتريد ان يقود حوذيي الحصان لك الان؟

ـ اجل الان ، اذا تفضلت .

ـ حسنا ، يا عزيزي ، حسنا .... فاسيلي ، ها ، فاسيلي اذهب مع السيد ، واقتد الحصان وتسلم النقود . اذن ، وداعا ايها السيد ، صحبتك السلامة .

ـ وداعا ، اناستاسي ايفانيتش .

اوصلوا الحصان الى البيت ، تبين في اليوم التالي انه مصاب بالسعال واعرج ايضا . فكرت ان اطقمها . واذا بحصاني ينكص على اعقابه ، وعندما تضربه بالسوط يصبح عنيدا ، يرفس ثم يضطجع ـ ذهبت على الفور الى السيد تشيرنوباي ـ وسألت : أهو في البيت؟

ـ في البيت .

ـ قلت ـ ماهذا الذي فعلته لقد بعتني حصانا مصابا بالسعال .

ـ مصاب بالسعال؟ اعوذ بالله!

ـ زد على ذلك انه اعرج وجامح .

ـ أعرج ؟ لا ادري ، يبدو ان حوذيك قد الحق به الضرر بشكل ما .... اما انا ، فاني امام الله ...

ـ ينبغي عليك حقا يا اناستاسي ايفانيتش ان ترجعها .

ـ كلا ، ايها السيد ، لا تغضب اذا قلت : مادام قد خرج من الفناء ، فقد

انتهى كل شيء .... كان ينبغي عليك ان تتفضل وتتفحصها منذ بداية الامر .

ادركت المسألة ، استسلمت ذاعنا لنصيبي . ضحكت ، ومن حسن الحظ انني لم ادفع ثمنا باهظا لهذا الدرس .

سافرت بعد انصرام يومين ، وما ان مضى اسبوع حتى عرجت ثانية على ليبيديان ، في طريق عودتي . وجدت تلك الوجوه نفسها تقريبا في القهوة ورأيت الامير ((ن)) مرة اخرى يلعب البليارد . طرأ تغيير مألوف على مصير السيد خلوباكوف في هذه الفترة . اذ اصبح في حظوة ضابط اشقر بدلا من الامير . حاول الملازم المتقاعد المسكين مرة اخرى ان يقول كلماته في حضوري ، عسى ولعل ان تعجب الامير كالسابق ، لكن الامير لم يمتنع عن الابتسام فحسب ، بل قطب وجهه ايضا وهز كتفه . نكس السيد خلوباكوف رأسه ، تكور منطويا ثم تسلل الى الركن وشرع يحشو غليونه بصمت .

* * *

تاتيانا بوريسوفنا
وابن أخيها

هات يدك ، ايها القاريء الكريم ، ولنسافر معا . فالجو رائع ، وسماء شهر ايار تتشح بزرقة وادعة ، الاوراق الفتية الملساء لأشجار الصفصاف تلتمع كأنها قد استحمت ، الطريق العريض المستوي مغطى كله بالعشب الناعم والاعواد المائلة الى الحمرة التي ترعاها الشياه بسرور ، يتماوج الجودار الاخضر بهدوء يمنة ويسرة على السفوح الطويلة للتلال المنحدرة تدريجا ، وتنزلق في ثناياه ، كبقع خفيفة ، ظلال غمام غير كبير ، تحتوي العتمة الغابات ، تتألق البرك ، يغشى الاصفرار القرى ، تحلق القبر بالمئات ، تشدو ، تهبط ، متدافعة مشرأبة بأعناقها ثم يتناثرن على الصخور ، تتوقف الغربان في الطريق ، تتطلع اليك ، تلتصق الى الارض ، تفسح لك المجال للمرور وتثب مرتين تقريبا ، تطير بثقل الى جنب . يحرث الفلاح فوق الجبال وفي الوديان ، يعدو مهر ابلق ، ابتر الذنب ، اشعث العرف ، يعدو باقدام غير ثابتة وراء امه : تتناهى الى سمعك حمحمته الرقيقة . ها نحن اولاء ندلف الى غابة صغيرة من اشجار البتولا ، ان اريجا قويا غضا

يزحم انفاسك بلطف . ها هو ذا سياج القرية . يهبط الحوذي ، تصهل الخيل ، يتطلع الجوادان المشدودان الى بعضهما بعضا ، يلوح الجواد الرئيس بذيله ، يميل برأسه نحو القوس .... ينفتح رتاج البوابة بصريف ، يعود الحوذي الى الجلوس على مقعده ..... يسوق! القرية تمتد امامنا . قطعنا زهاء خمسة افنية ، استدرنا يمينا ، هبطنا الى الوهدة . عبرنا فوق القنطرة . تراءى من خلف بركة صغيرة ، وراء الاعالي الملتفة لاشجار التفاح سقف من الواح الخشب ، كان احمر في الماضي ، له مدخنتان ، ظل الحوذي سائرا على امتداد السياج الى جهة اليسار ثم دخل البوابة المفتوحة على مصراعيها وسط نباح اجش لثلاثة كلاب مسنة وزعيقها ، شرع ينطلق بجرأة وهو يدور في الفناء الواسع قرب الاسطبل والسقيفة ، ينحني بحماسة للعجوز مديرة المنزل ، يخطو جانبيا عبر العتبة المرتفعة في باب المخزن المفتوح ، يتوقف اخيرا امام سقيفة بيت صغير داكن ، ذي نوافذ مضيئة .... لقد وصلنا الى تاتيانا بوريسوفنا . هاهي ذي نفسها تفتح الكوة الصغيرة تومىء لنا برأسها .... مرحبا ، اميمة!

تاتيانا بوريسوفنا امرأة تبلغ الخمسين من العمر ، ذات عينين رماديتين واسعتين جاحظتين ، وانف منفرج وخدين حمراوين وغبغب . ان وجهها ليفيض بشاشة ولطفا . كانت متزوجة في حين من الاحيان وسرعان ما ترملت . تاتيانا بوريسوفنا امرأة رائعة للغاية . تعيش في ضيعتها الصغيرة دون ان تسافر الى مكان ما ، قلما تختلط بالجيران ، وهي تستقبل فقط الشباب وتحبهم دون بقية الناس . ولدت من ابوين ملاكين فقيرين جدا ، لم تتلق اي ثقافة ، اعني انها لا تتكلم اللغة الفرنسية ولم تذهب الى موسكو قط ، وعلى الرغم من جميع هذه النقائص ، فكم كان تصرفها بسيطا وحسنا وكم كانت تشعر وتفكر بحرية ، وكم كانت قليلة العدوى بالاوصاب المألوفة لدى نساء الضياع الصغيرة ، بحيث لا يمكن حقا الا ان تثير دهشتك .... حقا : ان امرأة

تحيا الحول كله في القرية الصغيرة ، في المنأى ، لا تقلق لا تصأصيء ، لا تجلس قليلا عند الآخــرين ، لا تنفعــل ، لا تنســحق ، لا ترتعش مــن الفضول .... ياله من شيء عجيب! تمشي عادة مرتدية فستان مــن التفتة الرمادية وقلنسوة بيضاء ، ذات شرائط ليلكية متدلية ، تحب الطعام من غير افراط ، تعطي المربيات والمأكولات المجففة والمملحــة الى مــدبرة المنزل . ولعلك تسأل ـ بماذا تشغل نفسها طــوال النهــار؟ .... تقــرأ؟ كلا ، لا تقرأ ، والحق يقال ، انها ليست ممن تطبع لهــن الكتب .... اذا لم يكن عندها ضيف ، فــان تاتيانا بوريســوفنا تجلس عند النافــذة ، تحوك جوربا في الشتاء ، تجوب الحديقة في الصيف ، تزرع الازهــار ، تسقيها ، تلاعب الجراء ساعات كاملة ، تطعم الحمام .... وقلمــا تعنى بشؤون المزرعة . لكن اذا جاءها ضــيف ، شــاب مــن الجيران تكّن له العطف فــان تاتيانا بوريســوفنا تشــعر بانتعــاش تام ، تطلب منه الجلوس ، تقدم له الشاي ، تنصت الى احــاديثه ، تطبطــب على خــده احيانا ، ولا تتكلم هي الا قليلا ، امــا في الشــدائد الاحــزان فتمنحــه السلوان وتمحضه نصــيحة ســديدة . كم مــن الناس ائتمنوهــا على اسرارهــم البيتية والوجــدانية انتحبوا بين يديهــا! تجلس احيانا في الطرف المقابل للضيف ، تستند بهدوء على مرفقها وتنظر نظــرة كلهــا عاطفة الى عينيه وتبتسم له ابتسامة مفعمــة بالود ، حتى ان الضــيف تخامر ذهنه تلقائيا هذه الفــكرة : ((يالك مــن امــرأة مجيدة ، تاتيانا بوريسوفنا! دعيني ابح لك بمــكنون فــؤادي)) يشــعر المرء بالراحــة والدفء في غرفها الصغيرة المريحة ، فــالجو دائمــا رائع في بيتهــا اذا امكن التعبير على هذا النسق . ان تاتيانا بوريسوفنا امرأة ، مدهشة ، لكن لا احد يندهش منها : ان عقلهــا الســديد ، ثباتهــا ، حــــريتها ، مشاركتها الحارة في افراح الاخرين واتراحهم ، وصفوة القول ، ان كل مؤهلاتها قد ولدت معها بالضبط ولم تكلفها اي جهد او اتعــاب .... اذ لا يمكن تصورها على غير ماهي عليه ، ولا ريب انها لا تبتغي الشــكر

على اي شيء . تهوى خصوصا التطلع الى لعب الشباب وعبثهم ، اذ تطوي يديها تحت صدرها ، ترسل رأسها الى الوراء ، تزر عينيها وتجلس مبتسمة ، او تتنهد على حين غرة وتقول : ((اواه ، يا اطفالي ، يا اطفالي ....!)) يصادف احيانا انك تود الدنو منها والاخذ بيدها والقول : ((اصيخي السمع تاتيانا بوريسوفنا ، انت لا تعرفين قيمة نفسك ، فانت رغم كل بساطتك وقلة عملك ، مخلوقة فريدة!)) يوحي مجرد اسمها بشيء اليف بشوش ، ويلفظ بسرور مثيرا ابتسامة ودية . كم من مرة اتفق لي مثلا ان سألت فلاحا عابر سبيل : اخي ، ماهو الطريق المؤدي الى غراتشوفكا؟ ((اذهب ايها السيد باديء الامر الى فيازوفيه ، ومن هناك الى تاتيانا بوريسوفنا ، وعند تاتيانا بوريسوفنا يدلك كل امرىء)) . يهز الفلاح رأسه هزة ذات دلالة معينة لدى ذكر اسم تاتيانا بوريسوفنا ، وهي تبقي نفرا غير كبير من الخدم يتناسب مع وضعها المادي . تشرف اغافيا ـ مدبرة المنزل ، مربيتها في الماضي ، وهي مخلوقة طيبة تترقرق دموعها بسرعة ، درداء الفم ـ في البيت على الغسيل والمؤونة والمطبخ ، ثمة فتاتان معافيتا الصحة لكل منهما خدان صلدان لونهما ازرق رمادي اشبه بتفاح انتونوف تعملان تحت اشرافها . يزاول عمل الخادم البيتي والناظر ومسؤول البوفية الخادم بوليكارب البالغ من العمر سبعين عاما ، وهو امرؤ فريد في غرابة اطواره ، واسع الاطلاع ، عازف كمان متقاعد ومن هواة فيوتيه ، العدو الشخصي لنابليون ، او كما يسميه هو بونابرتيشيكا[1] ، شديد الولع بالبلابل . يحتفظ غالبا بخمسة او ستة منهم في غرفته ، وفي الربيع الباكر يجلس اياما كاملة قرب القفص منتظرا ((الزقزقة)) الاولى ، وما ان يصل انتظاره الى النهاية حتى يدفن وجهه بيديه ويتأوه : ((اواه ، واأسفاه وا أسفاه!)) ثم ينتحب بافراط . يقوم بمساعدة بوليكارب حفيدة فاسيا ، وهو فتى يناهز عمره العشرين ، اجعد الشعر ، ثاقب البصر ، يهيم بوليكارب حبا به ويتذمر منه منذ الصباح

حتى المساء . يقوم بالاشراف على تربيته ايضا . يقول له : ((فاسيا قل ان بونابرتيشكا لص)) – ((وماذا تعطيني يا أبتاه؟)) – ((ماذا اعطيك؟ .... لا اعطيك شيئا .... ترى من انت؟ انت روسي؟)) ((انا امتشانين ، يا ابتاه ، ولدت في امتشنسك))★ – ((آه ، ايها الرأس الغبي ايها الرأس الغبي! واين تقع امتشنسك تلك؟)) – ((ومن اين لي ان اعرف)) ؟

– ((تقع امتشينسك في روسيا ايها البليد)) – ((وماذا يعني انها في روسيا؟))

– ((ماذا يعني؟ لقد طرد المرحوم الامير صاحب المعالي ميخائيل ايلاريونوفيتش غولينيشيف كوتوزوف(٢) من سمولينسك ، بعون الله ، بونابرتيشكا ذاك من حدود روسيا . ونظمت اغنية بهذه المناسبة : لا مزاج لبونابرت على الرقص – لقد اضاع حمالة جواربه .... أتفهم : لقد حرر وطنك)) – ((وما شأني بهذه القضية؟)) – ((أف لك من فتى أحمق ، أحمق! أترى لو لم يطرد الامير صاحب المعالي ميخائيل ايلاريونوفيتش بونابريتشكا ، لكان الان بمستطاع اي مسيو ان يضربك على يافوخك بالعصا . كان يمكن ان يقول لك : كيف تعيش؟ – ومعها ضربة ، ضربة)) – ((وانا اضربه حينئذ بقبضتي في بطنه)) – ((وهو يجيبك : مرحبا ، مرحبا ، تعال هنا)) – ويجرك من شعرك ، يجرك من شعرك)) – ((وانا امسكه من قدميه ، من رجليه النحيفتين)) – ((حقاً ان ارجلهم لنحيفة .. حسناً ، لكن افترض انه ربط يديك ؟)) – ((لم اكن لاستسلم له ، ولناديت الحوذي فيخي لمساعدتي)) – ((وماذا تظن يا فاسيا ، هل الفرنسي لا يقدر على ميخي؟)) – ((كيف يقدر عليه؟ ان ميخي قوي للغاية!)) – ((حسنا ، وماذا كنتما فعلتما

★ ...ى الناس البسطاء مدينة متسينسك ، امتشينسك وقاطنها امتشانين . وفتيان امتشينسك نشطون . وليس عبد... يقولون لشخص عدو «امتشانين يجيد النزال» . (ملاحظة الكاتب) .

له؟)) ـ ((كنا ضربناه على ظهره ، اجل على ظهـره)) ـ ((امـا هـو فيصيح : المعذرة ، المعذرة ، ارجوكم باردون ، باردون ، سيلفوبليه!)) ـ ((أما نحن فنقول له : كلا ، لا تفيدك سيلفوبليه يالك من فـرنسي .....!))
ـ ((اي شجاع انت يافاسيا! .... اذن اهتف : ((لص بونابرتيشكا!))
ـ ((شريطة ان تعطيني السكر!)) ـ ((يالك من! ...))

قلما تعاشرتاتيانا بوريسـوفنا الملاكات ، وهـن لا يزرنهـا عن طيبة خاطر ، لا تستطيع تسليتهن وتغفو وسط ضجيج احاديثهن ثم تنتفض ، تجاهد كي تفتح عينيها لكنها تغفو مجددا . لا تحب تاتيانا بوريسـوفنا النساء عموما ، كان لدى أحد اصحابها ، وهو شاب جيد هادىء ، اخت عانس تبلغ من العمر ثمانية وثلاثين عامـا ونصـف ، انسـانة بالغـة الطيبة ، بيد انها منحرفة الطبع متصنعة ومنفعلة . غالبا ماكان اخوها يحدثها عن جارته . وفي صباح جميل امـرت العـانس ، دون ان تقـول كلمة لاحد ، بتهيئة عدة الجواد ومضت الى تاتيانا بوريسوفنا . دلفـت الى المدخل في فستانها الطويل وعلى رأسها قبعة وخمـار اخضر وقـد ارسلت شعرها الاجعد . مرت قـرب فـاسيا المنذهـل الذي تصـورها حورية ، وهرعت الى غرفة الاسـتقبال . فـزعت تاتيانا بوريسـوفنا ، وارادت ان تنهض لكن قدميها خـذلتاها . ((قـالت الضـيفة بصـوت متوسل ـ تاتيانا بوريسوفنا اعذريني على جرأتي ، انا اخت صديقك ، الكسي نيكولايفتش ك ، كم سـمعته يتحـدث عنك ، بحيث قـررت ان اتعارف معك)) . تمتمـت ربة البيت المنذهلة : ((هـذا شرف كبير)) خلعت الضيفة قبعتها ، نفضت شعرها الاجعد ، اخذت مجلسها جـوار تاتيانا بوريسوفنا ، تناولت يدها .... ((بدأت بصوت متأمل منفعـل ـ اذن هاهي ذي ، تلك المخلوقة الطيبة الصافية النبيلة المقدسة! ها هـي ذي ، تلك المرأة البسيطة والعميقـة معا ! كم انا مسرورة ! كم سـنحب بعضنا بعضا ! سأجد الراحة اخيرا ..... هكذا تخيلتها تماما)) قـالت الجملة الاخيرة همسـا وظلت عيناهـا معلقتين بعيني تاتيانا

بوريسوفنا . ((اوليس حقا ، لن تغضبي علي ، ايتها الطيبة الصالحة ؟)) ـ ((عفوك انني مسرورة للغاية ... الا ترغبين في شرب الشاي؟))
ـ ابتسمت الضيفة ابتسامة المتفضلة : وهمست كأنها تحدث نفسها «wie wahr wie unrelectirt» (كم هي صادقة وغير متكلفة) .
((اسمحي لي ان اعانقك يا عزيزتي!)) .

مكثت العانس عند تاتيانا بوريسوفنا ثلاث ساعات ، لم تتوقف عن الكلام لحظة واحدة . بذلت مافي وسعها كي تشرح المناقب الشخصية لصاحبتها الجديدة . بعد انصراف الضيفة غير المتوقعة دخلت الملاكة المسكينة الى الحمام حالا ، شربت شاي الزيزفون واضطجعت في الفراش . عادت العانس في اليوم التالي مباشرة ، بقيت اربع ساعات ثم انصرفت واعدة تاتيانا بوريسوفنا ان تزورها كل يوم . لقد خطر ببالها كما ترى ان تطور نهائياً تلك الطبيعة الغنية ، حسب تعبيرها ، وترعاها ، ولعلها اخيراً كانت ستستغرق معها كلياً ، لو لم يصادف ، اولا ان خاب ظنها بعد مضي زهاء اسبوعين (بشكل كامل) برفيقة اخيها ، ثانياً لو لم تعشق طالباً شاباً مستطرقاً ، وانهمكت حالا في مراسلات نشطة ملتهبة معه . باركت في كتاباتها كالمعتاد ، حياته المقدسة الرائعة وعبرت عن استعدادها للتضحية (بكل روحها) من اجله ، مطالبة اياه ان يسميها اخته فحسب ، اسهبت في وصف الطبيعة ، نوهت الى غوته وشيلر وبيتينا والفلسفة ودفعت اخيراً الفتى المسكين الى حالة قنوط قاتمة . لكن روح الشباب اخذت مجراها : استيقظ في صباح رائع وقد استبد به الغضب والبغضاء حيال (اخته وافضل صديق له) حتى كاد من فرط هياجه ان يضرب رئيس خدمه الا قليلا ، وظل لفترة طويلة ، مايكاد يسمع اقل تلميح الى الحب السامي الخالي من الاغراض حتى يمتلكه الهياج .. منذ ذلك الحين باتت تاتيانا بوريسوفنا تتحاشى اكثر من السابق الاختلاط بجاراتها .

وأسفاه ! لاشيء باق على وجه الارض . ان كل ماحدثتك به عن حياة

ملاّكتي الطيبة ومعيشتها كان حكاية سالفة ، لقد اضطرب حبل السكينة التي سادت بيتها الى الابد . الان يعيش عندها ، ما ينيف على العام ، ابن اخيها فنان من بطرسبورغ . وهذا ماحدث انئذ .

قبيل ثمانية اعوام خلت عاش اندروشا عند تاتيانا بوريسوفنا ، فتى في العشرين من عمره ، يتيم لطيم ، وهو ابن اخيها المتوفي . عينا اندروشا واسعتان مشرقتان خضلتان ، انفه مستقيم ، فمه صغير ، جبينه جميل عال . يتكلم بصوت هادىء حلو ، يتصرف باناقة ووقار ، يلاطف الضيوف ، يتزلف اليهم ، يلثم يد خالته بشعور الخضوع الذي يحسه اليتيم . يتفق احياناً ، اذك لاتكاد تطل ، حتى تتطلع واذا به يحمل اليك الكرسي . لايصدر عنه اي ضرب من العبث : يتخذ احياناً مجلسه في الركن بتواضع وسكون ومعه كتاب ولايستند حتى الى ظهر الكرسي حينما يدخل ضيف يقف اندروشا يبتسم بأدب ، يتورد وجهه وما ان ينصرف حتى يجلس ثانية ويخرج من جيبه الصغير فرشاة شعر صغيرة ومرآة ويمشط شعره . شعر بميل نحو الرسم منذ نعومة اظفاره ، فاذا عثر على قطعة ورق ، طلب تواً وبالحاح المقص من اغافا مدبرة المنزل ، اقتطع بعناية مربعاً متساوياً من الورقة ، سوى له حاشيته ثم شرع بالعمل : يرسم عيناً ذات حدقة واسعة او انفاً اغريقياً او بيتاً ذا مدخنة ودخان على شكل لولب ووجه (en face) كلب شبيه بالكرسي وشجيرة عليها حمامتان ويوقع تحتها : (رسمها اندري بيلوفزوروف في تاريخ كذا وسنة كذا ، قرية ماليه بريكي) اشتغل بدأب محسوس قبيل اسبوعين من عيد الاسم لتاتيانا بوريسوفنا : قدم باديء ذي التهنئة واهداها لفافة مربوطة بشريط وردي صغير . قبلت تاتيانا بوريسوفنا ابن اخيها في جبينه وفكت الرزمة : انفتحت اللفافة وظهر امام مرأى المشاهد المستطلع معبد مستدير عليه رسوم خفيفة ، له اعمدة ومحراب في وسطه ، تلظى قلب في المحراب ورقد اكليل ، كتب على الشطر الاعلى من غلاف الرزمة المتعرج بحروف جلية (الى الخالة

والمحسنة تاتيانا بوريسوفنا بودانوفايا من ابن اخيها المبجل لها والمحب ، رمزاً لتعلقه العميق) قبلته تاتيانا بوريسوفنا مرة اخرة ومنحته روبلا . ورغم ذلك لم تكن تشعر بتعلق كبير به : ان تزلف اندروشا لم يرقها عموماً . كبر اندروشا في تلك الاثناء واخذ القلق يساور تاتيانا بوريسوفنا على مستقبله لكن حدثاً غير متوقع انتشلها من حيرتها ..

وهذا ماحصل بالذات : عرج عليها ذات مرة قبيل ثمانية اعوام شخص اسمه السيد بينيفولينسكي ، بيوتر ميخائيليتش ، يشغل منصب مستشار وحائز على اوسمة . شغل السيد بينيفولينسكي في حين من الاحيان وظيفة في مركز المنطقة القريبة من تاتياتا بوريسوفنا ، ودأب على زيارتها بمواظبة ، انتقل بعدئذ الى بطرسبورغ ، عمل في الوزارة نال رتبة مهمة لحد ما ، وفي احدى سفراته العديدة لانجاز الواجبات الحكومية تذكر صاحبته القديمة وعرج عليها لمدة يومين طلباً للراحة من المشاغل الوظيفية في احضان السكينة الريفية[٣] استقبلته تاتيانا بوريسوفنا بحفاوتها المألوفة وكذلك السيد بينيفولينسكي ... لكن قبيل ان نواصل قصتنا اسمح لي ايها القارىء الكريم ان اعرفك بهذه الشخصية الجديدة .

كان السيد بينيفولينسكي امرأ مكتنزاً مربوع القامة ، رقيق المظهر ، قدماه قصيرتان ، يداه بدينتان ، يرتدي بدلة فراك فضفاضة انيقة للغاية ، ربطة عنق مرتفعة وعريضة ، قميصاً ابيض كالثلج ، سلسلة ذهبية صغيرة على الصدار الحريري ، خاتماً مطعماً بحجر كريم في اصبع السبابة وشعراً اصطناعياً اشقر ، كان يتحدث حديثاً مقنعاً وديعاً ، يتحرك بلا ضجة ، يبتسم بلطف ، ينقل بصره بلطف ويدفن ذقنه في ربطة عنقه بلطف : كان على العموم امرأ لطيفاً وهبه الرب فؤاداً طيباً ايضاً : فهو يبكي ويفرح بيسر ، زد على ذلك انه يتوقد بشعور خال من المنفعة حيال الفن ، خال من المنفعة حقاً لان السيد بينيفولينسكي ، اذا

توخينا الحقيقة لايفقه على الاطلاق شيئاً في الفن بالذات . ومن المذهل فعلا من اين وبمقتضى اية قوانين خفية غامضة ظهر لديه هذا الشعور ؟ انه يبدو شخصاً عملياً بل حتى عادياً .. ومع ذلك فـامثال اولئك الناس كثيرون عندنا في روسيا نوعاً ما .

يخلع الولع بالفن والفنانين على اولئك الناس حلاوة لايمكن فهمها . ان معاشرتهم والتحدث معهم لشيء ممض : حمقى حقيقيون ، مطليون عسلا ، فهم ، مثلا ، لا يسمون قط رفائيل ـ رفائيل وكوريجيو ـ كوريجيو وانما ويلفظونه حتما بحرف O .((سانتسيو الالاهي ودي الجيري الذي لا يمكن محاكاته)) انهم يعظمون كل موهبة بسيطة متعالية محتالة لترقى الى مستوى العبقرية او الاصوب ((خبقرية)) ان سماء ايطاليا الزرقاء والليمون الجنوبي والابخره الشذية لضفاف برينتا لا تفارق السنتهم . يتحدثون بعاطفة مع بعضهم بعضا : ((آه ، ساشا ، ساشا ـ لو يمكننا الذهاب الى الجنوب .... نحن اترى ، انا وانت اغريقيون بروحنا . اغريقيون قدماء!)) يمكن مشاهدتهم في المعارض ، امام لوحات اجنبية ورسامين غير روس . (ولا مندوحة من الملاحظة ان غالب اولئك السادة وطنيون متحمسون بافراط) وهم يتراجعون احيانا خطوتين تقريبا ويرسلون رؤوسهم الى الوراء ، ثم يتقدمون مرة اخرى نحو اللوحة ، تغشى عيونهم نداوة لامعة ... ((ويقولون اخيرا بصوت اضناه الانفعال ـ وي ، يا الهي ، تلك الارواح ، يالها من! يالتلك القلوب ، القلوب! كيف مدها بالروح! بظلام الروح ..... وكيف صممت! لقد صممت بمهارة!)) واية لوحات يحتفظون بها هم انفسهم في غرف الاستقبال! واي نمط من الفنانين يترددون عليهم في الاماسي ويحتسون الشاي عندهم ويصغون الى احاديثهم! وياللشكل الذي يقترحونه عليهم لغرفهم الخاصة ، فالفرشاة على الجهة اليمنى ، وكومة غبار على الارض اللامعة ، وسماور اصفر على المنضدة قرب الشباك ورب البيت نفسه يرتدي المبذل والطاقية

وتنساب على خده حزمة ضياء ساطعة ! ويالهم من ارباب لآلهة الفن يزورنهم بشعورهم الطويلة وابتسامتهم المحمومة المزدرية ويحتشدون حولهم! اية آنسات شاحبات يزيقن عندهم خلف البيانو! فمن المتعارف عليه في روسيا هو : لا يستطيع المرء ان يكرس نفسه للفن فقط ! ــ اعطه كل شيء ليقوم به . ولذلك ليس عجيبا قط ، ان يظهر اولئك السادة الهواة رعاية قوية للادب الروسي ايضا ، ولاسيما المسرحي منه .... فلهم كتبت ((جاكوب سانازارز)) ان : صراع الموهبة غير المعترف بها ، مع الناس والعالم برمته والذي صور الف مرة يهزهم الى اعماق نفوسهم .

في اليوم التالي لوصول السيد بينيفولنسكي ، طلبت السيدة تاتيانا بوريسوفنا في اثناء تناول الشاي ، من ابن اخيها ان يطلع الضيف على صوره . نطق السيد بينيفولينسكي بصوت لايخلو من الدهشة ، ورنا بعطف الى اندروشا ــ ((وهل هو يمارس الرسم؟)) ــ قالت تاتيانا بوريسوفنا ((ــ طبعا يمارس الرسم وكم هو مولع به! اتدري ، انه يرسم وحده بلا معلم)) ــ تابع السيد بينيفولينسكي ــ ((اواه ، ارني ، ارني)) تشرب وجه اندروشا حمرة وابتسم ثم جلب للضيف دفترا صغيرا ــ شرع السيد بينيفولينسكي يورق الكتاب بمظهر الخبير . قال اخيرا ((حسنا ، ايها الشاب ، حسنا ، حسنا جدا)) . وربت على رأس اندروشا . لثم اندروشا يده بسرعة . ((تخيلي ، يالها من موهبة! .... اهنئك ، تاتيانا بوريسوفنا ، اهنئك)) ــ ((ماذا استطيع ان افعل ، بيوتر ميخائيليتش ، هنا لا يمكن ايجاد معلم له . اما من المدينة فأجرته غالية ، يوجد ارتامونوفي ، رسام الجيران ، ويقولون انه ممتاز ، لكن السيدة تمنعه من اعطاء درس للأخرين . تقول يؤدي ذلك الى افساد ذوقه)) ، نطق السيد بينيفولينسكي ــ هم ، استغرق بالتفكير ونظر الى اندروشا مقطبا . اضاف فجأة قائلا وفرك يديه ــ اذن ، سنتفاهم حول ذلك)) . في اليوم نفسه طلب السماح من تاتيانا بوريسوفنا بالتحدث

معها على انفراد . اغلقا الباب . بعد نصف ساعة ناديا اندروشا . دخل اندروشا . وقف السيد بينيفولينسكي عند النافذة ، علت وجهه حمرة خفيفة ولمعت عيناه . جلست تاتيانا بوريسوفنا في الركن واخذت تمسح دموعها . ((انشأت في الكلام اخيرا ـ حسنا ، اندروشا ، ارفع آيات الشكر لبيوتر ميخائيليتش : انه يتعهدك تحت وصايته ، ويأخذك الى بطرسبورغ)) . تسمر اندروشا في مكانه . ((طفق السيد بينيفولينسكي يتكلم بصوت طافح بالفضل والشعور بالتفوق ـ قل لي بصراحة ، اترغب ان تكون فنانا ايها الفتى ، اتشعر برساله الفن المقدسة؟)) اكد اندروشا مرتعشا ((اتمنى بيوتر ميخائيليتش ان اكون فنانا)) ((انني مسرور للغاية في هذه الحالة)) ((استرسل السيد بينيفولينسكي في كلامه ـ مما لا ريب فيه انه يصعب عليك الافتراق عن خالتك الموقرة ، لابد انك تشعر نحوها بامتنان شديد)) ـ قاطعه اندروشا رامشا بعينيه ((انني اعبد خالتي)) ((طبعا ، طبعا ، هذا مفهوم جدا ، ويخلع عليك شرفا كبيرا ، لكن تصور بالمقابل ، اي مبعث فرح مع مضي الوقت .... نجاحك ....)) تمتمت الملاكة الطيبة ((عانقني ، يا اندروشا)) ، ارتمى اندروشا على عنقها . ((اذن ، افصح الان عن امتنانك لمحسنك ...)) حضن اندروشا بطن السيد بينيفولينسكي ، ووقف على طرف اصابعه ، تناول يده،لثمها ولم يشعر المحسن بحاجة الى سحبها بسرعة ، لا مندوحة من الترويح عن الفتى وارضائه ومن الممكن ان تدلل نفسك ايضا . سافر السيد بينيفولينسكي بعد حوالي يومين واصطحب معه ربيبه الجديد .

أكثر اندروشا الكتابة نوعاً ما لخالته في غضون السنوات الثلاث الاولى من فراقه لها ، وضمن احيانا رسائله بعض الصور ، كان السيد بينيفولينسكي يضيف في بعض الاحايين ، كلمات قليلة ايضا ، تعبر معظمها عن استحسانه ، ثم امست الرسائل تقل شيئا فشيئا حتى أنقطعت اخيرا تماماً . اخلد ابن الاخ عاما كاملا الى الصمت ، وبات

القلق يساور تاتيانا بوريسوفنا ، لكنها تسلمت على حين غرة رسالة صغيرة هذا محتواها :

((خالتي الكريمة))

مر اليوم الرابع على موت الوصي بيوتر ميخائيليتس . ان اصابة قوية بالشلل حرمتني من السند الاخير . طبعا انا الان في العشرين من عمري ، وقد حققت خلال الاعوام السبعة نجاحات مهمة ، انني آمل الكثير من موهبتي واستطيع العيش منها ، وانا لا اشعر بالكآبة . ومع ذلك ، اذا كان بمستطاعك ان ترسلي لي ، في اقرب فرصة ، مائتين وخمسين روبلا من الاوراق المالية . الثم يديك وابقى المخلص لك)) والخ .

ارسلت تاتيانا بوريسوفنا الى ابن اخيها مائتين وخمسين روبلا ـ بعد مرور شهرين طلب ثانية ، جمعت آخر ما لديها وارسلت له مرة اخرى . لم تمض ستة اسابيع على الحوالة الثانية ، حتى طلب للمرة الثالثة بحجة شراء اصباغ للوحة اوصت عليها الاميرة تيرتير يشينفايا . رفضت تاتيانا بوريسوفنا . ((فكتب لها ـ في هذه الحالة انوي المجيء اليك في القرية لتتحسن صحتي)) . حقا ، عاد اندروشا في شهر ايار من تلك السنة الى ماليه بريكي .

لم تعرفه تاتيانا بوريسوفنا باديء الامر . فقد توقعت ، من رسالته ، شخصا مريضا نحيفا ، لكنها رأت فتى عريض المنكبين ، بدينا ، عريض الوجه احمره . شعره الاجعد مدهون . تحول اندروشا النحيل الشاحب الى اندرية ايفانوف بيلوفزوروف القوي البنية ـ لم يطرأ التغيير على مظهره فحسب . لقد حل محل الحياء المفرط والحذر واناقة السنين المنصرمة ، التهور وعدم الاكتراث واهمال لا يطاق ، كان يتأرجح في سيره يمينا ويسارا . يترامى على الكرسي ، يتهافت على المنضدة ، يستلقي ، يتثاءب بملء حنجرته ، يعامل خالته والناس بجسارة ، انني اترون ، فنان ، قوزاقي طليق! انتم تعرفون قومنا!

احيانا لا يمسك الفرشاة بيده اياما بكاملها ، ثم يهبط عليه ما يسمى بالالهام ، فيتلوى ، كما لو كان من الخمار ، بثقل وغلاظة ، وصخب ، تتوهج وجنتاه بحمرة بشعة ، تسترخي عيناه ، ينطلق في شرح موهبته ونجاحاته ، كيف يتطور ويمضي قدما .... تبين ، في واقع الحال ، ان قابليته لا تكاد تفي الا قليلا برسم لوحات رديئة . كان جاهلا جهلا مطبقا ، لا يقرأ البتة ، ولماذا يتأتى على الفنان ان يقرأ ؟ الطبيعة ، الحرية ، الشعر ــ هذه هي مقوماته . تعلم ان تنفض شعرك الاجعد وتغني اغنية رنانة وتسحب نفسا من غليون جوكوف! يالروعة البسالة الروسية! لكنها لا تناسب الكثيرين ، اما جماعة بوليجايف[٥] العديمي الموهبة ، ومن المرتبة الثانية ، فلا يمكن احتمالهم . عاش اندرية ايفانيتش عند خالته : ينسجم الخبز المجاني مع ذوقه على ما يبدو . كان يخلق كآبة قاتلة لدى الضيوف . يجلس احياناً خلف البيانو (كان عند تاتيانا بوريسوفنا بيانو ايضا) ويبدأ يعزف باصبع واحد ((الترويكا الشجاعة)) يتناول الايقاع الموسيقي ، يضرب على الدساتين ، ويستمر ساعات طويلة يعوي بشكل ممض باغاني فارلاموف : ((الصنوبرة الوحيدة)) او : ((كلا ، ايها الطبيب ، كلا ، لا تأتي)) ، غاصت عيناه من فرط السمنة وانتفخ خداه كالطبل ، احياناً يلعلع فجأة : ((هدئي اضطراب العاصفة)) وتنتفض عندئذ تاتيانا بوريسوفنا .

قالت لي ذات مرة ــ ياله من امر عجيب ، اي ضرب من الاغاني ينظمون حاليا ، انها لمشوبة بالقنوط ، في زماني نظموا اغان مغايرة : هناك اغان حزينة ، لكن كان يطيب سماعها .... مثل :

تعال تعال الي في المرج
حيث انتظرك بلا جدوى
تعال ،تعالى الي في المرج
حيث اذرف الدموع كل ساعة ...

هيهات ، ستأتي الي في المرج ،
لكن بعد فوات الاوان ، يا صديقي العزيز .
ابتسمت تاتيانا بوريسوفنا ابتسامة مداعبة .
عوى ابن الاخ من الغرفة المجاورة ـ ((انني اتألم ، انني اتألم)) .
ـ حسبك ، يا اندروشا .
استرسل المغني الذي لا يعرف الكلل ((الروح تضنى من الفراق)) .
هزت تاتيانا بوريسوفنا رأسها .
ـ اف ، من اولئك الفنانين! ....

تصرمت سنة منذ ذلك الوقت ... ومـــا زال بيلوفــزوروف يعيش حتى الان عند خالته ، وما برح ينوي الذهاب الى بطرسبورغ . اضحى طوله بقدر عرضه في القرية . الخالة ـ من يمكن ان يتصور هذا ـ غدت تحبه لدرجة العبادة ، الفتيات المجاورات يعشقنه ....
كف كثير من معارف تاتيانا بوريسوفنا القدماء عن زيارتها .

* * *

المــــــوت

كان عندي جار ملاك شاب وصياد يافع . ذهبت اليه في صــباح جميل من اصباح تموز ممتطيا صهوة جوادي ، للاقتراح عليه بالمضي معا الى قنص الطيهوج ، فابدى موافقته . وقال ــ شريطة ان تذهــب الى احــد املاكي الصغيرة في اتجاه زوشــا (١) ، انني اود ان القــي نظــرة على تشابليغنو ، اتعرف غابتي ذات اشجار البلوط؟ انهم يقطعونها))

ــ لنذهب اذن)) .

أمر بوضع السرج على الجــواد ، ارتدى ســترة خضراء ذات ازرار برونزية رسمت عليها صورة خنزير بري ، اخــذ حقيبة صــيد خيطــت بخيطان من الصوف وزمزمية فضية . القى على كتفه بندقية فــرنسية جــديدة ، دار بنفســه امـــام المرآة بشيء مـــن الارتياح ، نادى كلبه اسبيرانس ، الذي اهدته اليه ابنة عمه ، وكانت عانســا رائعــة القلب ، لكنها صلعاء .

ذهبنا . اصطحب جاري معه الحارس ارخيب ، وهــو فــلاح ســمين دحداح ، وجهــه كالمربع ، عظمــا وجنتيه ناميان كأنســـان مـــا قبل

الطوفان ، والسيد غوتليب فون ــ دير ــ كوك مدير الاعمال استأجره قبيل فترة وجيزة من احدى محافظات البلطيق ، كان فتى يناهز التاسعة عشرة من عمره ، نحيفاً ، أشقر ، ضعيف البصر ، متهدل الكتفين ، طويل العنق .

ورث جاري نفسه الضيعة منذ امد قريب . انتقلت ملكيتها الى حوزته بالارث من عمته كاردون ــ كاتايفا ، ارملة مستشار حكومي ، كانت امرأة مفرطة السمنة لا تكف عن التأوه الشاكي حتى عندما تضطجع في الفراش . وصلنا الى ((ملكيته الصغيرة)) قال ارداليون ميخائيليتش (جاري) موجها كلامه الى مرافقيه ــ ((انتظراني هنا في المرج)). انحنى الالماني ثم ترجل عن الحصان ، اخرج كتابا صغيرا من جيبه يبدو انه رواية لجوهانا شوبنهور[٢] وجلس تحت شجيرة ، بقي ارخيب في الشمس ، دون ان تبدر منه اي حركة ، طوال ساعة كاملة . قمنا بجولة في الاحراش ، لكننا لم نعثر على طير واحد . اعلن ارداليون ميخائيليتش انه ينوي المضي الى الغابة . في ذلك اليوم خيل الي ، لسبب ما ، ان النجاح لن يحالفنا في الصيد ، سرت انا ايضا بتثاقل خلفه . عدنا ادراجنا الى المرج . وضع الالماني اشارة على الصفحة ، نهض ، وضع الكتاب في جيبه وركب ، بعد ان بذل جهدا ملحوظا ، فرسه الابتر المعيب ، الذي يصهل ويرفس كلما مسه احد ولو مسا خفيفا . انتفض ارخيب ، وشرع يشد دفعة واحد كلا العنانين ، ووضع قدميه على جانبي الحصان ، وحرك اخيرا حصانه الصغير الصغير المروع المنكمش من المكان . انطلقنا .

كنت على معرفة بغابة ارداليون ميخائيليتش منذ الطفولة . فغالبا ما كنت اتردد على تشابليغينو بمعية معلمي الفرنسي ديزيرية فلوري ، وهو انسان مفرط الطيبة ((ومع ذلك كاد ان يلحق ضررا دائما بصحتي ، حيث اجبرني على شرب دواء ليروا كل مساء)) تحتوي هذه الغابة برمتها على حوالي مائتين او ثلاثمائة من اشجار البلوط والدردار

الضخمة اخذت جذوعها الفارعة الضخمة تسود بجلال، مقابل الخضرة الذهبية الشفافة لاشجار الجوز والغبيراء، ارتفعت عاليا وتراءت ممشوقة امام السماء اللازوردية الصافية، وهناك ترامت اغصانها العريضة ذات الزوايا كالخيمة، حامت الرخمة و العاسوق والصقور الصغيرة تحت هاماتها الراسخة، ضربت طيور نقار الخشب المختلفة الالوان بشدة على القشرة السميكة، صدح فجأة لحن رنان لشحرور اسود على الورقة الكثيفة في اعقاب صوت الصفارية الشادي، غردت في الاسفل بين الشجيرات طيور ابي الحناء والسميلي والسكِن و غنت، عدت الشراشير بخفة غادية رائحة في الممرات الضيقة. ركض ارنب بري على امتداد طرف الغابة، ((توقف ثم ركض بحذر، وثب سنجاب بني برشاقة من شجرة لاخرى ووقف على حين غرة، رافعا ذيله فوق رأسه. تفتح على العشب، حول قرى النمل المرتفعة وتحت افياء اوراق الخنشار الجميلة المزخرفة، البنفسج والسوسن، نمت فطريات فولفيانكا[٣] غروزدا، دوبوفيكا، والفطر السام الاحمر، تورد التوت البري بين الشجيرات العريضة.. وياله من ظل ظليل في الغابة! فهي عبارة عن ليل داج: في ذروة القيظ، في الظهيرة: سكينة، اريج وطراوة.. قضيت يوما ما في الماضي وقتاً هنياً في تشابليغنو، واعترف، انه خالجني من جراء ذلك، شعور من الحزن وانا ادخل الان الى الغابة المألوفة لدي للغاية. ان شتاء الاربعين القاسي، الخالي من الثلج لم يرحم اصدقائي القدماء: اشجار البلوط والدردار، لقد جفت، ظلت عارية، تغطيها هنا و هنالك اوراق خضراء سقيمة، ترتفع فوق شجيرات الغابة الفتية التي ((حلت محلها، ولم تعوض عنها[٤] ... ثمة* اوراق اخرى نمت عليهم في الاسفل، وكأنها

---

* في سنة الاربعين في اثناء الزمهرير القارص، لم يسقط الثلج حتى نهاية تشرين الثاني.
..د كل ماهو اخضر، وقضى هذا الشتاء القاسي على العديد من غابات البلوط الرائعة. كان استبدالها صعبا، يبدو ان قوة خصوبة الارض تضعف في الارض المقفرة المغطاة بالثلوج

ترفع اغصانها المائية ، المهشمة بملامة وقنوط الى الاعلى ، برزت اغصان غليظة ميتة من بين اوراق الاشجار الاخرى التي مازالت كثيفة ، رغم انها ليست بالغزيرة ولا الوافرة كالسابق ، تساقط اللحاء عن بعضها بينما سقط بعضها الاخر كليا على الارض وتعفن كالجثة .... من كان يستطيع ان يتنبأ بذلك ـ وجود الظلال ، كان من المستحيل ان تجد الظلال في اي مكان في تشابليغينو ، ماذا فكرت عندما نظرت الى الاشجار التي يدب فيها الموت ؟ ... لاشيء سوى الخجل والمرارة يغشيانك .

اين تواريت[٥]

ايها الحديث السامي ،

والقوة الفخورة ،

والبسالة القيصرية ؟

اين هي الان

قوتك الخضراء ؟

انشأت في الكلام ـ لماذا تركتها هكذا يا ارداليون ميخائيليتش . لماذا لم تقطعوا هذه الاشجار في السنة التالية ؟ انها لن تمنحكم الان سوى عشر قيمتها السابقة .

أكتفى بهز كتفيه .

ـ كان يمكن ان تسأل من خالتي ، جاء النجار ، جلبوا النقود ، والحوا في الطلب .

كان فون ـ دير ـ كوك يهتف عند كل خطوة mein Gott ! Hein Gott ! يا للخدعة ! يا للخدعة .

علق جاري مبتسما ـ اي خدعة ؟ اردت القول ، انها لخدعة (من

(اعني التي حملوا حولها الايقونات)

نمت اشجار البتولا والحور الرجراج بدل الاشجار الكريمة السابقة ، وليس بالامكان تنمية الغابات عندنا بشكل آخر (ملاحظة الكاتب)

المعروف ان جميع الالمان الذين اتقنوا اخيرا ، لغتنا يشددون بشكل عجيب على حرف ((اللام)) .

لقد اثارت اسفة بشكل خاص ، اشجار البلوط الراقدة على الارض .... حقا : ان اي طحان كان مستعدا لدفع ثمن مرتفع لها . لاذ الحارس ارخيب مقابل ذلك بصمت دؤوب ، لم يأسف قط ، وانما على النقيض من ذلك ، قفز فوقها بشيء من الارتياح ، وضربها بسوطه .

وصلنا الى مكان قطع الاشجار ، دوى بغتة صراخ ولغط في اعقاب ضجة سقوط احدى الاشجار ، بعد بضع لحظات هرع نحونا خارجا من الغابة شاب شاحب اشعث .

سأل اردالیون میخائیلیتش ـ ما الخطب ، الى اين تركض ؟ توقف فورا .

ـ آه ايها السيد اردالیون میخائیلیتش يا للمصيبة !

ـ ما الخطب؟

ـ سيدي ، ان شجرة سقطت على مكسيم

ـ كيف حدث ذلك؟ ... اتعني مكسيم المتعهد ؟

ـ المتعهد ، سيدي . شرعنا في قطع الدردار ، وقف هو يراقب ... وقف ، ووقف ، ثم ذهب لجلب الماء من البئر : اراد اترى ان يشرب . فجأة طقطق الدردار وسقط مباشرة عليه . هتفنا به : اركض ، اركض ، اركض ... كان يتأتى عليه ان يعدو على جانب ، لكنه شرع يركض الى الامام .. لقد فزع ، اترى . ان اغصان الدردار العليا سقطت عليه وغطته . لماذا سقطت الشجرة بتلك السرعة . العلم عند الله ... لعل داخلها كان متعفنا .

ـ اذن ، اقضت على مكسيم؟

ـ قضت ، ايها السيد .

ـ حتى الموت؟

ـ كلا ، ايها السيد ، مازال على قيد الحياة ، لكن لا امل يرتجي له

تكسرت قدماه ويداه . ها انا ذا اهرع لجلب الطبيب سيليفير ستيتش .

امر ارداليون ميخائيليتش الحارس ان يذهب على الجواد الى القرية لجلب سيليفيرستيتش ، بينما سار هو بخبب سريع الى الامــام تجــاه مكان القطع .. ... وانا في اعقابه .

وجدنا مكسيم المسكين راقدا على الارض ... وقف حوله زهاء عشرة فلاحين .

ترجلنا عن الخيل . لم يكد يئن تقريبا ، فتح عينيه لماماً ووســعهما كأنه ينظر بدهشة فيما حوله ، عض على شفتيه المزرقتين ... ارتعش ذقنه ، التصق شعره على جبينه ، ارتفع صدره بشكل غير منتظم : كان يعاني سكرات الموت . انساب ظل خفيف من شــجرة الزيزفــون بهــدوء على وجهه وبشكل غير منتظم .

قال بصوت لا يكاد يفهم الا قليلا ـ ايها الســيد ، ارســلوا ... وراء القس ... الله ... عاقبني ... ان قدمي ويدي تهشمت كلها ... اليوم ... الاحد ... وانا ... وانا ... كما ترى ... لم اصرف الفتيان ليذهبوا .

لزم الصمت هنيهة . كان يلهث في اثناء تنفسه ...

ـ اما نقودي ... فلزوجتي ... اعطها لزوجتي ... اما الحســاب ... ان اونسيب ... يعرف ... لمن أنا مدين ... وكم علي من الديون ...

قال جاري ـ مكسيم ، ارسلنا في طلب الطبيب ، لعلك لن تموت .

أراد ان يفتح عينيه ، رفع حاجبيه وجفنيه بجهد جهيد .

ـ كلا ، انني اموت . ها هو ... هــا هــو ذا الموت يقترب هــا هــو ، هوذا .... أغفروا لي ايها الفتيان ، اذا كنت في شيء ...

قال الفلاحون بصوت واحد خفيض وخلعوا قبعاتهم ـ الله يغفر لك ، مكسيم اندريتش ، واغفر انت لنا .

هز رأسه فجأة بقنوط ، رفع صدره مغتما وهبط مرة اخرى .

هتف ارداليون ميخائيليتش ـ ومع ذلك لا يجوز ان يموت هنا ، ايها الفتيان ، اجلبوا الحصير من العربة وانقلوه الى المستشفى .

هرع شخصان الى العربة .

أخذ المحتضر يتمتم ـ انا مـن يفيم ... سـيتشوفسكي ... اشـتريت امس جوادا .. دفعت ثمنه ... فالجواد لي ... الى زوجتي ... ايضا ... شرعوا يضعونه على الحصير ... اخـذ يرتعش كله ، مثل طير اصـيب باطلاق ناري ، وانتصب ...

دمدم الفلاحون ـ لقد مات .

امتطينا صهوة خيولنا وذهبنا .

حملني موت مكسيم البائس على الاستغراق في التأمـل . يا لغـرابة موت الفلاح الروسي لا يمكن تسمية حالته قبيل الموت بعدم الاكتراث او البلادة ، فهو يموت وكأنه يقوم بتأدية الطقوس : بفتور وبساطة .

منذ بضعة اعوام خلت احترق فلاح في منشف الحبوب عند جار آخـر لي في القرية : (كان قد بقي في منشف الحبوب ، لو لم ينتشله مسافر من المدينة وهو شبه حي : اذ غطس في برميل ماء واندفع نحو باب السقيفة التي احترقت وكسره . عرجّت عليه في الكوخ . كان الكوخ معتما ، الجو خانقا وداخنا . سألت اين المريض ؟

اجابني صوت امرأة مترنم ، ناءت تحت عب المصيبة ـ ((ها هو ذا ، ايها السيد على سطح الموقد .

اقتربت ـ واذا بفلاح مستلق ، متدثر بفـروة الظـأن ، يتنفس نفسـا ثقيلا .

((كيف حالك؟))

ـ تململ المريض على سـطح الموقـد ، اراد ان ينهض ، وجسـمه كله حروق ، وهو على وشك الموت .

ـ اضطجع ، اضطجع ، اضطجع ... طيب كيف حالك ؟))

اجاب ـ ((سيء بالتأكيد)) .

ـ((أتتألم ؟))

لزم الصمت .

((الا تحتاج لشيء ما ؟))
ـ لاذ بالصمت .
((الا تود ان اطلب لك شاياً ؟))
((لا حاجة الى ذلك)) .
ابتعدت عنه وجلست على المقعد . جلست ربع ساعة ، نصف ساعة ، خيم صمت القبور على الكوخ . توارت طفلة ، تأكل الخبز ، عمرها حوالي خمس سنوات ، في الركن وراء المنضدة وتحت الايقونات . كانت الام توبخها للمحافظة على الهدوء احيانا ، يغدو الناس في الخارج ويروحون ، يقرقعون ويتحدثون ، بينما تقطع زوجة أخيه الكرنب .
قال المريض اخيرا ـ ((ها ، اكسينيا !)) .
((ماذا تريد ؟))
((اعطيني قليلا من الكفاس)) .
ـ ناولته اكسينيا الكفاس . خيم الصمت مرة اخرى . سألت همسا : ((هل اجريتم له الطقوس اللازمة ؟))
((اجرينا)) .

في تلك الحالة اذن ، كل شيء على ما يرام : انه ينتظر فقط الموت لا غير . لم اعد استطيع التحمل فخرجت ...
اتذكر حادثة اخرى ، ايضا ، ذهبت ذات مرة الى مستشفى قرية كراسنوغوري ، الى كابيتون ، طبيب ـ مساعد ومولع بالصيد للغاية .
يتكون هذا المستشفى من جناح سابق من اجنحة بناية الملاكة ، لقد شيدته الملاكة نفسها : اعني امرت ان توضع على الباب لوحة زرقاء مكتوب عليها بحروف بيض ((مستشفى كراسنوغوري)) وعهدت من تلقاء نفسها بالبوم جميل الى كابيتون لغرض تسجيل اسماء المرضى . خط ، احد المتزلفين والمتملقين للملاكة المحسنة ، على الصفحة الاولى من هذا الالبوم الاشعار التالية :ـ

Dans ces beaux Lieux oú régne lállégresse
Ce tmple Fut ouvert Par La Beauté;
De vos seigneurs admirez La tendresse
Bon habitants de krasnogorié!

((في هذه الربوع الجميلة ، حيث يسود الحبور ،
أقام الجمال هذا المعبد ،
فلتعجبوا بسخاء سادتكم .
يا قاطني كراسنوغوريه الطيبين)) .

اضاف امرؤ آخر في الاسفل :

Et moi aussi j, aime la nature
Jean kobyliatniko FF

وانا ايضا اهوى الطبيعة !
ايفان كوبيلياتنيكوف .

اشترى مساعد الطبيب بنقوده الخاصة ست اسرة ودعا الله ان يبارك عمله ، شرع يعالج ابناء الله . ثمة شخصان في المستشفى هما : بافل ، حفار الخشب ، الذي تنتابه نوبات جنون ، وميليكيتريسا ، امرأة هزيلة الذراعين تقوم بعمل الطاهية . كان كلاهما يحضران الادوية ، يجففان الأعشاب ، ينقعانها ، ويكبحان من جماح المرضى المهتاجين . كان حفار الخشب المجنون كئيب المظهر ، ضنينا في كلماته ، يغني في الليالي اغنية ((عن فينوس الحسناء)) ويدنو من كل زائر طالبا منه ان يسمح له بالزواج من الفتاة مالانية ، التي ماتت منذ امد بعيد . كانت المرأة الهزيلة الذراع تضربه وتجبره على العناية بالدجاج الرومي . ها اناذا اجلس ذات مرة عند مساعد الطبيب كابيتون .. وما كدنا نشرع

بالحديث عن آخر صيد قمنا به ، حتى دخلت فجأة الى الفناء عربة يجرها حصان اشهب فريد في بدانته مطهم من النوع الذي يقتنيه الطحانون فقط . جلس في العربة فلاح مكتنز يرتدي سترة جديدة ، وله لحية مبرقشة .

((صاح كابيتون من النافذة ـ هاي ، فاسيلي دميتريتش ، اهلا وسهلا بك ... وهمس لي ، انه الطحان ليبوفيشينيسكي .

هبط الفلاح من العربة وتأوه ، دخل الى غرفة مساعد الطبيب ، جال بعينيه باحثا عن الايقونة ورسم اشارة الصليب .

ـ ((حسنا ، فاسيلي دميتريتش ، ما وراءك من اخبار جديدة ؟ ... لابد انك متوعك الصحة : فوجهك ليس على مايرام)) .

ـ اجل كابيتون تيموفيتش ، هناك شيء سيء)) .

ـ ((ما بك؟))

هذا مابي كابيتون تيموفيتش . اشتريت قبيل مدة وجيزة رحى الطاحونة من المدينة جلبتهم الى البيت ، وما ان شرعت بنقلهم من العربة ، وبذلت جهدي في حملهم كما تعرف ، واذا بشيء ينفجر في معدتي ، كأنها تمزقت ... منذ ذلك الحين ظلت صحتي في حالة متوعكة . واليوم احس بالالم والاذى))

((تمتم كابيتون وشتم السعوط ـ هم ، يعني عندك فتق ، وهل حدث ذلك منذ امد بعيد؟

ـ ((منذ عشرة ايام خلت)) .

ـ ((عشرة ؟ تنفس مساعد الطبيب من بين اسنانه وهز رأسه .))

اسمح لي ان افحصك . نطق اخيرا ـ طيب ، فاسيلي دميتريتش ، أسفي عليك ، فأنا احبك ، لكن وضعك ليس على ما يرام ، فمرضك خطير ، ولا يحتمل المزاح ، ابق عندي هنا ، وانا من جهتي سأبذل كل جهدي ، ومع ذلك ، فلا اعدك بشيء))

دمدم الطحان المنذهل ((او حالتي سيئة لهذه الدرجة ؟))

ـ نعم ، فاسيلي دميتريتش ، سيئة ، لوجئتني قبيل ـ يومين ، لشفتيك بنقرة على معصمك ، اما الان ، فعندك التهاب ، هذه هي القضية وستتحول الى نار القديس انطوني ايضا)) .

ـ ((هذا مستحيل ، كابيتون تيموفيتش)) .

ـ ((هذا ما اقوله لك)) .

ـ ((وكيف يمكن ان يحدث هذا (هز مساعد الطبيب كتفيه جوابا عليه)) . وسأموت من جراء هذا العمل البليد ؟)) .

ـ ((لا أقول لك ذلك ... ابق هنا فحسب)) .

فكر الفلاح وفكر ، نظر الى الارض ، ثم تطلع الينا ، وحك قفا رقبته وتناول القبعة .

ـ ((الى اين ، فاسيلي دميتريتش ؟)) .

ـ ((الى اين ؟ واضح الى اين ، الى البيت ما دامت الحالة سيئة لهذه الدرجة . ينبغي علي تنظيم اموري ، مادام الامر هكذا)) .

ـ ((ارجوك ، انك تجلب الاذى لنفسك فاسيلي دميتريتش انني لأعجب ، كيف استطعت الوصول الى هنا ، ابق)) .

ـ ((كلا ، يا اخي كابيتون تيموفيتش ، ما دمت سأموت ، فلامت في البيت ، واذا مت هنا فالله وحده يعلم ماذا سيحدث في البيت)) .

ـ(فاسيلي دميتريتش ، من غير المعروف كيف سيكون حالك على وجه التاكيد ... طبعاً انه خطر ، خطر للغاية ، فلا مرية في ذلك ... ولهذا ينبغي عليك ان تبقى)

(هز الفلاح رأسه) ـ كلا كابيتون تيموفيتش ، لن ابقى ... اكتب لي شيئا من الدواء فحسب .

ـ(الدواء وحده لا يكفي)

ـ ((اقول لك لن ابقى))

ـ اذن كما تشاء ... ولن تلوم الا نفسك حينئذ!

انتزع مساعد الطبيب وريقة من الالبوم وكتب له وصفة الدواء ،

اسدى اليه النصح بما ينبغي عمله . تناول الفلاح الوريقة ، اعطى كابيتون نصف روبل ، خرج من الغرفة وجلس في العربة . ((اذن ، وداعا كابيتون تيموفيتش ، لا تذكرنا بسوء ، ولا تنس اليتامى الصغار اذا حدث شيء ....))

ـ ((هاي ، ابق فاسيلي !))

هز الفلاح رأسه فقط ، لكز زمام الجواد وخرج من الفناء . خرجت الى الشارع ، ونظرت في اثره . كان الطريق موحلا وعرأ ، ساق الطحان بحذر ، متريثا ، وقاد الجواد بمهارة وانحنى لمن قابلهم في طريقه .... في اليوم الرابع وافته المنية .

انه لما يثير الدهشة كيف يواجه الروس الموت عموما . كثيرون من الذين قضوا نحبهم يخطرون على بالي الان . اذكر لكم احد اصدقائي القدماء ، افينير سوروكواوموف ، الطالب الذي لم يكمل دراسته قط ، وهو امرؤ لطيف ، آية في النبل ! ارى وجهك العليل الشاحب مرة اخرى ، شعرك الخفيف الاشقر ، ابتسامتك الوديعة ، نظرتك الفرحة ، اطرافك الطويلة ، اسمع صوتك الواهن الرقيق . عشت في بيت الملاك الروسي الكبير غوركروبيانيكوف ، علمت طفليه فوفا وزيوزا اللغة الروسية ، الجغرافيا والتاريخ ، تحملت بصبر فكاهات غور السمجة ، ملاطفات كبير الخدم الفظة معك ، تحملت العبث التافة للاولاد الخبثاء بشيء من الابتسامة المرة ، لكن بلا شكوى ، نفذت المطالب النزوانية لزوجته الضجرة ، وبالرغم من ذلك ، كنت في اثناء راحتك تتمتع بجمال المساء بعد العشاء ، حينما تنتهي ، اخيرا ، من جميع واجباتك ومشاغلك ، كنت تجلس عند النافذة ، تدخن الغليون متأملا ، تتصفح بظمأ مجلة سميكة مبتورة ، تناولتها ايد عديدة ، جلبها من المدينة مساح يعيش ، مثلك ايضا ، بلا مأوى ! كم اعجبتك حينئذ القصائد كلها ، القصص كلها ، كم ترقرقت الدموع في مقلتيك ، بأي رضا ضحكت ، يا له من حب مخلص للناس ، ياله من تعاطف نبيل مع كل ما هو خير

ورائع يفعم روحك الطفولية الصافية ! لا مندوحة من قول الحقيقة : لم تتسم بروح فـكاهة بالغـة ، لم تهبك الطبيعـة ذاكرة جيدة او روحـا مثابرة ، كنت في الجامعة تعد واحدا من اسوء الطـلاب ، كنت تغفـو في المحاضرات وتلوذ بصمت رصين في الامتحانات ، لكن مـن كانت عيناه تشعان بالفرح ويحبس انفاسه لمحالفة رفيقه النجـاح او التوفيق ؟ انه افينير ... من آمن ايمانا اعمى بالرسالة السامية لاصدقائه ، من اخذه الفخر في اطرائهم والدفاع عنهم بشـدة ؟ مـن لا يعـرف الحقـد ولا الطموح ، من ضحى نفسه بذكران ذات ، مـن خضـع عن طيب خـاطر للناس ، الذين لا يستحقون ان يفكوا ربطة حـذائه ؟ ... انك انت ، انك انت ، يا افينير الطيب ، اتذكر : ودعت اترابك بقلب محـطم ، حينمـا سـافرت الى ((عملك المؤقـت)) ، ان تنبؤات شريرة عذبتك

وبالضبط : كان حالك رديئا في القرية ، ليس ثمـة مـن احـد في الريف تصغي اليه باجلال ، لا احد يثير اعجابك ، لا احد تهـواه .... مـلاكو الاقـاليم والملاكون المثقفـون عاملوك كمعلم : بعضـهم ـ بفـظاظة ، وآخرون ـ بعدم اكتراث . تصرفت من جـانبك كشـخصية ضـعيفة : خجلت ، تضرج وجهك ، نضحت عرقا ، تلعثمـت .... لم تتحسـن حتى صحتك من هواء الريف : كنت تذوب كالشمعة ايها المسكين ، حقا : ان غرفتك اطلت على البستان ، حيث تذرو اشجار بطمة الشمال والتفـاح والزيزفون ازهـارهـا الخفيفة على منضدتك ، ومحبرتك وكتبك ، علقـت الساعة على الجدار في سنادة حريرية زرقاء اهدتها اليك وقـت الوداع المربية الطيبة ، الرقيقـة الاحسـاس ذات الشـعر الاشـقر والعينين الصغيرتين الزرقاوين ، كان يأتيك احياناً صديق قديم مـن مـوسكو ، يثير السرور في نفسك بقصائد غيره او قصائده ، بيد انك تعـاني مـن الوحدة ، من عبودية لقب المعلم التي لا تطاق ، من اسـتحالة التحـرر ، من فصول الخريف والشتاء اللامتنهاية ، مـن المرض المقيم .... ايهـا البائس ، البائس افينير !

زرت سوروكواوموف قبيل مدة وجيزة من وفـاته . لم يسـتطع المشي تقريبا . لم يطرده الملاك غور كروبيانيكوف مـن بيته ، لكنه توقـف عن اعطائه الراتب واستأجر معلما آخر لزويزا .... اما فوفا فدخل المدرسة العسكرية . جلس افينير قـرب النافـذة في كرسي عتيق مـن النمـط الفوليتري . كان الجو رائعا . تراءت السماء الخريفية المضيئة زرقـاء جذلة فوق صفوف اشجار الزيزفون العـارية البنية اللون وهسـهست الاوراق الاخيرة ، الساطعة الخضرة ، وتحركت عليهـا هنا وهنالك ... رشحت الارض المحـاطة بالجليد وذابت تحـت الشـمس التي ضربت اشعتها الوردية المائلة سطح الاعشاب الذابلة ، حدثت صلصلة خفيفـة في الهواء ، رنت اصوات العمال في البستان واضحة مفهومة .

ارتدى افينير مبذلا قديما من بخارى ، ومنديل عنق اخضر ، القى ظلا من الموت على وجهه الهزيل هزالا مخيفاً . سر بي غاية السرور ، مد لي يده ، انشأ يتحدث وانتابه السعال . فسحت له المجال ليرتاح وجلسـت قربه .... استلقى دفتر صغير لاشعار كولتسـوف على ركبتي افينير ، تمت كتابته بعناية ، نقر عليه بيده مبتسما .

تمتم وهو يحبس بمشقة نوبة السعال ـ ((هذا شاعر)) وشرع ينشـد بصوت لا يكاد يسمع الا قليلا :

ماذا لو قيد
جناحا النسر؟
ماذا لو حُرمّت عليه
كل الطرق؟

اوقفته قائلا : الطبيب منعك من الحـديث . عرفـت كيف اداريه . ان سورو كواوموف لم ((يتتبع)) قط ، كما يقال ، تطور العلم ، لكن يغشاه حب الاستطلاع للمعرفة ، اعني ، اين وصل حاليا نتاج العقول العظيمة ؟ كان يصـادف ان يمسـك زميلا اينمـا كان في الركن وينهـال عليه بالاسئلة : يصغي ، يتعجب ، يؤمن بكل كلمة ثم يشرع بعد ئذ باعادة كل

شيء مع نفسه .

جذبته الفلسفة الالمانية خصوصا . طفقت احدثه عن هيغل ((وكما تقدرون)) ، فان هذه القضايا تخص الايام التي انصرمت منذ امد بعيد)) . هز افيذير رأسه مؤيدا ، رفع حاجبيه ، ابتسم ، تمتم : ((افهم ، افهم ... اها ! جيد ، جيد ، جيد ! ...)) اقول الحق ، ان حب الاستطلاع الطفولي لدى ذلك المسكين ، منتظر الموت ، المهمل ، ومن لا مأوى له ، قد اثارني الى حد الدموع . لا مندوحة من الاشارة ، ان افينير ، خلافا لكل المرضى بالسل ، لم يخادع نفسه قط بشأن علته .... ولم الخداع ؟)) لم يكن ليتأوه من ذلك او تتحطم نفسيته ، بل انه لم يلمح ولو مرة الى وضعه ....

استجمع قواه ، شرع يتحدث عن موسكو ، عن الرفاق ، بوشكين ، المسرح ، الادب الروسي ، تذكر ولائمنا الصغيرة ، نقاشات حلقتنا الحارة ، ولفظ بأسف اسمين او ثلاثة من الصحابة الذين قضوا نحبهم .

اضاف اخيرا ـ اتذكر داشا ، كانت روحا من الذهب الخالص ويا له من قلب وكيف احبتني .... ماذا حدث لها الان ؟ لعل المسكينة جفت وهزلت ؟

لم اجرؤ على اثارة خيبة المريض ـ في الحقيقة ، لا ضرورة لاخباره بأن داشا حاليا مفرطة السمنة وعرضها بقدر طولها ، تعاشر التجار ـ الاخوة كوندا تشكوف ، وتضع المساحيق البيضاء والحمراء ، تتكلم بصوت قصير حاد وتشتم .

ومع ذلك فكرت ، عندما نظرت الى وجهه المضنى ، الا يمكن انتشاله من هنا ؟ عسى ان توجد امكانية لمعالجته .... لكن افيذير لم يسمح لي بانهاء اقتراحي .

تمتم ـ كلا ، ايها الاخ ، شكرا لك ، لا يضير اين اموت ، انني كما ترى لن احيا الى الشتاء ... فعلام اقلق الناس عبثا ؟ لقد الفت البيت

الحالي . حقا ، اولئك السادة هنا ....

اضفت قائلا ــ تعني انهم سيئون ؟

ــ كلا ، ليسوا سيئين وانما هم اشبه بقطع خشبية . لكن ، لا يمكن ان اتشكى منهم ــ لدينا جيران : عند الملاك كاساتكين ابنة مثقفة ، كريمة ، فتاة طيبة للغاية وليست متعالية ....

سعل سوروكواوموف مرة اخرى .

واصل كلامه بعد ان ارتاح ــ كل شيء حسن ، لو سمحوا لي فقط ان ادخن غليونا ... اضاف مداعبا وغمزلي بعينه ــ لكنني لن اموت هكذا ، سأدخن غليونا بكامله ! الحمد لله ، عشت ما فيه الكفاية ، وعاشرت اناسا طيبين .

قاطعته قائلا ــ كان ينبغي عليك ان تكتب لاقربائك على الاقل ؟

ولم اكتب لاقربائي ؟ ان يكن لمساعدتي ، فليس بوسعهم ان يساعدوني ، واذا توفيت ، فسيصل ذلك الى علمهم . لماذا نتكلم في هذا .... اوليس من الافضل ان تحدثني عما رأيته في الخارج ؟ طفقت احكي له . كان يرتشف كل كلمة . رحلت مساء ، بعد زهاء عشرة ايام تسلمت الرسالة التالية من السيد كروبيانيكوف :ــ

((لي الشرف ان اخبرك ، ايها السيد العزيز ، ان صديقك الطالب السيد افينير سوروكواوموف الذي عاش في بيتي ، قد وافته المنية قبيل اربعة ايام في الساعة الثانية ظهرا ، واليوم اقمت له مأتم الدفن في كنيستي وعلى حسابي الخاص . طلب مني ان ارسل لك الكتب والدفاتر الملحقة بالرسالة . تبين ان لديه اثنين وعشرين روبلا ونصف روبل سيتم تسليمها مع اشيائه الاخرى الى اقاربه . ظل حتى وفاته بكامل وعيه ، ويمكننا القول ، بنفس الدرجة من عدم الاكتراث ، فلم يظهر ادنى امارات الاسف ، حتى عندما ودعناه بكامل عائلتنا . تبعث لك زوجتي كيلوبترا اليكساندروفنا بتحياتها . لم يكن لموت صديقك الا ان

يؤثر في اعصابها ، اما من ناحيتي ، فانا والحمد لله بصحة جيدة ولي الشرف ان ابقى .

خادمك المستكين
غ . كروبيانيكوف

ثمة امثلة اخرى عديدة تخطر في بالي ، ولكن لا مجال لسردها جميعا . واقتصر على حادثة واحدة .

ان ملاكة عجوز عانت سكرات الموت في حضوري . شرع القس يتلو عليها الصلوات وفجأة لاحظ ان المريضة تفيض روحها ، ناولها الصليب متعجلا . تحاشته الملاكة مبدية عدم الرضا . ((قالت بلسان متصلب ـ لم هذه العجلة ايها السيد ، ستعمل ذلك في الوقت اللازم ...))

استلقت ،حاولت ان تدس يدها تحت الوسادة ، واذا بها تلفظ نفسها الاخيرة . كان هناك روبل تحت الوسادة ، ارادت ان تدفعه للقس مقابل تلاوته الصلاة الخاصة بها ...

اجل ، الروس مدهشون عندما توافيهم المنية !

★ ★ ★

المغنـــــون

كانت قرية كولوتوفكا الصغيرة تعود الى الملاكة ستريغانيخا(١) التي لقبت محليا بهذا اللقب لخلقها الجريء النشط ((بينمـا ظـل اسـمها الحقيقي مجهولا)) ، اما حاليا ، فيمتلكها الماني من بطرسبورغ ، تقـع القرية على منحدر تل اجرد يقطعه من الاعلى الى الاسفل واد رهيب ، ينشق كالهاوية ، يتعرج مجراه المحفـور المتآكل حتى وسـط الشـارع الرئيس ، ويقسم جانبي القرية الصغيرة البائسة بشكل اسوأ مما يفعله النهر ، حيث يمكن على الاقل اقـامة جسر على النهـر . تتدلى ، بعض اشجار الصـفصاف الهـزيلة وجلة على اطـرافه الرملية ، ترقـد كتل ضخمة من احجار الصلصال في قاعه الجـاف ، الاصـفر كالبرونز ، لا يمكننا ان ننكر ان منظره لا يبعث على السرور ، ومع ذلك فان السكان المحليين مألوف لديهم جيدا الطريق الى كولوتوفـكا : يسـافرون غالبا الى هنالك عن طيب خاطر .

ينتصب كوخ صغير مربع الشكل ، منفصل عن بقية الاكواخ ، وحيداً على رأس الوادي وعلى مسافة خطوات من النقطة التي يتحـول فيهـا

الى شق ضيق . سطحه مغطى بالقش ، له مدخنة ، تطل نافذة واحدة على الوادي كأنها عين يقظة ، يضاء من الداخل في الاماسي الشتوية ، تمكن حينئذ رؤيته من بعيد خلال ضباب الجليد الباهت وهو يومض كالنجمة الهادية لبعض المارة من الفلاحين . ثبتت على باب الكوخ لوحة زرقاء صغيرة كتب عليها . هذا الكوخ ، حانة تسمى (بريتيني)(*) . لا يباع النبيذ في هذه الحانة بسعر ارخص من الاعتيادي ، لكن الناس يترددون عليها بمواظبة اكثر من بقية الاماكن المحلية من هذا النمط . ومرجع ذلك هو صاحب الحانة نيكولاي ايفانيتش .

كان نيكولاي ايفانيتش في يوم من الايام شابا ممشوقا اجعد الشعر متوردا ، اما الان فهو رجل مفرط البدانة ، اشيب ذو وجه ممتلىء ، عيناه صغيرتان لطيفتان ، جبينه مكتنز شحما ، تتخلله غضون اشبه بالخيوط ، وما زال يحيا في كولوتوفكا منذ اكثر من عشرين عاما . نيكولاي ايفانيتش امرؤ مشغول ، سريع الادراك مثل معظم اصحاب الحانات . لا يتسم بلطف متميز او طلاقة لسان ، لكنه ذو باع طويل في اجتذاب الضيوف والابقاء على اولئك الذين يسرهم الجلوس عند خابية الشراب المخمر وامام النظرة الهادئة البشوش اليقظة ايضا ، لصاحبها البارد المزاج . وهو ذو أفكار سديدة جمة ، كان على معرفة جيدة بحياة الملاكين والفلاحين وقاطني المدن ، بمستطاعه ان يسدي نصيحة بعيدة عن الغباوة في الحالات الصعبة ، لكنه يفضل كأي انسان حذر واناني ، ان يظل على الهامش ويلوح من بعيد فقط ببعض الايماءات ، كأنما دون اي قصد ، التي تفضي بزائريه ــ وزائريه الاثيرين عنده فقط ــ الى طريق الحقيقة . لديه المام بكل شيء مهم وشيق للفرد الروسي : في الخيول ، الماشية ، صناعة القرميد ، الاواني ، صناعة النسيج ، الجلود

★ بريتيني ــ يسمى به اي مكان يجتمع فيه الناس بمشيئتهم ، واي نوع من المأوى (ملاحظة الكاتب)

وفي الاغاني والرقص . يجلس عادة كالكيس على الارض امـــام باب كوخه عندما لا يوجد لديه زائرون ، يثني رجليه النحيفتين تحته ويلقي بكلمـــات مــلاطفة الى كل المارة . رأى الكثير في زمـــانه ، وعاشر عدة عشرات من صغار النبلاء الذين قصدوه من أجل ((الفــودكا)) ، وقــد وافت المنية بعضهم ، وهو يعرف كل ما يجري على بعد مـــائة فيرســـت حوله ، لكنه لا يثرثر ابدا ، لا يلمح بادنى اشارة الى انه يعــرف مـــا لا يرتاب فيه حتى الشرطي الحاذق للغاية .... يصون ما يعــرفه في دخيلة نفسه ، يسخر احيانا ويحرك اقداحه الصغيرة . اما جيرانه فيكنون له الاحترام : فالجنرال شـــيريبيتينكو ، وهـــو مـــلاك له المنزلة الاولى في المنطقة ينحني له كل مرة بلطف حينمـــا يمـــر راكبا قـــرب كوخــــه . ان نيكولاي ايفايتش امرؤ ذو نفوذ : فهو يحمل سارق خيل معـــروف على اعادة الجواد الذي اقتاده من فناء احد معارفه ، ويقنع فلاحي القـــرية المجـــاورة الذين لا يريدون قبول المدير الجـــديد .... الخ . ومـــع ذلك لا يجوز الاعتقاد ، بأنه يفعل كل ذلك من جراء حبه للعدالة او الحمـــاسة للاقربين ، كلا ! فهو يسعى فقط لتلافي كل ما يمكن ان يعكر عليه بشكل او بآخر صفو هدوئه . نيكولاي ايفانيتش متزوج ، عنده اطفال . زوجه نشطة ، انفها حاد الشم ، عيناهـا فطنتـان ، وهـي من الطبقة الوسطى في المدينة ، لقد ثقل جسمها قليلا في الاونة الاخيرة شأنها شأن زوجهـــا . انه يعتمد عليها في كل شيء حتى انها تحتفظ ايضا بالمفتاح الذي تقفـــل به على النقود . يخشاها السكارى ــ الصـــاخبون ، وهـــي لا تحبهـــم . الفائدة منهم قليلة والضجة كثيرة ، اما الصامتون المتهجمـــون ، فهـــم اقرب الى قلبها . ما برح ابناء نيكولاي ايفانيتش صـــغارا ، لقـــد توفي اوائل اطفاله ، اما المتبقون فيشبهون والديهم : انه لما يسر المرء النظر الى الوجوه الصغيرة الذكية لاولئك الاطفال المتمتعين بصحة وافرة .

كان يوما قائظا لا يطاق من ايام تموز حينما جرجرت قـــدماي ببطء مع كلبي ، وصــــعدت على امتداد وادي كولوتوفـــكا في اتجـــاه حـــــانة

بريتيني . اتقدت الشمس في السماء كالهائجة .... فاصطلى الجو حارا رطبا باستمرار ، وتشبع الهـواء كله بغبار خـانق . فتحـت الزيغـان والغربان المغطاة بريش براق مناقيرها ونظرت شاكية الى العـابرين ، كما لو كانت تطلب تعاطفهم معهـا ، العصـافير وحـدها لم يصـبها الشجا ، نشرت ريشها ، غردت بشكل اشـد مـن قبل ، تشـاجرت وراء السياج ، طارت معا من الطريق المغبر ، حلقت كغمام رمادي فوق حقول القنب الخضر . لقد برحني الظمأ . لاماء قريب حولي : يشرب الفلاحون في كولوتوفكا ، كما هو الحال في العديد من القرى السـهلية الاخـرى ، سائلا موحلا مـن البركة لحـاجتهم الى الينابيع والابار .... لكن مـن يسـتطيع ان يسـمي ذلك السـائل الكريه بالماء ؟ اردت ان اطلب مـن نيكولاي ايفانيتش قدحا من الجعة او الكفاس .

لابد من القول ، ان كولوتوفـكا لا تمثل ، في اي وقـت مـن السـنة ، مشهدا يسر الناظر ، لكنها تثير شعورا شجيا خاصا ، حينمـا تسـكب شمس تموز السـاطعة اشـعتها التي لا ترحـم على سـطوح البيوت المسقوف نصفها بالقش والتي لونها بلون الصـدأ وعلى هـذا الوادي العميق ، المرتع اللاهب الذي يعلوه الغبار ، وتتجول فوقه ، بلا رجـاء ، دجاجات عجاف طويلة السيقان ، وعلى الاطار الرمـادي الهيكلي لبيت مصنوع من الحور الرجراج ، المنطوي على ثقوب بدل النوافذ ، وهـو بقايا بيت سابق للملاك ، نما حوله حالياً القراص والحشائش الطفيلية و نبات الشيح ، ثمة بركة يعلوها ريش الاوز ، سوداء كأنها متوقـدة ، محاطة بحاشية من الوحل شبه الجاف ، وقنطـرة هـوت الى جـانب ، تحتشد الشياه الكئيبة الى بعضها على الارض المداسة قليلا ، الرمادية الشكل وتتنفس بمشقة ، تعطس من شـدة الحـرارة ، تنكس رؤوسـها بصبر مضن الى الاسفل قدر المستطاع ، كأنهـا تنتظـر الوقـت الذي ينتهي فيه اخيرا الحر الذي لا يطاق

دنوت من مسكن نيكولاي ايفانيتش بخطى متعبة ، من الطبيعـي ان

اثير في الاولاد الدهشة التي وصلت لدرجة التحديق المتوتر الذي لا معنى له ، عبّر الكلاب عن غيظهم بنباح اجش شرير حتى بدا ان كل ما في جوفهم قد انسلخ ، ظلوا بعدئذ يعطسون ، يلهثون ــ وظهر فجأة عند عتبة باب الحانة رجل فارع القامة ، بلا قبعة ، مرتديا معطفا من نسيج صوفي ، شد عليه حزام ازرق بشكل منخفض دلت هيئة على انه خادم . ارتفعت ذؤابات من شعره الكثيف الاشيب بلا ترتيب فوق وجهه الجاف المغضن . نادى امرءاً ، محركا بسرعة ذراعيه اللذين لوحا ، على ما يبدو ، اكثر بكثير مما كان يرغب هو نفسه . لاريب انه تناول شيئا من الخمرة .

دمدم وهو يبذل جهدا في رفع حاجبيه السميكين ــ تعال ، تعال الان ! تعال مورغانتش[٢] ، تعال ، أولا تأت ! حقا ، انك تزحف فقط ، ايها الاخ . ليس بالشيء الحسن ، ايها الاخ . هنالك ينتظرونك ، اما انت فتزحف .... امش .

دوى صوت مرتج ــ حسنا ، سأمشي ، سأمشي ، ثم ظهر من وراء الكوخ شخص قصير ، بدين اعرج . يرتدي سترة من الجوخ انيقة لحد ما ، وضع ذراعه في كم واحدة ، مالت قبعته العالية ، المحددة الطرف نحو حاجبيه واضفت على وجهه المستدير المنتفخ تعبيرا ماكرا مضحكا . كانت عيناه الصغيرتان الصفراوان تتحركان بسرعة ، لم تفارق شفتيه الرقيقتين ابتسامة متحفظة متوترة ، اما انفه فمستدق وطويل ، ينتأ امامه كالدفة ، تابع كلامه وهو يعرج في اتجاه مبنى الخمارة .

ــ انني قادم يا عزيزي ، لماذا تنادي علي ؟ .... من ينتظرني ؟

قال الرجل المرتدي معطفا من النسيج الصوفي معنفا اياه ــ لماذا اناديك ؟ عجباً لك ايها الاخ مورغانتش : انهم يدعونك الى الحانة وانت تتساءل ايضا ، لماذا ؟ جميع الناس الطيبين في انتظارك : ياشكا التركي ، السيد ديكي ، المتعهد من جيزدرا . لقد تراهن ياشكا والمتعهد

جعلوا الرهان اكثر من ثلاثة لترات من الجعة لمن ينعقد له الظفر ، اعني لمن يغني افضل .... أتفهم ؟

سأل الشخص المدعي مورغاتش بحماسة ـ احقا سيغني يا شكا ؟ الا تكذب علي ، يا اوبالدوي ؟

اجاب او بالدوي بوقار ـ لا اكذب ، ولا داعي للهذر . بالتأكيد سيغني ، مادام هنالك رهان ، يا لك من دعسوقة ، يا لك من نصاب ، يا لك من مورغاتش ((الرامش)) .

عارضه مور غاتش ـ اذن ، لنذهب ، ايها الساذج .

تمتم اوبالدوي ناشرأ ذراعيه ـ حسنا ، قبلني على الاقل ، يا عزيزي . اجاب مورغاتش بازدراء ولكزه بمرفقه ـ اوترى ، يا لك من مغفل ، انحنيا كلاهما ودخلا من الباب الواطيء .

أظن ، ان قليلا من قرائي ، قد واتتهم الفرصة لرؤية الحانات الريفية ، لكن لا يصادف مكان الا ونعرج عليه نحن الصيادين . ان ترتيبها بسيط للغاية . تتكون عادة من مداخل معتمة ، وردهة بيضاء ، مفصولة الى قسمين بحاجز لا يحق لاحد من الرواد ان يجتازه ، توجد عند هذا الحاجز وفوق منضدة عريضة من خشب البلوط ، فتحة كبيرة طويلة . يباع النبيذ على هذه الطاولة او المنضدة . تصطف صفوف من القناني عليها رقع ذات احجام مختلفة ، فوق الرفوف مقابل الفتحة مباشرة توجد في الجزء الامامي من الردهة المخصص للرواد ، مقاعد وكذلك اثنان او ثلاثة براميل تستعمل كمقاعد ، ومنضدة زاوية . ان القسم الاعظم من الحانات الريفية تكون معتمة لحد ما ، لا تكاد ترى مطلقا على جدرانها المشيدة من جذوع الاشجار اية صور شعبية ملونة زاهية ، التي قلما يخلو منها كوخ من اكواخ الفلاحين .

حينما دخلت حانة بريتيني ، كان قد توافد عليها جمع كبير من الناس لحد ما .

وقف نيكولاي ايفانيتش كالعادة وراء المنضدة على امتداد الفتحة

تقريبا ، مرتديا قميصا من الشيت الملون وعلى وجنتيه المنتفختين تكشيرة كسول ، ادار بيده السمينة البيضاء قدحين من النبيذ لصاحبيه مورغاتش واو بالدوي ، اللذين دخلا توا ، لاحت زوجته الثاقبة البصر وراءهما في الركن قرب النافذة .. وقف في وسط الغرفة ياشكا التركي ، وهو امرؤ نحيف اهيف يبلغ الثالثة والعشرين من العمر ، عليه قفطان من القطن ، طويل الاطراف ، ازرق اللون . بدا كفتى معمل مقدام ، من الجلي انه لا يستطيع التباهي بصحة ممتازة . تدل تعابير وجهه ، من وجنتيه الغائرتين ، عينيه الرماديتين الواسعتين ، انفه المستقيم منخريه الدقيقين المتحركين ، جبينه الابيض المائل وشعره الاجعد الاشقر المرسل الى الخلف ، وشفتيه الضخمتين ، الجميلتين المعبرتين في الوقت ذاته ، على انه شخص حساس عاطفي . كان في حالة انفعال شديدة . رمشت عيناه ، تنفس نفسا متقطعا ، ارتعشت يداه كأن الحمى قد اعترته ـ اجل كان حقا مصابا بالحمى ، تلك الحمى المقلقة المفاجئة ، المألوفة جدا لدى الناس الذين يتكلمون او يغنون امام الجمهور المحتشد . وقف الى جانبه رجل يناهز عمره اربعين سنة ، عريض المنكبين ، عريض عظمي الوجنتين ، ذو جبهة واطئة ، وعينان تتريتان ضيقتان ، له انف قصير مسطح ، ذقن مربع الشكل ، شعر اسود لامع صلب كشعر الخنزير ، من الممكن تسمية تعبير وجهه الاسمر الشبيه بلون الرصاص ، ولا سيما شفتاه الشاحبتان) بالتعبير الوحشي تقريبا ، لو لم يكن مستغرقا في التفكير بهدوء بالغ . لم يكد يتحرك ، كان يجيل النظر فيما حوله ببطء فحسب ، كثور يتطلع من تحت قيوده : ارتدى سترة بالية ذات ازرار برونزية ملساء ، ومنديل حريري اسود عتيق يلف رقبته الكبيرة . نادوه السيد ديكي ((المتوحش)) . جلس المتعهد من جيزدر والمنافس لياشكا مقابله مباشرة ، على مقعد تحت الايقونات : كان رجلا ربعا مكتنزا يبلغ عمره حوالي الثلاثين عاما ، مجدور الوجه ، اجعد الشعر ، انفه اقنى مجذوب

الى الاعلى ، عيناه عسليتـان حيويتان ، لحيته خفيفة . نظر فيما حوله بنشاط ، وضع يديه تحته ، ثرثر بلا اكتراث ، طبطب برجليه ، انتعـل حذاء من الحرير له حاشية . ارتدى سترة جديدة خفيفـة مـن قمـاش رمادي اللون وياقة بليسه ، يظهر منها ــ بشكل متنافر معها ــ طـرف القميص الاحمر المزرر باحكام حول عنقه . جلس وراء المنضدة فلاح في سترة ضيقة رثة ذات ثقب كبير على الكتف في الركن المقابل وعلى يمين الباب . انساب شعاع الشمس كتيار اصفر خفيف عبر الزجـاج المغبر لنافـذتين غير كبيرتين ، ويظهـر انه لم يسـتطع التغلب على العتمـة المألوفة في الغرفة ، غشى ضوء خافت كأنه الغبش جميع الاشياء . ومـع ذلك كان هواؤها باردا تقـريبا ، حـالما خـطوت عتبة الباب انداح عن كتفي كالعبء ذلك الاحساس بالاختناق والحر الشديد .

استطعت ان الاحظ ، ان مجيئي قد اربك قليلا ، باديء الامر ضيوف نيكولاي ايفانيتش لكنهم مـا ان رأوه ينحني لي ، كشـخص معـروف لديه ، حتى عاودهم الهدوء ، ولم يعيروا لي ادنى اهتمام بعدئذ ، طلبت الجعة ، جلست في الركن قرب الفلاح الذي كان يلبس سترة بالية .

جأر فجأة او بالدوي بعد ان شرب قدح النبيذ في جرعة واحدة ــ هيا ، ماذا تفعلون ! صاحب هتافه تلك التلويحات الغريبة من يديه ، والتي لا ينطق كلمة واحدة ، بدونها على ما يظهر ، ماذا تنتظرون ، ابدأوا الان ، مادمتم ستبدأون . ها ؟ ياشا ؟

تابع نيكولاي ايفانيتش مشجعا ــ ابدأوا ، ابدأوا .

قال المتعهد ببرود وابتسامة تنم عن اعتداد بالنفس ــ سنبدأ على مـا اظن ، انا مستعد .

نطق ياكوف بانفعال ــ وانا مستعد كذلك .

صاصأ مورغاتش ــ اذن ، ابدأوا ، ابدأوا ايها الفتيان .

لكن ، على الرغم من الرغبة الظاهرة المجمع عليها ، لم يبدأ احد ، لم ينهض المتعهد حتى من مقعده ، وكأن الجميع ينتظرون شيئا ما .

قال السيد ديكي بتجهم وشدة ـ ابدأوا !

انتفض ياكوف . نهض المتعهد ، سحب حزامه وتنحنح .

سأل بصوت متغير قليلا ، من السيد ديكي ـ الذي واصل الوقوف بلا حراك وسط الغرفة ، باعد واسعا ما بين رجليه البدينتين ، دس ذراعيه المفتولين في جيبي سرواله حتى المرفق تقريبا ـ من يبدأ ؟

جمجم اوبالدوي ـ انت ، انت ايها المتعهد ، انت ايها الاخ ، حدجه السيد ديكي مقطبا . صأصأ او بالدوي بوهن ، ارتبك ، نظر تجاه السقف هز كتفيه ولزم الصمت .

قال السيد بوقفات بين كلماته ـ لنلق القرعة ، ضعوا اناء الجعة على المنضدة . انحنى نيكولاي ايفانيتش ، رفع اناء الجعة ، تأوه ووضعه على المنضدة رنا السيد ديكي الى ياكوف وقال ((حسنا !)) .

بحث ياكوف منهمكا في جيوبه ، اخرج فلسا ، رسم عليه علامة بين اسنانه . اخرج المتعهد من طرف قفطانه كيس نقود جديد من الجلد ، فك ربطته على مهل ، القى كمية من العملة الصغيرة في راحة يده ، وانتقى فلسا جديدا . وضع اوبالدوي سدارته البالية ذات الحافة الرثة المتساقطة ، فرمى ياكوف فيها فلساً وكذلك فعل المتعهد . وجه السيد ديكي كلامه الى مورغاتش ـ اختر انت .

كشر مورغاتش تكشيرة رضا عن النفس ، تناول السدارة بكلتا يديه وشرع يرجّها . خيم سكون عميق للحظة : صلصل الفلسان صلصلة واهية : اصطدم احدهما بالآخر . تطلعت حولي بانتباه : لاح انتظار متوتر على كل الوجوه ، زر عينيه حتى السيد ديكي ، اشرأب حتى جاري الفلاح ذو السترة الرثة بعنقه مستطلعا . دس مورغاتش يده في القبعة واخرج فلس المتعهد : تنفس الجميع الصعداء . احمر ياكوف ، ومر المتعهد بيده على شعره .

هتف اوبالدوي ـ الم اقل لك ذلك ، حقا لقد قلت .

علق السيد ديكي بازدراء ـ حسنا ، حسنا ، كفى ((صأصأة)) .

واصل كلامه وهو يومىء برأسه الى المتعهد ـ ابدأ .

سأل المتعهد وقد لاح عليه الانفعال ـ اية اغنية اغنيها لكم ؟

اجاب مورغاتش ـ كما تشاء غن ما يخطر ببالك .

اضاف نيكولاي ايفانيتش قائلا ، وقد عقد يديه على صدره ببطء ـ طبعا ، غن ما تشاء ، لا امر لاحد عليك . غن ما يحلو لك ، غن جيدا فحسب ، ومن ثمة نقرر ما يمليه ضميرنا علينا . استطرد او بالدوي ولعق حافة القدح الفارغ ـ بالتأكيد ، ما يمليه ضميرنا علينا .

قال المتعهد ، وهو يمر باصابعه على امتداد ياقته ـ دعوني ، ايها الاخوة اصفي حنجرتي قليلا .

قال السيد ديكي بشكل حاسم ثم غض طرفه ـ هيا ، هيا ، لا تتلكأ ، ابدأ !

فكر المتعهد قليلا ، نفض رأسه وتقدم خطوة الى الامام . تعلقت عينا يا كوف به ...

لكن قبيل الشروع في وصف المسابقة ، لا ارى من نافلة القول ان احدثكم ببضع كلمات عن كل واحد من شخصيات قصتي . كنت اعرف بعضهم حينما التقيتهم ، في حانة بريتيني ، اما الاخرون فجمعت المعلومات عنهم فيما بعد .

لنبدأ بأوبالدوي . الاسم الحقيقي لهذا الشخص يغفراف ايفانوف ، لكن لا احد يناديه في كل المنطقة الا بأولدوي ، وهو نفسه يفتخر بذلك اللقب : لانه يناسبه تماما .

مما لا ريب فيه ، ما من وصف اكثر ملائمة منه للامحه الضئيلة المضطربة دائما . كان وصيفا اعزب عاجزا ، لقد نفض سادته انفسهم ايديهم منه منذ امد بعيد ، ومع انه لا يمتهن اي مهنة ولا يقبض فلسا واحدا كراتب ، لكنه لم يعدم وسيلة للتسلية كل يوم على حساب الآخرين . ان لديه جمعا من المعارف الذين يقدمون له النبيذ و الشاي ليشربه ، وهم انفسهم لا يعرفون ما يحملهم على الاتيان بذلك ، لم تعدم

معاشرته اسباب التسلية فحسب ، وانما كانت على النقيض تماما ، فقد ازعج الجميع بثرثرته الفارغة ولجاجته غير المحتملة ، وحركاته البدنية المحمومة ، وضحكه المصطنع المتواصل . لم يكن بمستطاعه ان يغني او يرقص ، لم يفه طوال حياته بكلمة معقولة ، بله الكلمة الذكية : انه دائما ((يهذر)) ، يهذي بكل ما يخطر في باله ـ انه او بالدوي ((قملة)) حقيقي ومع ذلك فليس من مشرب خمر يقام على بعد اربعين فيرستاً عن المنطقة يخلو من هيئته الطويلة النحيلة التي تطوف هنالك بين الضيوف ، لقد الفه الجميع وتحملوا وجوده على انه شر لابد منه . كانوا يعاملونه في الحقيقة بازدراء ، ولم يستطع كبح جماح نزواته الخرقاء سوى السيد ديكي .

ليس ثمة من شبه بين مورغاتش واوبالدوى . ان لقب مورغاتش (الرامش) يلائمه ايضا ، رغم انه لا يرمش بعينيه اكثر من الناس الاخرين ، لكن الامر معروف : فالشعب الروسي ماهر في ابتكار الكنيه . ورغم مسعاي في أن اخرج بصورة متكاملة عن ماضي هذا الشخص فقد ظلت لدي في حياته ، ولربما لاخرين كثيرين ـ فجوات ، مظلمة ، واماكن كما يعبر المولعون بالكتب ، تلفها عتمة عميقة من الغموض . علمت فقط انه عمل حوذيا في حين من الاحيان عند سيدة عجوز ليس لديها اولاد ، هرب بثلاثة جياد ائتمنته عليها ، اختفى لسنة كاملة ولابد انه اكتشف في الحقيقة ضرر حياة المتشرد ووبالها فعاد من تلقاء نفسه ، بعد ان اصبح اعرج وارتمى على قدمي سيدته ، كفر عن ذنبه في غضون بضعة اعوام بسلوك نموذجي ، حظى بعطفها تدريجيا ، احرز اخيرا ثقتها الكاملة ، امسى احد وكلائها ، وبعد موت السيدة ، اصبح في عداد المعتوقين دون ان يعرف احد كيف تم له ذلك ، انضم الى الطبقة المتوسطة في المدن ، شرع يستأجر من جيرانه حدائق لزراعة الخضرة ، اغتنى وهو يحيا الان في نعيم . هذا المرء ، خبير ، فطن العقل ليس بالشرير ولا الخير ، لكنه مدبر ، انه رجل محنك يعرف خلق الناس ،

يمتلك المقدرة على الاستفادة منهم . يتميز بالحذر بيد انه في الوقت نفسه ذو مراس كالثعلب ، ثرثار كالمرأة العجوز ، لكنه لا يبوح بسر بينما يحمل كل امرىء على الافضاء له بمكنون سريرته ، ومع ذلك لا يتظاهر ، بأنه مغفل كما يفعل الدهاة الاخرون من ابناء هذه الملة ، حقا من الصعب عليه ان يتظاهر : فلم ار قط عيونا اكثر نفاذا وفطنة من ((ناظرتيه))* الصغيرتين الماكرتين . انهما لا ترنوان ابدأ ببساطة ـ تتطلعان اليك من قمة رأسك حتى اخمص قدميك وتتفحصانك . يستغرق مورغاتش احيانا اسابيع بأكملها بمشروع معين ، يبدو ظاهريا بسيطا ، وفجأة يتخذ قرارا للقيام بعمل جريء هائل ، يلوح انه يوشك على الاخفاق ... تتطلع واذا التوفيق حليفه وكل شيء يسير سيرا بديعاً . انه محظوظ ، ويؤمن بحس طالعه وفأله الجيد . وهو عموماً شديد الاعتقاد بالخرافات لكنه غير محبوب ، وهو نفسه لاشأن له بأي كان ، ومع ذلك يحترمه الناس . تتكون عائلته كلها من ابن واحد ، يحبه لدرجة العبادة ، ان من تربى على يد مثل ذلك الاب ، لا بد ان يقطع شوطا ابعد منه . يقول عنه كبار السن منذ الان بصوت خافت وهم يجلسون على المصاطب ، يتجادلون فيما بينهم ابان الاماسي ((ان مورغاتش الصغير يشبه اباه)) والكل يدركون ، ما يعني هذا القول ، ويغني عن اضافة اية كلمة اخرى اليه .

لا نحتاج الى الاطالة في الحديث عن كل من ياكوف التركي والمتعهد . يلقب ياكوف بالتركي ، لانه ينحدر حقا من اسيرة تركية ، ينطوي على روح فنان بكل مافي هذه الكلمة من دلالة وان كان عنوان عمله غرافا في معمل ورق لدى تاجر محلي ، اما بخصوص المتعهد ، فاقول الحق ، ان مصيره ظل مجهولا لدي ، ويبدو انه من ابناء المدن ، ذو حيلة واسعة ونشط . اما السيد ديكي فيجدر بي ان اتحدث عنه بشيء من التفصيل

(*) يسمي اهل اورلوف العين بالناظرة ، وكذلك الفم بالمئكال (ملاحظة الكاتب)

الانطباع الاول الذي تتركه فيك هيئة هذا المرء ، هو الشعور بشيء من القوة الفظة الثقيلة التي لا تقاوم . كان سمج البنية او ((مشوشها)) كما يقولون عندنا ، لكن تشع منه عافية قوية ، ان هيئته الشبيهة بشكل الدب لا تعدم ـ ويا لغرابة الامر ـ شيئا خصوصيا من الرشاقة ، لعلها تنبعث من ثقته التامة بقوته الذاتية . يصعب من الوهلة الاولى ان تعين الفئة الاجتماعية التي ينتمي اليها هرقل هذا ، فهو لا يشبه الوصيف او ابن المدينة او كاتبا فقيرا متقاعدا او نبيلا من صغار النبلاء المحليين الذين اصابهم الافلاس ثم تحول الى صياد او ملاكم : كان امرأ قائما بذاته تماما . لا احد يعرف من اين جاء الى منطقتنا ، تقول الشائعات انه انحدر من ارومة المالكين المعتوقين .... وشغل وظيفة حكومية في الماضي بيد انهم لا يعرفون ذلك بصورة اكيدة وممن يمكنهم ان يعلموا ، ليس منه هو نفسه ، فما من امريء اكثر منه عبوسا وركونا الى الصمت . لا يستطيع احد ان يجزم كيف يدبر عيشه ، فهو لا يمتهن أية صنعة ، لا يسافر الى أحد ولا يعاشر احد تقريبا ، توجد مع ذلك لديه نقودا ما هي بالكثيرة ، لكنه يمتلكها . لم يكن متواضع السلوك ، فليس ثمة من تواضع ينطوي عليه ، لكنه هاديء الطبع ، يحيا وكأنه لا يلاحظ احدا حوله ولا يستشعر حاجة لاحد قط . تمتع السيد ديكي (هكذا كان يلقب بينما اسمه الحقيقي بيريفليسوف) بنفوذ هائل في المنطقة ، الجميع يمتثلون لاوامره فورا وعن طيب خاطر ، ومع انه لا يمتلك حقا في اصدار الاوامر الى اي امريء لكنه لم يظهر هو نفسه ادنى رغبة في الاصغاء الى الناس الذين يلتقي بهم مصادفة . كان اذا تكلم يذعنون له ، فالقوة لها سطوتها دائما . وهو لا يشرب النبيذ تقريبا ، لا يعاشر النساء ومدله بحب الاغاني . انطوى هذا المرء على كثير من الغموض ، ولاح ان ثمة قوى هائلة قاتمة هجعت في داخله ، وكأنه يعرف انها اذا استيقظت ، ذات مرة واطلق لها العنان ، فلا محالة ان تحطمه وتحطم كل شيء يمت اليها بصلة ، وسأكون مخطئا

خطأ فاحشا ، اذا لم يكن قد حدث نظير لذلك الانفجار في حياة هذا الشخص وتعلم بتجربته الخاصة حالياً بعد ما انقذ بصعوبة من الهلاك ، امساك زمام نفسه ، بلا رحمة وبقبضة حديدية . لقد ادهشني فيه خصوصا ذلك المزيج المنطوي على شيء من الفظاظة الطبيعية الفطرية ونبل فطري مماثل ايضا ، لم اجد نظير ذلك المزيج في اي شخص آخر .

خطا المتعهد في تلك الاثناء الى الامام ، اغلق عينيه حتى منتصفهما ، غنى بصوت عالي الطبقة ((فالسيتو)) ومرتفع للغاية ، كان صوته لطيفا نوعا ما وجميلا ، رغم انه ابح بعض الشيء ، تلاعب بصوته ، ظل يلويه كالرولاد[٣] ، ينساب باستمرار عاليا واطئا ويعود دائما الى النوطات المرتفعة التي بذل جهدا خاصا للامساك بها واطالتها ، يركن الى الهدوء ، ثم يعود بعدئذ فجأة للامساك باللحن السابق بشيء من الجرأة المتهورة المتغطرسة . كانت انتقالاته مقدامه تارة ، مضحكة لحد ما تارة اخرى ، يمكنها ان تمنح السرور للخبير بالاغاني ، لكنها كانت ستبعث الاشمئزاز في نفس الالماني . كان هذا اللحن من نوع التينور الروسي tenore di grazia tenor leger التينور الغناني ـ بالايطالية والفرنسية . غنى اغنية مرحة راقصة ، وكانت كلماتها ، بقدر ما استطعت ان التقطها من خلال التزويقات اللامتناهية والتناسق المضفى عليها والهتافات ، كما يلي :

سأحرث ، يا صغيرتي الجميلة ......
قطعة ارض صغيرة ، ......
واغرس ، يا صغيرتي الجميلة .....
ازهارا ساطعة الحمرة لك . ....

غنى ، فاصغى اليه الجميع بانتباه كبير . شعر على ما يبدو ، انه يشدو امام اناس على معرفة بفن الغناء ، لذلك قدم ، كما يقولون ، اقصى ما في مستطاعه تقديمه . حقا ان الناس في اصقاعنا على دراية

بالغناء ، وليس عبثا ان تشتهر قرية سـيرغيفسكي في طـريق اورلوف الرئيس ، بالحـانها الجميلة المتناغمـة خصـوصا ، في جميع ارجـاء روسيا . غنى المتعهد طـويلا ، دون ان يثير تعـاطفا مفـرطا لدى مستمعيه ، كانت تعوزه مساندة الجوقة له ، واخيرا ، في انتقالة واحـدة موفقه بالذات ، حمل حتى السيد ديكي نفسه على الابتسام ولم يطق او بالدوي صبرا ، فأخذ يهتف من السرور الذي شعر به . دب النشـاط في الجميع . شرع اوبالدوي ومورغاتش يمسكان بلازمة الاغنية ويشدوان بها ، يصيحان احياناً : ((عظيم ... واصل ، ايها الماكر ... توغل ، مـده ايها الافعى ، مده اكثر ، اعطه وهجاً ، يالك مـن كلب ، ايهـا الكلب ... لينتزع هيرود[٤] روحك)) الخ ... هـز نيكولاي ايفـانيتش ، مـن وراء المنضدة ، رأسه مسـتحسنا الى اليمين واليسـار ، طفـق اوبالدوي ، اخيرا ، يطبطب على الارض برجليه ، خطا على اطراف قـدميه ، هـز كتفيه ، بينما اتقدت عينا ياكوف كالجمر ، ارتعش كل كيانه كالورقـة ، وابتسم كيفما اتفق ... لم يلح التغير على وجه السيد ديكي وحده ، بقي كالسابق دون ان يتحرك من مكانه ، لكن نظرته الموجهـة الى المتعهـد لانت قليلا ، رغم ان تعبير شفتيه ظل ينم عن الازدراء . شجعت امارات الرضا العامة المتعهد ، انطلق مع عواطفه لا يريم ، شرع يغني بصـوت مرتعش ، يشقشق ويصلصل بلسانه ، يخرج صوتا مهتاجا من حنجرته لدرجة انهم حيوه بصرخة عامة متلاحمة من الاسـتحسان وبعـاصفة عارمة . في النهاية عندما اطلق صيحته الهامدة الاخيرة وهو مضـنى ، يتصبب منه عرق حار وقد ارسـل جسـمه برمته الى الخلف ، ارتمـى اوبالدوي علي عنقه لدرجة كاد يخنقه بذراعيه الطويلين المعظمين ، لاح الاحمرار على وجه نيكولاي ايفانيتش البدين ، بدا وكأنه اكثر شبابا ، صاح ياكوف كالمجنون : ((يا لك من مقـدام ، مقـدام)) حتى جـاري الفلاح ذو السـترة البالية لم يصـطبر ، خبط قبضـته على المنضـدة وهتف (اها ، جيد ليأخذك الشيطان ، جيد) وبصق الى جانب بقوة .

صاح اوبالدوي دون ان يطلق المتعهد المنهك من عناقه ـ حسناً اخـــي . انها لسلوى ! يالها من سلوى ، لا يمكن انكار ذلك لقد فزت ، ايها الاخ . فزت اهنئك ، فأناء الجعة لك ، ان ياشكا لا يصل اليك .... اقــول لك لا يصل اليك ... كن على ثقة من قولي ((وضم المتعهد مــرة اخــرى الى صدره)) .

قال مورغاتش مغتاظا ــ دعه يستريح ، دعه ، ايها الملحـــاح .... دعه يجلس في ذلك المقعد ، الا ترى انه متعب ... يالك مــن أحمــق ، احمــق حقا ، مالك لصقت به كالعلقة ...

قال اوبالدوي واقترب مــن طــاولة الشراب ــ لابأس ، دعه يجلس ، وسأشرب انا نخب صحته ، استطرد موجها كلامه الى المتعهــد ــ على حسابك ايها الاخ .

اومأ المتعهد برأسه وجلس على المقعد ، اخرج منديلا من قبعته وطفق يمسح وجهة ، بينما شرب اوبالدوي بشراهة سريعــة القــدح ، تنحنح ، حسب عادة السكيرين المدمنين ــ واتخذ وجهه هيئة حزينة مهمومة .

علق نيكولاي ايفانيتش ملاطفا ــ انك تغني جيدا ، ايها الاخ ، جيدا ، الان جاء دورك ياياشا : انظــر ، لا ترتبك . ســنرى مــن ســيفوز على الاخر ، سنرى ... المتعهد يغني جيدا ، والله انه جيد .

علقت زوجة نيكولاي ايفانيتش ــ جيد جــداً ونظــرت مبتســمة الى ياكوف . كرر جاري بصوت خافت ــ جيد ، هــا !

صاح اوبالدوي فجأة ــ ها ، بوليخي ★ ، الملتفون ، اقترب من الفــلاح ذي السترة المثقوبة عند الكتف ووضع عليه اصابعه ، نط ، انســاب في قهقهة مرتجة وهو يصيح خلال ضحكه ــ بوليخا ! بوليخا ! هــا ، بادية

★ ــ يطلقون اسم البوليخيين على قاطني الغابات الجنوبية . وهي حزام طويل مــن الغــابات يبتدىء من حدود مناطق بولخوف و جيزدرا . يتميزون بخصــائص عديدة في نمــط حياتهــم . وعاداتهم وكلامهم . ويسمونهم بالملتفين لعاداتهم المريبة الصعبة . (ملاحظة الكاتب)

بانياي(*) .

ارتبك الفلاح المسكين ، كان يزمع النهوض والخـروج بسرعة ، لكن دوّى فجأة صوت السيد ديكي المرنان :

قال وهو يصر ما بين اسنانه ــ اي حيوان قذر يطلق هذه الاصوات ؟

تمتم اوبالدوي ــ لا شيء لاشيء .... انا اردت ان ...

اعترض السيد ديكي ــ حسنا ، طيب ، اخرس ! ياكوف ابدأ ! امسك يا كوف حنجرته بيده .

ــ ماذا بي ، اخي ، ذلك .... انه ... هم ... لست ادري ، حقا مابي ...

ــ حسنا ، كفى لا ترتبك ... عليك ان تخجل ... مـالك تتململ؟ ... غن كما جعلك الله تغني ...

خفض السيد ديكي طرفه ، متوقعا انتهاء اي حديث .

صمت ياكوف ، اجال النظر فيما حوله وغطى وجهـه بيده . تعلقـت ابصار الجميع فيه تعلقا قويا ولا سيما المتعهد ، الذي لاح على وجهـه من خلال الثقة المألوفة بالنفس والنجاح الظافر ، قلق خفيف لا ارادي . استند الى الجدار ، ووضع كلتا يديه تحته مرة اخرى ، لكنه لم يعد يهـز قدميه . عندما كشف ياكوف وجهه اخيرا كان شاحبا شـحوب الموتى ، عيناه لا تكادان تومضان الا قليلا من بين اهدابه المسدلة . تنفس نفسا عميقا وانشأ يغني .

كانت رنة صوته الاولى ضعيفة مضطربة ، لم تبد انها خـارجة مـن صدره ، وانما محمولة من مكان ناء ، وكأنها ولجـت الغـرفة بمحض المصادفة . اثر هذا الصـوت المرتعش الرنان تأثيرا غريبا في الجميع ، نظرنا الى بعضنا بعضا ، اما زوجة نيكولاي ايفانيتش فقد اسـتقامت بقامتها واحست بالتصلب كلياً . اعقب الصوت الاول صوت اخـر اكثر

(*) يضيف البوليخيون الى كل كلمة تقريبا كلمات تعجب : ((هـا!) (بادية) (باينای) بدلا مـن عجل . (ملاحظة الكاتب) .

ثباتا واطول نفسا ، لكنه مازال يبدو مرتعشا كالوتر عندما يرن فجأة تحت اصبع قوي ، فيرتج للمرة الاخيرة ارتجاجا سريعا متلاشيا ، تبع الثاني صوت ثالث اخذ يضطرم تدريجيا ، يزداد سعة ثم انساب في اغنية شجية . ((امتد اكثر من ممر واحد في الحقل)) . غنى ، خامر الجميع شعور بالجمال والرهبة ايضا . اقول الحق ، انه قلما سمعت نظيرا لهذا الصوت : كان متكسرا قليلا ، رن كالمتصدع ، صدح بادىء الامر كالسقيم ، لكنه انطوى على عاطفة عميقة نقية وفتوة وقوة وحلاوة وشيء من الكمد الجذاب المتراخي الشجي ، صدحت الروح الروسية الصميمة الحارة وتنفست فيه ، امسكت بتلابيب فؤادك كليا ، امسكت باوتاره الروسية مباشرة . تنامت الاغنية وانسابت . من الجلي ان ياكوف غشاه الحبور : فارقه ارتباكه ، استسلم كليا لسعادته ، لم يعد صوته يرتج ـ لقد اختلج ، لكنه اختلاج العاطفة الداخلي الذي تصعب ملاحظته بينما ينغرز في روح المستمع كالسهم ، يقوى،يترسخ ويتسع باستمرار .

اذكر اني رأيت ذات مرة على شاطيء البحر الرملي الاملس ، في اثناء جزر الماء الذي صخب هادرا ثقيلا في المدى البعيد ، نورسا كبيرا ابيض جلس دون حراك ، عارضا صدره الحريري الى الق المساء القرمزي ، كان ينشر بين فينة واخرى جناحيه الطويلين ببطء لملاقاة البحر المألوف ، والشمس الهابطة الارجوانية : تذكرته ، وانا اسمع ياكوف . غنى ، وقد نسي تماما منافسه ، ونسانا جميعا ، يبدو ، ان الامواج رفعته كسابح نشيط ، بصمتنا ومشاركتنا الحميمة . غنى وعبقت كل رنة في صوته بشيء من اواصر القربى ، شاسع لا يدركه البصر ، كأن سهلا مألوفا لدينا تكشف امامنا ، وتوارى في الافق المترامي ، شعرت ان العبرات تغلي في قلبي وتصعد الى مقلتي ، ادهشني فجأة نشيج محبوس خافت .... التفت ، واذا بزوجة صاحب الحانة تبكي مسندة صدرها الى النافذة . نظر اليها ياكوف نظرة

عاجلة ، واسترسل بصوت اكثر جهورية وحلاوة من قبل ، اطرق نيكولاي ايفانيتش برأسه ، استدار مورغانتش ، وقف اوبالدوي ، وقد غمرته العاطفة تماما ، فاغرا فاه ببلاهه . انتحب الفلاح الجاهل بهدوء في الركن ، هز رأسه هامسا همسات شجية ، انسابت ببطء دمعة ثقيلة على وجه السيد ديكي الحديدي ومن تحت حاجبيه المائلين تماما . رفع المتعهد قبضته المطبقة الى جبينه ولم يحرك ساكنا

لست ادري ، كيف كانت ستؤول نهاية ذلك التوتر العاطفي العام ، لو لم يختتم ياكوف فجأة اغنيته بصوت عال رقيق للغاية ، كأن صوته قد تصدع . لم يصدر هتاف عن احد ، لم يأت احد بحركة كما لو ان الجميع انتظروا ان يواصل الغناء ، لكنه فتح عينه ، كالمذهول من صمتنا ، اجال نظرة متسائلة فيما حوله وادرك ان النجاح كان من نصيبه ...

قال السيد ديكي واضعا يده على كتفه ـ ياشا ، ولزم الصمت .

وقفنا جميعا كالمصعوقين . نهض المتعهد بهدوء ودنا من ياكوف . قال اخيرا بمشقه ، ((انت ... لك ... انت فزت)) وانطلق خارجا من الغرفة

بدا وكأن حركته السريعة الحازمة ، قد كدرت ذلك الافتتان : تكلم الجميع فجأة بصخب ومرح . نط اوبالدوي الى الاعلى ، تمتم ، لوح ذراعيه ، كأجنحة الطاحونة ، عرج مورغانتش ، دنا من ياكوف وشرع يلثمه ، نهض نيكولاي ايفانيتش واعلن بصورة مهيبة انه يضيف اناء جعة آخر من لدنه ، ضحك السيد ديكي ضحكة رقيقة ، لم اتوقع قط ان اراها على وجهه ، اكد الفلاح الجاهل بين آونة واخرى من ركنه ، وهو يمسح بكميه عينيه وخديه وانفه ولحيته : ((جيد ، والله جيد ، هاه ، انني ابن كلب ، ولكن ذلك جيداً)) . نهضت زوجة نيكولاي ايفانيتش التي تورد وجهها بسرعة ثم توارت . فرح ياكوف بظفره كالطفل ، تغير وجهه برمته ولا سيما عيناه ، اللتان تألقتا بسعادة غامرة . جروه الى

طاولة الشراب ، دعا اليها الفلاح الجاهل الذي انطلق بالبكاء ، ارسل ابن صاحب الحانة ليأتي بالمتعهد ، الذي لم يستطع ان يجده في كل الاحوال ، وبدأت الوليمة . قال اوبالدوي مؤكدا ورفع ذراعيه عاليا ((ستغني لنا اكثر ، ستغني لنا حتى المساء)) .

القيت مرة اخرى نظرة على ياكوف وخرجت . لم ارغب في البقاء ـ خشيت ان اكدر انطباعاتي . لكن القيظ كان لا يطاق كالسابق . لاح كأنه قد حط على الارض نفسها كطبقة سميكة ثقيلة ، وبدت نيران ساطعة صغيرة تتلوى بين الغبار الرقيق الاسود تقريبا . ساد السكون ، كان ثمة شيء يبعث على القنوط والكآبة في ذلك الصمت العميق للطبيعة المنهكة . وصلت الى مخزن الحشائش المجففة ، استلقيت على العشب الذي قطع حديثا ، لكنه جف تقريبا . لقد جفاني النوم لفترة طويلة ، رن طويلا في اذني صوت ياكوف الآسر ..... اخيرا فعل الحر والضنى فعلهما رغم كل شيء ، غططت في نوم كنوم الموتى .

عندما استيقظت كانت العتمة قد غمرت المكان ، فاح العشب المتناثر حولي برائحة قوية واخضل قليلا ، ومضت النجيمات الشاحبة بوهن من خلال اعواد الخشب للسطح المغطى الى منتصفه . خرجت ، توارى الق الشمس منذ مدة بعيدة ، ولم يلح منها الا اثر باهت لا يكاد يلحظ في الافق ، لكن ، مازال الشعور بالحرارة مقيما في الهواء الملتهب قبيل مدة وجيزة وفي طراوة الليل ، وما برح الصدر ظمآن للنسمات الباردة . ليس ثمة من نسيم ، ولا من غيوم ، ظلت السماء حولي نقية ، شفافة معتمة ، ومضت بهدوء نجوم لا تحصى ، لكنها لا تكاد ترى الا قليلا . لاحت الانوار في القرية بين حين وآخر ، تناهي لغط متنافر مبهم من الحانة غير البعيدة ، المضاءة بسطوع ، تعرفت فيه كما خيل لي على صوت ياكوف . ارتفع من هناك ضحك عنيف بين فينة واخرى اشبه بالانفجار ، اقتربت من النافذة الصغيرة ووضعت وجهي على الزجاج .

رأيت مشهدا لا يبعث على السرور رغم تنوعه وحيوته : الجميع

سكارى ، الجميع ابتداء من ياكوف . جلس على المصطبة عاري الصدر ، غنى بصوت ابح اغنية راقصة من اغاني الشارع ، نقل اصابعه بخمول على اوتار القيثارة ونقرها . تعلق شعره المبتل خصلا فوق وجهه الشاحب شحوبا مخيفا ، رقص او بالدوي في وسط الحانة بلا قفطان و ((فقد اعصابه)) تماما ، قام بقفزات امام الفلاح ذي السترة الرمادية قليلا ، طبطب الفلاح بدوره بمشقة وخفق بقدميه الضعيفتين ، ضحك بغباوة من خلال لحيته الشعثاء ، ملوحا احيانا بيد واحدة ، كأنه يود القول : ((اذهب اينما تشاء)) ، لا شيء ادعى للهزء من وجهه ومهما حاول جذب حاجبيه الى الاعلى ، فان جفنيه الثقيلين يأبيان الارتفاع ، هكذا ظلا مسدلين على عينيه الصغيرتين ، اللتين يصعب ان تراهما ، المسترخيتين ، الحلوتين للغاية ايضا . كان في تلك الحالة الجذلة لامريء ثمل تماما ، والتي لا يتمالك اي عابر سبيل من القول ، وهو ينظر الى وجهه : ((حسنا تفعل ، ايها الاخ ، حسنا)) . كان مورغاتش احمر كله كالسرطان ، وسع ما بين منخريه كثيرا ، ضحك مزمجرا في الركن ، حافظ نيكولاي ايفانيتش وحده ، كما يتحتم على صاحب الحانة الحقيقي ، على رباطة جأشه الثابتة . اجتمع في الغرفة جمع جديد من الوجوه ، لكنني لم الحظ السيد ديكي فيها . استدرت وحثثت الخطى ، انشأت اهبط من التل الذي تقع عليه كولوتوفكا . امتد ، عند اسفل هذا التل ، سهل فسيح ، غمرته امواج قاتمة من الضباب المسائي وبدا اكثر تراميا كما لو انه امتزج مع السماء المعتمة . نزلت بخطوات واسعة الى الطريق على امتداد الوادي ، وفجأة دوى في مكان بعيد ، في السهل صوت صبي رنان ، صاح بقنوط باك عنيد ومد طويلا طويلا المقطع الاخير ((انتروبكا انتروبك آ ـ آ ـ ! ..ا)).

لزم الصمت لبضع لحظات وعاد الى الصياح مرة اخرى .... انتقل رنانا في الاثير الساكن الوسنان قليلا . نادى زهاء ثلاثين مرة على اقل

تقدير اسم انتروبكا ، جاء جواب لا يكاد يسمع مـن الطـرف المقـابل للسهل على حين غرة وكأنه محمول من عالم آخر .

ــ ماذا .....؟

صاح صوت الصبي حالا بغضب فرح :

تعال هنا ايها الابليس ، عفري ــ يــ ــ يــ ــ يــ ــ يت !

اجاب ذلك الصوت بعد مضى فترة غير قصيرة لماذ آ ــ آ ــ ذا ...

صاح الصوت الاول بسرعة ــ لماذا ، لأن اباك يريد ضربك

لم يرد الصوت الثاني بعد ذلك ، اخذ الصبي ينادي مجددا على انترو بكا . تناهت نداءاته بصورة اقل واضعف الى مسـامعي حينمـا خيم الظلام تماما ، طفت حول طرف الغابة المحيطة الصـغيرة ، وتقـع على مسافة اربع فيرسيات من كولوتوفكا ...

لاح ان ((انتروبكا)) ما برح يرن في الهواء ، المترع بظلال الليل .

★ ★ ★

بيوتر بيتروفيتش

كاراتايف

اتفق لي ، قبيل خمسة اعوام خلت وانا في الطريق من موسكو الى تولا ، ان قضيت يوما كاملا في مبنى البريد لعدم توافر الخيول . عدت من الصيد ، ولم اكن على حيطة من امري ، فارسلت عربة الترويكا مسبقا . كان الناظر عجوزاً متجهما ، شعره متدل فوق انفه تماما ، عيناه الصغيرتان ناعستان ، اجاب عن كل الشكاوي والطلبات التي توجهت بها اليه بدمدمة مقتضبة ، صفق الباب بغيظ وكأنه هو نفسه يلعن مهنته ، خرج الى المدخل ، وشتم الحوذيه الذين مشوا بتثاقل في الوحل حاملين العدد الثقيلة على ايديهم ، جلسوا على المصطبة يتثاءبون ويهرشون جلودهم ، ولم يعيروا اهتماما معينا لنداءات رئيسهم الساخطة . شربت الشاي زهاء ثلاث مرات ، حاولت النوم عبثا بضع مرات ، قرأت كل النقوش الموجودة على النوافذ والجدران : برحني سأم رهيب . نظرت ، وقد استبد بي قنوط هاديء خائب ، الى عريش مركبتي المرفوع ، واذا بجرس يرن على حين غرة ، ووقفت امام المدخل عربة غير كبيرة تجرها ثلاثة جياد منهكة . وثب المسافر من

العربة صائحا : ((خيول اكثر نشاطا)) ودلف الى الغرفة حينما كان يسمع بدهشة غريبة مألوفة ، جواب الناظر بأنه ما من خيول ، استطعت بكل تعطش حب الاستطلاع الذي يتملك شخصا ضجرا ان القي نظرة على رفيقي الجديد من اخمص قدميه الى قمة رأسه . يوحي مظهره ان عمره حوالي الثلاثين ، وقد تركت الحصبة اثارا لا تمحى على وجهه الجاف المائل الى الصفرة ، الذي يلمع لمعانا برونزيا غير لطيف ، تهدل شعره الطويل الاسود الضارب الى الزرقة على قفا ياقته مثل الدوائر ، والتف من الامام على صدغيه المقدامين ، اطلت عينان صغيرتان منتفختان وتناثرت فوق شفته العليا بضع شعيرات لاغير . كان يلبس ملابس ملاك فاسق من رواد اسواق الخيول ، ارتدى سترة مبرقشة متسخة نوعا ما ، وربطة عنق حريرية باهتة بنفسجية اللون، صداراً ذا ازرار برونزية وسروالا رمادياً واسع الاطراف ، ولا ترى من تحته الا قليلا حافة حذائه غير النظيف . تفوح منه بشدة رائحة التبغ والفودكا ، تراءت خواتم فضية ، واخرى مصنوعة في تولا على اصابعه المحمرة البدينة التي تغطيها اكمام السترة تقريبا . لا تجد في روسيا امثال هذه الهيئة بالعشرات فحسب ، وانما بالمئات ، ولا مندوحة من قول الحقيقة ، بأن التعرف عليهم لا يعود عليك باي متعة . لكن استطعت ، رغم الفكرة المسبقة التي نظرت فيها الى المسافر ، ان الحظ التعبير الطيب المتواكل العاطفي على وجهه .

ـ قال الناظر مشيرا الي ـ ها هو ذا ينتظر اكثر من ساعة.

هزأ الوغد مني ـ اكثر من ساعة !

اجاب المسافر ـ لعله ما به حاجة ماسة للرحيل .

قال الناظر متجهما ـ لا يمكننا ان نعرف ذلك .

ـ اوحقا لا يمكن تدبيرها بشكل ما ؟ اوليس هناك خيول البتة .

ـ لا يمكن . ليس عندنا ولا جواد واحد .

ـ اذن ، آمر ان يعدوا لي السماور . سننتظر ، لا محيص لنا عن ذلك .

اتخذ المسافر له مقعدا ، القى قبعته على المنضدة ومد بيده على شعره .
سألني ــ هل شربت الشاي؟
ــ شربت .
ــ الا ترغب في مشاركتي له مرة اخرى ؟

ابديت موافقتي . ظهر السماور الضخم الاحمر للمرة الرابعة على المنضدة . اخرجت قنينة من الروم . لم يخطئني ظني ، حينما اعتبرت محدثي ينتمي الى صغار النبلاء المحليين . كان اسمه بيوتر بيترو فيتش كاراتايف .

تجاذبنا اطراف الاحاديث . ولم تمض نصف ساعة على وصوله ، حتى حدثني عن حياته بصراحة تنم عن طيبة متناهية .

قال وهو يكمل شرب القدح الرابع ــ ها انا ذا اذهب الى موسكو . فلم يعد لي ثمة ما اعمله في القرية بعد الان .

ــ لماذا ، لاشيء تعمله؟

ــ اجل ، حقا لا شيء عندي ، المزرعة اصابها الخراب ، الفلاحون خسروا ما لديهم ، واقول الحق لقد مرت سنوات عجاف : المحصول ماحل ، اتدري وهناك بلايا عديدة .... ثم اضاف قائلا وهو ينظر مكتئبا الى جانب : اجل ومع ذلك فأي ملاك انا !

ــ لماذا ؟

قاطعني ــ كلا ، او يوجد مثل اولئك الملاكين ! استطرد وقد آمال رأسه جانبيا وامتص تبغ غليونه بدأب ــ أوترى ، ما تكاد تنظر الي ، حتى تستطيع ان تدرك ، بانني واحد منهم ... ولكن لا مندوحة لي من الاعتراف لك ، بانني حصلت على ثقافة متوسطه ، لم تكن حالنا ميسورة ، ارجو المعذرة ، لكنني امرؤ صريح ، وبالتالي فانا .....

لم يكمل حديثه ولوح بيده عازفا عنه ، انشأت اؤكد له انه على خطأ ، واني مسرور جدا بلقائنا وهلمجرا ، ابديت بعدئذ ملاحظة ، فقلت ، ان ادارة الضيعة ، لا تحتاج من الواضح ، الى ثقافة عالية للغاية .

اجاب ـ اشاركك الرأي ، اشاركك الرأي . لكن من الضروري وجود تنظيم معين ، الاخرون يسلبون الفلاح كل ما لديه ، ولا خير في ذلك ! اما انا .....

اسمح لي ان اعرف هل انت من بطر سبورغ او من موسكو ؟

ـ انا من بطر سبورغ .

ونفث من منخريه تيارا طويلا من الدخان .

ـ انني مسافر الى موسكو للعمل .

ـ واين تنوي ان تتوظف . ؟

ـ لست ادري ، كيف ستكون الامور هناك . اذا قلت لك الحق فانني أخشى الوظيفة : انك تقع تحت طائلة المسؤولية حالا . عشت دائما في القرية ، واعتدت عليها ، اتعرف ... لكن لا مناص من ذلك ... انها الحاجة ! ويحي من هذه الحاجة !

ـ ستعيش بالمقابل في العاصمة .

ـ في العاصمة ... لكني لست ادري ماهي محاسن العاصمة . سنرى ، ربما تكون على ما يرام ... ومع ذلك ، يبدو لي ، ليس هناك مكان افضل من القرية .

ـ وهل اصبح مستحيلا عليك مواصلة العيش في القرية ؟

ندت عنه حسرة .

ـ لا يمكن . لا تعتبرها الان في حوزتي .

ـ ما الخبر ؟

ـ هناك امرؤ صالح ـ جار اخذ ... كمبيالة

مر بيوتر بيتروفيتش المسكين بيده على وجهه وفكر قليلا ثم هز رأسه .

ـ حسنا ، وماذا حصل بعد ذلك ! استطرد بعد هنيهة صمت قصيرة ، اقول الحق ، اني لا انحى باللائمة على احد ، فانا الملوم . كنت . احب الزهو ... احببت يا للشيطان ، أن أزهو !

سألته ـ هل عشت مسرورا في القرية ؟

اجاب بوقفات بين كلماته وحدق في عيني مباشرة ـ كان لدي ، ايها السيد ، مجموعة من اثني عشر كلبا من كلاب الصيد ، واقول لك ان امثال تلك الكلاب قليلة . ((نطق الكلمة الاخيرة مترنما)) اذا ركضت فالارنب تخور قواه توا ، اما الوحش الاحمر ، فتطارده كالافعى ، بل كالثعبان ، استطيع الزهو بالكلاب السوقية ايضا . اصبحت القضية الآن من قضايا الماضي ، ولا مبرر للكذب . كنت امارس القنص بالبندقية . كانت لدي الكلبة كونتيسكا جلدة ثابتة بصورة فريدة ، وتحس كل شيء بغريزتها السريعة . يتفق لي ان اذهب الى المستنقع واقول : شارش[1] فلا تشرع بالبحث حتى لو كنت مع دزينة من الكلاب ، لكنها اذا سعت في البحث فانه لمشهد تحلو رؤيتها فيه ، اما داخل البيت فمؤدبة للغاية . تقدم لها الخبز باليد اليسرى وتقول كلي ايتها اليهودية ، وي ، انها لا تأخذ القطعة ، تقدمها باليمنى وتقول : كلي ايتها الآنسة ، فتتناولها حالا وتأكلها . كان عندي جرو منها ، جرو ممتاز ، اردت ان اجلبه معي الى موسكو ، لكن صديقا طلبه مع البندقية ، قائلا : اخي لا وقت عندك في موسكو لهذه الامور ، هناك ، يا اخي ستعيش حياة مغايرة تماما ... اعطيته الجرو و البندقية ايضا ، بقي كل شيء هناك كما ترى .

ـ كان بمستطاعك ان تقوم بالقنص في موسكو .

ـ كلا وما الفائدة ؟ لم اعرف كيف اتدبر اموري ، اذن يتأتى علي ان اصبر الان . من الافضل ان تتكرم وتعرفني كيف هي الحياة في موسكو ـ امرتفعة الثمن ؟

ـ كلا ، ليست باهظة

ـ ليست باهظة ؟ الا تخبرني من فضلك ، هل يعيش الغجر في موسكو ؟

ـ واي ضرب من الغجر؟

ـ اولئك الذين يذهبون الى الاسواق ؟

ـ اجل موجودون في موسكو ...
ـ حسنا ، هذا جيد ، احب الغجر ، يا للشيطان ، احبهم ...
لمعــت عينا بيوتر بيتروفيتش بسرور متدفــق ، اســتدار فجــأة على المقعد ، ثم استغرق بعدئذ بالتفكير ، اطــرق برأســه ، ومــد لي قــدحا فارغا .
قال ـ اعطني من شراب الروم الذي لديك .
ـ لكن لم يبق شاي بتاتا .
ـ لا بأس ، اذن اعطني بدون شاي ... اواه !
وضع كاراتايف رأسه بين يديه واسندهما على الطاولة . نظرت اليه صامتا ، و توقعــت تلك الصــيحات العــاطفية ، بل انتظــرت حتى تلك الدموع التي يكون الثمل سخيا للغاية في ذرفها ، لكنه حين رفع رأسه ، واقول الحق ، ذهلت من تعبير الحزن العميق على وجهه .
ـ ما بك ؟
ـ لا شيء .... تذكرت الماضي ... يالها من حكاية ... يمكنني ان اقصها لك ، لكن من المخجل ان اقلقك ...
ارجوك تفضل!
استرسل في كلامه متأوها ـ اجل توجد احداث مشــابهة لهــا على سبيل المثال ، حسنا اذا كنت ترغب ، فسأرويها لك . ومــع ذلك . لســت ادري ...
ـ اروها ، ايها العزيز ، بيوتر بيتروفيتش .
انشأ بالحديث ـ أخال رغم انها من تلك الاحــداث ... اوترى ، ولكن لست ادري حقا ....
ـ هيا ، حسبك ، ايها العزيز ، بيوتر بيتروفيتش .
ـ اذن سأتكلم ، هذا ما حدث لي ، كما يقال . عشت في القرية ... وعلى حين فجأة ، عشقت فتاة ، اواه ويالها من فتاة ... حسناء ، ذكية ويالها من طيبة السريرة ! اسمها ماتريونا كانت بنتا بسيطة ، اعني ، اتفهم ،

من المماليك ، وسبب المصيبة انها لم تكن من اقناني وانما يملكها آخرون . حسنا لقد عشقتها ـ حقا يالها من حادثة ، لكنها احبتني هي ايضا ، طفقت ماتريونا تتوسل الي قائلة ـ ابتعني ، اقصد ، من سيدتها ، وكنت انا نفسي قد فكرت بذلك .... كانت سيدتها شيخة عجوزا ثرية ، عاشت على بعد خمسة عشر فيرستاً من ضيعتنا . اذن امرت ، كما يقال ، في يوم رائع ان يعدوا عدة عربة الترويكا ـ وكان الحصان الرهواني في المقدمة ، وهو نشط اسيوي فريد ، لذلك يسمونه لامبوردوس ـ ارتديت ثيابا لائقة ، وذهبت الى سيدة ماتريونا . وصلت الى بيت كبير ، له اجنحة صغيرة ، وحديقة ... انتظرتني ماتريونا عند منعطف الاستدارة وارادت ان تتكلم قليلا معي ، لكنها لثمت يدي فحسب وتنحت جانبا . دخلت الى غرفة الانتظار وسألت : ((هل السيدة في البيت ...)) كلمني خادم طويل القامة ((ماذا تأمر ان اخبرها؟)) اخي قل ، ان الملاك كاراتايف جاء ليتحدث معها حول قضية معينة)) . انصرف الخادم ، انتظرت مفكرا : كيف سيكون الامر ؟ اعني اذا طلبت المحتالة ثمنا باهضا ، فلا يعني شيئا كونها ثرية . احسب انها ستطلب خمسمائة روبل . اخيرا عاد الخادم وقال : ((تفضل)) .

دخلت في اعقابه الى غرفة الاستقبال . اتخذت مجلسها على الكرسي ، كانت ترمش بعينها وقالت ((ما بغيتك)) . اعتبرت باديء الامر ، اتدري ان الواجب ، يقتضيني ان اعبر عن سروري للتعارف معها . ((انت على خطأ ، لست انا الملاكة هنا وانما قريبتها .... ماذا تروم ؟)) اعربت حالا عن حاجتي ... للتكلم مع الملاكة . ((ماريا الينيشتنا لا تستقبل اليوم احدا : انها متوعكة الصحة .... ما بغيتك ؟)) ما في اليد حيلة ، فكرت في سريرتي سأوضح لها وضعي . انصتت العجوز الي ((ماتريونا ، اي ماتريونا ؟)) ـ ((ما تريونا فيودورفا ابنة كوليكوف)) ـ ابنة فيودور كوليك ... لكن كيف تعرفها ؟) ـ ((عن طريق المصادفة)) ـ ((وهل هي على علم بنيتك ؟)) ((على علم))

لزمت العجوز الصمت برهة وقالت ((سأريها ، يا للخبيثة ...) اعترف لك ، انني دُهشت . ــ ((ما السبب ، أرجوك ! .. انني مستعد أن ادفع المبلغ اللازم ، تفضلي بتحديده فحسب)) . قالت الشيخة العجوز بصوت كالازير ((ها قد تمخض فكرك عما تدهشني به : كم نحن بحاجة ماسة لنقودك ! سأعلمها ، سأريها ... سأطرد تلك الحماقة منها)) . سعلت العجوز بحقد . ((اوليس وضعها على ما يرام عندنا ، ما بالها ؟ أف لها من شيطانه ، اغفر لي يارب خطيئتي ! اقول الحق ، انني تضرمت مهتاجاً . ((ما سبب تهديدك للبنت المسكينة ؟ ما هي ، اعني ،ٓجريرتها ؟)) رسمت العجوز اشارة الصليب على صدرها .

((آه ، ياربي ! المسيح يسوع ! اولست حرة في التصرف مع مماليكي ؟)) ــ ((انها ، اوترين ، ليست ملكك !)) ــ ((طيب ، ان ماريا الينيتشنا تعرف هذا الأمر ، ولا شأن لك في ذلك ايها السيد ، وسترى ماتريونا مملوكة من هي)) ، اقول لك الحق ، كدت ان اهجم على العجوز اللعينة ، ولكنني تذكرت ماتريونا واستسلمت للقدر . اصابني ارتباك لا اقوى على وصفه مرة اخرى ، طفقت استعطف العجوز ((خذي ما تشاءين)) ــ ((ما حاجتك اليها ؟)) ــ ((لقد اعجبتني ، ايها الام ، تفهمي وضعي ... اسمحي لي ان اقبل يدك)) . وهكذا قبلت يد الماكرة ((تمتمت الخبيثة ــ حسنا سأخبر ماريا اليذيتشنا ، ونرى ما تأمر به ، عرج علينا بعد حوالي يومين)) . قفلت عائدا الى البيت وقد استبد بي قلق شديد . بدأت احدس ، انني لم اطرح القضية طرحا صحيحا ولا طائل من وراء اطلاعها على مشاعري حيالها ، لكنني ادركت ذلك متأخرا . قصدت السيدة بعد يومين ، اقتادوني الى المكتب . الزهور وافرة فيه ، الترتيب رائع ، تتخذ السيدة مجلسها في كرسي غريب الشكل وقد ارسلت رأسها الى الخلف على الوسادة ، وتجلس هنالك قريبتها السابقة ، تجلس هنالك ، اضافة لهما آنسة شقراء في ثوب اخضر ، فمها اعوج . لابد ان تكون مرافقتها . خنت العجوز : ((تفضل

بالجلوس)) . جلست . شرعت تنهال علي بالاسئلة ، كم عمري واي وظيفة شغلت ، وماذا في نيتي ان اعمل ، كانت تسأل متشامخة مزهوة . اجبتها باسهاب . تناولت العجوز منديلا عن المنضدة لوحت به ، لوحت في ناحيتها .... ((قالت ، اخبرتني كاتيرينا كاربوفنا ببغيتك ، قالت ، اخبرتني ، ثم اردفت ، لكنني الزمت نفسي سنة ، في الا اعتق الافراد القائمين بالخدمة ، انه لامر مجاف للادب ، ولا يليق ببيت شريف : هذا مخالف للاصول . واضافت ، لقد اصدرت اوامري ، ولا داعي ، للقلق بعد الان)) ......((اي قلق ، ارجوك .... لعل بك حاجة الى ماتريونا فيودوروفنا؟)) . قالت ((كلا ليست بي حاجة اليها)) . ــ ((اذن لماذا لا تريدين ان تتنازلي لي عنها)) ــ ((غاية الامر ، انه لا يروق لي ، هذا كل ما هنالك ، قالت لقد اصدرت اوامري : سترسل الي قرية بعيدة في السهل)) . نزل النبأ علي كالصاعقة . تكلمت العجوز كلمتين بالفرنسية موجهة الى الآنسة ذات الثوب الاخضر .. خرجت الاخيرة . ((قالت انني امرأة اتمسك بقواعد صارمة ، وصحتي واهنة ولا استطيع تحمل القلق . انت مازلت فتى يافعا ، اما انا فامرأة عجوز ولي الحق ان امحضك النصيحة ، اوليس من الافضل لك ان تستقر فتتزوج ، وتجد زوجة صالحة ، الخطيبات الثريات نادرات ، لكن بمستطاعك ان تجد فتاة فقيرة ، بيد انها طيبة الخلق بالمقابل ، اتدري ، كنت اتطلع الى العجوز ولا افقه شيئا مما تهذر به ، اسمع انها تتحدث عن الزواج ، بينما ترن في مسمعي القرية السهلية . اتزوج ! .... يا للشيطان ...

حينئذ توقف المتحدث فجأة عن الكلام ورنا الي .

ــ أولست متزوجا ؟

ــ كلا .

ــ اذن ، المسألة جلية دون ريب . لم اطق صبرا : ((ارجو المعذرة ، ايتها الام ، ماهذا الهذيان الذي تهذرين به؟ واي زواج هناك ؟ انني

ببساطة اود ان اعرف منك ، أتتنازلين عن مملوتك مــا تريونا ام لا ؟) اطلقت العجــوز الآهــات : ((آه انه يزعجني ، آه ، مــروا باخــراجه ! آه ....)) قفزت اليها قريبتها ، ثم صرخت بي . ظلت العجــوز تئن)) ((ماذا فعلت لاســتحق كل هــذا ؟ .... لعلني ، لم اعد ســيدة بيتي ؟ آه ، آه !)) امسكت بقبعتي وعدوت خارجا من هنالك كالمجنون .

استطرد الراوي في كلامه ــ لربما تدينيني ، بسبب تعلقي القوي بفتاة من فئة اجتماعية واطئة : انني لا اريد ، اعني ان ابرر نفسي ... هذا ما حدث لي ... اتصدق انني لم اذق الراحــة لا نهــاراً ولا ليلا ... برحني العذاب ! فكرت مــا الداعي لتحــطيمي الفتاة التعســة ! مــا ان اتذكر احيانا بانها تكش الاوز وترتدي قفطان الفـ لاحين الخشــن ، وتعيش حياة شظف بأمر الملاكة ويكيل لها كبير الفلاحين المنتعل حذاء مهترئا نتنا ، الشتائم ، حتى يتصبب مني عرق بارد ، اخيرا لم استطع صبرا ، استعلمت عن القرية التي ارسـلت اليهــا ، امتطيت صــهوة جــوادي ومضيت الى هنالك . لم اصل الا في اليوم التالي عند المســاء . مــن الجلي ، انهم لم يتوقعوا مني مثل هــذه المفــاجأة ، ولم يصــدروا اي تعليمات بشأني . توجهت مباشرة الى كبير القرية ، زاعما انني جــار لهم ، دخلت الى الفناء ونظــرت : واذا بمــاتريونا تجلس عند ســقيفة الباب مستندة الى يدهــا . كانت على وشــك ان تصرخ لكنني هــددتها واشرت عليها ان تذهب الى مكان بعيد في الحقــل . دلفــت الى الكوخ ، وثرثرت مع كبير القرية ، لفقت له تلفيقات شتى كبيرة ، تحينت الفرصة السانحة وذهبت الى ماتريونا ارتمت المسكينة على عنقي . لقد شحبت عزيزتي وهزلت . اتدري ، قلت لها : ((لا بأس مــاتريونا ، لا باس ، لا تبكي)) بينما دموعي تسيل وتســيل :..... حســنا ومــع ذلك شــعرت بالخجل اخيرا . فقلت لها : ((ما تريونا ، الدمــوع لا تعين على دفــع المصيبة ، انما ينبغي علينا القيام بعمل حاسم كما يقولون ، ينبغــي ان تهربي معي ، هكذا يجب ان نفعل)) صعقت ماتريونا ... ((كيف يمكن

ذلك! انني ساتحطم! انهم سيأكلوني تمـاما!)) ((يا لك مـن حمقـاء ، من سيجدك ؟)) ـ ((يجـدونني ، حتمـا يجـدونني . شـكرا يا بيوتر بيتروفيتش ، لن انسى ابدا ملاطفتك ، لكن الان لا مندوحة لك من تركي ، فكل شيء جلي ، وهذا هو مصيري)) ـ ((اواه ، ماتريونا ، ماتريونا ، لقد تصورتك فتاة ذات شيمة وعزيمة)) . حقا ، انها تنطوي على شـيم كثيرة .... اما روحها فكانت روحا ذهبية ((ماذا تجنين لو بقيت هنا ! الامر سيان لن يكون الحال أسوأ مما هو عليه . حسننا قـولي : ((الم يضربك كبير القرية بقبضته ويغتصبك) . اضطرمت ماتريونا وارتعشت شفتاها . ((ان عائلتي ستحرم من العيش هنا بسببي) ـ ((لماذا ، ما الذي سيحدث لعـائلتك الان ، لن تطـرد مـن هنا)) ـ ((سـترحل سيرحلون اخي)) . ـ ((وابوك؟)) ـ ((اظن ان ابي لن يرحلوه ، فهو الخياط الوحيد الجيد)) . ـ ((اذن ، سترين ، ان اخاك ، لن يتحـطم من جراء هذا)) . صدقني ، انني اقنعتها بصعوبة ، خطر ببالها ايضـا ان توضح لي ان المسؤولية ستقع على عاتقي .... ((فقلت لها ـ لا شأن لك بهذه المسألة ..... ومع ذلك فقد استطعت اخـذها معـي .... ليس في تلك المرة ، وانما في وقت لاحق : جئت ليلا في العربة ، وخطفتها .

ـ اخذتها معك؟

ـ اخذتها .... ها هي ذي قد عاشت عندي . كان بيتي صغيرا ، والخدم قليلون ... اقول بلا مواربة ، ان خدمي يكنون لي الاحترام ، وما كانوا ليشوا بي مهما انعمـوا عليهـم . اصـبحت احيا في هناء ، ارتاحـت ماتريوشكا ، تحسنت صحتها ، وتولعـت بهـا .... ويالهـا فتاة وكيف تسـنى لهـا ان تحـوز تلك الامـكانات ؟ كانت تجيد الغناء والرقص والعزف على القيثارة ..... لم ادع الجيران يرونها ، فاي خير يرتجـى مـن ذلك ، سـيثرثرون ! كان لدي رفيق ، صـديق حميم ، وهـو غورنو ستايف بانتيلي ، اولست تعرفه؟ كان مدلها بها للغاية ، يقبل يدها ، كما لو كانت سيدة تماما . اقول لك ، ان غورنوسـتايف لم يكن بند لي : انه

امرؤ مثقف ، قرأ اعمال بوشكين كافة ، يتحدث احيانا الى ماتريونا والي ايضا ، فننصت كلانا باهتمام ، لقد علمها الكتابة ذلك المرء العجيب ! واية ثياب فاخرة البستها ، افضل حتى من ملابس زوجة المحافظ ، خطت لها معطفا من المخمل القرمزي ذي حواش من الفرو .... كم لائمها ذلك المعطف ! خاطته سيدة موسكوفية وفق الطراز الجديد مع شيء من المبالغة ايضاً ، ويالها من غريبة الخلق ماتريونا تلك ، تستغرق احيانا في التفكير ، تجلس ساعات ، وطرفها موجه صوب الارض ، ولا تحرك ، حاجبيها ، اجلس انا ايضا ، اتطلع اليها ولا يرتوي بصري منها ، كأنني لم ارها من قبل قط ، اذا ما ابتسمت ، فقلبي يختلج وكأن احدا يدغدغه . تبدأ احياناً فجأة تضحك وتمزح وترقص ، وتعانقني بحرارة وقوة بالغتين ، حتى يدور رأسي . اظل افكر في بعض الاحايين ، منذ الصباح وحتى المساء في شيء واحد لاغير : ماذا اهدي لها؟ صدقني ، انني قدمت لها الهدايا ، كي اتطلع اليها فقط وقد داخلها ، حبيبة روحي ، السرور و تشربت بحمرة البهجة ، كيف كانت ترتدي هديتي لتقيسها ، وكيف كانت تدنو مني في ملبسها الجديد وتقبلني . لا ادري باية وسيلة وصل الى علم ابيها كوليك انها موجودة عندي فأتى العجوز ليراها ، كيف انخرط بالبكاء .... أجل لقد بكى من شدة الفرح ، وما الذي تظنه ؟ اننا انعمنا على كوليك بهبات كثيرة . حملت له ، عزيزتي ، قبيل ذهابه خمسة روبلات من الاوراق المالية ـ وخر ساجدا عند قدميها ، ياله من رجل عجيب ! بقينا نعيش على هذا المنوال زهاء خمسة شهور ، ولن اتوانى ان اعيش معها هكذا طوال حياتي ، ولكن مصيري اللعين !

توقف بيوتر بيتروفيتش .

سألته بمشاركة وجدانية ـ وماذا حدث بعدئذ ؟

اومأ بيده .

ذهب كل شيء الى الشيطان . لقد اهلكتها . احبت ما تريوشكا التزلج

في الزلاقة حبا قاتلا ، كانت تقود الزلاقة احيانا هـــي نفســـها ، ترتدي معطفها وقفازيها المطرزين في تورجكوك وتشرع بمناداة الخيول فقط . كنا نتزلج دائما في المساء ، كيلا نصادف ، اتدري ، احـــدا . ذات مـــرة ، كان اليوم رائعـــا ، اتدري ، كان جليديا صـــافيا ، لا ريح فيه .... وانطلقنا . امسكت ماتريونا بالاعنة . تطلعت ، الى اين تذهب؟ اوحقـــا انها ماضيه الى كوكويفكا ، قرية سيدتها؟ الى كوكويفكا بالفعـل قلت لها : ((الى اين تذهبين ايتها المجنونة؟ ((نظرت الي من فوق كتفهـــا وضحكت . دعني ، قالت اتباهى اهـــا ! فـــكرت لا مندوحـــة مـــن المجازفة .... لكن ايستحسن التزلج قرب بيت الســيدة؟ او ترى المزاح صالحا ، قل انت نفسك؟ وها نحن نمضي . بدا الحصان الرضوان كأنه يسبح ، اما الحصانان الآخران فكانا يجريان بسرعة وها ـ هي كنيسة كوكويفكا ، تتراءى لنا ، القيت نظرة ، واذا بمركبة خضراء قديمة تسير في الطريق والخادم يتأرجح في مـؤخرتها .... الســيدة ، كانت الســيدة تركبها متجهة نحونا لقد غاص قلبي ، امـــا مـــاتريونا فشرعت تضرب اعنة الجياد ، وتنطلق مباشرة صوب المركبة ! رأى السائق ، اتفهمني ، اننا نهـرع للالتقـــاء به ... اراد اوترى ، تحـــاشي ذلك فـــانعطف بغتة وانقلبت المركبة في كثبان ثلجي . تحـــطم زجـــاج العـــربة ، وزمجـــرت السيدة : ((هاي هاي ، هاي ، هاي ،)) وصأصأت المرافقة:)) ((النجدة النجدة)) اننا والحمد لله ، تجاوزناهم ولذنا بالفرار . اخذنا نثب ، لكن فكرت ان عاقبة ذلك ستكون وخيمة ، عبثا سمحت لهـــا بالذهـــاب الى كوكويفكا . وما الذي تظنة؟ لقـــد عرفـــت الســيدة مـــاتريونا وعرفتني ايضا ، واقامت العجـــوز دعوى علي : ان لي مملوكة آبقـــة تعيش عند النبيل كاراتايف ، وفي الحال ، ظهرت شكوى ضدي . وكمـــا يترتب على ذلك ، تطلعت فاذا برئيس الشرطة قادم الي ، وكنت على معرفة برئيس الشرطة ذلك ، ستيبان سيرغيتش كوزوفكين ، كان شخصاً جيدا ، لكنه في الجوهر ، امرءا غير صالح ـ هاهو ذا قد جاء الي ليقول : الامر كذا

وكذا ، بيوتر بيتروفيتش ـ كيف فعلت ذلك؟ المسؤولية جسيمة ، والقوانين واضحة بهذا الخصوص . قلت له : ((حسنا ، لا ريب ، اني سأتباحث معك بهذا الشأن ، الا ترغب في اصابة شيء من الطعام بعد طريق السفر؟)) وافق على تناول شيء من الطعام ، ولكنه قال : ((العدالة تطالب ، بيوتر بيتروفيتش ، واحكم انت بنفسك)) ـ ((طبعا ، قلت ، هي العدالة طبعا ... لقد عرفت ، ان لديك جوادا اسود او ترغب بتبديله بجوادي لامبوردوس؟ .... اما بخصوص الفتاة ماتريونا فيودروفنا فهي ليست عندي)) قال ، حسنا ، بيوتر بيتروفيتش ان الفتاة عندك ، فنحن كما ترى ، لا نعيش في سويسرا .... أما بشأن تبديل حصاني بلامبوردوس ، فممكن على الارجح ان اقبله دون مقابل . ومع ذلك ، استطعت هذه المرة ان ابعده بشكل ما . ولكن السيدة العجوز تعالى ضجيجها اكثر من اي وقت مضى ، وقالت لن تضن بعشرة آلاف روبل لبلوغ وطرها . او ترى ، ما ان تطلعت الي ، حتى جال بخاطرها فجأة ان تزوجني من مرافقتها ذات الفستان الاخضر ـ ادركت غايتها فيما بعد : وكان السبب في غضبها . اي شيء تبتدعه اولئك السيدات ... اخال ان الضجر مبعث ذلك . باتت احوالي رديئة : لم ابخل بالمال ، واخفيت ماتريونا ، انها غير موجودة ، ضايقوني باستمرار وكدروا راحتي تماما . تكاثرت ديوني وساءت صحتي .... استلقيت ذات مرة ليلا في السرير وفكرت : ((يا الهي ، يا ربي ، لماذا اتحمل كل هذا؟ ما الذي افعله ، ما دمت لا استطيع ان اقلع عن حبها؟ .... حسنا ، لا استطيع وحسبي هذا)) دخلت علي ماتريونا فجأة الى الغرفة ، كنت قد اخفيتها ابان تلك الفترة في قريتي التي تبعد زهاء فيرستين عن البيت . تملكني الفزع : ((ماذا؟ هل وصل الى علمهم وجودك هناك؟)) ـ ((اجابت ـ كلا ، بيوتر بيتروفيتش ، لا احد يزعجني في بوبنوف ، وهل يستمر هذا الوضع طويلا؟ قالت ان قلبي يتمزق بيوتر بيتروفيتش وا أسفي عليك يا عزيزتي ، لن انسى ملاطفاتك

قط بيوتر بيتروفيتش ، والان جئتك لاودعك)) ـ ((ماذا تقولين ، ماذا تقولين ايتها الحمقاء؟ .... كيف تودعينني؟ كيف تودعينني؟)) ـ ((هكذا .... سأذهب واسلم نفسي)) ـ ((وانا سأوصد عليك العلية ايتها المجنونة .... هل خطر ببالك ان تقضي علي؟ اترغبين في موتي ، ام ماذا؟)) امسكت عن الجواب ونظرت الى الارض. ((حسنا ، انطقي ، انطقي)) ـ ((لا اريد ان اعرضك الى مزيد من القلق بيوتر بيتروفيتش)) . اذن ، بادر واشرح لها ... ((انت تعرفين ، تعرفين ، ايتها الحمقاء ، مجنونة ...)) .

شرع بيوتر بيتروفيتش ينشج نشيجا مرا .

استطرد في كلامه ، خبط الطاولة بقبضته وحاول ان يقطب حاجبيه ، بينما ظلت دموعه تنساب في تلك الاثناء على خديه المتوهجين ـ سلمت الفتاة نفسها ، ذهبت وسلمت نفسها ....

هتف الناظر بصوت المنتصر وهو يدخل الغرفة ـ الخيول جاهزة . نهضنا كلانا .

سألته ـ وماذا حدث لماتريونا؟

اومأ كاراتايف بيده ايماءة العازف عن الكلام .

مر عام كامل على لقائي بكاراتايف ، اتفق لي ان سافرت الى موسكو . عرجت ذات مرة قبيل الغذاء على مقهى ، يقع في شارع ((اوختني)) ، مقهى موسكوفي الاصل ، تراءت من بين امواج الدخان ، وجوه محمرة وشوارب وذؤابات شعر ، وستر فرسان من الطراز القديم وصدارات جديدة . كان رجال نحاف من كبار السن في ستر متواضعة يقرأون الجرائد الروسية . مرت الخادمة بخفة وهي تحمل الاطباق وتدوس بلين على السجاد الاخضر . شرب التجار الشاي بتوتر مضن . خرج من غرفة البليارد ، على حين غرة ، امرؤ اشعث غير ثابت القدمين تماما . وضع يديه في جيبيه ، اطرق برأسه وتطلع بلا هدف فيما حوله .

ـ وي انظر من هنا بيوتر بيتروفيتش .... كيف حالك؟
اوشك بيوتر بيتروفيتش ان يرتمي على عنقي ، جرني ، وهو يتأرجح لحد ما الى غرفة صغيرة خصوصية .
قال وهو يجلسني باهتمام على الكرسي ـ هـا هنا سـترتاح . ايهـا الصبي ، هات الجعة ! كلا ، اعني الشمبانيا ! حسـنا ، اقـول الحـق ، انني لم اتوقع ، لم اتوقع .... أمـن امـد بعيد انت هنا؟ هـل سـتبقى طويلا؟ ان الله قاد خطاك الينا كما يقولون وذلك اللقاء ....
أمازلت تذكر ....
قاطعني على عجل ـ كيف لا اذكر ، انه من امور الماضي ... من امور الماضي ... اذن ، ماذا تعمل هنا ، عزيزي بيوتر بيتروفيتش؟
ـ اعيش ، كما ترى . الحياة هنا على مـا يرام ، الناس هنا يتلقـونك بترحاب . هنا احيا بطمأنينة .
تنهد ورفع عينه الى السماء .
ـ أتعمل في وظيفة؟
ـ كلا ، لم اعمل بعد ، احسب اني على وشك التعيين في وظيفـة . ومـا قيمة الوظيفة؟ .... الناس هم الشيء الرئيس . ويالهم من اناس تعرفت عليهم ، هنا ...
ـ دخل الصبي واضعا قنينة شمبانيا في صينية سوداء .
ـ هذا امرؤ صالح ... أوليس كذلك يافاسيا ، انت امرؤ صـالح؟ هـذا نخب صحتك .
توقف الصبي ، وهز رأسه الصغير بأدب ، ابتسم ثم خرج .
واصـل بيوتر بيتروفيتش كلامـه ـ اجـل هنا الناس طيبون ، ذوو مشاعر ، ذوو روح .... أتود ان اعرفـك عليهـم؟ يالهـم مـن فتيان رائعين .... سيسرون بك جميعا . اقول مـات .... بوبروف . كم يبعـث هذا على الحزن .
ـ اي بوبروف؟

ـ سرغي بوبروف . كان شخصاً مجيدا ، كان يرعاني بصفتي جـاهلا غليظا . وغورنوستايف بانتيلي مات . الجميع ماتوا ، الجميع

ـ هل عشت طوال الوقت في موسكو؟ الم تذهب الى القرية؟

ـ الى القرية ... لقد باعوا قريتي .

ـ باعوها؟

ـ بالمزاد العلني ... عبثا لم تبتعها .

ـ وعلي اي موارد ستعيش ، بيوتر بيتروفيتش؟

ـ لن اموت جوعا ، الله يرزق ، لن يكون لدي مال ، لكن سـيكون عندي اصدقاء ، وما هو المال ؟ تراب ! الذهب ـ تراب !

اغضى عينه ، وتحسس جيبه بيده ، وحمل لي على راحة يده خمسة عشر كوبيكا وقطعة من عشرة كوبيكات .

ـ ما هـذا؟ انه تراب ((وتسـاقطت النقـود على الارض)) لكن مـن الافضل ان تقول لي ، هل قرأت بوليجايف؟

ـ قرأته

ـ وهل رأيت موتشالوف[٢] في دور هاملت؟

ـ كلا ، لم اره .

ـ لم تره ، لم تره .... ((اصاب وجه كاراتايف الشحوب ، جالت عيناه سريعة قلقة ، التفت وسرت رعشـات خفيفـة على شـفتيه)) ايه ، موتشالوف ، موتشالوف ((ان تنهي حياتك وتغفو)) .

ـ قال بصوت خافت :ـ

ليس اكثر من هذا و نعرف ، ان الغفوة تنهي[٣]

آلام الفؤاد ، وآلاف الضربات الطبيعية

قدر الاحياء .... انها لنهاية جديرة

وأمان حميمة ان تموت ... ان تغفو ...

وتمتم بضع مرات ـ تغفو ، تغفو

اردت ان ابدأ الكلام ـ قل لي ، رجاء ! لكنه واصل الانشاد بحرارة :

من كان يحتمل سياط الزمان وازدرائه
جور الطغاة، اهانات المتغطرس
غصص الحب المهان،
احتقار المتنفذين وازدرائهم
بينما تستطيع ان تهب لنا السكينة،
طعنة خنجر فحسب؟ ... اواه، تذكري
اثامي في صلاتك المقدسة!
القى برأسه على المنضدة. أخذ يتلعثم ويتلو كيفما اتفق، نطق ((بعد شهر!)) بقوة جديدة:
شهر قصير، سريع الجريان!
لم يبل بعد الحذاء
الذي سارت فيه، ودموعها تسيل[٤]
خلف جثمان ابي المسكين!
اواه ايتها السماء! وحش ، بلا حجا، بلا نطق،
كان يتألم اطول من ذلك ...
رفع قدح الشمبانيا الى شفتيه، لكنه لم يشرب النبيذ، بل واصل ينشد:
من اجل هيكيوبا!
من هي هيكيوبا بالنسبة له، ومن هو لهيكيوبا
كي يبكي عليها؟ ...
اما أنا ... العبد الحقير الخائر الهمة ...،
انا الجبان، من يدعوني بالوغد؟

من يقل لي: انك تكذب؟
كنت سأتحمل الاهانة ... اجل
انا الحمامة في بسالتي: ليس في مرّة[٥]،
والاهانة لا توجعني ...

القى كاراتايف القدح وامسك برأسه ، خيل الي انني قد فهمته .
قال اخيرا ــ من يتذكر الماضي ، فعيناه تجحـظان مـن محـاجرها ...
اوليس حقا (وضحك قليلا) نخب صحتك !
سألته ــ هل ستبقى في موسكو .
ــ اموت في موسكو !
دوى صوت في الغرفة المجـاورة ــ كاراتايف ، اين انت يا كاراتايف؟
تعال هنا ، ايها الشـ ــ خـ ــ ص العزيز .
نهض متثاقلا من مكانه وقـال ــ انهـم ينادونني ، وداعا ، عرج علي
اذا استطعت ، فانا اعيش في .....
لكن في اليوم التالي ، كان لزامـا علي ان أغادر مـوسكو لظـروف
طارئة ، ولم ار بيوتر بيتروفيتش كاراتايف بعد ذلك .

★ ★ ★

موعد

جلست في غابة البتولا وقت الخريف ، عند منتصف ايلول تقريبا . تساقط مطر خفيف منذ الصباح الباكر ، كان يحل محله احيانا الق شمسي دافيء ، ظل الجو متقلبا . تلبدت السماء بغيوم بيض متهدلة تارة ، واصبحت فجأة صافية للحظة في بعض الاماكن تارة اخرى ، اطلت حينئذ من بين الغيوم المتنائرة السماء اللازوردية ، صافية ملاطفة كالعيون الجميلة . جلست ، نظرت فيما حولي وارهفت السمع . هسهست الاوراق بخفوت فوق رأسي ، تستطيع ان تعرف من مجرد حفيفها اي فصل من فصول السنة حالياً ، لم يكن ذلك بارتعاش الربيع المرح الضاحك ولا همسه الناعم ، ولا بحديث الصيف الطويل ، ولا بتمتمة اواخر الخريف الحيية الباردة ، وانما ثرثرة وسنى لا تكاد تسمع الا قليلا . تحركت نسمات واهنة ، خفيفة بين ذرى الاشجار . كان جوف الغابة رطبا من المطر ، متغيرا باستمرار ، حسب وضع الشمس ، ان اشرقت او غطتها الغيوم ، فهي مضاءة كلها ، كأن كل شيء فيها قد ابتسم : تكتسي سيقان اشجار البتولا الخفية غير الكثيفة

فجأة باللمعان الرقيق للحرير الابيض ، تتلون بغتة الاوراق الصغيرة الراقدة على الارض بالوان متنوعة ، تتوهج بوهج الذهب الصافي ، وتزدان الجذوع الجميلة للخنشار الطويل الاجعد بلونها الخريفي ، الشبيه بلون العنب المفرط النضج ، لقد تسللت ، وتشابكت بلا نهاية وتقاطعت امام الابصار ، او تراءى كل ما حولنا على حين غرة في زرقة داكنة خفيفة مرة اخرى : تلاشت الالوان الساطعة على الفور ، انتصبت اشجار البتولا بيضا كلها دون بريق ، بيضا كالثلج الساقط لتوه ، الذي لم يمسه بعد شعاع شمس الشتاء البارد المتراقص ، طفق يتناثر رذاذ المطر خلسة وبمكر ويوشوش فوق الغابة .

ما برحت اوراق البتولا كلها خضرا تقريبا ، رغم شحوبها بشكل ملحوظ ، انتصبت شجرة فتية ، حمراء ، او ذهبية كلها هنا وهناك ، ولا يسع المرء الا ان ينظر كيف كانت تتوهج متلألئة في الشمس حينما تطل اشعتها فجأة منزلقة و متلونة بين الشبكة الكثيفة للاغصان الرقيقة ، المغسولة توا بالمطر المتألق . لم يسمع صوت طير واحد : لقد اوت جميعها الى اماكنها واخلدت الى الصمت ، ماعدا صوت طير سن المنجل المضحك الذي يرن احيانا كصوت جرس حديدي صغير .

مررت مع كلبي بغابة الحور الرجراج العالي قبيل التوقف في غابة البتولا الصغيرة هذه . واقول الحق ، انني لست شغوفا بهذه الشجرة ــ الحور الرجراج ، بجذعها الليلكي الشاحب وورقها الاشهب ــ الاخضر المعدني اللون ، الذي ترفعه عاليا بقدر المستطاع وتنشره كمروحة مرتفعة في الهواء ، لا احب الاهتزاز المتواصل لاوراقها المستديرة غير الانيقة ، المتشبثة بلا رشاقة بسيقانها الطويلة ، انها حسناء في اماسي الصيف الاخرى فقط ، حينما ترتفع منعزلة بين الشجيرات الواطئة تتحدى اشعة الشمس القرمزية المائلة للغروب ، تتلألأ ، ترتعش و تنغمر من جذرها الى قمتها بضوء اصفر ارجواني متناظر ــ او عندما تتدفق كلها صاخبة وضاحة ، في يوم عاصف واضح ، نحو السماء ، وتمسي كل

ورقة فيها في قبضة دوامة الريح كأنها تريد ان تقتلع وتطير مندفعة الى مكان ناء . لم امكث في غابة الحور الرجراج للراحة لانني لا احب هذه الشجرة عموما ، حثثت الخطى الى غابة البتولا ، اويت تحت شجرة صغيرة ، اخذت تتدلى اغصانها منخفضة فوق الارض ، وبالتالي ، استطاعت ان تحميني من المطر ، ومتعت بصري بالمنظر المحيط بي ، اخذتني سنة نعاس مطمئنة وديعة مألوفة لدى الصيادين وحدهم .

لا استطيع القول ، كم من الوقت استغرقت في النوم ، لكن عندما فتحت عيني ، كانت الشمس تغمر باطن الغابة ، تراءت السماء الزرقاء الساطعة في جميع الارجاء ، من خلال هسهسة الورق الفرحة ، وكأنها تلألأ ، تلاشى الغمام الذي بعثرته الريح المتدفقة ، صفا الجو ، اضحت محسوسة في الهواء تلك الطراوة الجافة الخصوصية التي تترع الفؤاد بشيء من الشعور المنعش ، الواعد بامسية هادئة صافية بعد يوم ماطر .

كنت ازمع النهوض ، لاجرب حظي مرة اخرى ، واذا بعيني تقعان فجأة على شكل انساني جامد الحركة . حدقت : كانت فتاة فلاحة يافعة . جلست على مسافة عشرين خطوة مني ، اطرقت برأسها غارقة في التفكير ، القت كلتا يديها على ركبتيها ، واستلقت في راحة احداهما المفتوحة الى نصفها ، حزمة صغيرة كثيفة من الازهار البرية ، كانت تنزلق بهدوء على تنورتها ذات المربعات عند كل نفس تتنفسه ، تجمع قميصها الابيض النظيف المزرر حتى عنقها والى كف يدها ، في ثنايا رقيقة حول خصرها ، تدلى صفان من الخرز الاصفر الكبير من عنقها على صدرها . كانت حسناء للغاية . انشطر شعرها الاشقر ذي اللون الاشهب الجميل الى قسمين مسرحين بعناية على شكل نصف دائرة من تحت شريطها الرفيع الاحمر المائل تقريبا على جبينها الابيض كعظم العاج ، اما بقية وجهها ، فقد لوحته الشمس قليلا بذلك السفع الذهبي الذي يتقبله الاهاب الناعم فقط . لم استطع رؤية عينيها ، فلم ترفعهما ، لكنني رأيت بوضوح حاجبيها الدقيقين العاليين ، واهدابها

الطويلة : كانت مبتلة ، لمعت آثار دمعة جافة على احد خديها تحت الشمس ، توقفت عند حافة شفتيها الشاحبتين قليلا . كان مظهر رأسها كله غاية في الحسن : لم يفسده حتى انفها المستدير ، السميك نوعا ما . اعجبني خصوصا تعبير وجهها : ياله من بسيط وديع ومتألم ، ياله من مفعم بالحيرة الطفولية امام حزنه الذاتي . يبدو انها ، انتظرت شخصاً ما ، صلصل شيء ما بوهن في الغابة : رفعت رأسها توا ونظرت حولها ، لمعت سريعا في الظل الشفاف عيناها النجلاوان الساطعتان المرتعبتان كعيون الايل . ارهفت السمع بضع دقائق ، لم تنقل عينها المفتوحتين من المكان ، الذي هسهس فيه الصوت الضعيف ، تنهدت بحسرة ، ادارت رأسها بهدوء ، وخفضته اوطأ من السابق ، شرعت تصفف الازهار ببطء . تخضب جفناها بالحمرة . ارتعشت شفتاها بمرارة ، وانسابت دمعة جديدة من تحت اهدابها الكثيفة ، توقفت وتألقت مشعة على خدها . مضى وقت غير قليل على هذا المنوال ، لم تتحرك الفتاة المسكينة ، كانت تصدر حركة شجية من يديها احياناً ، ارهفت السمع ، وظلت ترهف السمع ... وضج مرة اخرى صوت في الغابة لم تتلاش الضجة ، اصبحت اكثر جلاء ، سمعت اخيرا خطوات حازمة خفيفة الحركة . استوت في جلستها ، بدت وكأن الخجل تملكها ، ارتفعت نظرتها المتيقظة ، تلظت بالانتظار . لاحت سريعا من خلال الاجمة هيئة رجل . حدقت في ذلك الصوب ، توردت بغته ، ابتسمت بفرح وسعادة ، اوشكت على النهوض ، لكنها نكست رأسها حالا ، شحبت ، غشاها الارتباك ، رفعت آنئذ فقط نظرة راعشة ، متضرعة تقريبا الى ذلك الشخص المستطرق الذي وقف الى جنبها .

نظرت اليه بحب استطلاع من مكمني . اقول الحق انه لم يترك في انطباعا طيبا . كان هذا الشخص ، حسب كل الامارات ، وصيفا مدللا لملاك شاب ثري . تدل ملابسه على ادعاء الذوق الجيد والاستخفاف .

كان يرتدي معطفا قصيرا برونزي اللون مزررا الى الاعلى ، قد وهبه السيد اياه على الارجح ، وربطة عنق قرمزية لها حافة ليلكية اللون ، وسدارة مخملية سوداء ذات شريط ذهبي ، مائلة حتى حاجبيه . ضغطت ياقة قميصه الابيض المستديرة بلا رحمة عليه مقابل اذنيه واوجعت خديه ، بينما غطى كماه المنشيان يديه برمتهما وحتى اصابعه الحمر المقوسة المزدانة بالخواتم الفضية والذهبية المطعمة بفيروز لا تنسني . ان وجهه مشرب بالحمرة ، ريان وقح ، وينتمي الى صنف الناس الذين ، بقدر ما استطعت ان الاحظ يثيرون دائما سخط الرجال تقريبا ، بينما يكونون موضع اعجاب النساء مع الاسف ، في اغلب الاحيان . من الجلي انه سعى الى ان يخلع على ملامحة الخشنة قليلا تعبيرا من الازدراء والضجر ، كان يضيّق باستمرار عينيه الحليبيتين الرمادتين الصغيرتين بالاصل ، يقطب ، يرخي زاوية فمه ، يتثاءب بتصنع ولا مبالاة ــ رغم ان عدم تكلفه لم يكن حاذقا تماما ــ ويصلح بيده شعره الضارب الى الحمرة المفتول ببراعة عند صدغيه ، او يعبث بشعره الاصفر المبعثر فوق شفته العليا المكتنزة ، وصفوة القول انه تصنع بشكل لا يطاق . ما ان رأى الفلاحة الشابة في انتظاره ، حتى شرع يتصنع ، منها ببطء بخطوات متكاسلة ، توقف ، هز كتفيه ، دس كلتا يديه في جيبي معطفه ، تفضل بالكاد بنظرة عابرة غير مكترثة على الفتاة المسكينة ، وحط على الارض .

طفق يقول ــ ماذا ، أمن امد طويل انت هنا؟ واستمر ينظر في مكان ما جانبيا ، ارجح رجليه وتثاءب .

لم تستطع الفتاة ان تجيبه في الحال .

نطقت أخيرا بصوت لا يكاد يسمع الا قليلا ــ منذ امد طويل ، فيكتور الكساندريتش .

ــ آها ! ((خلع سدارته ، مر بيده ، بعظمة ، على شعره الكثيف المجعد بشدة ، ابتداء من حواجبه تقريبا ، تطلع بوقار فيما حوله ، وغطى مرة

اخرى رأسه الغالي بعناية)) كدت ان انسى تماما . ومع ذلك ،انظري ، المطر ينزل ! ((تثاءب مجددا)) ثمة قضـايا كثيرة ينبغـي انجـازها : يجب تحضير كل شيء ، ومع ذلك فالسيد يشتم ايضا . غدا سنغادر ....

قالت الفتاة ـ غدا؟ ووجهت اليه نظرة واجفة .

ـ غدا ... اضاف بعجالة وغيظ وقد رأى ، انها ارتعشت كلها ونكست رأسها بهـدوء ـ حسـبك ، حسـبك ، ارجـوك اكولينا ، لا تبكي . انت تعرفين ، انني لا استطيع تحمل ذلك . (وغضـن انفـه المنفـرج) واذا استمررت فسأذهب توا .... يالها من غباوة ـ تتأوه !

قالت اكولينا بعجل وابتلعت دموعها بجهد ـ حسنا ، لن اسـتمر ، لن استمر ، واضافت بعد برهة صـمت وجيزة ـ اذن غدا سـتسافر؟ متى سيرجعك الرب واراك مرة اخرى ، فيكتور الكساندريتش؟

ـ سنلتقي ، سنلتقي . اذا لم يكن في السنة القادمة ، فالسنة التي تليها ، واصل كلامه ، ناطقا الكلمات دون اكتراث ومن انفه لحد ما ـ يبدو ان السيد يرغب في التوظف في بطرسبورغ ، ولربما نسافر الى الخارج .

قالت اكولينا بحزن : سوف تنساني فيكتور الكساندريتش .

ـ كلا ، ما السـبب ؟ لن انسـاك : فقـط كوني ذكية ، لا تتحـامقي ، واطيعي والدك ... اما انا فلن انساك ـ كلا . (تمطى بهـدوء ، وتثاءب مجددا .)

واصلت كلامها بصوت متوسل ـ لا تنسـني ، فيكتور الكسـاندريتش ، لقد احببتك حبا مفرطا ، كما يبدو لي ، ويظهر انني فعلت كل شيء مـن اجلك ... تقول لي اطيعـي اباك ، فيكتور الكسـاندريتش .. ولكن مـا الغرض من اطاعة والدي ..

ـ لم لا (نطق هذه الكلمات وكأنها صادرة من بطنه كان مسـتلقياً على ظهره وواضعاً يديه تحت رأسه) .

ـ ولكن ما الغرض فيكتور الكساندريتش ، انت نفسك تعرف .

لاذت بأذيال الصمت . عبث فيكور بسلسلة ساعته الحديدية .

بدأ الكلام اخيراً ــ اكولينا ، ماأنت بالفتاة الغبية ، ولهذا لاتهــذري ، انني اتمنى الخير لك ، اتفهميني ؟ ممــا لاشــك قيه انك غير حمقـــاء ويمكن القول انك لست فتاة فلاحة تماماً وكذلك شــأن والدتك ، لم تكن دائماً فتاة فلاحة . بيد انك غير متعلمة وبناء على ذلك لامندوحة لك من الطاعة عندما يتكلمون معك .

ــ هذا مثير للفزع ، فيكتور الكساندريتش .

ــ اي هراء تقولينه ، ياعزيزتي : ماالشيء المثير للفزع ، اســتطرد يتكلم وهو يلتفت نحوها .

ــ ما الذي لديك ، زهور ؟

اجابت اكولينا باكتئاب ــ زهور ، لقــد قــطفت حشــيشات الشــفاء البرية ــ تابعت حديثها ، وقد انتعشت قليلا ــ هــذا حســن للعجــول . وزهرة القطيفه هذه تكافح داء الخنازير ، انظر فقط يالهاً مــن زهــرة رائعة ، لم ار قط زهيرة رائعة مثلها في حياتي . وهذه ازهار لاتنسني ، وهذا البنفسج .. اضافت قائلة ، وهي تخــرج مــن تحــت حشــيشات الشفاء الصفراء حزيمة صغيرة من ازهار العنبر الزرقــاء ، مشــدودة بعشبة دقيقة .. وهذه لك ، اتريدها ؟

مد فيكتور بتكاسل يده واخذها شم الازهار بلا اكتراث ، شرع يعبث فيها باصابعه ناظراً الى الاعلى برصانة ومستغرقاً في التأمل . نظــرت اكولينا اليه .. يا للوفاء الرقيق والخشوع الجليل والحب الذي انطــوت عليه نظرتها الحزينة تلك . كانت تخشاه ايضاً ولم تجــرؤ على البكاء ، ودعته ومتعت نفسها برؤيته للمــرة الاخيرة ، بينمــا اســتلقى هـــو مسترخياً كالسلطان وتحمل بصبر سخي وتنازل هيامهــا به ، واقــول الحق ، انني رمقت بأشمئزاز وجهــه الاحمــر الذي لاح عليه الارتياح المفعم بالخيلاء من بين اللامبالاة المزدرية المتكلفة . كانت اكولينا رائعة في تلك اللحظة : تكشفت روحهــا كلهــا بثقــة وولع امـــامه ، دنت منه ملاطفة ، اما هو .. فرمى باقة العنبر على الارض ، اخــرج مــن جيب

معطفه الجانبي قطعة زجاج صغيرة مستديرة في اطار برونزي وحاول تثبيتها في مكان فوق عينه ، لكنه مهما بذل من جهد لامساكها بحاجبه المقطب ووجنته المرفوعة بل وحتى انفه ظلت العدسة الصغيرة تسقط على يده .

سألت اكولينا المندهشة اخيراً ـ ماهذه ؟

اجاب بزهو ـ منظار .

ومافائدته .

ـ كي تكون الرؤية افضل .

ـ ارني اياه .

قطب فيكتور ، ولكنه ناولها العدسة .

ـ لاتكسريه ، انتبهي .

ـ لا تقلق ، لن اكسره . (وضعته بارتباك على عينيها) قالت ببراءة ـ لا ارى شيئاً .

اعترضها بصوت مرشد غير راض ـ اغمضي عينيك نصف اغماضة . (اغمضت عينها التي امسكت امامها العدسة) هتف فيكتور ، ليس هذه العين ، ليس هذه وانما تلك ايتها الحمقاء ودون ان يفسح لها المجال لتصحيح خطأها ، انتزع منها المنظار .

تخضبت اكولينا حمرة ، ابتسمت ابتسامة باهتة واستدارت .

ـ تمتمت من الجلي ، انه ليس لأمثالي .

ـ بالتأكيد .

لاذت المسكينة بالصمت وتنهدت بعمق .

قالت فجأة ـ اه ، فيكتور الكساندريتش ، كيف سيكون حالي بدونك !

مسح فيكتور المنظار بطرف سترته واعاده الى جيبه .

قال اخيراً ـ اجل ، اجل ، سيكون الامر شاقاً عليك بادىء الامر دون ريب . (ربت على كتفها بتنازل ، تناولت يده بهدوء عن كتفها ولثمتها بارتباك) . واصل كلامه مبتسماً بخيلاء ـ حسناً ، اجل اجل انت فتاة

طيبة بالضبط ، لكن ما العمل ؟ احكمي انت بنفسك لايمكن لنا ، السيد وانا ، ان نبقى هنا ، الان اوشك الشتاء على المجيء والشتاء في الريف .. كما تعرفين انت نفسك ـ شنيع لاغير . الوضع في بطرسبورغ مغاير تماماً ! يالها من عجائب هناك ، لايمكن ايتها الحمقاء ان تخطر لك حتى في الحلم . يالها من بيوت ، شوارع ، اما المجتمع والثقافة ، فانهما روعة فحسب .. (اصغت اليه اكولينا بانتباه ملتهب ، وانفرجت شفتاها قليلا كالطفل . لماذا احدثك بكل هذا فانت لاتستطيعين ادراكه .

ـ لماذا فيكتور الكساندريتش لقد فهمت ، فهمت كل شيء .

ـ يالك من ذكية!

ـ نكست اكولينا رأسها .

قالت دون ان ترفع طرفها . لم تكن تتكلم معي هكذا من قبل فيكتور الكساندريتش ، علق وهو يتظاهر بشيء من السخط من قبل ؟ من قبل ! يالك من فتاة ! . من قبل . لزم كلاهما الصمت .

قال فيكتور ، وكاد ان يستند علي مرفقه .. ومع ذلك ، حان وقت ذهابي ..

قالت اكولينا بصوت متوسل ـ انتظر قليلا .

ـ ولم الانتظار .. ها انني ودعتك .

كررت اكولينا ـ انتظر قليلا .

استلقى فيكتور مرة اخرى وشرع يصفر ، لم تحول اكولينا بصرها عنه . واستطعت ان الحظ انها انفعلت شيئاً ما اختلجت شفتاها وتورد خداها قليلا ..

قالت اخيراً بصوت متقطع ـ فيكتور الكساندريتش ، انه لاثم تأتيه .. انه لاثم تأتيه والله فيكتور الكساندريتش !

سأل مقطباً حاجبيه ورفع رأسه قليلا ملتفتاً نحوها ـ ما الاثم ؟

انه لاثم ، فيكتور الكساندريتش . قل لي ولو كلمة طيبة واحدة في وداعنا ، ولو كلمة طيبة تقولها لليتيمة التعسة ..

ـ وماذا اقول لك؟

لست ادري ، انت تعرف هذا افضل مني ، فيكتور الكساندريتش . ها انت ذا ترحل ، قل لي ولو كلمة واحدة .. لماذا استحق منك هذا؟

ـ يالك من فتاة غريبة . ماذا بوسعي ان اقول؟

ـ ولو كلمة واحدة ..

قال بغيظ ثم نهض ـ اذن انت تدورين حول نفس الموضوع .

اضافت قائلة بعجل ، وهي تحبس دموعها من الانسياب بمشقة ـ لاتغضب فيكتور الكساندريتش .

انا لااغضب ولكنك مجرد حمقاء .. ماذا تريدين؟ اولا تعرفين ، انني لااستطيع الزواج منك ؟ أولا تعرفين جيداً انني لا استطيع؟ اذن فماذا تريدين ماذا ؟ (شخص بوجهه كأنه ينتظر جواباً ونشر اصابعه) .

اجابت متلعثمة وتجرأت بالكاد ان تمد اليه يديها المرتجفتين ـ لاشيء .. لااريد شيئاً لكن ولو كلمة واحدة للوداع ..

وانهمرت الدموع مدرارة من عينها .

قال فيكتور ببرود وامال سدارته من الوراء نحو عينيه ـ حسناً هكذا اذن ، شرعت بالبكاء .

واصلت كلامها وهي تنشج ، غطت وجهها بكلتا يديها ـ لااريد شيئاً ، لكن كيف سيكون وضعي الان في العائلة ، كيف سيكون وضعي ؟ ماذا سيحدث لي ، وماذا ستؤول اليه اموري انا التعسة؟ سيزوجون اليتيمة ممن لاتحب .. يالحالتي البائسة ..

نطق فيكتور بصوت خافت متحولا من جنب الى اخر ـ تأوهي ، تأوهي .

ـ ليته قال لي كلمة واحدة ، ولو واحدة .. اعني اكولينا ، اعني انا ..

لم يسمح لها النشيج الذي تفجر من صدرها على حين غرة باكمال كلامها ، فارتمت ووجهها على العشب واجهشت باكية بكاء مراً مراً .. اهتز جسمها كله متشنجاً ، ارتفع قفا رأسها وهبط .. تدفق ألمها

المحتبس طويلا كالسيل اخيراً وقف فيكتور لحظة عندها ، وقف هز كتفيه ، استدار وسار بخطى واسعة .

مرت بضع لحظات .. هدأت ، رفعتِ رأسها ، وثبت ، نظرت حولها وصفقت يداً بيد ، ارادت ان تعدو في اثره ، بيد ان رجليها خذلتاها ، وتهاوت على ركبتيها .. لم استطع تمالك نفسي فهرعت نحوها ، لكنها ماكادت تجد الوقت للنظر الي ، حتى واتتها القوة من مكان ما ، فنهضت مطلقة صرخة ضعيفة و توارت خلف الاشجار ، تاركة الازهار المبعثرة على الارض .

وقفت والتقطت ازهار العنبر ، سرت خارجاً من الغابة الى الحقل . كانت الشمس منخفضة في السماء الصافية ، بدت الاشعة ايضاً كأنها قد بهتت وبردت : لم تكن تسطع وانما تنساب بضوء مائي متسق تقريباً ، لم يبق للمساء اكثر من نصف ساعة ، بينما شرع الغروب يخضب الافق رويداً ، رويداً بحمرته . انطلقت رياح عاصفة بسرعة للاقاتي عبر بقايا الحصاد الصفراء الجافة ، ارتفعت بعجلة امامهم ، واتجهت اوراق يابسة صغيرة عبر الطريق على امتداد طرف الغابة ، ارتعش جانب الغابة ، المواجه للحقل كالجدار ، كله ولمع لمعاناً ضعيفاً متميزاً لكنه غير ساطع ، تلألأت خيوط لاتحصى كخيوط نسيج العنكبوت واضطربت على العشب الباهت الحمرة والحشائش المتفرقة والقش ، واينما كان ، توقفت .. انتابني الاسى .. مع الابتسامة غير الجذلهة ، الريانة للطبيعة الاخذة بالذبول ، لاح خوف شجي تسلل مع الشتاء الذي اوشك على المجيء . انشق الهواء باجنحته عالياً فوقي ، ثقيلا حاداً ، طار غراب حذر ، ادار رأسه ، نظر الي شزراً ، طار محلقاً وهو ينعب نعيباً متقطعاً وتوارى وراء الغابة ، جال سرب كبير من الحمام مرتفعاً بقوة عن البيدر ، دار بغتة دوراناً كبيراً واستقر منهمكاً على الحقل ـ انها علامة الخريف! مرّ امرؤ ما في الطرف الاخر من التل العاري مصلصلا بعربته الفارغة بصخب ..

عدت الى البيت ، لكن صورة اكولينا البائسة لم تفارق ذهني طويلا ، وكذلك ازهارها التي ذوت منذ أمــد بعيد ومــافتئت باقية معــي حتى الان ..

* * *

هاملت من منطقة شيغروفسكي

تلقيت دعوة للغداء في احدى رحلاتي ، عند الكساندر ميخائيلتش ، غ . الصياد والملاك . تقع ضيعته على مسافة تقارب خمسة فيرسات من مجموعة صغيرة من المساكن التي كنت اسكن فيها انذاك . ارتديت بدلة الفراك الرسمية التي لاانصح احداً ان لايأخذها معه حتى عندما يسافر قاصداً الصيد ،مضيت الى الكساندر ميخائيلتش . حدد وقت الغذاء في الساعة السادسة ، وصلت في الخامسة وجدت جمعاً غفيراً من النبلاء يرتدي ستراً رسمية وملابس المساء وغيرها من البدلات التي هي اقل شيوعاً منها . استقبلني المضيف بلطف ، لكنه اسرع في الحال الى ردهة الخدم . كان ينتظر وصول صاحب مقام خطير ، غشاه شعور بالاضطراب لا يتلاءم قط مع وضعه المستقل في المجتمع الراقي وثرائه . لم يتزوج الكساندر ميخائيلتش أبداً ، لم يحب النساء ، ويتردد العزاب فحسب على حفلاته . كان يعيش برفاه كبير ، لقد وسع بيت اجداده وقسمه بشكل رائع ، كان يوصي على النبيذ من موسكو بمبلغ خمسة عشر الف روبل سنوياً ، ويتمتع عموماً باحترام عظيم . اعتزل

الكساندر ميخائيليتش الوظيفة الحكومية منذ امد بعيد ، ولم يسع وراء اي ضرب من ضروب الابهة .. فما الذي حمله على الاهتمام اكثر مما ينبغي بزيارة ضيفه الوجيه واثار في نفسه كل هذا القلق منذ صباح يوم وليمته المهيبة؟ ظل ذلك سراً من الاسرار الغامضة ، كما الف ان يعبر احد معارفي من كتاب العقود الرسمية عندما كانوا يسألونه هل يأخذ الرشوة من المانحين اياها عن طيبة خاطر ؟

افترقت عن مضيفي ء طفقت اطوف في الغرف . كنت على جهل تام بالضيوف كلهم تقريباً ، جلس نحو من عشرين شخصاً حول طاولات لعب الورق . كان في عدادهم هواة لعبة البرفرانس : اثنان من العسكريين لهما وجهان جليلان ، لكنهما سقيمان قليلا ، وبعض الشخصيات المدنية ، يضعون ربطات عنق ضيقة عالية ، وذوي شوارب متدلية مصبوغة من النوع الموجود فقد عند الناس الرصينين ، لكنهم وديون ايضاً (انتقى اولئك الناس الوديون بوقار أوراق اللعب ، القوا جانباً نظرات على القادمين دون ان يحركوا رؤوسهم) هناك خمسة او ستة من موظفي المنطقة ذوي بطون مستديرة وايد بدينه نضح منها العرق وارجل معتدلة صغيرة ثابتة (تكلم اولئك السادة بصوت ناعم ، ابتسموا بوداعة في كل الجهات ، امسكوا اوراق لعبهم قريبة من صدور قمصانهم ، لعبوا بالاوراق الرابحة دون ان يضربونها على الطاولة ، بل على النقيض ، القوا الاوراق بشكل متموج على القماش الاخضر وحينما جمعوا ماربحوه ، ند منهم صوت مؤدب غاية في اللباقة .جلس بقية النبلاء على الارائك ، او احتشدوا مجاميع عند الابواب والنوافذ ، وقف في الركن امرؤ لايمكن نعته بالشاب ، بل هو شبيه بالمخنث ، يدل مظهره على كونه ملاكاً ، ارتعش ، تضرج حمرة ، لوى بارتباك ختم ساعته على بطنه ، مع ان احداً لم يعر له ادنى انتباه ، اما السادة الاخرون المرتدون ستر فراك مدورة الاطراف وبنطلونات ذات مربعات من صنع الورشة الموسكوفية الخالدة للخياط الماهر فيرزكلوخين ، فقد

تجادلوا دون كلفة فائقة وبنشاط واداروا بحرية رقابهم البدينة العارية ، ثمة شاب يناهز العشرين من العمر اعمش ، اشقر ، مرتد ملابس سوداء كسته من رأسه حتى قدمه ، بدا الارتباك واضحاً عليه لكنه كان يضحك ضحكاً لاذعاً ....

ومع ذلك اخذ يغشاني الضجر قليلا ، حينما انضم الي شخص يدعي فوينيتسين وهو امرؤ لم يكمل تحصيله العلمي ، عاش في بيت الكساندر ميخائيليتش بصفة .... من الصعب القول ، باي صفة على وجه التحديد . كان يجيد الرماية وبمقدوره ترويض الكلاب . عرفته سابقا في موسكو . انه من صنف اولئك الشباب الذين يصادف ان ((يلعبوا دور المصعوق)) في كل امتحان ، اعني لا يجيبون بكلمة واحدة عن اسئلة البروفسور . كان اولئك السادة يسمون ، لجمال العبارة ، باصحاب الفودان . ((ان هذه من قضايا الايام الغابرة ، كما ترون))[1] . كانت تنظم الامور على هذه الصورة : ينادون ، مثلا ، فوينيتسين . ظل فوينيتسين حتى ذلك الوقت جالسا باستقامة ، دونما حراك في مقعده ، وقد نضح عرقا حارا ، من اخمص قدمه الى قمة رأسه ، اجال بصره ببطء وغباوة فيما حوله ، ، ثم نهض ، زرر على عجل سترته الرسمية الى اعلاها وشق طريقه على جانب نحو طاولة الممتحن .

قال الاستاذ له بلطف ــ تفضل وخذ بطاقة .[2]

مد فوينيتسين يده ، تناولت اصابعه المرتعشة حفنة من البطاقات .

((ارجوك لا يجوز ان تختار البطاقة)) ــ أبدى له تلك الملاحظة ، صوت مرتج صدر من استاذ عجوز سريع الغضب من الاساتذة الخارجيين لكلية اخرى ، وقد لاحت عليه فجأة امارات المقت لصاحب الفودين السيء الطالع . استكان فوينتيسن لمصيره ، اخذ بطاقة ، وعرض رقمها على الاستاذ ، ذهب ليجلس عند النافذة ، مادام سلفه لم يجب بعد عن السؤال . لم يرفع فوينيتسين بصره عن البطاقة الا ليجيل طرفه كالسابق ببطء فيما حوله ، علما انه لم يحرك اي عضو في

جسمه . ومع ذلك فها هو ذا سلفه قد اكمل امتحـــانه وقيل له : ((جيد ، يمكنك الذهاب)) او حتى ((جيد ايها السيد ، جيد جــدا)) ويعتمـــد ذلك على قدرته . ها هم ينادون فوينيتسين ، ينهض فوينيتسين بخطى ثابتة ويقترب من الطاولة .

قيل له : ((أقرأ السؤال في البطاقة)) .

رفع فوينيستين البطاقة بكلتا يديه الى طرف انفه وشرع يقــرأ ببطء ويرخي يديه بتماهل ايضا .

يقول له الاستاذ الاول نفسه بتوان ــ ((حسنا ، تفضل بالاجـــابة عن السؤال)) ثم يرسل جســـمه الى الوراء في كرســـيه ويشـــبك يديه على صدره .

خيم صمت القبور على الغرفة .

((مالك لا تجيب؟))

لاذ فـــوينيتسين باذيال الصـــمت ، بدأ الغضـــــب يتملك الاســــتاذ الخارجي ....

((ــ قل شيئا ما)) .

لزم فوينيتسين الصمت كأنه همد في مكانه . تراءى قفا رقبته الحليق جامدا ثابتا امام نظـــرات رفـــاقه المســـتطلعة . كادت عينا العجــــوز الخارجي ان تجحظا من حدقتيهما : لم يعد يطيق فوينيتسين نهائيا .

علق استاذ آخـــر ــ ((اوليس هـــذا غريباً أذن ، مـــــالك لا تنطـــق كالاخرس؟ طيب انت لا تعرف الجواب ، اوليس كذلك؟ حســـنا قـــل لا اعرف)) .

تمتم المذكود بصـــوت خفيض ــ ((اســـمحوا لي ان آخـــــذ بطــــاقة اخرى)) . نظر الاساتذة الى بعضهم بعضا .

اجاب رئيس الممتحنين ملوحا بيده ــ ((حسنا ، خذ بطاقة اخرى)) .

تناول فوينيتسين بطاقة مرة اخرى ، ذهب مجـــددا الى النافـــذة عاد ثانية الى الطاولة واخلد الى الصمت مـــرة اخـــرى كالمقتول . اصـــبح

الاستاذ الخارجي في حالة يكاد معها ان يزدرده حياً . وضعوا له درجة صفر . تظنون : انه سيغادر القاعة على اقـل تقـدير؟ كلا ابدا عاد الى مكانه ، جلس الجلسة الجامدة ذاتها حتى نهاية الامتحان ، وعندما هم بالخروج هتف «ياللحلاوة! وياله من واجب!» ظل يتسكع طوال ذلك اليوم في موسكو ، يمسـك برأسـه احياناً ، لاعناً بمـرارة حـظه النكد . كان لا يقوم بقراءة الكتاب ، وتتكرر القصة نفسها في امتحان صباح الغد .

ها هو ذا فوينيتسين الذي جلس قربي . تحدثنا معا عن موسكو وعن الصيد . همس لي بغتة ـ الا تود ان اعرفك هنا على ذكات من الدرجـة الاولى؟

ـ اعمل معروفا .

قادني فوينيتسين الى امرىء قصير القامة ، ذي ذؤابه شعر مـرتفعة وشاربين ، يرتدي سترة فراك بذيه وربطة عنق متعددة الالوان . حقا ان قسماته الساخرة الحيوية تنم دون ريب عن الذكاء والسـخط . زمـت ابتسامة سريعة ساخرة شـفتيه باسـتمرار ، نظـر بعينيه المزرورتين السوداوين نظرات جريئة من تحت اهدابه غير المسـتوية . وقـف على مقربة من ملاك عريض ، رقيق ، حلو ، سـكر معسـول حقيقـي ، لكنه اعور . انه يضحك مسبقا ضحك انسان قصير ظريف ، كأنه يذوب هـو نفسه من السرور . قدم فوينيتسين لي الذكات وسماه بيوتر بيتروفيتش لوبيخين تعارفنا وتبادلنا اولى كلمات التحية .

قال لوبيخين على حين غرة وبصوت حـاد ، بعـد ان امسـك الملاك السكري من يده ـ اسمح لي ان اقدم لك افضل اصدقائي ، واسـتطرد قائلا ـ لا تنسحب كيريلا سيليفانيتش ، فلن يعضك احد .

واصل كلامه ، بينما انحنى كيريلا سيليفانيتش الحـائر في اثناء ذلك انحناءات مرتبكة ، حتى ـ بطنه قد تدلى ـ هذا هو ، هذا هـو السـيد الذي اقدمه لكم ، نبيل من النبلاء الممتازين كان يتمتع بصـحة رائعـة حتى بلغ الخمسين من عمره ، وفجأة خطر له ان يعـالج عينيه ، ممـا

ادى الى تلفها . وما فتيء يعالج فـلاحيه بمثل ذلك النجـاح ... طيب ، وهم ايضا دون شك ، قابلوه بوفاء مماثل ...

تمتم كيرلا سيليفانيتش ـ يالك من رفيق ، واخذ يضحك .

تابع لوبيخين كلامه ـ اكمل حديثك ياصديقي ، اكمل حـديثك ، على اية حال ، اخشى ان يتمكنوا من انتخـابك في المحـكمة ، سـينتخبونك ، سترى) حسنا . هب ان المحلفين في المحكمة ، سوف يفـكرون عوضـا عنك ، بالتأكيد ، ومع ذلك تظل بك حاجة لامتلاك المقـدرة على التعبير ، في كل الاحوال عن افـكار غيرك . ربمـا يأتي المحـافظ على حين غرة ويسأل : ما للقاضي يتلجلج في كلامه؟ حسنا ، هبهم ، سـيقولون انهـا اصابة بالشلل ، حينئذ سيقول : فصدوا دمـه اذن)) وهـذا غير لائق ، واظنك توافقني الرأي بشأن منصبك .

عندئذ استغرق الملاك السكري الضحك .

واصل لوبيخين كلامه وهو ينظر بغيظ الى بطن كير يلا سيليفانيتش المهتز ، ـ انظر اليه انه يضحك . استطرد قائلا موجها الحـديث الي ـ ولم لا يضحك ؟ شبعان ، معافى الصحة ، لا اطفال عنده ، فـلاحوه غير مرهونين ، فهو يعالجهم بنفسه ، زوجه ناقصة العقل لحد ما . ((التفت كيريلا سيليفانيتش قليلا الى جانب كأنه لا يسـمع شـيئا ، وواصـل قهقهاته .)) انني اضحك ، بينما زوجي قد هربت مع مسـاح ((وكشر عن اسنانه)) لعلكم لا تعـرفون ذلك؟ وكيف لا! هـكذا اقـدمت فجـأة وهربت ، تاركة لي رسالة : عزيزي بيوتر بيتروفيتش ، ارجو مغفـرتك اسرتني العاطفة المشبوبة وذهبت مـع صـديق قلبي .... اسرني لانه لا يقلم اظافره ويرتدي بنطلونا ملتصقا عليه . لعلكم تتعجبون وتقـولون؟ ((يالها من امرأة صريحة)) نحن ، يا الهي ، ابناء السهول ، نعلم كيف نفتح رحم الحقيقة . ومع ذلك ، دعنا نذهب في جهة اخرى . فليس ثمـة حاجة بنا كي نقف قرب قاضي المستقبل ...

اخذني من ذراعي وذهبنا الى النافذة .

قال لي في اثناء الحديث ـ اشتهر هنا كنكات ، ولكنك لا تصدق هذا ، انني مجرد شخص ساخط ، اشتم جهارا : لذلك ، فانني غير متكلف . ولماذا ينبغي علي ان اجامل حقا؟ انا لا اهتم مثقال ذرة باي فكرة ، ولا أروم شيئا لنفسي ، ان لساني خبيث ـ وما ضير ذلك؟ اللسان الخبيث ليست به حاجة ، على اقل تقدير الى العقل ... وكم هو منعش هذا ، لعلك لا تصدق .... حسنا خذ مثلا ، هيا انظر الى مضيفنا! حسنا ما باله يتعجل ويرنو الى الساعة بين فينة واخرى ، يبتسم ، ينضح عرقا ، يتخذ مظهرا رصينا ، ويتركنا نموت جوعا؟ كأن الشخص ذو الشأن الخطير ، منظر فريد بالنسبة له! ها هو ذا ، ها هو ذا مستعجل مرة اخرى انظر ، لقد شرع يعرج .

اطلق لوبيخين ضحكة زاعقة .

واصل كلامه ، تنهد تنهدا عميقا ـ ثمة نقص واحد : انه غداء عزاب ، وليس فيه سيدات ، بينما يطيب لنا نحن الرجال الوجود قربهن . وهتف فجأة ـ انظر ، انظر ، الامير كوزيلسكي قادم ، ها هو ، ذاك الرجل الطويل ذو اللحية والقفازات الصفر . من الجلي الان ، انه كان في الخارج .... والف ان يأتي دائما متأخرا . اقول لك ، ان ذلك الرجل الوحيد غبي كزوج من خيول التجار لكن تفضل والق نظرة ، كيف يتحدث بشيء من الشعور بالتنازل مع الرجال ، كيف يتكرم ويبتسم بسماحة على لطف امهاتنا وبناتنا الجائعات ! ... احيانا ينكت هو نفسه قائلا من العبث ان يعيش هنا وياله من اسلوب في التنكيت ! لا يمكن حتى للسكين المثلمة ان تبرد به خيوط الحبال . انه لا يطيق وجودي قط .... سأذهب وانحني له .

وهرع لوبيخين لملاقاة الامير .

قال لي فجأة بعد ان رجع الي ـ هاهو ذا عدوي الشخصي آت ، اترى ذلك المرء البدين ذا الوجه الاسفع والهلب على رأسه ، ذاك الذي يمسك قبعته بيده ، يتسلل عند الجدار ، يتطلع في كل الجهات فيما حوله

كالذئب؟ لقد بعته جوادا باربعمـــائة روبل ، وكان ثمنه الحقيقـــي الف روبل . والان يمتلك هذا المخلوق الوضيع كامل الحق ليزدريني ، بينمـــا هو نفسه يفتقر الى المقدرة على الفهم ، ولا ســـيما في الصـــباح ، قبيل تناول الشاي ، او حالا بعيد الغداء ، فاذا قلت له : طاب نهارك ، فـــانه يجيبك : طاب ماذا ايها الســـيد؟ اســـتطرد لوبيخين في كلامـــه ، وهـــذا جنرال قادم ، جنرال مدني متقاعد ، جنرال مفلس ، عنده ابنة مصـــفاة من سكر البنجر ، ومصنع في طريقه للخـــراب ... انني للوم ، لا يجـــوز قول ذلك ... حسنا ، انت تفهم ما اعني . اها ! وهذا مهندس معمـــاري وجد طريقه الى هنا ! الماني ، ذو شـــوارب ، لا يعـــرف شـــيئا في عمله ، عجائب .... على كل حال ، ما الذي يحمله على معـــرفة عمله ، كل مـــا يفعله اخذ الرشاوي ووضع الاعمدة والدعائم اكثر فاكثر لاعمدتنا مـــن النبلاء ! .

قهقه لوبيخين مرة اخرى .... لكن شـــاع على حين غرة قلق مثير في البيت كله . لقد وصل صاحب المقام . هرع المضيف الى غرفة الانتظار . اندفع في أثره بضعة افـــراد مـــن اتباع اهـــل بيته وبعض الضـــيوف المتحمسين .... انقلب الكلام الصاخب الى حديث وديع ، لطيف ، شبيه بطنين النحـــل في خـــلاياها ابان الربيع . ان لوبيخين وحـــده ـ الدبور الذي لا يكل ، وكوز يلســـكي ـ اليعســـوب الباهـــر ، لم يخفضـــا صوتهما ..... اخيرا دخلت الملكة ـ دخل صاحب المقام الكبير . اندفعت القلوب للقائه ، نهضت الابدان الجـــالسة ، حتى الملاك ، الذي اشـــترى الحصان مـــن لوبيخين بثمـــن بخس ، حتى ذلك الملاك اختفـــى ذقنه في صدره . ابدى صاحب المقام جدراته على افضل ما يكون : هـــز رأســـه الى الوراء ، كأنه ينحني ، فاه ببضع كلمات نمـــت عن الاســـتحسان ، وبدأ كل كلمة منها بحرف أ ، نطقها ممدودة ومن انفه ، نظر بامتعـــاض وصل درجة الاشمئزاز الى لحية الامير كوزيلسكي ، قـــدم الى الجنرال المدني المفلس صاحب المصنع ولابنته اصـــبع الســـبابة ليده اليسرى .

توجه الحشد كله الى غرفة الطعام ، وفي مقدمته ذوو الشأن .. بعد بضع دقائق استطاع فيها صاحب المقام ان يشير مرتين الى انه مسرور لعدم تأخره عن موعد الغداء .

لا يسعنا الا ان نقص على القاريء ، كيف اجلسو صاحب المقام في المكان الاول بين الجنرال في الخدمة المدنية وجنرال نبلاء المحافظة ، وهو امرؤ يعلو وجهه تعبير طلق وقور ينسجم تماما مع صدر قميصه المنشى، وصدريته الواسعة وعلبة السعوط المدورة الملأى بالتبغ الفرنسي ، كم انشغل المضيف ، نشط ، كثرت حركته ، حث الضيوف على تناول الطعام على عجل من صحن الحساء او قطعة من لحم البقر ، بينما قدم رئيس الخدم سمكة طولها ثلاثة اقدام في فمها اضمامة ورد ، أترون كيف ارتدى الخدم بزة موحدة ، واتخذوا مظهرا صارما وهم يقتربون متجهمين من كل نبيل ، مقدمين شراب المالاغا او ماديريا الجاف وكيف كان جميع النبلاء تقريبا ، ولا سيما الكبار منهم وكأنهم اذعنوا ، كارهين للشعور بالواجب ، يشربون القدح تلو القدح ، اخيرا اصطفت زجاجات الشمبانيا وشرعوا يشربون انخاب صحة بعضهم بعضا : ان هذه الاشياء ، على الارجح ، مألوفة للغاية لدى للقارىء ، لكن بدت لي النكته التي رواها صاحب المعالي وسط صمت جذل عام جديرة بالملاحظة .

علق احدهم ــ واخاله الجنرال المفلس المطلع على احدث الاتجاهات الادبية ــ عن تأثير النساء عموما ولا سيما تأثيرهن في الشباب من الناس . اكد صاحب المعالي ((اجل ، ،اجل ، هذه حقيقة موجودة ، لكن الشباب يجب ابقاءهم ضمن ضبط شديد ، والا سيفقدون صوابهم حسبما ما اظن ، من رؤية اية تنورة مهما كانت)) (مرت ضحكة طفولية مرحة على وجوه كل الضيوف ، بل ان التعبير عن الامتنان لاح على طلعة احد الملاكين) . ((لان الشباب ما برحوا حمقى)) (غيّر صاحب المعالي احيانا ، لعله التماسا للوقار ، النبرات العامة للكلمات)

((وواصل كلامه ـ هـذا على سـبيل المثال ابني ايفـان ، مـا ان بلغ الاحمق العشرين من عمره ، حتى اتى ليقول لي فجأة : ((ابتي ، اسمح لي ان اتزوج)) اجبته :((ايها الاحمق اشتغل بوظيفة اولا ....)) طبعا ، يأس ، دموع ... لكن هكذا يجب من وجهة نظري ...)) (لفـظ صـاحب المعالي كلمة ((هكذا)) من بطنه اكثر مما لفظها من شـفاهه : صـمت هنيهة ، نظر بجلال الى جاره ، بينما رفع الجنرال حاجبيه اعلى كثيرا مما يتوقع ان يفعله . أمال الجنرال في الخـدمة المدنية رأسـه بلطـف جانبا .... رمش بسرعة فائقة احدى عينيه تجـاه صـاحب المعـالي .) ((بدأ صاحب المعالي الكلام مرة اخرى ـ وماذا تظنون ، الان يكتب لي هو نفسه ، شكرا يا أبتاه على تعليمك للاحمق ... هذا هو السبيل الذي يجب ان نسلكه)) وافق جميع الضيوف ، دون شك ، المتحدث على رأيه تماما ، وكأنهم شـعروا بالانتعـاش ، لانهـم حـظوا منه بالسرور والارشاد . نهضت المجموعة كلها بعـد الغـداء ، مضـوا الى غرفـة الاستقبال بضجة كبيرة ، لكنها مـؤدبة وكأنه مسـموح بهـا في هـذه الحالة .... وجلسوا يلعبون الورق .

قضيت الوقت كيفما اتفق حتى حلول المساء ، طلبت من حوذيي ان يعد العربة غدا في الساعة الخامسة صـباحا ، وذهبت الى الفـراش . لكن سنحت لي الفرصة ، ان اتعرف في اثناء ذلك اليوم ، على شخص رائع .

لم ينم احد في غرفة منفردة جراء كثرة الضـيوف الوافـدين . كان في الغرفة الصـغيرة ، ذات اللون الخفيف الخضرة والرطبة التي قـادني اليها كبير خدم الكساندر ميخائيليتش ، ضـيف آخـر ، خلع مـلابسه كلها . وما ان رآني ، حتى اندس برشاقة تحت اللحـاف ، تغـطى الى انفه ، تلوى ، وتحرك قليلا على ريش الفراش الهش وهدأ ، نظر نظـرة ثاقبة من تحت الحاشية المستديرة لقلنسوته القطنية . دنوت من السرير الاخـر (كان في الغـرفة سريران) ، خلعـت ثيابي واضـطجعت بين الشراشف الرطبة . اخذ جـاري يتململ في فـراشه ... تمنيت له ليلة

طيبة .

مضت نصف ساعة . ورغم جميع محاولاتي ، فقد جفاني النوم : ان حشدا لا متناهيا من الافكار الغامضة اللا ضرورية تتابعت بعضها في اعقاب بعض ، في اصرار ورتابة ، كأنها دلو ماكنة لرفع المياه .

قال جاري ــ يبدو انك لم تنم؟

اجبته ــ كما تراني ، وانت ايضا ارق مثلي؟

ــ انني ارق دائما .

ــ وكيف يمكن ذلك؟

ــ هكذا ، اذهب لانام ، دون ان اعرف لماذا ، استلقي ، واستلقي ، حتى انام بعدئذ .

ــ ولماذا تضطجع في الفراش ، قبلما تشعر بحاجة للنوم؟

ــ وماذا تقترح علي ان افعل؟

لم اجب عن سؤال جاري .

تابع كلامه بعد هنيهة صمت وجيزة ــ اني لمتعجب من عدم وجود براغيث هنا . اين يمكنها ان تكون على ما يبدو ، مادامت ليست هنا؟

علقت قائلا ــ يظهر ، كأنك تأسف على غيابها .

ــ كلا ، لست آسفا عليها ، لكني احب تتبع المنطق في كل شيء .

فكرت في سريرتي ــ ((اية كلمات يستعملها)) .

لزم جاري الصمت مرة اخرى .

انشأ فجأة في الكلام ، بصوت عال الى حد ما ــ اتود ان تتراهن معي؟

ــ على اي شيء؟

اخذ يداخلني السرور من كلام جاري .

ــ هم .... على اي شيء؟ على هذا : انني واثق ، انك تظنني احمق :

تمتمت منذهلا ــ ارجوك ...

ــ قل الحق ... انت تتصورني همجيا جاهلا ....

اعترضته قائلا ـ لم اسعد بعد بمعرفتك ، فلماذا اخذت تستنتج ...
ـ لماذا ! حسبي بنبرة صوتك وحدها : انت تجيبني بعدم اكتراث بالغ ... ولكنني لست قط بالشخص الذي تظنه ...
ـ اسمح لي ....
ـ كلا ، اسمح لي انت ... انني اولا اتكلم الفرنسية ليس اسوأ منك ، والالمانية اجيدها افضل ، ثانيا قضيت ثلاث سنوات في الخارج : عشت في برلين وحدها ثمانية اشهر . درست هيغل ، يا سيدي العزيز ، واعرف غوته عن ظهر قلب ، زد علي ذلك ، انني عشقت طويلا ابنة بروفسور الماني ، تزوجت في وطني من فتاة مسلولة صلعاء ، لكنها شخصية رائعة وبناء على ذلك ، فانني ند لك ، ولست همجيا ، كما تحسب .... انني ايضا استغرق بالتأمل وما من شيء بسيط قي .

رفعت رأسي ، نظرت الى المرء العجيب بانتباه مضاعف . استطعت ان اتبين ملامحه بمشقة في ضوء الليل الباهت .

استطرد في كلامه ، وقد عدل قلنسوته ـ ها انت ذا تنظر الي الان ، وتساءل نفسك على الارجح : كيف اتفق ولم الاحظ وجوده اليوم؟ واقول لك ، لماذا لم تلحظني ـ من جراء ، انني لا أرفع صوتي ، من جراء اختبائي وراء الاخرين ، اقف خلف الابواب ، لا اتحدث مع احد ، ومن جراء ان الخادم عندما يمر قربي وبيده الصينية ، يرفع مرفقه مسبقا الى مستوى صدري .... لماذ؛ يجري كل هذا ؟ لسببين ، الاول لانني فقير ولكوني استكنت ... قل الحق .. الم تلحظ وجودي ؟
ـ حقا انني لم املك هذه الغبطة ....

قاطعني ... بالتأكيد ، بالتأكيد ، اعرف ذلك .

نهض قليلا ، شبك ذراعيه ، امتد الظل الطويل لقلنسوته الليلية من الجدار الى السقف .

استطرد في كلامه فجأة ونظر الي شزراً ـ لكن اعترف لا ريب ، انني ابدو لك امرءاً بالغ الغرابة ، شخصية اصيلة كما يقولون او لعلني

اكون اسوأ من ذلك : لربما تخالني . اتظاهر كشخص غريب الاطوار؟
ـ يجب ان اكرر مرة اخرى ، انني لا اعرفك ....
اطرق برأسه للحظة .
ـ لماذا انطلقت بالحديث معك على حين غرة وانت شخص لا معرفة لي بك البته ـ الله ، الله وحده اعلم (وندت عنه تنهدة) اوليس ذلك بسبب قرابة روحية ! ان كلينا ، انت وانا ، شخصان محترمان ، اعني انانين : وليس ثمة ادنى علاقة لشؤوني بك او لشؤونك بي ، اوليس كذلك؟ لكن لم يستطع احد منا ان ينام .... ولماذا لا نتحدث قليلا؟ انني في الذروة الان ، وقلما يحدث لي هذا . اولا ترى ، انني خجول ، لست خجولا بحكم كوني من الاقاليم ، او لاني لا املك رتبة ، او لفقري ، وانما بمقتضى كوني انسانا عزيز النفس بشكل مفرط .

لكن احيانا يتلاشى خجلي تماما ، كما هو شأني الان مثلا ـ تحت تأثير الظروف والمصادفات الحسنة ، التي رغم كل شيء ، لست في حالة تمكنني من تحديدها او التنبؤ بها ـ ضعني الان وجها لوجه حتى مع داليا ـ لاما نفسه ، فانني استطيع ان اطلب منه حفنة نشوق لاشمها . ومع ذلك ، لعلك تريد ان تنام؟

اعترضت بسرعة قائلاِ ، على العكس ، ان التحدث معك لطيف للغاية .

تعني ، انني أسليك ، كما تريد ان تقول .... حسن جدا .... طيب ، اود اخبارك ، ان الناس في هذه الاصقاع يخلعون علي شرف تسميتي بالاصيل ، اعني يخلعون علي هذا الشرف بشكل عرضي ، يجري اسمي على السنتهم مع الهراء الذي يفوهون به . ((فلا احد معني بمصيري كثيراً))[٣] يظنون انهم يمسون كبريائي ... اواه يا الهي لو كانوا يعلمون .... انني اتحطم بالضبط من عدم وجود شيء اصيل فيّ مطلقا ، لا شيء ماخلا هذه النزوات الصبيانية كالحديث الحالي معك ، على سبيل المثال ، لكن هذه النزوات لا تساوي فلسا نحاسيا .
انها ابخس انواع الاصالة وأوطأها .

ادار وجهه نحوي ولوح يديه .

هتف قائلا ـ سيدي العزيز انا أؤمن بالفكرة القائلة ـ ان الحياة على الارض عموما هي للناس الاصيلين ، انهم وحدهم يملكون الحق في العيش وقد قال امرؤ ما :

[4]mon verre n'est pas grand , mais je bois dans mon verre

(ان قدحي غير كبير ، لكنني اشرب من قدحي) . واضاف بصوت خافت ـ اترى كيف اتكلم اللغة الفرنسية بصفاء . لكن ما قيمتها بالنسبة لي ، اذا كان عقلك عظيما واسعا ، وتدرك كل شيء ، تعرف الكثير ، لا تتخلف عن عصرك ـ لكنك بالمقابل لا تمتلك شيئا خصوصيا وذاتيا متفردا قط ! ستكون مجرد غرفة امتعة زائدة بين الاماكن العامة التي يعج العالم بها ، واي سرور يرتجى منه؟ كلا ، كن حتى بليدا ، لكن ذا خصوصية متفردة ! ليكن لك رائحتك ، رائحتك الذاتية على الاقل ... تخال ان متطلباتي حيال هذه الرائحة هائلة .... استغفر الله ! ان اولئك الاصيلين جمع غفير : حيثما تنظر ، تجد امرأ اصيلا ، ان كل انسان حي اصيل بهذا المعنى ، لكنني لست في عدادهم .

تابع كلامه بعد برهة صمت وجيزة ـ ومع ذلك ، فاية آمال حملتها في شبابي واية فكرة سامية غذيتها في نفسي عن شخصي قبيل السفر الى الخارج ، وبعيد عودتي مباشرة ! بالتأكيد ، كانت اذناي تلتقطان الاشياء بانتباه في الخارج ، شققت طريقي الخاص في الحياة ، كما يترتب على امثالنا من الناس ان يفعلوا ، اولئك الذين يعرفون كل شيء و يدركونه ، وفي النهاية تنظر ـ واذا بهم جاهلون جهلا مطبقا .

استطرد وهو يهز رأسه معنفا .... الاصيل ، الاصيل ، يسمونني اصيلا ... ويظهر في الواقع ، انه ليس في الدنيا امرؤ اقل اصالة من خادمك المطيع . ينبغي ان اكون قد ولدت كصورة تقليدية لشخص آخر ... وايم الله ! كأنني اعيش حياتي مقلدا عددا من الكتاب المختلفين الذين درستهم ، اعيش بعرق جبيني : لقد درست ، احببت ،

تزوجت ، ولكن كما لو ان كل ذلك لم يتم بارادتي الذاتية المحضة ، بل كأنني انجزت ، لا يمكن تسميته واجبا ، ولا درسا ـ ومن يدري ماهو .

خلع القلنسوة عن رأسه والقاها على الفراش .

سألني بصوت متقطع النبرة ـ أترغب في ان اروي لك قصة حياتي كاملة ، او الافضل بعض ملامح منها ؟

اعمل معروفا .

ـ كلا ، من الاحسن ان احدثك كيف تزوجت . اترى ، ان الزواج قضية خطيرة ، حجر المحك للانسان برمته ، فهو ينعكس فيها كما في المرآة ... اجل ان هذه المقارنة مبتذلة للغاية ... اسمح ان اشم السعوط .

اخرج من تحت الوسادة علبة النشوق ، فتحها ، شرع يتكلم مجددا وهو يلوح بعلبة النشوق المفتوحة في الهواء .

حاول ، ايها السيد العزيز ان تكون في موقفي ... واحكم بنفسك ، حسنا ، تفضل وقل رجاء ـ اي نفع خرجت به من موسوعة هيغل؟ قل لي ماهو الجامع الذي يجمع بين هذه الموسوعة والحياة الروسية؟ وكيف تبغي تطبيقها على ظروفنا ، لا ليست وحدها ، اعني الموسوعة وانما الفلسفة الالمانية عموما ... بل اقول اكثر من هذا ، العلم الالماني؟

نط على الفراش ، دمدم بصوت خافت ، ضغط بشدة وحنق على اسنانه :

ـ اها ، هذه هي القضية ، هذه هي ! .. اذن ما الغرض من تسكعك في الخارج ؟ ولم لم تبق في الوطن ، تدرس الحياة المحيطة بك في مكانها؟ كان بمستطاعك ان تعرف حاجاتها ومستقبلها وكذلك ، يمكن القول بشأن التوصل الى ادراك جلي لرسالتك في الحياة ... استطرد ، مغيرا صوته مجددا ، كأنه يبرر لنفسه ويساوره شعور بالخجل ـ وكيف يمكن للناس من امثالنا ان يدرسوا شيئا لم يقم عالم واحد بتدوينه حتى الان في كتاب ! ان السرور ليتملكني لو كنت استطيع اخذ الدروس منها ، من الحياة الروسية ـ ولكن حبيبتي لم تفه بكلمة واحدة . يبدو انها تقول :

خذني كما انا عليه ، ولكن ليس بمقدوري ذلك ، اعطني نتيجة ، قدم لي استنتاجات .... اســتنتاجات؟ يقــولون لك : اصــــغ الى حــــكمائنا الموسكوفيين[٥] ، اوليس غناؤهم حلوا كغناء البلابل؟ اجل ، وهنا تكمن المصيبة : انهــم يصــفرون مثل بلابل كورســك ، ولا يتكلمــــون كبني آدم ..... ها انا ذا قد فكرت وامعنت في التفــكير ، ثم توصــلت الى ان العلم في الظاهر واحد في كل مــكان ، والحقيقــة واحــدة ـ قــررت ان ارحل ، بعونه تعالى ، الى ديار الغربة ، الى الوثنيين ..... وماذا تطلب اكثر مــن هــذا التبرير ! ـ الشــباب والكبرياء ســيطرا على كياني . اتدري ، لم ارغب ان اصبح مفــرط الســمنة قبيل اواني ، رغم انهــم يقولون السمنة عافية . مع ذلك ، من لم تهبه الطبيعة لحما على عظــامه منذ البداية ، فلن يصبح بدينا مهما كان الامر .

استطرد بعد لحظة من التفكير ـ ومــع ذلك ـ اظــن انني وعدتك ان احدثك كيف تزوجــت . اصــغ الي ـ اخبرك اولا ، ان زوجتي لم تعــد مــوجودة في هــذا العــالم ، ثانيا ... ثم ثانيا ، ارى مــن الضروري ان احدثك عن شبابي ، والا فلن تفقه مني شيئا ... ولكن ألا تود ان تنام؟

ـ كلا ، لا اريد .

ـ رائع ! اذن اصغ الي فحسب .... هــا ان الســيد كانتا غروخين في الغرفة المجاورة يشخر كالحوذي ! ولدت مــن والدين غير ميســورين . واقول والدين لان الاســطورة تروي انه كان لي اب اضــافة الى الام . انني لا اذكره ، يقولون كان امــرأ ضــيق الافــق ، له انف كبير ، نمش الوجه ، احمر الشعر ، ينشق السعوط من منخر واحد ، كانت صــورته معلقة في غرفة النوم لدى والدتي مرتديا سترة ذات ياقة سوداء تصــل الى اذنيه ، وهو دميم للغاية صادف احيانا ان اقتادوني قرب الصورة لغرض جلدي وكانت والدتي ، في مثل تلك الحالات ، تشــير اليه دائمــا وتقول : انه كان سيعاملك بقسوة اكبر . بوسعك ان تتصــور كيف كان ذلك يشجعني ! ما من اخ لدي ولا اخت ، اعني ، اذا قلت الحقيقة ، كان

لي اخ صـغير عليل ، مصــاب بكســاح الاطفــال الانكيزي في رقبته ، سرعان ما وافته المنية .... لعلك تفــكر ، كيف وجـد مـرض الكســاح الانكليزي طريقه الى محـافظة كورسك في منطقــة شــيغروفسكي؟ لكن القضية لا تكمن هنا . قامت امــي بتربيتي بكل الحمية الجــامحة لدى الملاكة في مناطق السهول : وانشغلت بي منذ اليوم العظيم لولادتي حتى بلغت السادسة عشر من عمري .... اما زلت تتابع احداث قصتي؟

ــ بالتأكيد ، واصل كلامك؟

ــ حسنا ، اذن . ما ان بلغت السادسة عشــرة من عمري ، حتى قامت والدتي ، دون ادنــى توان ، وطــردت معلمــي الفــــرنسي ــ الالماني فيليبوفيتش وهو من اليونانيين القــاطنين في مــدينة نيجني ، اقتادتني الى موسكو ، ادخلتني الجــامعة ، ثم اســلمت روحهــا الى الكلي القــدرة وتركتني في كنف احـد اقــاربي ، كاتب العقــود كولتون بابوارا ، ذلك الطائر الذي لا تقتصر شهرته على منطقة شيغروفسكي وحدها . سـلب قريبي هذا ، كاتب العقــود كولتون بابوارا كل مــا عندي ، كمــا هــو معروف في مثل تلك الحالات ...... ومــع ذلك فــالقضية لا تكمــن هنا . دخلت الجــامعة ــ ولابد ان اكون منصــفا حيال والدتي ، التي اعدتني بشكل مرض ، لكن لوحظ منذ ذلك الحين نقص الاصالة فيّ . ان صباي لا يختلف في كثير او قليل عن صبا الفتيان الآخرين : ترعرعت ايضــا بغباوة وخمول كأنني عشت حياتي بين ريش الفــراش ، بدأت ايضــا مبكرا في حفظ الاشعار عن ظهر قلب وكنت اشعر بالخمول مبررا اياه بالنزعة الحالمة لدي .... وماذا كنت اروم؟ اروم الجمال .... وغير ذلك . نحوت المنحى ذاته في الجامعة : سرعان ما انضممت الى حلقــة . كانت ازمان اخرى حينئذ .... لكن لعلك انت لا تعرف ماهي الحلقة؟ اتذكر ما قاله شيلر في مكان ما :ــ

خطر ايقاظ الاسد Geféhrlich istś den leu zu wecken

ورهيبة انياب النمر und schrecklich ist des tigers zahn،

ولكن اهول الاهوال — Doch das schrecklichste der schrecken
هو الانسان بلا عقل *Das ist der mensch in seinem wahn

أؤكد لك ، لم يرد ان يقول ذلك ، بل اراد ان يقول : انها حلقة طلاب في مدينة موسكو Das ist ein «kruzhok» in der stadt moskau!

سألته — وما هو الشيء الرهيب الذي وجدته في الحلقة الطلابية؟

أمسك جاري بقلنسوته وأمالها على انفه .

هتف قائلا — ماهو الشيء الرهيب؟ هذا هو الامــر : الحلقــة — هــي تحطيم كل تطور اصيل ، الحلقة — هي التحــويل الممســوخ للمجتمــع للمرأة ، للحياة ، الحلقة .... تمهل لحظة ، وســأقول لك مــا الحلقــة ! الحلقة — هي ضرب من المعيشة الكسول الخاملة المشتركة بعضــا مــع بعض ، يخلعون عليها معنى القضية الفكرية ومظهرها ، الحلقة تستبدل الكلام بالجدل ، تعلم على الثرثرة المجدبة ، تشغلك عن العمــل المتفــرد النافع ، تغرس فيك الغضب الادبي ، تحرمك اخيرا من طــراوة القــوة الروحية وعذريتها . الحلقة — هي التفاهة والسأم تحت اســم الاخــوة والصداقة ، وسلسلة متكاملة من الاغلاط والادعاءات بحجة الصراحة والتعاون ، في الحلقة وبفضل حق كل صديق ، ان يولج في كل وقت وكل ساعة اصابعه المتسخة مباشرة في مشــاعر الرفيق الداخلية ، لا يبقــى مكان نظيف غير ملموس في روح احد ما ، في الحلقة يحترمون المهــذار الفارغ والعقل المغرور ، والشــباب الذين تقمصــوا عادات المســنين ، يدللون كل شويعر عديم الموهبة ، لكنه ذو افكار (غامضــة) في الحلقــة يتحدث الشباب من الفتيان ذوي السابعة عشر من العمــر عن النســاء والحب بدهاء وتعقيد ، لكنهم يلزمون الصمت امام النساء او يتحدثون معهم وكأنهم يتحدثون مع كتاب — واي اشياء يتكلمون بها ! في الحلقة يتفتح المحتالون ذوو الكلام المعسول ، في الحلقــة يراقــب اعضــاؤها بعضهم بعضا ليس اسوأ من مــوظفي الشرطــة ... اف مــن الحلقــة

الطلابية ! ماهي بحلقة وانما دائرة مفرغة ، هلك فيها اكثر من شخص محترم واحد .

قاطعته قائلا ـ اسمح لي ان ابدي لك ملاحظة ، انك ، دون شك تبالغ .

تطلع الي جاري صامتا .

ـ ربما ، الله اعلم بحقيقتي ، ربما ابالغ ، لكن امثالي من الاشخاص لم تبق لهم سوى مسرة واحدة فحسب ـ المبالغة . هكذا عشت على هذا النمط اربع سنوات في موسكو . ما بوسعي ان اصف لك ، كيف مضى الوقت سريعا بل بسرعة رهيبة ، حتى انه لينتابني الاسى والغيظ حينما اتذكر ذلك . يصادف ان تنهض في الصباح وكأنك تهبط منزلقا ..... تتطلع ، واذا بك تندفع الى الاسفل وها هو ذا النهار قد انقضى وحل المساء ، وها هو ذا خادمك الوسنان يلبسك بصعوبة سترتك ، ترتدي ثيابك ثم تمشي ببطء الى صديق ، تشعل الغليون ، تدخن ، تحتسي الشاي الخفيف قدحا بعد قدح ، تتحدث عن الفلسفة الالمانية ، الحب ، شمس الروح الابدية وغيرها من المواضيع الرفيعة .... لكن هنالك التقيت ايضا باناس اصيلين مستقلي التفكير : لا يغيرهم شيء مهما حاولوا تحطيم ارواحهم والميل نحو النمط العقلي السائد فأن الطبيعة تتغلب اخيرا ما عداي ، انا الشقي ، سعيت كي اصوغ نفسي ، لكنني كالشمع الرخو ، لم تظهر طبيعتي البائسة ادنى مقاومة ! بلغت في غضون ذلك الحادية والعشرين من عمري . اصبحت مالكا للارث الذي كان لي ، او على الاصح لذلك الجزء من الارث الذي ارتأى ان يتركه الوصي الي ، عهدت بادارة شؤون ضيعتي الى شخص من الاقنان المعتوقين يدعى فاسيلي كودرياشيف ، سافرت الى الخارج متوجها الى برلين . بقيت في الخارج كما سرني اعلامك من قبل ، ثلاث سنوات . وماذا كانت الحصيلة؟ هناك ايضا ، في الخارج بقيت ذلك المخلوق غير الاصيل ذاته ، اولا ، ومن نافلة القول ان اخبرك ، لم افهم قيد انملة

اوربا ولا الظروف الاوربية ، اصـخت السـمع الى الاسـاتذة الالمان ، قرأت الكتب الالمانية في مكان صدورها .... هـذا هـو الفـرق كله هنا وهناك .. عشت حياتي منعزلا كأنني احد الرهبان ، تابعت الدراسة مع نفر من الملازمين المعتزلين من الخـدمة و المصـابين بلعنة التعـطش للمعرفة مثلي ، لكن شق عليهم الفهم ولم يتمتعوا بموهبة الكلمـات .... كنت على صلة بالعوائل البليدة من بينزا وغيرها من المحافظات المنتجة للحبوب ، تسكعت من مقهـى الى آخـر ، قـرأت المجـلات ، ذهبت في الاماسي الى المسرح . اختلطت قليلا بالسكان المحليين ، تحدثت معهـم بشيء من التوتر ، لم يزرني احد منهـم ، مـا خـلا اثنين او ثلاثة مـن الشباب الحشريين ذوي الاصل اليهودي ، الذين كانوا يهرعون الي بين فينة واخرى ويسـتدينون مني نقـودا بفضـل der russe الطبيعـة الروسية المفطورة على الثقة .

حملتني لعبة الاقدار الغريبة الى دار احد اساتذتي اخيرا ، وهـكذا وقعت تلك الحادثة : كتبت اليه لاسجل في حلقته الدراسية ، وفجأة خطر له ان يدعوني الى بيته مساء . كانت عند هذا الاستاذ ابنتان تناهـزان السابعة و العشرين من العمـر ، كانتا قصـيرتي القـامة ، عريضـتي المنكبين ــ مالنا ولهما ــ انفاهما كبيران جدا ، شعرهما اجعد مجتمـع في خصل . عيناهما باهتتي الزرقة ، ايديهم حمر ، ذات اظـافر بيض . الاولى يدعونها لينخين والاخرى مينخين . طفقت اتردد على الاستاذ . لابد من القول ، ان ذلك الاسـتاذ لم يكن بالابله ، لكنه يبدو كالمصـاب بلكمة على رأسه ان كلامه في المحاضرات مترابط تماما ، اما في البيت فيلثغ ، يبقي النظارات على جبينه ، ومع ذلك فقـد كان امـرءاً واسـع الثقافة ..... وماذا حدث بعدئذ؟ ظهـر لي على حين غرة انني عشـقت لينخين ، بقيت على هذه الحال طوال ستة اشهر كاملة . تحدثت معهـا قليلا ، في الحقيقة ، وكنت ارنو اليها غالبا ، قـرأت لهـا بصـوت عال مختلف النتاجات الادبية المؤثرة ، ضغطت يدهـا خلسـة ، حلمـت الى

جنبها في الاماسي ، متطلعا باصرار الى القمر ، او الى الاعلى . زد على ذلك انها تعمل القهوة بشكل ممتاز .... وماذا يريد المرء اكثر؟ لكن شيئا واحدا اربكني : في لحظات الهناء غير الواضحة ـ كما يقولون ـ غشاني شعور بالالم في فم معدتي ثم سرت رعشة مؤلمة باردة في بطني كلها . لم احتمل اخيرا تلك السعادة فهربت . قضيت بعدئذ سنتين كاملتين في الخارج : ذهبت الى ايطاليا وقفت في روما امام لوحة التجلي ، وكذلك امام فينوس في فلورنسا ، اصبحت فجأة صريع حماسة بالغة ، وكأن الحنق قد استبد بي ، شرعت اكتب في الاماسي شيئا من الشعر وكذلك يومياتي ، وبكلمة واحدة ، تصرفت هناك مثلما يتصرف الجميع . ومع ذلك ، انظر كم من الهين اليسير ان تكون اصيلا . انني مثلا ، لا افقه شيئا في الرسم والنحت .... اما التصريح جهاراً بهذا الشيء .... كلا ، فكيف يمكن الاقدام عليه ! استأجرت دليلا واسرعت لرؤية الرسوم الجدرانية .....

اطرق برأسه مجددا ورمى قلنسوته مرة اخرى .

تابع كلامه بصوت متعب ـ ها انا ذا عدت اخيرا الى الوطن وذهبت الى موسكو .

طرأ علي تغير مذهل في موسكو . كنت في الخارج الزم الصمت على الاغلب ، هنا اخذت فجأة اتكلم بحمية وفي الوقت ذاته ساورتني ، الله اعلم لماذا ، افكار رفيعة عن نفسي ، وجد اناس متسامحون كادوا يتصورونني عبقريا ، اصغت النساء متعاطفات الى تشدقي في الكلام ، لكنني لم استطع البقاء في علياء أمجادي . ولدت في صباح يوم جميل شائعات بشأني ((لست ادري من سلط عليها الانوار الربانية : لا مناص من ان تكون عانس من الجنس المذكر ، اللواتي تضم موسكو جمعا وافرا منهن)) ولدت الشائعات واخذت تمتد لها عساليج مثل التوت البري . تشابكت علي الامور ، اردت ان اثب ، واقطع الخيوط اللزقة ـ لكنني لم افعل ذلك ..... سافرت . وحينئذ ظهرت كامرىء

تافه ، كان ينبغي علي الانتظار بهدوء ، حتى تمر هــذه البلية ، مثلمــا ينتظــرون انتهــاء الشرى القــراصي ، ولســوف يفتح لي اولئك الناس المتسامحون اذرعهم مرة اخرى ولابتســمت تلك الســيدات لاحــاديثي مجددا . وهنا تكمن المصيبة : انني لست شخصا اصيلا . بغتة ، اترى ، استيقظ فيّ الشعور بالشرف : اخذ ينتابني الخجل من الثرثرة ، الثرثرة بلا توقف ـ ثرثرت بالامس في اربات ، واليوم في شــارع تروبا وغدا في سيتفتسفو ـ فراجوك ودائما حــول الشيء نفســه ..... ومــاذا تفعــل ماداموا يتطلبون منك ذلك؟ انظر الى فؤوس الحــرب الحقيقيين في ذلك المجال : انه لا يعني شيئا اليهــم ، وانمــا على النقيض ، فهــذا مــا يحتاجونه فحسب ، ان لسانهم سيعمل عشرين سنة اخرى ، في الاتجاه نفسه طوال الوقت .... هذا ما تعنيه الثقــة بالنفس والطمــوح الذاتي ! كان عندي ذلك الطموح ولم يتوار تمــاما حتى الان .... لكن العيب فيّ ، واقولها مرة اخرى ، انني امرؤ غير اصيل ، لقد توقفــت في منتصــف الطريق : كان ينبغي على الطبيعة ان تهبني طموحا اكثر كثيرا مما انا عليه ، اولا تمنحني شيئا البته . بيد انه في المراحل الاولى كان الوضــع مريرا علي حقا ، زد على ذلك ان الرحلة الى الخــارج قــد اســتنفدت مواردي كليا ، لم اكن راغبا في الزواج من ابنة تاجر ، بدنهــا مترهــل كالهلام ، رغم انها مازالت شابة ، فاعتزلت في القرية . استطرد جاري ، ناظرا الي من جديد نظرة جانبية ، يبدو انني استطيع ان الزم الصمت بشأن انطباعاتي الاولى عن الحياة الريفية والاشارة الى بهاء الطبيعة وجمال العزلة الهاديء وغيرها ....

استجبت اليه قائلا ـ ممكن ، ممكن .

تابع الراوي كلامه ـ ان ذلك افضل ، مادام كل هذا الهراء يتعلق بي على الاقل . شعرت بالسأم في القرية مثل جرو اوصد دونه الباب ، رغم انني اقول لك الحق ، دار رأسي في طريق العودة حينما مررت لاول مرة في فصل الربيع عبر غابة التبولا المألوفة لدي ، وخفق قلبي من الترقــب

الغامض الحلو . لكن تلك التوقعات كما تعرف انت نفسك ـ لا تتحقق قط ، وانما على العكس ، تتحقق اشياء اخرى ، لم تتوقعها ابدا ، مثل : جائحة البهائم ، الضرائب المتأخرة ، المزاد العلني وغيرها وغيرها . رتبت اموري كيفما اتفق ، يوما بعد يوم بمساعدة وكيلي ياكوف ، الذي حل محل مدير اعمالي السابق ثم تكشف لي في وقت لاحق عن مختلس مثله ، ان لم يكن اكثر منه ، زد على ذلك انه سمم وجودي برائحة القطران التي تفوح من جزمته وتذكرت ذات مرة عائلة مجاورة لي من معارفي ، تتكون من مقدم متقاعد ، وابنتين ، امرت بتهيئة عدة العربة وذهبت الى جيراني . يجب ان يظل ذلك اليوم خالدا في ذاكرتي الى الابد : تصرمت ستة اشهر وتزوجت من ابنة المقدم الثانية !..

نكس المتحدث رأسه ورفع ذراعيه نحو السماء .

واصل كلامه بحمية ـ ومع ذلك فلم ارغب ان اوحي اليك بفكرة سيئة عن المرحومة . استغفر الله ! كانت من انبل المخلوقات واطيبها ، مخلوقة محبة ، مستعدة لكل نوع من انواع التضحية ، ومع ذلك ، اعترف فيما بينا ، لو لم تحل بي مصيبة فقدها ، لكنت اليوم على الارجح في حالة لا تسمح لي بالتحدث معك ، لانني مازلت احتفظ حتى الوقت الراهن بعارضة جيدة الشكل في مخزني في الطابق الارضي ، التي ازمعت اكثر من مرة ان اشنق نفسي عليها .

أنشا بعد برهة صمت وجيزة بالحديث ـ ان بعض الكمثريات تحتاج للتغطية بالتراب في السرداب لفترة معينة كي تكتسب ، كما يقولون ، مذاقها الحقيقي ، ويظهر ان مرحومتي على غرار منتوجات الطبيعة تلك . لكنني الان فقط ، اعطيها الحق كله . الان فقط ، على سبيل المثال لم تعد ذكريات لقاءات معينة قضيتها بصحبتها قبيل الزواج تثير في ادنى مرارة فحسب ، وانما على النقيض تماما ، تؤثر في لدرجة تكاد تنساب معها عبراتي . لم يكن اهلها من الناس الميسورين ، بيتهم قديم جدا ، مبني من الخشب ، ولكنه مريح ، يقع على ربوة بين بستان مهمل

وفناءنمت فيه الاعشاب . كان يجري نهر تحت الربوة لا يكاد يرى الا قليلا من بين الاوراق الكثيفة . يمتد مدرج كبير من البيت الى البستان ، زهت جنينة زهور طويلة بجمالها ، امتدت امام المدرج ، وغطتها الورود ، نمت عند كل طرف من اطراف الجنينة شجيرتين من الاكاسيا جدلتا عندما كانتا فتيتين على شكل لولب ابان حياة المالك المتوفي . انتصبت على مسافة ابعد قليلا ، في الاجمة نفسها تعريشة مزينة بمهارة كبيرة من الداخل ، بيد انها عتيقة ومتصدعة من الخارج بحيث ان الناظر اليها يصاب بالفزع . يفضي باب زجاجي من المدرج الى غرفة الاستبقال ، اما ما يثير حب الاستطلاع امام بصيرة الناظر الى غرفة الاستقبال فهو : مواقد ذات تربيعات في الزوايا ، وبيانو غير واضح الصوت تكدست على يمينه اوراق من النوتات ، ديوان مكسو بنسيج ازرق باهت ، موشى بالبياض ، منضدة مستديرة ، خزانتان تحتويان على الخزف الصيني ، دمى من الخرز من عهد القيصرة كاترينا ، علقت على الجدار لوحة مشهورة لفتاة شقراء ، على صدرها يمامة ، عيناها شاردتان ، وضعت سلطانية فيها ورود غضة فوق الطاولة .... اتلاحظ كيف اصف كل شيء باسهاب . اضطرمت في غرفة الاستقبال تلك ، في المدرج ذاك ، الكوميديا التراجيدية لحبي بأكملها .

كانت الجارة نفسها امرأة شريرة ، تنطوي حنجرتها على حنق اجش دائم ، مخلوقة متعسفة شكسة ، كانت احدى بناتها ، فيرا ، لا تختلف بشيء ما عن الفتيات المألوفات في الاقاليم ، والاخرى ، صوفيا ، وقد عشقت صوفيا . تحتوي غرفة صغيرة اخرى لدى الاختين ، وهي مكان نومهما المشترك ، على سريرين خشبيين بسيطين ، فيهما بعض الالبومات الضاربة الى الصفرة والبليجاء العطرية وصور الاصدقاء والصديقات مرسومة بقلم رصاص رسما رديئا لحد ، بينهم سيد يطفح تعبير وجهه بحيوية غير اعتيادية وكذلك توقيعه الذي مهر به الصورة وقد راودته في صباه امان شتى ، وانتهى مثلما انتهينا نحن جميعا

الى ـ لا شيء مع تمثالين نصفيين لغوته وشيلر ، كتب المانية ، اكاليل يابسة واشياء اخرى حفظتها الذاكرة . لكنني قلما ذهبت الى تلك الغرفة ، واذا ما ذهبت فدون رغبة مني : لا ادري ما سبب ضيق نفسي فيها . ومع ذلك ياله من امر غريب ، ان اكثر ما كانت تعجبني صوفيا عندما اجلس واوليها ظهري ، وفيما عدا ذلك ، اذا شئت ، عندما افكر او احلم على الاغلب بها ولا سيما ، مساء في المدرج

كنت انظر حينئذ الى الشفق ، الاشجار ، الاوراق الصغيرة الخضر ، التي احتوتها العتمة ، لكنها ما برحت تتميز بشدة عن السماء الوردية . جلست صوفيا في غرفة الضيوف عند البيانو وعزفت باستمرار لحنا معينا ذا طابع تأملي بالغ من بيتهوفن ، اما العجوز الشريرة فجلست على الاريكة وشخرت بهدوء ، انهمكت فيرا في اعداد الشاي ، هسهس السماور هسهسة بديعة ، كأنه جذل بشيء ما ، تكسر بسكويت العقدية بطقطقة مرحة ، نقرت الملاعق الصغيرة الاكواب نقرات رنانة ، هدأ بغتة الكناري الذي غرد طوال النهار بلا رحمة ، وغرد في بعض الاحايين فقط ، كأنه كان يتساءل عن شيء ما ، تساقطت قطرات شحيحة من غيمة شفافة خفيفة مرت مرورا عابرا ..... جلست ، وجلست اصغيت واصغيت ، تطلعت واذا بقلبي قد امتلأ عاطفة ، تبين لي انني عشقت مرة اخرى . وهكذا طلبت ذات مرة من العجوز يد ابنتها تحت تأثير تلك الاماسي ، وبعد شهرين تزوجت ...

تصورت ، انني احببتها .... والان ازف الوقت كي اعرف ، ولكن ، يا الهي ، حتى الان لا اعرف ان كنت احببت صوفيا . كانت مخلوقة طيبة ذكية ، هادئة دافئة القلب ، بيد انها ، والله اعلم لماذا ، امن جراء العيش الطويل في القرية او لعوامل اخرى غيرها ، انطوت اعماق روحها على جرح (اذا وجد للروح اعماق) او من الافضل القول ان دملا تسرب اليها ، وليس له من علاج البته ، لم تستطع هي ولا انا ان نجد اسما له . حدست وجود هذا الجرح ، دون ريب بعد الزواج فقط ، بذلت كل

مـافي وسعي ، لكن دون جدوى ! كان لدي في طفولتي عصـــفور الدوري ، انشبت قطة ذات مرة مخالبها فيه ، عالجناه وانقذناه ، لكن عصـــفوري المسكين لم يبرأ تماما ، اصابه الضــجر والســقم ، كف عن الغناء .... وانتهى الامر ، في احـــدى الليالي ، حينمـــا ولج جـــرذ القفص المفتوح وعضه من منقاره ، قرر اخيراً ان يموت ، في اعقاب ذلك . لســـت ادري اية قطة قبضت على زوجتي بمخالبها ، لكنها تجهمت ، سقمت شـأنها شأن عصفور الدوري المسكين احيانا ، كانت تريد ، على مـــا يبدو ، ان تصفق بجناحيها وترفرف في النسيم الغض ، في الشمس ، في الحـــرية ، تحاول ، ثم تتكور كالكرة مرة اخرى . لقد احبتني ، دون شك : كم مـــن مرة اكدت لي ، انه لم يبق شيء اكثر من هـــذا تتمناه ــ اواه ، ليأخـــذه الشيطان ! ــ بينمـــا كانت تذوي وعيناهـــا تذوبان . فـــكرت الا توجـــد امارات لحالتها في الماضي؟ جمعت المعلومات عنها : لم اجد شيئا . لكن الان احكم انت بنفسك : ان المرء الاصـــيل ليهـــز كتفيه ، او لعله يتأوه مرتين في تلك الحالة ، ثم يشرع يعيش حياته الذاتية ، امـــا انا المخلوق غير الاصيل فاخذت ابحث عن عارضة مناســـبة . لقـــد تشربت زوجتي بكل عادات الفتاة العانس ــ حب بيتهوفن ، النزهات الليلية ، البليحـــاء العطرية ، مراسلة الاصـــدقاء ، الالبومـــات وغيرهـــا ــ بحيث انهـــا لم تستطع قط ان تألف اي نمـــط آخـــر مـــن الحياة ولا ســـيما حياة ربة البيت ، زد على ذلك ، انه لمن المضـــــحك ان تتحسر المرأة المتزوجـــــة حسرات لا يمكن ايجاد اسم لها ، وتغني في الاماسي ((لا توقـــظها عند مطلع الفجر))

نعمت معها على هذه الصـــورة ثلاث ســـنوات ، وفي الرابعـــة توفيت صوفيا في اثناء الولادة ، لكن ــ ويا لغرابة الامر ــ كأن شعورا مســـبقا قد خامرني ، بأنهـــا لن تكون في وضـــع يمـــكنها ان تهبني بنتا او ولدا وتمنح الارض قاطنا جديداً . اتذكر كيف دفناهـــا . حدث ذلك في الربيع . ان كنيستنا الابرشية غير كبيرة ، عتيقة ، جـــدار الايقـــونات مســـود ،

الحيطان عارية ، قرميد الارض به ثقوب في بعض الاماكن ، وتوجد ايقونة كبيرة قديمة في كل مكان للكورس . جلبوا التابوت ، وضعوه في الوسط امام الابواب المقدسة ، غطوه بقماش باهت اللون ، وضعوا حوله ثلاثة شمعدانات . بدأت الطقوس الايذية .

تمتم القندليت الهرم ، ذو الضفيرة الصغيرة في الخلف والحزام الاخضر المنخفض تحت خصره ، تمتمة كئيبة امام منضدة تلاوة الكتاب المقدس ، كان القس كبير السن ايضا ، وجهه طيب اعشى البصر ، يرتدي غفارة ليلكية موشاة بوشي اصفر ، قام باداء الطقوس نيابة عن نفسه والشماس . حفت الاوراق الفتية الطرية لاشجار البتولا الباكية وهمهمت من خلال كل فسحات النوافذ المفتوحة ، تدفقت من الفناء رائحة الاعشاب ، بهتت شعلة الشموع في ضوء النهار الربيعي الجذل ، غردت العصافير في ارجاء الكنيسة ، صدحت بين فينة واخرى تحت القبة اصوات السنونوات الرنانة في اثناء طيرانها الى الداخل . تحركت الرؤوس الشقراء لعدد قليل من الرجال المصلين بحمية من اجل المرحومة برشاقة ، هابطة مرتفعة ، في الغبار الذهبي لحزمة من الشمس،سرى تيار دخان فاتح الزرقة من ثقوب المبخرة . نظرت الى وجه زوجتي المائت .... رباه ! ان الموت ، حتى الموت نفسه لم يحررها ، لم يشف جرحها : ما برح التعبير السقيم ، المرتبك ، الابكم ذاته على وجهها ، كأنها غير مرتاحة حتى في التابوت ...... اهتاج دمي بمرارة . كانت مخلوقة رقيقة ، رقيقة ، وقد فعلت حسنا لنفسها ، اذ ماتت !

خضبت وجنتا المتحدث حمرة وخبت عيناه .

بدأ الكلام مرة اخرى ـ تغلبت اخيرا على الشجى المبرح الذي غشاني بعيد موت زوجتي ، خطر لي ، ان اشرع بالعمل كما يقولون . التحقت بالوظيفة في مركز المحافظة ، لكن اصابت رأسي بالصداع الغرف الكبيرة في المباني الحكومية ، وكذلك اثرت تأثيرا سيئا في عيني ، رافقت ذلك عوامل ملائمة اخرى ..... فقدمت استقالتي . رغبت

في الذهــاب الى مــوسكو ، لكن اولا ، ليس لدي النقـــود الكافية ، ثانيا ...... سبق وان قلت لك ، انني استكنت . لقــد غشــاني الخنوع ، فجأة وتدريجيا .

ان روحي استكانت منذ امد بعيد ، لكن رأسي لم يقبل ان ينحني بعد . عزوت حالة تواضع مشاعري وافكاري الى تأثير الحياة الريفية في من بجهة والى مصيبتي من جهة اخــرى ... لاحــظت منذ فترة بعيدة ، ان جميع جيراني تقريبا ، الشباب والمسنون على حد سواء الذين اخافتهم باديء الامر مظاهر تعليمي ورحلاتي الى الخــارج وعطــايا ثقــافتي الاخرى ، لم يفلحوا في التعود علي تماما ، لكنهــم شرعوا يعــاملونني بشيء لا هو بالفظاظة ولا هو بعــدم التروي ، كفــوا عن الاصــغاء الى تفسيراتي حتى النهاية ، وكفــوا عن اســتعمال ((طــريقة متميزة)) في الحديث معي . نسيت ان اقول لك كذلك ، انني في غضون الســنة الاولى بعد زواجي ، سعيت جراء السأم ، ان اجــرب حــظي في الادب بل انني ارسلت جزءا من قصة طويلة ، اذا لم اكن مخطئا ، الى مجلة وتســلمت بعد فترة من الزمن رسالة كيسة من المحرر ، كان من ضــمن الاشــياء التي انطوت عليها ، انه لا يمكن انكار وجــود الفــكر عندي ولكن مــن الممكن انكار الموهبة ، بينما الادب بحاجة الى الموهبة فحسب . زد على ذلك ، انه وصل الى علمي ، ان احد المســكوفين المارين في المحــافظة ، رغم انه غاية في الطيبة ، تحــدث عني عفــويا في حفلة عند المحــافظ ، بوصفي شخصاً فارغا ، استنفدت امكاناتي لكن الغرور شبه الطــوعي ظل مستمرا . فلم ارغب ، اتدري ، ان ((اصفع اذني)) بنفسي ، واخيرا ، انفتحت عيناي في ذات صباح جميل .

هكذا حدث ذلك . جاءني رئيس شرطة المنطقة ، ليلفت انتباهــي الى جسر متداع في ممتلكاتي ، ولم تتوافــر لدي الموارد قــطعا لاصــلاحه . احتسى كأسا من الفودكا مع قطعة من سمك الحفش ، ان حامي النظام المتلطف هذا عنفني بشكل ابوي لعــدم تبصري ومــع ذلك فقــد تفهــم

وضعي ، ونصحني ان آمر الفلاحين فقط بوضع السبخ لترميمه ، اشعل غليونه ، وطفق يتحدث عن الانتخابات المقبلة . كان يحاول الحصول على لقب الشرف كزعيم لنبلاء المحافظة ـ شخص يدعى اورباسانوف ، تافه كثير الضوضاء ، اضافة الى كونه مرتشيا . زد على ذلك انه لن يتغير بثرائه او شهرته كوجيه . عبرت عن رأيي ازاءه بعدم اكتراث : اقول الحق انني انظر الى السيد اور باسانوف من عل . تطلع رئيس الشرطة الي ، ربت بلطف على كتفي ، وقال بطيبة : ((حسنا ، فاسيلي فاسيليفيتش ، ليس امثالنا من يحكمون على اولئك الناس ، واني لنا ذلك؟ .... اعرف ياصرصور طنف موقدك)) ـ ((عارضته مغتاظا ارجوك ان تتفضل وتوضح الفرق بيني والسيد اورباسانوف؟)) اخرج رئيس الشرطة الغليون من فمه ، حملق بعينيه لم يطق صبرا ، فاطلق ضحكة ((وقال اخيرا من خلال دموعه حسناً يالك من مضحك ، اي شيء تقوله ، يالها من نكتة قذفت بها ... ها! ومن انت؟)) لم يكف عن السخرية مني حتى ذهابه ، احيانا كان يلكزني بمرفقه على جنبي ويخاطبني بصيغة المفرد ((انت)) ، غادرني اخيرا . كأن كانت تعوزني فحسب تلك القطرات من الازدراء ، فطفحت الكأس . ذرعت الغرفة بضع مرات ، توقفت امام المرآة ، اطلت النظر الى وجهي الحائر ، ابرزت لساني ببطء وهززت رأسي بضحكة مرة . لقد سقطت الحجب عن عيني ، ورأيت بجلاء ، اوضح من وجهي في المرآة ، كيف كنت فارغا ، تافها ، زائدا شخصاً غير اصيل .

لزم المتحدث الصمت .

تابع كلامه بأسى ـ يشعر احد السادة في تراجيديا فولتير بالفرح لانه بلغ ذروة التعاسة ..... على الرغم من عدم وجود شيء تراجيدي في مصيري ، لكنني اعترف ، بانني عانيت ضربا من ذلك النوع . خبرت الافراح المسمومة للقنوط البارد ، جربت ، مذاق الحلاوة التي تحسها وانت تستلقي على الفراش في غضون الصباح كله دون عجالة وتلعن

اليوم والساعة التي ولدت فيها ، لم استطع ان استكين دفعة واحـدة . واحكم في الحقيقة ، انت نفسك : قيدتني قلة النقود الى الريف البغيض الي والمكوث فيه ، ما من ضيعة لدي او وظيفـة او اهتمـام بالادب ، لم ارس على شيء ، تحاشيت الملاكين ، شعرت بالسـأم مـن الكتب ، امـا الفتيات الدامعات المنتفخات والحساسات المغمومات المعتادات على هز خصل شعرهن الاجعـد ، اللواتي يكررن بصـورة محمـومة كلمـة ((الحياة)) فلم اعد مـوضع اهتمـامهن منذ ان توقفـت عن الثرثرة والانشراح وما كان في مقدوري ولا في استطاعتي ان انعزل تمـاما .... فماذا بدأت افعل حسب ما تظن؟ شرعت اتسكع من جار لجار ، وكأنني مخمور باحتقار نفسي ذاتها ، تعرضت متعمـدا الى كل انواع التحقير التافهة . اخـذوا يراقبونني عند المائدة ، يسـتقبلونني بعـدم اكتراث وعجرفة ، واخيرا كفوا عن ملاحظة وجودي تمـاما ، لم يفسـحوا لي المجال حتى للاسـهام في الاحـاديث العـامة . كنت احيانا اهـز رأسي بالموافقة متعمدا ، لاحد الثرثارين السـخفاء او غيره ، ممـن كانوا في موسكو يفرحون بتقبيل تراب اقدامي ، او طـرف معـطفي ... لم اكن لاسمح حتى لنفسي بالتفكير بالاستسلام الى راحة السـخرية المرة .... ومع ذلك فما من شيء كالسخرية في الوحدة ! على هذا المنوال تصرمـت حياتي لبضعة اعوام متتالية ، وما فتئت تسـير على النمـط ذاته حتى الان ......

دمدم الصوت الوسنان للسيد كانتنا غروخين من الغرفة المجـاورة ــ انني لم اسمع قط نظيرا لهذا ، اي احمق خطر بباله ان يتحدث ليلا؟

انساب المتحدث بخفة تحـت اللحـاف ونظـر بارتباك محـذرا اياي باصبعه .

همس وكأنه يعتذر وينحني في اتجـاه صـوت كانتنا غروخين ونطـق باحترام : سمعا وطاعة ، سمعا وطاعة ، ارجـو صـفحك .... واصـل كلامه همسا ــ من حقه ان ينام ويجب ان ينام ، فعليه استجماع قواه ،

حسنا ، على الاقل ، من اجل ، ان يتناول طعامه غدا بنفس الهناء الذي تناوله اليوم . ولا نملك الحق في اقلاقة «زد على ذلك ، انني حدثتك ، بكل ما اريده ، ولعلك إنت ترغب ان تنام .... اتمنى لك ليلة طيبة .

استدار المتحدث بسرعة محمومة ودفن رأسه في الوسادة .

سألته ــ اسمح لي على الاقل ان اعرف مـــع مـــن كان لي السرور في الحديث ....

رفع رأسه برشاقة .

قاطعني قائلا ــ كلا ، لا تسل في سبيل الله عن اســـمي ، لا مني ، ولا من الآخرين ، لابق مخلوقـــا مجهـــولا لديك ، لأكون مثلا فـــاسيلي فـــا سيليفيتش ، عمل القدر على اذلاله . اضافة الى هـــذا فـــانا امـــرؤ غير اصيل ، ولست خليقاً باســـم معين .... ولكنك اذا الحـــحـــت ورغبت ان تمنحني لقب ما ، فسمني هاملت منطقة شيغروفسكي . امثال هـــاملت اولئك كثيرون في منطقتنا ، ولكن ربما لم يتفق لك ان تلتقـــي بآخـــرين منهم ...... وداعا .

طمر نفسه مرة اخرى في فراش الريش ، ولم يكن موجودا في الغـــرفة في صباح اليوم التالي عندما جاءوا لايقاظي .

لقد رحل قبيل طلوع النهار .

* * *

تشيرتوبجانوف ونيدوبيوسكين

قفلت عائداً ذات مرة بالعربة من القنص في نهار صيفي قائظ ، اغفى يرمولاي ، وهو جالس بالقرب مني منكسا رأسه ، ارتجت الكلاب النائمة ، كالمائتة تحت اقدامنا ، مرتفعة هابطة . كان الحوذي يطرد الذباب عن الخيل بين فينة واخرى . امتدت سحابة خفيفة من الغبار الابيض في اعقاب العربة . ولجنا بين الشجيرات ، اضحى الطريق وعرأ وبدأت العجلات تمس الاغصان ، انتفض يرمولاي ونظر فيما حوله .... ((قال ــ وي ! لابد من وجود الطيهوج هنا . لنترجل)) . توقفنا ثم دلفنا الى ((الساحة)) تعثرت كلبتي بالفقس . اطلقت النار وشرعت احشو البندقية ، تعالت في الخلف فجأة طقطقة مدوية ، دنا مني خيّال كان يفرج الشجيرات بيديه ــ ((قال بصوت متغطرس ــ اسمح لي ان اعرف ايها السيد الكريم ، باي حق تقوم بالقنص هنا؟)) تكلم المرء الغريب بسرعة عجيبة ، كلمات متقطعة خارجة من انفه . حدقت في وجهه ، لم ار قط في حياتي نظيرا له . تخيلوا ، ايها القراء الكرام ، شخصا قصيرا اشقر ، ذا انف احمر اقنى وشوارب مفرطة الطول

شقراء . غطت قبعته الفارسية المسننة الاطراف الموشاة بقماش قرمزي في الاعلى ، جبينه حتى حواجبه . كان مرتديا سترة صفراء رثة ذات تفصيلات من البليسه السوداء على صدرها ، وذات درز من القصب الفضي الباهت في جميع خطوط التئامها . تدلى بوق على كتفه وتراءى خنجر تحت خصره ، ترنح حصان سقيم تحته معقوف الانف احمر كالمجنون ، تحرك هناك بين ارجله كلبان سلوقيان نحيفان ، معوجا القوائم . ان وجه الغريب ، نظرته ، صوته ، كل حركة من حركاته ، بل كل كيانه ينم عن بسالة متهورة وافتخار مفرط لا نظير له ، تحركت عيناه الزجاجيتان الباهتتا الزرقة وحدقتا شزرا ، كما هو حال المخمور ، ارسل رأسه الى الوراء ، نفخ خديه ، انفجر ضاحكاً وهز جسمه برمته كأنه ضرب من التعبير عن الوقار البالغ ــ انه كالديك الرومي تماما ، القى السؤال علي مرة اخرى .

اجبته ــ لست ادري ، ان القنص ممنوع هنا .

استرسل في كلامه ــ انت هنا على ارضي ، يا سيدي الكريم .

ــ حسنا ، سأخرج من هنا .

اعترضني قائلا ــ اسمح لي ان اعرف ، هل انني اتشرف بالحديث مع نبيل؟ ــ ذكرت له اسمي .

ــ في هذه الحالة اذن ، تفضل ومارس القنص . انا ايضا نبيل ، ويسرني جدا ان اقدم خدمة ، لنبيل .... اسمي تشيرتوب ــ خانوف ، بانتيلي .

انحنى ، زعق ، جر الحصان من عنقه ، اخذ الحصان يهز رأسه ، شب واتجه الى جانب ، فداس على رجل احد الكلبتين . زعقت الكلبة بحدة . تملك الهياج تشير توبخانوف وفح ، ثم ضرب الحصان بقبضته على رأسه ما بين اذنيه ، وثب الى الارض اسرع من البرق ، تفحص رجل الكلبة ، بصق على جرحها ودفعها بقدمه جانبا لئلا تصأصىء ، تشبث بعرف الحصان ووضع قدمه في الركاب . اشرأب الحصان

بوجهه ، رفع ذيله ، وانطلق الى جانب بين الشجيرات ، تبعه تشيرتوبخانوف وهو يثب على رجل واحدة ، ومع ذلك استطاع اخيرا الجلوس على السرج ، ادار السوط كالمجنون ، نفخ في البوق وطفق يعدو . لم اكد اثوب الى نفسي من ظهور تشيرتوبخانوف المفاجيء ، حتى اطل بغتة ، ودون ادنى ضجة تقريبا ، من بين الشجيرات ، شخص بدين يناهز الاربعين من العمر ، ممتطيا صهوة جواد ادهم . توقف ، خلع عن رأسه سدارة خضراء من الجلد وسألني بصوت نحيف ناعم ، اولم تر راكب جواد اشقر؟ اجبته ، رأيته

استمر في السؤال بذلك الصوت نفسه دون ان يرتدي سدارته ـ في اي اتجاه ذهب؟ ـ الى هناك .

ـ اعرب لك شكري المتواضع .

مطق شفتيه ، ارجح قدميه على جانبي الجواد وسار بخبب بطيء ـ وئيداً وئيداً ـ في الاتجاه المحدد . شيعته بنظري ... حتى توارت سدارته ، التي لها شكل القرن ، خلف الغصون ، ان هيئة هذا الغريب الجديد لا تشبه مطلقا سلفه . شفت ملامح وجهه المنتفخ ، المستدير كالكرة ، عن الحياء ودماثة الخلق والاستسلام الوديع ، ان انفه منتفخ مدور ايضا ، ومعرورق باعصاب زرق ، تنم عن امريء شبق . لم تبق ولو شعيرة واحدة في مقدمة رأسه ، تهدلت في الخلف ضفائر شعر خفيفة ، اما عيناه الصغيرتان فكأنهما سُعْد مشقوق ، كانتا ترمشان بلطف ، وافترت شفتاه الريانتان الحمراوان عن ابتسامة حلوة . ارتدى سترة ذات ياقة منتصبة وازرار برونزية ، رثة للغاية لكنها نظيفة ، ارتفع سرواله ، المصنوع من الجوخ عاليا ، وظهرت بطات ساقية السمينة فوق الحواشي الصفر لحذائه .

سألت يرمولاي ـ من هذا؟

ـ هذا هو نيدوبيوسكين ، تيخون ايفانيتش . يعيش عند تشيرتوبخانوف .

وثب تشيرتوبخانوف عن حصانه في الحال . استل الخنجر ، فج طريقه صوب الكلاب ، اختطف منهم بعزيمة محمومة الارنب المعذب ، عوج وجهه برمته ، اغمد الخنجر في حنجرته عند مقبض يده تماما ..... اغمده وشرع يقهقه . لاح تيخون ايفانيتش في طرف الغابة . قهقه تشيرتوبخانوف ثانية ـ ((ها ـ ها ـ ها ـ ها ـ ها ـ ها ـ ها ـ ها ـ

ـ وهل هو شخص فقير؟

ـ ليس ميسور الحال ، لكن اتدري ان تشيرتوبخانوف ذاك لا يملك ايضا فلسا احمر .

ـ اذن ، لماذا اقام عنده؟

اوترى ، لقد جمعت . بينهما اواصر الصداقة ، ولا محيص لاحدهما عن الاخر ..... حقا ان شأنهما شأن : مصاحبة الحوافر للحصان ، والملاقط للسرطان .....

خرجنا من بين الشجيرات ، ((وأوأ)) قربنا على حين غرة كلبان ، عدا ارنب بري كبير بين الشوفان ، مرتفع الجسم لحد ما . وثبت في اثره من طرف الغابة كلاب قنص واخرى سلوقية ، وقفز طائرا تشيرتوبخانوف نفسه في اعقاب الكلاب . لم يصرخ ، لم يستحث الكلاب ، لم يهتف بها : انقطع نفسه ، لهث ، خرجت من فمه المفغر اصوات متقطعة لا معنى لها بين حين وآخر ، انطلق محملقا عينيه ، جلد الحصان المسكين بالسوط جلدا محموماً ((استطاعت ان تلحق به)) الكلاب السلوقية ... قرفص الارنب البري لحظة ، نكص بشدة على عقبيه ـ واندفع على مقربة من يرمولاي ، بين الشجيرات ... انطلقت الكلاب السلوقية . ((تمتم الصياد الجامد باذلا جهده ، كأنه معقود اللسان ـ ان ـ ت ـ بهوا ، انتبهوا انتبهوا ، لصديقي)) اطلق يرمولاي عيارا ناريا ..... تدحرج الارنب الجريح منقلبا رأسا على عقب فوق الحشيش الاملس الجاف ، قفز في الهواء ، وصاح شاكيا وهو بين اسنان جرو مندفع . تجمعت فورا كلاب القنص .

ها ـ)) ... ردد رفيقه بهدوء ـ ((ها ـ ها ـ ها ـ ها ـ))

قلت لتشيرتوبخانوف مشيرا الى الشوفان المداس ـ الصيد الحقيقي غير ممكن في الصيف .

اجاب تشيرتوبخانوف وهو يلهث ـ انها مزرعتي .

شق خُدّي الارنب ، علقه في السرج ورمى بالاخفاف الى الكلاب .

وجه الكلام الى يرمولاي حسب اصول القنص ـ انت تطلبني حشوة بندقية يا عزيزي واستطرد قائلا بالصوت المتقطع الحاد نفسه ـ اما بشأنك فاعرب لك عن امتناني يا سيدي الكريم .

امتطى صهوة الجواد .

ـ اسمح لي ان اعرف .... فقد نسيت ....اسمك ولقبك؟

ذكرت له اسمي مرة ثانية ....

ـ يسرني جدا التعرف عليك . اذا سنحت لك الفرصة ، فشرفنا بزيارتك ..... وواصل كلامه بحماسة ـ تيخون ايفانيتش ، اين هو فومكا ، لقد لاحقنا الارنب بدونه .

اجاب تيخون ايفانيتش مبتسما ـ مات حصانه وهو فوقه .

ـ كيف مات؟ اورباسان(1) مات؟ اطلق صفيراً .... اين هو ، أين؟ هناك خلف الغابة .

ساط تشيرتوبخانوف الحصان بالسوط على وجهه ، وعدا جاريا باندفاع . انحنى لي تيخون ايفانيتش مرتين ، مرة باسمه ، واخرى عن رفيقه وسار مجددا بخبب بطيء بين الشجيرات .

ايقظ هذان السيدان حب استطلاع شديد في ..... ماهو ذلك الشيء الذي بمقدوره عقد اواصر صداقة لا تنفصم عراها بين مخلوقين غير متجانسين لهذه الدرجة؟

شرعت استقصي المعلومات . واليكم ما توصلت اليه .

اشتهر تشيرتوبخانوف ، بانتيلي يريميتش في ارجاء الناحية كشخص خطير طائش ، مختال وعراك من الطراز الاول . خدم فترة

وجيزة في الجيش ثم استقال من جراء ((الصعوبات)) التي شاعت بموجبها فكرة تقول ما الدجاجة بطائر[٢] ! انحدر من بيت عريق، كان ثريا في حين من الاحايين. عاش اجداده بابهة، على طريقة قاطني السهول: اعني يستقبلون الوجهاء من اصحاب الرتب وغير الوجهاء، يقدمون لهم غذاء ممتازا يمنحون حوذية ضيوفهم ربع سطل من الشوفان للترويكا، ويبقون في كنفهم الموسيقيين والمغنين، المهرجين والكلاب، وفي ايام الاحتفالات يقدمون لجمهور الشعب النبيذ وشراب البراغا، وفي الشتاء يسافرون الى موسكو مع خيولهم في عربات قديمة ثقيلة، يظلون احيانا شهورا كاملة دون فلس، يتغذون على منتجاتهم البيتية. ورث اب بانتيلي يريميتش ضيعة لحق بها الخراب، افرط هو بدوره في ((تدهورها)) ايضا، وعندما توفي ابقى لوريثه الوحيد بانتيلي قرية بيسونوفو الصغيرة المرهونة مع خمسة وثلاثين رجلا وست وسبعين امرأة من الاقنان اضافة الى اربعة عشر ديساتين من الارض المجدبة في كولوبرودوفايا من الاراضي البور .... زد على ذلك، انه لم يعثر على اي اثبات لملكيتها بين اوراق المرحوم. لا مندوحة من الاعتراف ان المرحوم افلس افلاسا غريبا، لقد حطمه ((التدبير الاقتصادي)). لا يجوز لنبيل، وفق مفاهيمه، الاعتماد على التجار وسكان المدن ونظرائهم من ((اللصوص))) حسب تعبيره (كان يقول ـ ان التدبير الاقتصادي افضل وارخص). لم يتخل عن هذه الفكرة المدمرة حتى نهاية حياته، مما افضى به الى الافلاس. لكنه كان يتسلى بالمقابل ولم يحرم نفسه من اية نزوة طارئة. خطرت له ذات مرة بدعة، من جملة البدع الاخرى، ان يصنع، طبقا لمفاهيمه الذاتية، مركبة عائلية بلغت من الضخامة حدا، بحيث ان الجهود المشتركة لخيول الفلاحين جميعها ـ التي سيقت من كل انحاء القرية ـ اضافة الى جهود مالكيها، ذهبت هباء وسقطت عند منحدر اول تل وتناثرت. أمر يريمي لوكيتش (ان اب بانتيلي كانوا يدعونه يريمي لوكيتش)

اقامة نصب عند منحدر التل ، لان ما حصل لهـا لم يربكه مـطلقا .... (حظر له ايضا ان يبني كنيسة ، دون الاستعانة بمعمار طبعـا . احـرق غابة كاملة في سبيل صنع القرميد ، وضع اساسا ضخما ، كان خليقـا بكاتدرائية ، ارتفعت الجدران ،) شرع بتشييد القبة تهاوت القبة . اعاد الكرة ـ سقطت القبة مجددا ، حاول للمـرة الثالثة ـ وانهـارت للمـرة الثالثة . امعن يريمي لوكيتش فكره : اعتقـد ان الامـر ليس على مـا يرام ..... ان سـحرا لعينا له يد في ذلك ..... أمـر على حين غرة بجلد جميع العجائز في القرية ، جلدوا كل العجائز ـ لكن القبة ، مع ذلك ، لم تثبت . طفق يعيد بناء اكواخ الفلاحين حسب خـطة جـديدة ، وكل ذلك انطلاقا من التدبير الاقتصـادي . اقـام ثلاثة منازل تكون مثلث مـن التقائهم ورفع وسطه صارية مـع بيت طيور ملون وعلم . كان يأتي كل يوم ببدعة جديدة : مرة عمل الحساء من نبات راعي الحمـام واخـرى قص شعر ذيول الجياد ليصنع منهـا سـدارات للخـدم ، ازمـع على استبدال القراص بالكتان واطعام الخنازير الفطر .... ومع ذلك لم يعن بالشؤون الاقتصادية وحدها ، وانما اهتم ايضا برفـاهية الفـلاحين . عثر ذات مرة في اثناء قراءته ((الكشـوف الموسـكوفية)) على مقـالة صغيرة للملاك خرايك ـ خروبيورسكي في خاركوف حول فائدة النزعة الاخلاقية في البيئة الفلاحية ، اصدر في اليوم التالي مباشرة امرا ، يلزم جميع الفلاحين ان يحفظوا دون ابطاء مقالة الملاك الخاركوفي عن ظهر قلب . حفظ الفلاحون المقالة ، سألهم السيد : ايفهمون ما جـاء فيهـا؟ اجاب الوكيل وكيف يمكن الا يفهموا ! امر جميع اتباعه في ذلك الوقت تقريبا ، في سبيل المحافظة على النظام والتدبير الاقتصـادي ، ان تكون لهم ارقام ، ويخيط كل منهم رقمه على ياقته . كان ينبغي على كل فرد ان يصيح اذا التقى بالسيد : هنا يسير رقم كذا ويجيب السيد بلطـف : اذهب ، كان الله في عونك .....

وصل يريمي لوكيتش تدريجا رغم النظام والتدبير الاقتصـادي الى

وضع عسير للغاية : اخذ في بادىء الامر يرهن ضياعه ، ثم شرع ببيعها بعدئذ ، قامت السلطات ببيع آخر عش لاجداده وهي القرية ذات الكنيسة التي لم يكمل بناؤها ، ومن حسن الحظ انه لم يتم ذلك أبان حياة يريمي لوكيتش ـ لم يكن بمقدوره ان يتحمل تلك الضربة وتم ذلك بعد مضي اسبوعين على وفاته . فقد قيظ له ان يموت في بيته وعلى فراشه ، محاطا بخدمه وتحت اشراف طبيبة ، لكن بانتيلي المسكين لم تبق له سوى بيسونوفو وحدها .

علم بانتيلي بمرض ابيه ، عندما كان ما يزال في الخدمة ، في اوج ((الصعوبات)) التي اشرنا اليها اعلاه . كان قد دخل توا السنة التاسعة عشرة من عمره . ولم يبرح بيت ابويه منذ ايام طفولته نفسها ، نشأ ابن سيد مدللا تحت رعاية امه فاسيليا فاسيليفنا ، وهي امرأة غاية في الطيبة لكنها غبية تماما . اهتمت وحدها بتربيته ، اما يريمي لوكيتش المنهمك في افكاره الاقتصادية فلم يعره اهتماما ، حقا عاقب ابنه مرة بيده ذاتها لانه لفظ حروف ((رتسي)) ((ارتسي))) ، لكن يريمي لوكيتش غشاه في ذلك اليوم كرب عميق دفين : اذ تحطم افضل كلابه على شجرة . لامندوحة من القول ، ان اهتمامات فاسيليفنا بشأن تربية بانتوشا اقتصرت على جهد مضن واحد : عينت له ، بعرق جبينها ، معلما وهو جندي متقاعد من الالزاس يدعي بيركوبف) ارتعشت كالريشة امامه حتى وفاتها : لقد فكرت على هذا النسق : حسنا ، اذا رفض تعليمه ، فسأتحطم ، الى اين ايمم وجهي؟ اين سأجد معلما آخر؟ انني اغريته بجهد جهيد لدى جارتي لكن بيركوبف ، شأنه شأن اي انسان فطن ، استغل حالا وضعه الفريد : شرب الخمر ورقد من الصباح حتى المساء . انخرط بانتيلي بعد انهاء ((برنامج العلم)) في الخدمة . كانت فاسيليا فاسيليفنا قد فارقت الحياة . اذ قضت نحبها قبيل نصف سنة من هذا الحدث الخطير ، بسبب فزع اصابها : تراءى لها ، في الحلم ، شخص ابيض يركب دبا ، وعلى صدره نقش

((المسيح الدجال)) . سرعان ما لحق يريمي لوكيتش بنصفه الآخر .

انطلق بانتيلي على جناح السرعة لدى وصول اول نبأ عن سوء صحة والده ، لكنه رغم ذلك لم يجده في عداد الاحياء . كم صعق الابن الجليل ، عندما تحول ، بين عشية وضحاها ، من وريث ثر الى فقير ! قلة اولئك الذين بوسعهم تحمل مثل هذا الانعطاف الحاد . توحش بانتيلي واصبح فظا . انقلب من امرئ شريف كريم خير ، رغم كونه متهورا ، حامي الطبع ، الى متفاخر وعربيد ، كف عن معاشرة الجيران ـ خجل من الذهاب الى الاثرياء ، ازدرى الفقراء ـ عامل الجميع بوقاحة لا نظير لها ، بما فيهم السلطات القائمة : الحق الذي لا مرية فيه انني نبيل عريق . ذات مرة كاد يقتل الا قليلا رئيس الشرطة المحلية ، لانه دخل عليه دون ان يرفع سدارته عن رأسه . لا ريب ان السلطات لم تتساهل معه ، ايضا من جهتها ، واذا وقعت حادثة يتخذون ما يلزم من اجراءات ، لكن مع ذلك كانوا يخشونه بعض الشيء ، لانه متهور فظيع ، وما ان تقول له شيئا حتى يدعو للاقتتال بالسكين ، ان عينا تشير توبخانوف تقدحان غيظا وصوته يتهدج لدى ابسط معارضة له ..... ((حينئذ يتمتم آفا ـ فا ـ فا ـ فا ، افعلوا ما تشاؤون)) فسأظل ما انا عليه ! بالرغم من كل ذلك ، كان امرءاً طاهراً ، لم يتورط في اي شيء يعيب . من الطبيعي الا يزوره احد ..... ومع ذلك انطوت حناياه على روح طيبة ، بل انها لعظيمة بحد ذاتها : لم يحتمل جور الاخرين وتعسفهم ، وقف كالطود في حماية فلاحية . (كان يقول بغضب وهو يضرب رأسه ـ كيف ، كيف يمكن ان يتعرضوا بالاذى لاتباعي؟ لست اذن تشيرتوبخانوف .....)

لم يستطع تيخون ايفانيتش نيدوبيوسكين ، ان يباهي بأصله ، كما هو شأن بانتيلي يريميتش . انحدر ابوه من المالكين المعتوقين وحصل ، فقط بعد خدمة دامت اربعين عاما في الدولة ، على لقب النبيل . ان اباه السيد نيدوبيوسكن من اولئك الناس الذين ظل يلاحقهم نكد الطالع

بضراوة ، في غضون الستين عاما كلها منذ ولادته الى موته حتى لكأنه اشبه بالعداوة الشخصية ، كافح المسكين ضد كل ضروب العوز والاوصاب والنوائب الملازمة للناس الصغار ، عانى من الفقر المدقع ، لم يسد رمقه ، لم ينم ملء جفونه ، تضرع ، اجهد نفسه ، اغتم ، برح به العذاب ، ارتعش فرقا على كل كوبيك ، وعانى كثيرا في الوظيفة رغم انه بالفعل لم يرتكب ((خطأ)) ، اخيرا حين وافته المنية لم يكن في منزلة عالية ولا خفيضة ، ولم يفلح في الحصول على خبز يومه لا لنفسه ، ولا لاطفاله . لقد لاحقه القدر ، كأنه ارنب مطارد . كان امرءأ طيبا شريفا ، لكنه اخذ الرشوة ((حسب رتبته)) ـ من عشرة كوبيكات الى روبلين احيانا ـ ان زوجة نيدوبيوسكين نحيفة مريضة بالسل ، ولديه اطفال ، سرعان ماتوفوا لحسن الحظ ، ماخلا تيخون والابنه ميترودورا ، الملقبة بـ((متأنقة التجار)) تزوجت بعد سلسلة مغامرات مؤلمة مضحكة ، من كاتب عقود اعتزل عمله . قيض للسيد نيدوبيوسكين ـ ابان حياته ان يعين تيخون ضمن ملاك الموظفين في الدائرة ، لكن تيخون استقال فورا بعد وفاة والده . ان القلق الازلي : المقارعة المبرحة للبرد والجوع ، شجن الام المهمومة ، مساعي الاب اليائسة ، تعسف ارباب العمل والبياعين الفظ ، كل هذه الاحزان اليومية المتواصلة خلقت لدى تيخون شعورا بالوجل لا تفسير له)) ((ارتعش ، تسمر كالطير المصطاد لدى مجرد رؤية الرئيس . ترك الوظيفة . ان الطبيعة اللامكترثة ، ولربما ، الهازئة ، تغرس في الناس قابليات وميولا متباينة ، دون ادنى تفكير في وضعهم الاجتماعي ومواردهم ، فخلقت من تيخون ابن الموظف الصغير البائس ـ بكل ما تتسم فيه من رعاية وحب ـ انسانا حساسا ، كسولا ، دمثا ، سريع التأثر ، مخلوقا يصلح للمسرات بشكل فريد ، موهوبا حاسة شم مرهفة للغاية وذوقا .... ثم جعلت صنيعها هذا يترعرع على الكرنب المخلل والسمك العفن . وها قد نما هذا الصنيع ، وشرع ((يعيش)) كما يقولون .

واستمرت اللعبة . فالقدر ، الذي اشقى بالحاج نيدوبيوسكين ـ الاب ، تلقف الابن كذلك : من الجلي انه تلهى به ايضا . لكنه سلك سبيلا آخر مع تيخون : لم يعذبه ، وانما تسلى به . لم يفض به قط الى القنوط ، لم يحمله على المعاناة من عذابات الجوع المخجلة ، بيد انه حمله على التطواف في روسيا من اقصى طرف فيها الى الطرف الاخر ، من روستوغ العظيمة الى تساريفو ـ كوكشايسك ، من عمل مشين هزىء الى ثان . تعطف عليه ذات مرة للعمل ((مسؤولا للخدم)) لدى سيدة محسنة شكسة ، حادة الطبع ، او تركه متطفلا في كنف تاجر ثري شحيح تارة ، او عينه في مكتب اهلي سكرتيرا لسيد جاحظ العينين ، حليق على الطريقة الانكليزية تارة اخرى ، او جعله شبه خادم ، شبه مهرج لدي صياد يعنى بالكلاب .... وصفوة القول ، اجبر القدر تيخون المسكين ان يتجرع قطرة فقطرة وحتى الثمالة كل الشراب المر المسموم الذي يشربه المخلوق التابع . لبى ابان حياته كل النزوات الثقيلة للسادة الخاملين الساهين وسأمهم القاتل .... كم من مرة اقسم وهو معتزل في غرفته ، بعد ان صرفه ، ((لرعاية الله)) رهط الضيوف الذين تسلوا ما فيه الكفاية ، اقسم وقد تلظى خجلا ، ودموع القنوط الباردة تجول في عينيه ، ان يهرب خفية في اليوم التالي ، ويجرب نصيبه في المدينة ، يبحث لنفسه ولوعلى وظيفة كاتب ، والا من الافضل الموت مرة واحدة من الجوع في الشارع . لكن اولا لم يمنحه الله القوة ، ثانيا غشاه الخجل ، ثالثا كيف يسعى لنفسه اخيرا على عمل وممن يطلب؟ ((كان المنكود يهمس مع نفسه احيانا ، لن يعطوني)) ويتقلب على سريره مغتما لن يعطوني)) ثم يشرع في اليوم التالي مجددا بعمله المألوف . ومما زاد وضعه ايلاما ، ان الطبيعة ، رغم رعايتها له ، لم تسع ان تهبه ولو نصيبا قليلا من تلك القابليات والمواهب التي لا يمكن بدونها ممارسة صنعة المزّاح . فهو مثلا ، غير كفو للرقص حتى ينطرح ارضا وارتداء فروة دب والتحرك فيها بالمقلوب ، لايمازح ولا يداعب جيرانه

المتاخمين لهم ، مهتاجا ضاربا السياط ، وعندما يوقف عاريا في درجة من البرودة تبلغ احيانا العشرين تحت الصفر ، كان يصاب احيانا بالرشح ، ولا تهضم معدته النبيذ المخلوط بالحبر او غيره من النفايات ، ولا الفطر السام المفروم والمخلوط بالخل . كان الله عليم ، بما سيحل بتيخون ، لو لم يخطر ببال ملتزمه الثري وآخر المحسنين له ، في ساعة انشراح ، ان يسجل له في وصيته مايلي : اما زيوزا (اعني تيخون) نيدوبيوسكين فاترك له ولورثته ملكا دائما هي قرية بيسليندفكا التي امتلكها شرعيا مع كل عوائدها . بعد بضعة ايام أودى شلل مفاجيء بحياة المحسن لأكله حساء سمك الخفش . تعالت الضجة ، جاء ممثلو السلطة وختموا ممتلكاته بموجب القانون .

جاء اقرباؤه ، فضوا الوصية ، تلوها وطلبوا حضور نيدوبيوسكين . جاء نيدوبيوسكين . كان القسم الاعظم من الحفل على علم بالعمل الذي مارسه تيخون ايفانيتش لدى المحسن : انهالت هتافات مدوية وتهان ساخرة في استقباله . هتف بقية الورثة ـ ((ملاك ، ها هو ذا الملاك الجديد)) ((اضاف احد المنكتين والمتفكهين المعروفين ـ هذا هو ذا ، هذا ما يمكن قوله بالضبط .... انه بالفعل .... ذلك .... ما يسمونه .... ذلك .... الوريث .)) انطلق الجميع على هذه الصورة . لم يقدر نيدوبيوسكين لبرهة طويلة ان يصدق حسن حظه . اروه الوصية ـ تخضب وجهه بالحمرة . خفض عينيه ، شرع يلوح ذراعيه ، وانشأ ينشبح بقوة . تحولت قهقهات المجتمعين الى زمجرة متواصلة غليظة . تحتوي قرية بيسليندفكا على اثنين وعشرين قنا فحسب ، لذلك لم يأسف احد عليها فلم لايتسلون بهذا الحدث اذن؟ ان روستيسلاف ادميتش شتوبيل ، وهو وريث من بطرسبورغ ، ذو انف اغريقي ، ووجهه يعبر عن اعتزاز بالغ ، لم يطق صبرا على ذلك ، تحرك موليا جانبه نحو نيدوبيوسكين ونظر اليه عبر كتفه بعجرفة . ((شرع يتكلم بازدراء وعدم اكتراث ، على قدر ما استطعت ان الاحظ ، ايها السيد الكريم ، فقد

مارست ، لدى المحترم فيودور فيودوروفيتش ، مهنة مزاح ، او تابع كما يقال ؟)) تكلم السيد البطرسبورغي بلغة نقية ، حيوية ، وصحيحة .

لم يسمع نيدوبيوسكين المرتبك المنفعل كلمات السيد الذي لا يعرفه ، لكن الاخرين اخلدوا للصمت حالا ، ابتسم المنكت بتلطف . فرك السيد شتوبيل يديه وكرر السؤال عليه . رفع نيدوبيوسكين عينيه مذهولا وفغر فاه . زر روستيسلاف اداميتش ما بين عينيه بسخرية .

استطرد في كلامه ـ اهنئك ايها السيد الكريم ، اهنئك حقا ، يمكن القول ، ليس كل واحد يرضى الحصول على رزقه بهذه الطريقة لكن ،de gustibus non est disputandum. اعني لكل ذوقة الخاص .... أوليس كذلك؟

اطلق احدهم من الصفوف الخلفية زعيقا سريعا ، لكن مؤدبا ، من شدة الدهشة والفرح . استطرد السيد شتوبيل وقد شجعته ابتسامات المجتمعين برمتهم ـ قل لي اية موهبة على وجه التحديد انت مدين لها بسعادتك؟ كلا ، لا تخجل ، فالكل هنا كما يقال اصحابك ، عائلة واحدة en famille: السنا حقا ، ايها السادة ، نحن هنا عائلة واحدة؟ لم يعرف روستيلاف اداميتش مصادفة بان الوريث الذي وجه اليه السؤال يجهل اللغة الفرنسية ، مع الاسف ، لذلك اكتفى ببعض التأوهات الخفيفة المؤيدة . بينما اضاف وريث آخر على عجل ، وهو امرؤ شاب على جبينه بقع باهتة الصفرة : ((انت ، انت ، بلا ريب)) .

شرع السيد شتوبيل بالحديث مجددا ـ ربما بمستطاعك ان تسير على يديك ، رافعا ساقيك ، كما يقال ، الى الاعلى؟

تطلع نيدوبيوسكين مكتبئا فيما حوله ـ الوجوه كلها تضحك بحقد ، والعيون كلها مبتلة بنداوة الرضا .

ـ أم لعلك تقدر على الغناء كالديك؟

(دوى انفجار من القهقهات فيما حوله ، ثم خمد في الحال ، فقد اماتته المفاجأة)

ـ او لعلك ، تستطيع ، في الانف ....

بغته قاطع صوت حاد مجلجل ، روسيتسلاف ادميتش ـ حسبك ، الا تخجل من تعذيب انسان مسكين .

التفت الجميع . وقف تشـيرتوبخانوف عند الباب ، بوصـفه ابن اخ الملتزم المرحوم من الجيل الرابع ، اذ تسـلم ايضـا رسـالة دعوة الى اجتماع الاقارب . بقي كالمألوف ، طوال وقت القراءة ، فخورا بعيدا عن الاخرين .

كرر القول وارسل رأسه باعتزاز ـ حسبكم .

التفت السيد شتوبيل سريعا ورأى شخصا ملابسه بائسـة ، فسـأل جاره بصوت خافت خال من الجمال ـ (فالحذر شيء جيد دائما) .

ـ من هذا ؟

اجابه ذاك هامسا في اذنه ـ تشير تو بخـانوف ، ليس طيرا خـطير الشأن . اصطنع روستيسلاف اداميتش مظهراً متعجرفا .

تكلم عبر انفه ، ضيق ما بين عينيه ـ من انت ايها الآمر اسـمح لي ان اسأل ، اي طائر انت؟

اتقد تشـيرتونجانوف ، كشرارة في بارود . حبس الهياج ، الذي غشى انفاسه ، فحّ كالمختنق ... دز ـ ذرـ دز ـ دز ـ، ولعلع فجأة ـ مـن انا؟ أنا بانيتلي تشيرتوبخانوف ، نبيل عريق ، لقد خدم اجـدادي القيصر ، فمن تكون انت؟

امتقع روسيتسلاف اداميتش وتراجع الى الوراء . لم يتوقع مثل هذا الرد .

ـ انا طائر ، انا ، انا ، طائر ....

اندفع تشيرتوبخانوف الى الامام ، ارتد شـتوبيل الى الخلف ، وقـد اشتد اضطرابه ، هرع الضيوف لمقابلة الملاك المهتاج .

صرخ بانتيلي المحتدم غيظا ـ سأطلق النار ، سأطلق ، سأطلقها الان من تحت المنديل ، ان لم يطلب الصفح مني ، ومنه ايضا ....

تمتم الورثة المضطربون المحيطون بشتوبيل ـ اطلب ، اطلب صفحه ، ياله من امريء . متهور ، انه لمستعد حتى ان يقطعك .

جمجم شتوبيل ـ اســألك المعــذرة ، اســألك المعــذرة ، لم اعرف لم اعرف ...

زعق بانتيلي المتهيج ـ واعتذر منه كذلك ....

اضاف روستيسلاف اداميتش ، ملتفتا الى نيدوبيوســكين الذي كان بدوره يرتعش كالمصاب بالحمى ـ اعذرني انت ايضا .

هدأ روع تشيرتوبخانوف ، دنا من تيخون ايفانيتش ، اخذه من يده ، اجال بصره بتحد فيما حوله ، لم يواجهه احد ولو بنظرة واحدة ، خرج بجلال من الغرفة المخيم عليها صمت عميق ، برفقة المالك الجديد الذي اصبح يمتلك قرية بيسيليندفكا شرعيا .

منذ ذلك اليوم نفسه لم يفترقا مطلقا . ((تبعــد قــرية بيســيليندفكا ثمانية فيرستات لا غير عن بيســونوفو .) سرعان مــا تحــول امتنان نيدوبيوســكين اللامحــدود .... الى تبجيل خــانع له . كان تيخـــون الضعيف الرخو ، غير الطاهر تماما ، ينحني متضــائلا امــام بانتيلي الجريء الخالي من الاطماع .((انه ليفــكر احيانا في سريريته ..... يا للعجب انه يتكلم مع المحافظ ، محدقا في عينيه مباشرة .... رحماك ايها المسيح ، انه ليحدق في عينيه .))

وصل عجبه منه حد الحيرة ، بل لدرجة خارت معها قــواه الروحية ، اعتبره انسانا فريداً ، ذكياً ،عالماً . ولا مندوحة من القول انه مهما كان نصيب تشيرتوبخانوف نزراً من الثقافة لكنه ، يبدو ألمعيا مقايسه مــع ثقافة تيخون . حقا كان تشيرتوبخانوف يقرأ لماما باللغــة الروســية ، ويفهم فهما رديئا ، لدرجــة انه اجــاب ذات مـــرة عن ســـؤال معلم سويسري : vous parlez francais monsieur هل تتكلم الفرنسية ايها السيد؟ : ((جيه ، انا لا افهم ـ ثم فــكر قليلا ، واضــاف قــائلا ـ با ، كلا ـ)) ومع ذلك فهو يتذكر ، انه وجد في الدنيا فــولتير ، المؤلف اللاذع

في نقده ، وان فـردريك الكبير ملك بروسـيا ، تميز ايضـا بسـيرته العسكرية . احترم ديرجافين من الكتاب الروس وأحب مـارلينسكي[٤] وسمى افضل كلابه امالات بيك[٥] ....

بعد مضي بضعة ايام على لقائي الاول مـع كلا الرفيقين ، ذهبت الى بانتيلي يريميتش في قرية بيسونوفو الصـغيرة . تراءى مـن بعيد بيت صغير ، بارز في مكان اجرد ، على مسافة نصف فيرست مـن القـرية ، ((على مرأى الجميع)) كما يقولون ، كأنه باشق فوق برج . تتكون عزبة تشيرتوبخانوف كلها من اربعة اقسام مختلفة الاحجام وهي على وجه التحديد : مبنى جانبي ، اسطبل ، عنبر وحمام . ان كل قسم منفصل عن الاخر وقائم بحد ذاته : لم نلحظ وجود سياج حوله ، ولا بوابة . وقـف حوذيي حائرا عند بئر شبه آسنه ملوثة . نهشت بضعة جـراء عجـاف شعثاء حصانا ميتا قرب البئر ، لعله اورباسان ، كان قد رفـع وجهـه المدمى ، نبح بسرعة ثم شرع مجددا يقضم الضلوع الخالية من اللحم . وقف على مقربة من الحصان فتى يبلغ عمره سبعة عشر عاما ، وجهـه منتفخ اصفر ، مرتد ملابس خادم ، حافي القدمين ، تطلع باهتمـام الى الكلاب التي عهد اليه الاشراف عليها وكان يضرب بالسـوط بين فينة واخرى اكثرهم شراهة .

توجهت اليه بالسؤال ــ هل السيد في البيت؟

اجاب الفتى ــ الله اعلم ! اطرق الباب .

قفزت من العربة واقتربت من مدخل المبنى .

لاح مسكن السيد تشيرتوبخانوف كئيب المظهـر للغـاية : اسـودت الجـذوع ونتأت الى الامـام ((كالبطـن)) ، انهـارت المدخنة ، تعفنت الزوايا وتزعزعت ، بدت النوافـذ الصـغيرة ذات الزرقـة الرمـادية الكابيه ــ كئيبة بشكل لا يوصف من تحت السقف الخشـن المائل : ان لدى بعض المومسات العجائز عيونا شبيهة بها . طرقت الباب ، ما مـن مجيب ، ومع ذلك قد تناهت الى سمعي من وراء الباب كلمـات لفـظت

بحدة .

نطق صوت ابح ـ الف ، باء ، تاء ، يالك من احمق ، الف ، باء ، تاء ، تاء ، كلا ماهكذا تاء ، جيم ، جيم ، جيم ... يالك من ، احمق !.

صاح الصوت نفسه .

ـ ادخل ، من هناك؟

دخلت غرفة الانتظار الصغيرة الفارغة ، رأيت من خلال الباب المفتوح تشيرتوبخانوف نفسه . ارتدى مبذلا ملوثا بالدهن من النوع المصنوع في بخارى ، وسروالا واسعا وطاقية حمراء ، جلس على الكرسي ، ضغط باحدى يديه وجه كلب رومي فتي ، وامسك بالاخرى قطعة خبز فوق انفه تماما .

قال بوقار دون ان يتحرك من مكانه ـ آ ! انا سعيد جدا بزيارتك . تفضل واجلس رجاء ... وها انا ذا مشغول مع فينزور ... واستطرد ، رافعا صوته ـ تيخون ايفاينتش ، هلم الى هنا . جاءنا ضيف .

اجاب تيخون ايفانيتش من الغرفة المجاورة ـ انا قادم حالا ، قادم حالا ، ماشا اعطني الربطة .

التفت تشيرتوبخانوف مجددا الى فينزور ووضع له قطعة خبز على انفه . تطلعت فيما حولي . لم تكن في الغرفة سوى منضدة منبسطة متصدعة لها ثلاث عشرة رجلا غير متساوية الطول واربعة كراسي من القش هابطة المقاعد ، وما خلا ذلك لا يوجد اثاث اخرى ، تسلخت الجدران ، التي بيّضت منذ امد بعيد ونقشت ببقع زرق لها شكل النجوم ، في اماكن كثيرة . علقت بين النافذتين مرآة مكسورة كابية ذات اطار كبير من الخشب الثمين . انتصب الشبوق والبنادق في الزوايا ، وتدلت من السقف خيوط العنكبوت المتينة السوداء .

لفظ تشيرتوبخانوف ببطء ـ الف باء تاء ، ثاء ، جيم ، وفجأة هتف بغضب : جيم جيم .. جيم ... ، يالك من حيوان بليد ... جيم ...

بيد ان الكلب الرومي البائس كان ينتفض فحسب ، ولم يقدم على

فتح فمه ، ظل جالسا ، وقد اثنى ذيله مغتما ، لوى وجهه ، رمش حزينا ، زر ما بين عينيه ، كأنه يقول في دخيلته : من المعلوم ، ان الامور تجري وفق مشيئتك .

كرر الملاك اللجوج ـ كل ، خذ ! حوح !

علقت قائلا ـ لقد ارعبته :

ـ اذن ،اذهب من هنا

دفعه بقدمه . نهض المسكين بهدوء ، رمى الخبز عن انفه ومضى الى مكان آخر ، كأنه كان يمشي على اصابعه ، متألما الما عميقا . وبالفعل : جاء امرؤ غريب لاول مرة ، وتصرفوا معه بحضرته على هذه الصورة .

صر الباب في الغرفة الاخرى بحيطة ، ودخل السيد نيدوبيوسكين ، انحنى بلطف وابتسم .

وقفت وانحنيت له .

تمتم قائلا ـ لا تزعج نفسك ، لا تزعج نفسك .

جلسنا . خرج تشيرتوبخانوف الى الغرفة المجاورة .

سأل نيدوبيوسكين بصوت وديع وسعل محترسا في يده ، واضعا اصابعه امام شفتيه زيادة في التأدب ـ هل حللت في ربوعنا منذ امد طويل؟

ـ في الشهر الماضي .

ـ هكذا اذن .

لزم كلانا الصمت للحظة .

استطرد نيدوبيوسكين في كلامه ـ الجو رائع اليوم ، ونظر الي بامتنان ، كأن هذا الجو من نعمي ، يمكن القول ان الحبوب ستكون مدهشة .

حنيت رأسي للدلالة على موافقتي اياه . واخلدنا الى الصمت مرة اخرى .

بدأ نيدوبيوسكين الكلام ، باذلا شيئا من الجهد ، فمن الجلي انه

يرغب في انعاش الحديث ـ ان بانتلي يريمتش لاحق امس ارنبين ، وبالهما من ارنبين بريين كبيرين .

ـ هل لدي السيد تشيرتوبخانوف كلاب جيدة؟

قال نيدوبيوسكين بارتياح ـ ممتازة جدا بل يمكن القول انها من الصنف الاول في المحافظة . (تحرك مقتربا مني) ماذا تظن ياله من امريء رائع بانتيلي يريميتش ما ان يرغب في شيء معين ، ما ان تجول خاطرة بباله حتى تتطلع واذا كل شيء جاهز ، وكل شيءيجيش جيشانا لا نظير له . اقول لك ان بانتيلي يريميتش .....

دخل تشيرتوبخانوف الى الغرفة . ابتسم نيدوبيوسكين ، وكف عن الحديث مشيرا بعينيه اليه ، كأنه يود ان يقول . ها هو ذا ، فتيقن بنفسك . انخرطنا في الحديث عن القنص

سألني تشيرتوبخانوف ـ ـ الا تريد ان اريك مجموعة كلابي؟ ونادى كارب دون ان ينتظر جوابا مني .

دخل شاب قوي مرتديا قفطانا قطنيا اخضر اللون ، ياقته باهتة الزرقة وازراره برونزية لامعة .

تكلم تشيرتوبخانوف كلاما متقطعا ـ مُرّ فومكا ان يأتي بامالات وسايغا ، وحسب النظام اتفهم؟

ابتسم كارب بملء فيه ، وند منه صوت غير جلي ثم خرج . جاء فومكا ، مصفف الشعر ، مشدود الحزام ، محتذيا جزمة ومعه الكلاب . ابديت اعجابي ، مجاملة ، بالحيوانات البليدة (الكلاب السوقية . مفرطة البلادة) . بصق تشير توبخانوف على امالات ، في منخريه تماما ، لكن من الجلي ، ان الكلب لم يحصل على ادنى قسط من الرضا جراء ذلك . لاطف نيدوبيوسكين ايضا امالات من الخلف . شرعنا مجددا في الثرثرة . هدأ تشيرتوبخانوف تدريجيا ، واسترخى تماما ، كف عن الزهو والضحك ، تغير تعبير وجهه . نظر الي والى نيدوبيوسكين .

هتف على حين غرة ـ هــاي مــالها تجلس هناك وحـدها؟ مــاشا ! ماشا ! تعالي هنا .

تحرك احد ما في الغرفة المجاورة ، لكنه لم يحر جوابا .

كرر تشيرتوبخانوف ملاطفا ـ ما ـ اشا ، هلمــي الى هنا ، لا تخشي شيئا .

انفتح الباب بهدوء ، ورأيت امرأة تبلغ العشرين من عمــرها فــارعة الطول ممشوقة ، وجهها غجــري اســمر ، عيناهــا داكنتا الصــفرة ـ عسليتان ، ضفيرتها حالكة السواد ، لمعت اسنانها البيضاء الكبيرة من بين شــفتيها الملوثتين الحمــراوين . كانت تلبس ثوبا ابيض وشــالا خفيف الزرقة ، دبســته عند عنقهــا بدبوس ذهبي ، وغطـــى يديهـــا الرقيقتين الرائعتين اللتين تكشفان جمــال عرقهــا الى منتصــفهما . خطت مرتين خــطوات مخلوق متوحش ، مــرتبك ، خجــول ، توقفــت واطرقت برأسها .

قال بانتيتلي يريميتش ـ اقدم لك زوجتي ، ليســت زوجتي تمــاما ، على كل حال اعتبرها زوجة ....

توقدت ماشا قليلا ، ابتسمت بارتباك . انحنيت لها انحناءة خفيضة . لقد اعجبتني للغاية . ان انفها الاعقــف الدقيق بمنخــاريه المفتوحين ، الشفافين لحد ما وتخطيط حاجبيها المرتفعين وخديها الغائرين بعض الشيء ـ وكل ملامح وجهها تشف عن عاطفة جامحة وشجاعة لامبالية .

لاحت ذؤابتان من الشعر القصير اللامــع مــن تحـــت جـــديلتها المضفورة ، على عنقها العريض ـ وهــي امــارة تدل على حيوية الدم والقوة .

دنت من النافذة واتخــذت مجلســها قــربها ، لم ارد ان ازيد مـــن ارتباكها واخذت اتحدث مع تشــيرتوبخانوف ، ادارت مــاشا رأســها استدارة خفيفة ، وشرعت تنظر الي بعبوس ، خلسة ، بوحشية وسرعة . مرت نظرتها كأنها زبان افعى . جلس نيدوبيوسكين قربها وهمس لهــا

شيئا مافي اذنها .

ابتسمت مرة اخرى . ابتسمت وغضنت انفها برفق ، رفعت شفتها العليا ، مما اضفى على وجهها تعبيرا ، لاهو بتعبير القطة ولا الاسد .

فكرت وانا انظر بدوري خلسة الى خصرها اللدن وصدرها الضامر وحركاتها الحادة الرشيقة ــ ((آه ، ((لا تمسيني)) انت))

سألها تشيرتوبخانوف ــ ماشا ما بالك ، يجب ان نقدم لضيفنا شيئا ما ، اليس كذلك؟ .

اجابت ــ عندنا مربى .

ــ اذن ، هات المربى هنا ، وكذلك الفودكا بالمناسبة . وصاح في اثرها اسمعي ، ماشا ، اجلبي القيثارة ايضا .

ــ ولماذا اجلب القيثارة؟ لن اغني

ــ لماذا؟

ــ لا ارغب في الغناء

ــ ايه ، هراء ، سترغبين ، اذا .....

سألت ماشا ، مقطبة حاجبيها بسرعة ــ ماذا؟

اكمل تشيرتوبخانوف كلامه بشيء من الارتباك ــ اذا طلبوا منك ...

ــ ها ! .....

خرجت ، وسرعان ماعادت حاملة المربى والفودكا واتخذت مجلسها مرة اخرى عند النافذة . وما فتئت ان تراءت جعدة على جبينها ، ارتفع كلا حاجبيها وهبطا مثل ابر الدبور .... هل اتفق لك ولاحظت ايها القاريء وجه الدبور الشرير؟ حسنا ، فكرت ان عاصفة ستحدث . لم تتصل اطراف الحديث . خمد نيدوبيوسكين تماما ، ابتسم ابتسامة مغتصبة ، لهث تشيرتوبخانوف ، احمّر وحملق بعينيه ، اما انا فقد عزمت عندئذ على الذهاب .... نهضت ماشا بغتة ، فتحت النافذة دفعة واحدة ، اطلت برأسها وصاحت من اعماق قلبها على امرأة عابرة سبيل : ((اكسينيا)) . انتفضت المرأة ، ارادت ان تلتفت فزلقت

وسقطت بعنف على الارض . ارتدت ماشا الى الوراء وقهقهت قهقهات رنانة ، ضحك تشيرتوبخانوف ايضا ، زعق نيدوبيوسكين من البهجة . سرت الحركة في الجميع . انطلقت العاصفة من بريق واحد .... اضحى الهواء نقيا ....

بعد مضي نصف ساعة ، لم يكن بوسع احد ان يعرفنا : لقد ثرثرنا وعبثنا كالاطفال . كانت ماشا اكثر الجميع مرحا وسرورا ، بينما تسمرت عينا تشيرتوبخانوف بها . اصبح وجهها شاحبا ، اتسع منخريها ، تلظت وانطفأت في الوقت نفسه . استرسلت المتوحشة في مرحها . تعثر نيدوبيوسكين في اثرها بقدميه البدينتين القصيرتين كأنه علجوم خلف بطة حتى فينزور تسلل من المخبأ الذي قبع فيه في القاعة ، وقف عند العتبة، تطلع الينا وشرع بغتة يثب وينبح . خفت ماشا الى الغرفة الاخرى ، جلبت القيثارة طرحت الشال جانبا عن كتفيها ، جلست برشاقة ، رفعت رأسها وطفقت تغني اغنية غجرية . رن صوتها وارتعش كجرس زجاجي صغير مشروخ ، توهج وتلاشى .... خامر الفؤاد شعور بالمتعة والوجل . ((آه ، اشعلي ، تكلمي ....))[٦] شرع تشير توبخانوف في الرقص . طبطب نيدوبيوسكين برجليه واستبدل الواحدة بالاخرى . اختلجت ماشا بتوتر متلوية كقشرة شجرة البتولا في النار ، مرت اناملها الرقيقة بخفة على القيثارة ، اشرأب عنقها الاسمر رويدا من تحت عقد الكهرمان المزدوج . كانت تارة تلوذ بالصمت على حين غرة وتسترخي منهوكة ، كأنها تعبث باوتار القيثارة دون رغبة ، بينما يتوقف تشيرتوبخانوف ، مكتفيا بهز كتفيه فحسب ، واستمالتها في المكان نفسه ، اما نيدوبيوسكين ، فقد هز رأسه كالخزف الصيني ، ثم انطلقت تارة اخرى مجددا كالمجنونة ، استوت ، ابرزت صدرها ، هبط تشيرتوبخانوف مرة ثانية الى الارض ، ووثب حتى السقف الا قليلا ، التف كاللعبة الدوارة ، صائحا : ((حماسة))

التقط نيدوبيوسكين الكلمة السريعة ـ حماسة ، حمــاسة ، حمــاسة
غادرت بيسونوفو في وقت متأخر من المساء .....

* * *

نهاية تشيرتوبخانوف

- ١ -

بعد مرور سنتين على زيارتي لبانتيلي يريميتش ، اخذت الفواجع تنهال بكل ما في طوبيا هذه الكلمة من معنى . لقد خبر الكدر والاخفاق ، ان المصائب نفسها كان قد خبرها حتى قبل هذا الوقت ، لكنه لم يأبه بها وظل ((يسود)) كما كان في السابق . ان اول فجيعة صعق لها كانت عاطفية محضة : لقد تركته ماشا .

من الصعب القول ، ماهو الدافع الذي حملها على ترك داره مع انها بدت قد الفته الفة حسنة ، ظل تشيرتوبخانوف يعتقد حتى اواخر ايامه ، ان الملوم في خيانة ماشا كان شابا مجاورا له ، عمل ضابطا في الفرسان ثم اعتزل الخدمة ، لقبه ياف ، والذي ، حسب كلمات بانتيلي يريميتش ، استمالها ، فقط لانه دأب على فتل شواربه والمبالغة في دهن شعره ، وتلفظ الكلمات بعظمة ، لكن على ارجح الظن ، ان الدماء الغجرية المفطورة على التجوال المتدفقة في عروق ماشا ، كان لها التأثير الاكبر آنئذ . ومهما يكن من امر ، فان ماشا لفت بعض الخرق في فترة وجيزة ، وذات مساء صيفي رائع ، غادرت بيت

تشيرتوبخانوف .

جلست قبيل ذلك ، زهاء ثلاثة ايام في الركن وتثنت ملتصقة الى الجدار كالثعلبة الجريحة ، وليتها نبست ولو بكلمة لاحد ، اجالت ناظريها فقط واستغرقت في التفكير ، حركت حاجبيها ، وكشرت عن اسنانها قليلا ، وصفّت يديها كأنها ترتعش من البرد . سبق ان انتابها مثل ((اختلال التوازن)) هذا ، لكنه لم يدم قط مدة طويلة . كان تشيرتوبخانوف على علم بذلك ، ولم يداخل القلق نفسه ، وعزف عن اقلاقها ايضا . بيد انه عندما عاد من فناء بيت الكلاب ، حيث ((لهث)) ، حسب تعبير مسؤول الصيد ، آخر كلبي صيد ، التقى خادمة ، اخبرته بصوت مرتعش ان ماريا ، اعني ، اكينفيفنا امرت ان تنقل له تحياتها كما امرت ان تخبره ، انها تتمنى له كل خير ، لكنها لن تؤب اليه مطلقا ـ استدار تشيرتوبخانوف في مكانه مرتين ، اصدر زمجرة مبحوحة وانطلق فورا في اعقاب الهاربة ـ اخذ المسدس معه ايضا .

ادركها وهي على بعد فيرستين من بيته ، قرب غابة صغيرة من اشجار البتولا في الطريق العام الموصل الى مدينة المنطقة . انحدرت الشمس على الافق ـ وتخضب على حين غرة كل ماحولها بالحمرة : الاشجار ، الاعشاب والارض .

ما ان وقع بصر تشيرتوبخانوف على ماشا حتى قال بصوت كالأنين ـ ذاهبة الى ياف ، ياف ثم كرر الى ياف ، ودنا منها وهو يكاد يعثر لدى كل خطوة

توقفت ماشا ، ادارت وجهها صوبه . وقفت مولية ظهرها الى جهة الضوء ، بدت كلها داكنة السمرة ، كأنها مجتثة من شجرة الابنوس . تجلى بياض عينيها وحده بلون فضي لوزي ، اما مقلتاها ، الحدقتان منهما ، فكانتا اشد عتمة من اي وقت كان

طرحت صرتها جانبا وشبكت ذراعها :

كرر تشــيرتوبخانوف ـ ذاهبة الى ياف ، ايتهــا الخبيثة ، واراد ان يمسكها من كتفها ، لكن التقى بنظــرتها ، فغشــاه الارتباك ، وتوقــف حائرا في مكانه .

اجابت ماشا باتزان وهدوء ـ بانتيلي يريميتش لست ذاهبة الى السيد ياف ، كل مافي الامر ، انه لم يعد بوسعي العيش معك .

ـ كيف لا تستطيعين العيش؟ ما السبب؟ ؟ هل أسأت اليك بشيء؟

هزت ماشا رأسها .

لم تسيء الى بشيء ، بانتيلي يريميتش ، انني اكتئب عندك فحســـب ، اشكرك على الماضي ، ولكني لا استطيع البقاء ـ كلا !

صعق تشيرتوبخانوف ، حتى انه صفق يديه على فخذيه ووثب .

ـ كيف يمكن ذلك؟ عشت وعشت ولم تري معي سوى الدعة والراحة ـ ثم فجأة : اكتأبت ! اذن لاتركه ! تناولت المنديل ، وضعته على رأســها ومضت . تلقيت كل ضروب الاحترام ، كأي سيدة ....

قاطعته ماشا ـ انني لست بحاجة لكل ذلك علي اية حال .

ـ كيف لاحاجة؟ تحولت من غجرية وضيعة الى سيدة ، ولا حاجة بهــا لذلك؟ كيف لاحاجة لذلك ايتهــا الذرية الجلفــة؟ او يمــكن تصــديق ماتقولين؟ ثمة خيانة تنطوي عليها حناياك ، فحّ صوته مرة اخرى .

اجابت ماشا بصوتها الشادي الرفيع ـ ما مــن خيانة في فــكري ولم تكن ، بيد انني كما قلت لك : استبدت بي الكآبة .

صاح تشــيرتوبخانوف وضرب صــدره بقبضــته ـ مــاشا ! طيب ، حسبك ، كفى ، عذبتني ... حسنا ((كفى)) يا الهي ! فكري فقط ، مــاذا سيقول تيخون ، لو انك اشفقت عليه فقط !

انقل سلامي لتيخون ايفانوفيتش وقل له ....

لوح تشيرتوبخانوف بيديه .

ـ كلا ، انت تكذبين ، لن تذهبي ! لن ينتظرك صاحبك ياف !

ابتدأت ماشا بالقول ـ السيد ياف .....

شاكسها تشيرتوبخانوف ـ س ـ ي ـ د ياف ، كما هو شأنه محتال ، مكار له وجه كوجه القرد .

بذل تشيرتوبخانوف قصارى جهده لمدة نصف ساعة كاملة مع ماشا . دنا منها مقتربا تارة . مبتعدا تارة اخرى ، لوح بيده مرة . انحنى لها حتى خصره مرة ثانية ، بكى ، شتم ...

قالت ماشا مؤكدة ـ لا استطيع ، ان الحزن يتملكني .... الكآبة تعذبني . ياالتعبير اللامبالي الذي غشى وجهها ، كأنه وجه وسنان ، حتى ان تشيرتوبخانوف سألها ، اولم يسقوها شيئا مخدرا؟

كررت للمرة العاشرة ـ انها الكآبة .

صاح على حين غرة وسحب المسدس من جيبه ـ حسنا ، اتدرين اني سأقتلك؟

ابتسمت ماشا ، ولاح الانتعاش على وجهها .

وماذا يضير؟ اقتلني ، بانتيلي يريميتش : حسب مشيئتك ، اما العودة ، فلن اعود ،

ـ الا تعودين؟ رفع تشيرتوبخانوف الزناد .

ـ لن اعود ، ياعزيزي ، لن اعود مادمت حية . ان كلمتي ثابتة .

دس تشيرتوبخانوف المسدس في يدها وجلس على الارض .

ـ اذن ، اقتليني أنت ! لا ارغب في العيش بدونك . اصبحت ابغضك ، واحس كل شيء بغيضا لي .

انحنت ماشا ، رفعت صرتها ، وضعت المسدس على الحشيش ، مبعدة فوهته عن تشيرتوبخانوف ، واقتربت منه .

ـ ايه ، ياعزيزي ، مالك تعذب نفسك؟ الا تعرفنا نحن معشر الغجر؟ هذا مادرجنا عليه من اخلاق وعادات . اذا لاحت كآبة ـ الفراق ، فالروح تصبو الى ديار الغربة ـ النائية ، ولا نستطيع البقاء في مكاننا ذاته؟ اذكر ماشا صديقتك ـ فلن تجد لنفسك رفيقة مثلها ـ وانا ايضا ، لن انساك يا نسري ، اما حياتنا معا ، فقد انتهت .

تمتم تشيرتوبخانوف من بين اصابعه التي امسك وجهه بهـا ـ انني احببتك يا ماشا ....

وانا احببتك ، ايها الصديق ، بانتيلي يريميتش !

ـ انني احببتك ، واحبك بجنون وهيام ، عندمـا افـكر الآن ، انك تتركيني هكذا ، دون معنى او منطق ، وانت تحيين بعافية ، وتجـوبين آفاق الدنيا ، يخيل الي ، انني لو لم اكن بائسا فقيرا لما تركتني !

اكتفت ماشا بالضحك ردا على كلماته .

قالت وضربت كتف تشـيرتوبخانوف بكل قـوتها ـ ومـع ذلك كنت تسميني امرأة فقيرة دون بائنة !

قفز على قدميه .

ـ اذن ، خذي مني ولو نقودا ، والا فكيف تذهبين دون فلس واحد؟ لكن افضل شيء هو : اقتليني! اقول لك بالضبط : أقتليني حالا !

ـ هزت ماشا رأسها مرة أخرى .

ـ اقتلك؟ اليس من جراء ذلك يرسلون بالناس الى سبيريا؟

انتفض تشيرتوبخانوف .

ـ لهذا السبب اذن ، خوفا من السجن فحسب .

انطرح مجددا على العشب .

وقفت ماشا صامتة قربه ، قـالت بحسرة ـ وأسـفي عليك ، بانتيلي تشيرتوبخانوف ، انت امرؤ طيب .... لكن مافي اليد حيلة : وداعا ...

نكصت على عقبيها وخطت مرتين . كان الليل قـد ارخـى سـدوله ، وتدفقت ظلال كابية من جميع الارجاء . نهض تشـيرتوبخانوف بخفـة وامسك ماشا من الخلف بكلا مرفقيها.

ـ اذن انت تذهبين ايتها الافعى؟ الى ياف !

كررت ماشا بوضوح وحدّة ـ وداعا ! انفلتت منه وسارت .

نظر تشيرتوبخانوف في اثرهـا ، وهـرع الى المكان الذي القـى فيه المسدس ، اختطفـه ، صـوب فـوهته ، اطلق النار .... بيد انه قبيل ان

يضغط على لولب الزناد ، حرك يده الى الاعلى .... دوت الطلقة فوق ماشا . رنت اليها في اثناء سيرها عبر كتفها ـ وواصلت مشيها متهادية ، كأنها تغيظه .

غطى وجهه ، وانطلق يعدو ....

لكنه لم يكد يجري خمسين خطوة ، حتى وقف فجأة كما لو تسمر . تناهى الى اسماعه صوت مألوف الفة بالغة . لقد غنت ماشا ((ايها الزمن الفتي الرائع)) ـ غنت ، وتسللت كل رنة من رناته شاكية متلظية في انسام المساء . ارهف تشيرتوبخانوف اذنه . توارى الصوت وتوارى ، تلاشى تارة ثم انساب مجددا ، وهو لا يكاد يسمع ، لكنه ظل سيالا لاهبا ....

فكر تشيرتوبخانوف ((انها تفعل هذا تشفيا مني ، لكنه تأوه في الحال ـ اوه ، كلا : انها تودعني الى الابد)) وانهمرت دموعه مدرارة .

ذهب في اليوم التالي الى شقة السيد ياف ، الذي لا تروق له العزلة الريفية شأنه شأن اي امرىء من صلب الاعيان ، فسكن في مركز المنطقة ((على مقربة من الآنسات)) كما درج ان يعبر . لم يجد تشيرتوبخانوف ياف في البيت : فقد سافر ـ حسب قول الخادم ـ في العشية الى موسكو .

هتف تشيرتوبخانوف بانفعال ـ هكذا اذن كانا على اتفاق ، لقد هربت بصحبته .... حسنا لير !

اقتحم مكتب الضابط الشاب ، رغم مقاومة الخادم . علقت في المكتب فوق الاريكة صورة رب البيت في بدلة الفرسان ، مرسومة بالالوان الزيتية ، هدر تشيرتوبخانوف وقفز على الاريكة ـ ها انت ذا هنا ، ايها القرد الابتر الذنب ، وضرب بقبضته اللوحة المشدودة واحدث فيها شرخا واسعا .

ثم التفت الى الخادم ـ قل لسيدك الخامل ، نظرا لغياب وجهه السافل ، فقد شوه النبيل تشيرتوبخانوف صورته . واذا رغب في

التعويض عن الضرر ، فهو يعرف اين يجد النبيل تَشيرتوبخانوف وان لم يفعل ، فسأجده انا سأبحث ! عن القرد الدنيء حتى في قاع البحر !

بعد ان فاه بتلك الكلمات ، قفز تشيرتوبخانوف عن الاريكة وانصرف بجلال .

لكن الضابط ياف لم يطلب تعويضا عن الضرر ، بل لم يلتق به في اي مكان . عزف تشيرتوبخانوف ايضـــا عن تتبع خصـــمه ، ولم تقـــع اية حادثة بينهما . اما ماشا فسرعان ما انقطعت اخبارها بعـــدئذ . طفـــق تشيرتوبخانوف يشرب الخمر ومع ذلك ((امســـك عنه قبيل ان يعتاده)) لكن فجيعة اخرى المّت به في الحال .

ـ ٢ ـ

ما حدث بالذات هو ان المنية وافت صديقه الحميم تيخور ايفانوفيتش نيدوبيوسكين . لســـنتين خلت قبل وفـــاته بدأت صـــحته تخـــونه : بات يعاني من ضيق النفس ، يستغرق في النوم دائما . وعندما يســـتيقظ لا يثوب الى وعيه في الحـــال : اكد طبيب المنطقـــة ، انه اصـــيب ((بضربة خفيفة)) . رقد نيدوبيوسكين في بيسيليديدوفكا في غضون الايام الثلاثة التي سبقت رحيل ماشا ، تلك الايام الثلاثة التي ((برحتهـــا الكآبة)) اصيب برشح قوي . صعقه سلوك ماشا بشكل غير متوقع : لقـــد اذهله بما لا يقل عمقا تقريبا عن تشيرتوبخانوف نفسه . ونظرا لطبعه الوديع الخجول ، لم يكن ليعرب ســـوى عن اســـف رقيق نحـــو رفيقـــه وحيرة مؤلمة .... ومع ذلك ، فان كل شيء قـــد تفجـــر في داخله وتهـــاوى . كان يهمس في سريرته ، وهو جالس على اريكته الاثيرة لديه ، المصنوعة من القماش المُشـــمع ، ويلف اصـــبعا على اصـــبع ((انهـــا انتزعت مني روحي)) . وحتى عندما عاد تشـــيرتوبخانوف الى وضـــعه الاعتيادي ، فان نيدوبيوسكين لم يستطع تمالك نفسه وظل يشعر ان ((جوفه خاو))

وكان يقول مشيرا الى وسط صدره فوق معدته ((هـــا هنا)) . اســـتمر على هذه الحالة حتى شارف الشـــتاء . خـــف ضـــيق نفســـه منذ بداية الزمهرير ، بيد انه نزلت به في الحال ضربة حقيقية ، لا ضربة خفيفـــة . فقد وعيه فورا ، لكنه كان ما يزال قادرا على معرفة تشـــيرتوبخانوف ، بل انه اجاب بلسان متصـــلب ((آه ... بانن ... يـ ... سي ي .... ي ... ايتس ، سي .. دا ... ثما انت ســـو ... شـــا ... شـــا)) . ردا على هتاف صديقه اليائس : ((مـــا بالك اذن ، كيف تتركني انت ياتيخـــون دون ان تستأذن مني ، انك لست باقل سوءأ من ماشا؟)) لكن هذا ، لم يمنعـــه مـــن ان يقضي نحبه في ذلك اليوم نفســـه ، دون انتظـــار وصـــول طبيب المنطقة ، الذي خامره ، لدى رؤية الجثة وقد فارقتها الحرارة تقـــريبا ، وعي كئيب لا غير عن فناء كل ماهو ارضي وطلب ((شيئا من الســـمك والفودكا)) . اوصى تيخون ايفانوفيتش بضيعته ، كما ينبغي ان يتوقـــع منه ، الى محســـنه المبجـــل وحـــامية الكريم الخلق ((بانتيلي يريميتش تشيرتوبخانوف)) ومع ذلك لم تعد على المحســـن المبجـــل بنفـــع كبير ، لانها سرعان ما بيعت في المزاد العلني ، كي تغطي جزئيا نفقات النصب المقام فـــوق القبر ، ذلك التمثال الذي خـــطر ببال تشـــيرتوبخانوف ان يقيمه فوق رفات صديقه . ((وهنا تجلى ، كما هـــو ظـــاهر ، عرق والده فيه)) . ارسل في طلب هـــذا التمثال الذي يجـــب ان يكون على صـــورة ملاك مبتهل ، من موسكو ، لكن الوكيل الذي عهد اليه بصنعه ، عرف ان الضليعين بفن النحت قلمـــا يصـــادفون في المحـــافظات ، فـــارسل بدل الملاك ... الالهة فلورا[1] التي ظلت تزين لسنوات عديدة احدى حـــدائق ضواحي موسكو المهملة ، التي تعود الى عهـــد كاترينا ، واهمية هـــذا التمثال ــ لابد من القول ، انه غاية في الاناقة ومنحوت وفـــق ذوق عصر الركوك[2] ، يداها بدينتان ، شعرها اجعد مرسل ، على صدرها العاري ضفيرة من الزهـــور ، خصرهـــا مقـــوس ــ ان الوكيل حصـــل عليه بلا ثمن ــ وما برحت الالهة الاسطورية تقف حتى الان ، رافعـــة برشـــاقة

احدى ساقيها فوق قبر تيخون ايفانوفتيش ، تنظر نظرة بومبادور[٣] المتكلفة حقا الى المتنزهين حولها من عجول واغنام ، اولئك الزائرون الثابتون لمقابرنا الريفية .

ـ ٣ ـ

عاد تشير توبخانوف ، بعدما فقد صديقه المخلص ، الى معاقرة الخمرة ، بصورة اشد خطورة في هذه المرة . تدهورت اموره كليا . لم تعد ثمة من غاية للقنص ، نفدت آخر نقوده ، انفضت من حوله البقية الباقية من الناس . استبدت ببانتيلي يريميتش وحدة شاملة : ما من امرىء يبادله كلمة واحدة ، بله تخفيف الهموم عن نفسه . لم تنتقص فيه الكبرياء وحدها ، بل كانت على النقيض : كلما ساءت ظروفه ، اضحى اكثر عجرفة وغطرسة وتكبرا . بيد انه توحش تماما . بقيت لديه سلوة واحدة ، فرحة واحدة لاغير : حصان ركوب مذهل ، من النوع الاشهب ، من فصيلة الدون سماه ماليك ـ اديل ، كان حيوانا رائعا بحق وحقيقة .

حصل على هذا الحصان بالصورة التالية .

مر ذات مرة ممتطيا صهوة جواده في قرية مجاورة ، سمع تشيرتوبخانوف لغطا فلاحيا ، وصياح جمهور حول الحانة . ارتفعت وهبطت ايد قوية باستمرار وسط هذا الجمهور وفي المكان نفسه .

سأل بنبرته الآمرة المميزة له من امرأة عجوز واقفة عند عتبة كوخها ـ ما الذي يجري هناك؟

توكأت المرأة على عتبة الباب العليا ، ارسلت نظرها كالوسنى ، في اتجاه الحانة ، ان صبيا اشقر مرتديا قميصا من الشيت وعلى صدره الصغير العالي صليب من خشب السرو ، مد رجليه قليلا ، جمع قبضة يده وجلس بين خفها الليفي ، كان فرخ قريب منهما ينقر قشفة صلبة

من خبز الجوادر .

اجابت العجوز ـ الله اعلم ، ايها السيد ـ انحنت الى الامام ، وضعت يدها المتغضنة الداكنة على رأس الصبي ـ تناهى الى اسماعنا ان رجالنا يضربون يهوديا .

ـ كيف يضربون يهوديا؟ واي يهودي؟

ـ الله اعلم ، ايها السيد ـ الله اعلم ، ايها السيد . حل بين ظهرانينا يهودي ما ، من اين اتى ، من يعرف ذلك؟ فاسيا ، اذهب ، اذهب ياسيدي الصغير الى ماما : كش كش ، ايتها البهيمة الكريمة ..... طردت المرأة الفرخ ، بينما تشبث فاسيا بتنورتها الواسعة .

ـ ها هم يضربونه ، يا سيدي .

ـ كيف يضربونه؟ ما السبب؟

ـ لست ادري ، ايها السيد ، لابد بسبب قضية ما . وكيف لا يضربونه؟ الا ترى ايها السيد ، انه صلب المسيح !

زعق تشيرتوبخانوف ،مد الكرباج الى رقبة الحصان وانطلق مباشرة نحو الجمهور ، اندس بينه ، شرع يضرب بذلك الكرباج نفسه الفلاحين كيفما اتفق ، يمنة ويسرة ، متكلما بصوت متقطع : الاستبداد ..... ايها البهائم ! الاستبداد ! ايها البهائم ! القانون يجب ان يعاقب وليس اشخ .... اص ، فرا .... د ....ي .. القانون ! القانون ! القا .... نو ..... ن . ! !

لم تمض دقيقتان ، حتى انتشر الجمهور في ارجاء متباينة ـ على الارض ، وامام باب الحانة ، لاح مخلوق غير كبير ، نحيف ، مدهن بالسواد ، عليه قفطان قطني ، اشعث ، معذب .... وجهه شاحب ، عيناه زائغتان ، فوه مفتوح ... ماهذا؟ هل تسمر من الرعب ام هو الموت بعينه ؟

هتف تشيرتوبخانوف بصوت مزمجر ، ولوح بالكرباج مهددا ـ لماذا

ضربتم اليهودي؟

وشوش الجمهور ضعيفا في الرد . امسك فلاح كتفه ، وآخـر خصره ، وثالث انفه .

سمع في الصفوف الخلفية ـ يالك من عراك ..

نطق صـوت آخـر ـ عنده كرباج ، وكل امـرىء بمقـدوره التصرف هكذا !

كرر تشـيرتوبخانوف ـ انني اسـألكم لماذا قتلتم اليهـودي ، ايهـا الآسيويون المخبولون ....

لكن في تلك اللحظة قفز الراقد على الارض بخفة على رجليه ، هـرع الى وراء تشيرتوبخانوف وتمسك متشنجا بطرف السرج .

دوى ضحك ودي بين الجمهور

سمع مرة اخرى في الصفوف الخلفية ـ ما زال حيا كالقطة تمـاما ، تمتم اليهودي التعس في تلك الاثناء ، وقد ضغط صـدره كله الى قـدم تشيرتوبخانوف .

ـ شكرا يا صاحب الشهامة لدفاعك[٤]) ، والا سيقتلونني ، يقتلونني يا صاحب الشهامة ، سأل تشيرتوبخانوف ـ ماسبب ذلك؟

ـ وايم الله ، لا استطيع معرفة ذلك ! هناك بهيمة اخذت تموت .... لقد ساورتهم الشكوك على مايبدو ... اما انا ...

قاطعه تشيرتوبخانوف ـ حسنا ، سوف نستوضح الامر فيما بعـد ، اما الان فأمسك انت بالسرج ، واركب خلفي ، ثم التفت الى الجمهـور واضـــاف قـــائلا ـ أمـــا انتم الا تعـــرفونني؟ أنا الملاك بانتيلي تشيرتوبخانوف ، اعيش في قرية بيسـونوفو ، حسـنا ، اعني اشـتكوا علي ، عندما تريدون ، وكذلك على اليهودي بالمناسبة .

قال فلاح رصـين ، اشـيب اللحية ، انحنى احناءة واطـئة ، يشـبه الاسلاف القدامى تماما ـ لماذا نشـتكي؟ .(كان ، مـع ذلك ، قـد عذب اليهودي ليس باسوء من الآخـرين) اننا ايهـا الاب بانتيلي يريميتش

نعرف رحمتك جيدا ، نحن راضون كثيرا ، لانك لقتنا درسا .

استطرد الآخرون ـ لماذا نشتكي ، اننا سنأخذ مالنا من هذا الذي لا يؤمن بالمسيح ! انه لن يفلت منا ! اعني اننا سنتبعه كأرنب في الحقل !

فتل تشيرتوبخانوف شاربيه ، ضحك وسار بحصانه على مهل الى قريته بصحبة اليهودي الذي حرره من مضطهدية بنفس الطريقة التي حرر فيها في حين من الاحيان تيخون نيدوبيوسكين .

ـ ٤ ـ

بعد مرور بضعة ايام على تلك الحادثة ، جاء الخادم الوحيد لدى تشيرتوبخانوف واخبره انه جاء امرؤ ممتطيا صهوة جواد ويود التحدث معه . خرج تشيرتوبخانوف الى السقيفة ، رأى اليهودي الذي يعرفه ، راكبا جوادا من فصيلة الدون ، واقفا بفخر وثبات وسط الفناء . لم يكن اليهودي مرتديا قبعة : لقد تأبطها ، لم يضع قدميه في الركاب نفسه وانما في حزام الركاب ، تدلت اطراف قفطانه المشرطة على جانبي السرج . ما ان رأى تشيرتوبخانوف حتى مطق شفتيه ، حرك مرفقيه وارجح قدميه . لم يكتف تشيرتوبخانوف بعدم الاجابة على تحيته فحسب وانما غضب ايضا ، توهج فجأة كله : كيف يتجرأ هذا اليهودي الجرب ان يجلس على مثل هذا الجواد الجميل ..... يالها من قلة ادب ..... !

صرخ ـ هاي انت ايها الوجه الحبشي انزل فورا ، اذا كنت لا تريد ان يجروك في الوحل !

استكان اليهودي بلا توان ، هبط كالكيس عن السرج ، امسك العنان باحدى يديه ، ابتسم وانحنى ، ثم اقترب من تشيرتوبخانوف .

سأله بانتيلي يريميتش بجدارة ـ ما حاجتك؟

قال اليهودي ، دون ان يكف عن الانحناء ، يا صاحب الشهامة ،

تفضل وانظر ، ياله من جواد؟
ـ هم ...... اجل ...... جواد كريم . من أين حصلت عليه؟ لابد انك سرقته؟
ـ كيف يمكن ذلك ، يا صاحب الشهامة ! انا يهودي شريف ، انني لم اسرقه ، انما حصلت عليه لك بالذات ، يا صاحب الشهامة ! سعيت وسعيت ! وحصلت بالمقابل عليه ، ياله من جواد ! لن تجد قط نظيرا لهذا الجواد في كل ارجاء الدون . تطلع اليه ، يا صاحب الشهامة ، اي جواد هذا تعال ، هنا ! تبرو .... تبرو .... استدر قف جانبيا ! اما السرج فسنخلعه ، اي جواد يا صاحب الشهامة؟

كرر تشيرتوبخانوف بعدم اكتراث مصطنع ، بينما اخذ قلبه يخفق في صدره ـ جواد كريم . كان صيادا مفرط الشغف ((بلحم خيل الدون)) وعلى دراية به .

ـ ارجوك ، ربت عليه يا صاحب الشهامة ! ربت على عنقه ، خي ، خي ، خي ، هذا هو .

وضع تشيرتوبخانوف ، كما لو كان غير راغب ، يده على رقبة الحصان ، ربت عليها مرتين ، ثم مر عليه باصابعه من عرفه الى ظهره ، وما ان وصل الى المكان المعروف فوق كليته ، حتى ضغط هذا المكان قليلا على طريقة الصيادين . قوّس الحصان فورا العمود الفقري ، نظر شزرا الى تشيرتوبخانوف بعينه السوداء المتشامخة ، نفخ وخطا بقدميه الاماميتين .

ضحك اليهودي واخذ يصفق براحتيه تصفيقا خفيفا .

ـ ان صاحب الشهامة يتعرف على سيد فيه ، سيد !

قاطعه تشيرتوبخانوف مغتاظا ـ حسنا ، لا تكذب ، اذا اردت ان اشتري منك هذا الحصان ...... فلا شيء عندي ، اما الهدية ، فانني لا اقبلها ليس من يهودي فحسب . بل لا اقبلها حتى من جلالته تعالى !

هتف اليهودي ـ رحماك ، كيف اتجرأ على ان اهدي اليك شيئا

ما ... ابتعه يا صاحب الشهامة ..... اما النقود فسأنتظر ....

فكر تشيرتوبخانوف .

نطق اخيرا من بين اسنانه ـ كم تريد؟

هز اليهودي كتفيه .

ـ دفعت لشرائه مأئتي روبل

كان الحصان يساوي ضعف هذا المبلغ ، بل يساوي على ما اظن ثلاثة اضعافه ، استدار تشيرتوبخانوف جانبيا وتثاءب تثاؤبا محموما .

سأل مكرها ، مقطبا حاجبيه ، دون ان ينظر الى اليهودي ـ ومتى ... تريد النقود؟

ـ متى شئت يا صاحب الشهامة .

ارسل تشيرتوبخانوف رأسه الى الخلف ، بيد انه لم يرفع عينيه .

ـ ليس هذا بالجواب . تكلم بشكل محدد ، يا ابن قبيلة هيرود[٥] أو تريد ان اقترض منك ، ما هذا؟

قال اليهودي بعجلة ـ حسنا ، لنقل هكذا ، بعد ستة اشهر .... اموافق؟

لم يحر تشيرتوبخانوف جوابا .

حاول اليهودي ان يحدق في عينيه ، اموافق؟ أتأمر أن اضعه في الاسطبل؟

نطق تشيرتوبخانوف كلمات متقطعة ـ لست بحاجة الى السرج ، خذ السرج ، أتسمع؟

تمتم اليهودي الجذل وانزل السرج على كتفه ـ طبعا ، آخذه ، آخذه استطرد تشيرتوبخانوف ـ اما النقود فبعد ستة اشهر ، مئتان وخمسون ، وليست مائتين . صه . اقول ، انا مدين لك بمائتين وخمسين ....

لم يصمم تشيرتوبخانوف على رفع عينيه ، لم تعان كبر ياؤه في

داخله بمثل هذه القوة من المعاناة قط . فكر في نفسه ((من الجلي ، انها هدية ، جلبها ، الابليس ، تعبيرا عن امتنانه !)) كان بوده ان يضم اليهودي بين احضانه وان يضربه ايضا .

بدأ اليهودي يقول منشرحا ، ضحك مكشرا عن اسنانه ـ يا صاحب الشهامة ، ينبغي اتباع العادة الروسية ، ان اسلمه من يد ليد .

ـ وماذا بعد؟ ياللفكرة ، اليهودي .... والعادات الروسية ... هيه من هناك؟ خذ الحصان ، وقده الى الاسطبل . واملأه بالشوفان . سآتي حالا واستطلع . اعلم ان اسمه : ماليك ـ اديل !

كاد تشيرتوبخانوف يصعد الى السقيفة ، لكنه نكص بغتة على عقبيه ، هرع نحو اليهودي ، ضغط على يده بشدة . انحنى له ومد شفتيه لتقبيل يده لكن تشيرتوبخانوف ارتد الى الوراء وقال بصوت خافت ((لاتقل ذلك لاحد !)) وتوارى خلف الباب .

ـ ٥ ـ

اصبح ماليك ـ اديل منذ ذلك اليوم القضية الرئيسية والشغل الشاغل في حياة تشيرتوبخانوف وفرحته . احبه بشكل لم يحبب مثله حتى ماشا ، وتعلق به اكثر من نيدوبيوسكين . وياله من حصان رائع ، نار كما تكون عليه النار ، انه ببساطة كالبارود ـ مزهو كالبويار ! لا يعرف الكلل ، جلد ، مطيع ، يمكنك اخذه حيثما شئت ، اما طعامه فلا يكلفك شيئا : اذا لم يكن ثمة من شيء فانه يقضم الاعشاب التي تحته . عندما يسير فكأنك تهدهد بين ذراعي الحاضنة ، اما خببه فأشبه بتمايل المهد ، واذا انشأ يعدو ، فحتى الريح لا تلحق به ، لا يلهث قط : لان فتحتي منخاريه واسعتان ، الاقدام ـ فولاذية : اما ان يعثر ، فلم يصادف له ذلك مطلقا .... ان الوثوب فوق خندق او سياج من الخوازيق لا يكلفه ادنى عناء ، وياله من حيوان ذكي ايضا ما ان يسمع

صوت سيده حتى يعدو ، رافعا رأسه ، تأمره ان يقف ، يظـل واقفـا لا يحرك سـاكنا ، ومـا ان تشرع بالعـودة ، حتى يدمدم قليلا قليلا : ((اعني ، انا هنا)) .... لا ينتابه الفزع من شيء : يشق طريقه في الظلام الحالك ! في العاصفة الثلجية ، لا يستسلم لغريب ابداً : فهو يميته عضا بأسنانه ! الكلب لا يقوى على مهـاجمته : اذ يرفسـه حـالا بقـدمه الامامية ، في جبهته ، رفسة لا تبقيه على قيد الحياة ، وهـو جـواد ذو كبرياء : السوط تلوح به فوقه للجمال فحسب ـ واستغفر الله ان مسه ! ولم الاطالة في الكلام هنا : انه كنز وليس بجواد !

اذا شرع تشيرتوبخانوف في وصف ماليك ـ اديل ، فانك لا تدري من اين يتدفق الحديث ! كم كان يرعاه ويدلله ! .. ان لون شعره ضارب الى الفضة الجديدة ، ليس القديمة منها ، ذات اللمعان الداكن . اذا مـررت براحة يدك عليه ـ فانه المخمل بعينه ! السرج ، المفرش ، اللجام ، العدة كلها كانت مركبة باحكام ووئام ، وفق النظـام ، نظيفـة ـ حسـبك ان تتناول قلما وترسـم ، انه لصـورة متكاملة ! كان تشـيرتوبخانوف ـ وماذا يفعل اكثر من هذا؟ ـ يضفر بيديه لجواده الاثير كشه ، يغسـل عرفه وذيله بالجعة ، وحتى حوافره يدهنها مرارا بالدهن ...

اعتاد ان يمتطي ماليك ـ اديل ويمضي ، ليس الى الجيران ، فهـو لا يعاشرهم كعهده من قبل ، وانما الى حقولهم ، قرب عزبهـم ..... كأنه يقول ، متعوا بصركم به من بعيد ايها الحمقى ! اذا مـا سـمع ، انه في مكان ما سيقومون في القنص ـ ذهب على الفور الى هناك ـ الى الحقل الذي يحل به سيد غني ـ ويختال فوقه على بعد في دائرة الافـق ، مثيرا دهشة كل الناظرين بجمال جواده وسرعته ، ولا يسمح لاحد ان يقترب منه . ذات مرة لحقه صياد مـع حـاشيته ، رأى ، ان تشـيرتوبخانوف ابتعد عنه ، شرع يصيح منادياً اياه بكل قوته وكل سرعته :

((هـاي انت ! اصغ ! خذ ماتشاء ، لقاء جوادك ... لا أضن عليك حتى بألف ! اعطيك زوجتي ، اولادي ! خذ آخر كوبيك املكه !)) .

اوقف تشيرتوبخانوف فجأة ماليك ـ اديل . فهـرع الصـيـاد مسرعا نحوه .

صاح ـ سيدي قل : كم تطلب فيه؟ ابي العزيز !

قال تشيرتوبخانوف بوقفات بين كلماته ـ لو كنت ملكا[٦] (علما بأنه لم يسمع بشكسبيرقط) واعطيتني كل مملكتك مقابل حصاني ، فـرغم ذلك لن آخذها .... قال تلك الكلمات ، قهقه ، شب مـاليك ـ اديه ، ادارة في الهواء ، على قدميه الخلفيتين وحـدهما ، كأنه خـذروف او دوامـة وسار ـ سار ! وظل يتلألأ هكذا في المزرعة . اما الصـيـاد (يقـال ، انه كان اميرا بالغ الثراء) فقد القى قبعته على الارض ، امـال وجهـه في القبعة ورقد على هذه الحالة زهاء نصف ساعة .

وكيف لا يعز على تشيرتوبخانوف جواده؟ أوليس بفضله قـد ظهـر عنده مجددا تفوق لا مراء فيه ، وهو التفوق الاخير على كل جيرانه؟

ـ ٦ ـ

اقترب موعد الدفـع ، في غضـون ذلك الوقـت ، لم يكن في حـوزة تشيرتوبخانوف خمسون روبلا فضلا عن مائتين وخمسين روبلا . فما العمل ، وكيف يتدبر الامر؟ ((قرر اخيرا ـ وماذا يضير؟ اذا لم يتلطف اليهـودي ، لم يرغب في الانتظـار اكثر ، فسـأعطيه البيت والارض ، واذهب أنا على الجواد في اي مكان كان ! اموت جوعا ، لكن مـاليك ـ اديل ، لن اعطيه)) . استبد به اضـطراب شـديد ، بل انه اسـتغرق في التفكير . بيد ان القدر كان رحيما به ـ لاول وآخر مرة ـ فضـحك له : ان عمة من الاقارب البعيدين ، التي لا يعـرف تشـيرتوبخانوف حتى اسمها ، تركت له في وصيتها الدينية ، مبلغا ضـخما في نظـره ، الفـي روبل باكملهما . تسلم هذه النقود في الوقت المناسب كما يقولون : قبيل يوم من مجيء اليهودي . كاد تشير توبخانوف يفقد رشده من الفـرح ،

لم يكن ليفكر في الفودكا : فمنذ ذلك اليوم الذي تسلم فيه ماليك ـ اديل لم يضع قطرة في فمه . كان يهرع الى الاسطبل ويلثم ويعانق جانبي وجه رفيقه وفوق منخريه ، هنالك حيث الجلد غاية في النعومة لدى الجياد عادة . هتف قائلا : ((منذ الان لن نفترق)) وربت على عنق ماليك ـ اديل تحت عرفه المشط . حسب لدى عودته الى البيت ، مائتين وخمسين روبلا ولفها في حزمة . شرع بعدئذ يحلم وهو مستلق على ظهره ، يدخن غليونا ، كيف يتصرف بالنقود الباقية ـ وبالذات ، اية كلاب سيحصل عليها : كلاب كوستروما الاصيلة ، المبقعة بالاحمر حتما ، بل لقد تحدث حتى مع بيرفيشكا ووعده بقفطان جديد مزدان بقماش اصفر في اماكن الدرز ، واستلقى لينام وهو في اسعد حالة نفسية .

رأى حلما مزعجا : كما لو انه ذهب الى الصيد ، لكن لم يكن ممتطيا ماليك ـ اديل ،وانما حيوانا غريبا آخر كالجمل مثلا ، ركض نحوه ثعلب ابيض ، ابيض كالثلج ..... أراد ان يلوح له بالسوط وان يرسل الكلاب لتلاحقه ، لكن كانت ليفة في يده بدل السوط ، الثعلب يعدو امامه ويشاكسه بلسانه . واذا به يقفز عن الجمل ، يتعثر ، يسقط .... يسقط مباشرة في يد شرطي ، يذهب به الى المحافظ ـ الجنرال ، ويتعرف فيه على شخص ياف .....

استيقظ تشيرتوبخانوف . كانت الغرفة معتمة ، الديكة المبكرة صاحت لتوها ...... حمحم جواد في مكان ما ، بعيدا ، بعيدا :

رفع تشيرتوبخانوف رأسه .... سمعت مرة اخرى حمحمه خفيفة ـ خفيفة .

جال في خاطره ـ ((هذا ماليك ـ اديل يحمحم ! انها حمحمته ! ولكن لماذا على مثل هذا البعد؟ رحماك ياالهي ، لا يمكن ذلك ...))

شعر تشيرتوبخانوف بالبرد يجتاح جسمه فجأة ، قفز ، في ومضة ، من السرير ، بحث عن حذائه متلمسا اياه ، ارتدى ثيابه ، اخذ مفتاح

الاسطبل من تحت طرف سريره من جهة الرأس ووثب الى الفناء .

ـ ٧ ـ

كان الاسطبل في آخر الفناء تماما ، يطل احد جدرانه على الحقـل . لم يضع تشيرتوبخانوف المفتاح في المغلاق مباشرة ـ لقد ارتعشـت يداه ـ ولم يدر المغلاق حالا ..... وقف جامدا ، كاتمـا انفـاسه : ليت حـركة سمعت خلف الباب ، صاح بصوت خافت ((مـاليشكا ! مـاليتش !)) : سكون الموتى ... جر تشيرتوبخانوف المغـلاق بلا وعي : صرف الباب وانفتح ... لم تكن مغلقة بلا شك . عبر العتبة ،نادى مجـددا حصـانه باسمه الكامل لهذه المرة : ((ماليك ـ اديل)) لكن الصديق الصـدوق لم يجب ، خشخش فقط جـرذ على القش هرع تشيرتوبخانوف حينئذ الى داخل الاسطبل المتكون من ثلاث معالف . حيث كان يستقر ماليك ـ اديل ... دخـل مباشرة نحـو ذلك المعلف ، رغم الظـلام الحـالك الذي يكتنفه .... كان فارغاً ! تصدع رأس تشيرتوبخانوف ، كأن جرسا كان يرن تحت جمجمته . اراد ان يقول شيئا ما ، لكنه فح فحسـب ، بحـث بيديه الى الاعلى ، فالاسفل ، وعلى جانبيه ، انبهرت انفاسه ، انتقـل ، بركبتين مثنيتين من معلف لآخـر ... ارتطـم في الثالث ، المليء بالقش الى اعلاه تقريبا بجدار ، فآخر ، سـقط ، تدحـرج على رأسـه ، نهض وفجأة ركض بسرعة عبر الباب نصف المفتوح الى الفناء ....

هدر باعلى صوته ـ سرقوه بيرفيشكا ! بيرفيشكا ! سرقوه !

هب الخادم بيرفيشكا واقفا على رجليه وخرج من الغـرفة التي نام فيها وعليه قميص فقط .

ارتطما ببعضهمـا ـ السيد والخادم الوحيد ـ في وسط الفناء كأنهمـا مخموران ، دار احدهما امام الآخر كالمجنونين ـ لم يستطع السيد ان يدرك فحوى المسألة ، ولا استطاع الخادم ان يفهم مـا يراد منه . تمتم

تشيرتوبخانوف ((مصيبة ! مصيبة !)) كرر الخادم في اثره ((مصـــيبة ! مصيبة !)) انطلقت اخيرا الكلمات المختنقة في صدر تشيرتوبخانوف — ((القنديل اعطني ، اشعل القنديل النار ، النار)) هـــرع بيرفيشـــكا الى البيت ...

بيد انه لم يكن مـــن الهين اليســـير الحصـــول على النار واضـــــاءة القنديل : ان عيدان الثقاب اللوسفرينية كانت تعتبر نادرة في ذلك الوقت في روسيا ، انطفأت في المطبخ منذ فترة طويلة بقـــايا الفحـــم — لم يعثر سريعا على القـــداح والصـــوان ، كانا رديئيين في القـــدح انتزعهمـــــا تشيرتوبخانوف من بين يدي بيرفيشـــكا المســـتعجل ، وهـــو يصر على اسنانه ، اخـــذ يقـــدح النار بنفســـه : تناثر الشرار بغـــزارة ، وتناثرت الشتائم والآهات بغزارة اشد منه ، لكن الصوفان كان تارة لا يشـــتعل وتارة ينطفيء ، رغم الجهود المشـــتركة لاربع مـــن الشـــفاه والخـــدود المتوترة ! اخيرا ، بعدما لا يقل عن دقـــائق خمس بدأت تشـــتعل بقـــايا الشمعة الشحمية في قعر القنديل المكسور ، واندفـــع تشـــيرتوبخانوف بصحبة بيرفيشكا الى الاسطبل ، رفع القنديل فوق رأسه تطلع .... المكان خاو !

وثب الى الفناء ، ركض في كل أرجـــائه — لكن لا اثر للجـــــواد في اي مكان ! ان السياج المحيط بعزبة بانتيلي يريميتش ، قد اصـــابه البلى منذ امد بعيد ، مال في كثير من الامـــاكن والتصـــق بالارض .... تهـــدم تماما قرب الاسطبل زهاء ارشين[٧] في العرض . اشار بيرفيشـــكا الى هذا المكان مدلا ! تشيرتوبخانوف اليه .

ايها السيد ! .. انظر هنا : لم يكن هذا المكان موجودا اليوم . ها هي ذي الاطواق تتدلى الى الارض : اعني ان احدا قد اقتلعه .

وثب تشيرتوبخانوف مع القنديل . وانزله الى الارض ....

دمدم بكلمات سريعة — حـــوافر ، حـــوافر ، اثار حـــداو ، اثار ، اثار حديثه .... هنا اقتادوه ، هنا ، هنا !

وما هي الا لحظة حتى قفز عبر السياج ، ركض مباشرة في الحقل صارخا ((ماليك ـ اديل ... ماليك ـ اديل)) .

بقي بيرفيشكا في حيرة من امره عند السياج . سرعان ما توارت امام ناظرية الدائرة المضيئة من القنديل ، وابتلعتها عتمة الليل الحالكة ، ليل بلا نجوم ولا قمر .

رنت أوهن فأوهن هتافات تشيرتوبخانوف اليائسة ....

ـ ٨ ـ

كان الفجر قد انبلج ، عندما عاد الى البيت . لم تكن طلعته بالطلعة الانسانية ، غطت الاوساخ ثيابه ، اتخذ وجهه شكلا وحشيا رهيبا ، حدقت عيناه مقطبتين كليلتين . طرد بيرفيشكا من قربه بهمس اجش وانفرد في غرفته . لم تكد تحمله قدماه من الاعياء ، ومع ذلك لم يرقد في الفراش ، وانما جلس على الكرسي عند الباب وامسك رأسه .

ـ سرقوه ! .. سرقوه !

لكن على اي صورة تدبر اللص امر سرقة ماليك ـ اديل ليلا من الاسطبل المقفل؟ ماليك ـ اديل الذي لم يسمح لاحد ان يقترب منه حتى في النهار ، يسرقونه بلا ضجة ، بلا طقطقة؟ وكيف يفسر عدم نباح اي كلب في الفناء؟ حقا ، كانا اثنين فحسب ، جروين فتيين ، هجعا في التراب من البرد والجوع ـ ولكن مع ذلك ...

((فكر تشيرتوبخانوف ـ وماذا سأعمل الان بدون ماليك اديل؟ لقد حرمت من آخر سرور لي ، وأزف موعد موتي . اصبح في يدي مال ، أأشتري حصانا آخر؟ واين سأعثر على حصان آخر نظير له؟))

سمع نداء مرتبك خلف الباب ـ بانتيلي يريميتش ! بانتيلي يريميتش !

قفز تشيرتوبخانوف على قدميه .

صاح بصوت لا يشبه صوته ـ من هذا؟
ـ هذا انا ـ خادمك ، بيرفيشكا .
ـ ماذا تريد؟ هل عدت به ، وهرعت الى البيت؟
ـ كلا لم اجده ابدا ، بانتيلي يريمتيش ، هنا اليهودي الذي باعه ....
ـ اذن؟
ـ لقد جاء .

قهقه تشيرتوبخانوف هو ـ هو ـ هو ـ هو ـ هو ـ وفتح الباب دفعة واحدة ـ اسحبه الى هنا ، اسحبه ! اسحبه !

لدى رؤية شكل ((محسنه)) الاشعث المتوحش الذي اطل فجأة ودّ اليهودي الواقف خلف ظهر بيرفيشكا ان ينطلق هاربا كالسهم ، لكن تشيرتوبخانوف وصل اليه في قفزتين وقبض عليه من حنجرته كالنمر .

شخر ، وكأنه لا يخنق احدا ، وانما يخنقونه ـ أها ! . جئت من أجل النقود ! من أجل النقود ! سرقته في الليل ، وجئت نهارا تطلب النقود؟ أها ؟ اها؟

اخذ اليهودي يئن ـ رحماك ، ياصا ... حب الشها ....مة

ـ قل اين جوادي؟ أين ذهبت به؟ لمن بعته؟ تكلم ، تكلم ، تكلم !

لم يستطع اليهودي حتى ان يئن ، لقد توارى عن وجهه المزرق حتى تعبير الخوف ، ارتخت يداه وتدلت ، اهتز كل جسمه الذي رجه تشيرتوبخانوف بضراوة ، اهتز الى الوراء والامام كالقصب .

صاح تشيرتوبخانوف ـ النقود سأدفعها لك ، سأدفعها كاملة الى آخر كوبيك ، لكنني سأخنقك كالكتكوت اذا لم تقل لي الآن .....

علق الخادم بيرفيشكا بخضوع ـ لقد خنقته ايها السيد .

حينئذ فقط ثاب تشيرتوبخانوف الى نفسه .

ترك رقبة اليهودي ، هوى ، حينئذ ، على الارض . امسكه تشيرتوبخانوف ، اجلسه على الكرسي ، سكب في بلعومه قدح فودكا ، اعاده الى وعيه ... وما ان عاد اليه وعيه ، حتى دخل في الحديث معه .

تبيّن ان اليهودي لم يكن على ادنى معرفة بسرقة ماليك ـ اديل . ولأي سبب يسرق الحصان الذي حصل هو عليه ((البانتيلي يريميتش الموقر)) ؟

حينئذ اقتاده تشيرتوبخانوف الى الاسطبل .

تفحص كلاهما المعالف ، المواضع ، المغاليق ، قلبوا التبن والقش ، انتقلوا بعدئذ الى الفناء ، اومأ تشيرتوبخانوف الى اليهودي مشيرا الى اثار الحوافر عند السياج ، وفجأة لطم نفسه على جانبيه .

هتف قائلا ـ مهلا ... اين ابتعت هذا الحصان؟

اجاب اليهودي ـ في منطقة مالوارخانغيلسك في معرض فيرخوسينسكايا .

ـ وممن ؟

ـ من قوزاقي .

ـ مهلا .. هل هذا القوزاقي من الشباب او من المسنين؟

ـ متوسط العمر ، من اهل السهول .

ـ ماشكله ، ما هيئته؟ انه محتال داهية على الارجح .

ـ لابد انه محتال ، يا صاحب الشهامة .

ـ وماذا ، مالذي قاله لك ذلك المحتال ، هل كان يملك الحصان منذ امد طويل؟

ـ اتذكر ، انه قال منذ امد طويل .

ـ اذن ، لا احد بامكانه ان يسرقه ، ماخلا هو بالذات ! ناقش الامر ، اصغ ، قف هنا .... ما اسمك؟

انتفض اليهودي ورفع عينيه الصغيرتين السوداوين الى تشيرتوبخانوف .

ـ ما أسمي؟

ـ حسنا ، اجل ، كيف ينادونك؟

ـ موشيل ليبا .

ـ اذن ، فكر انت ، يا صـــديقي ليبا ، انت امــرؤ ذكي : لمن يمــكن ان يسلس مــاليك ـ اديل قياده ، ان لم يكن لمالكه القــديم ... أوترى لقــد سرجه ، لجمه ، خلع عنه السرج ، هـــا هـــو ذا مــطروح على القش ! .. تصرف معـــه وكأنه في بيته تمـــاما ! كان يمــكن لماليك ـ اديل ان يطــأ بأرجله اي شخص آخر ماخلا صــاحبه ! ويثير ضــجة تزعج القــرية برمتها ! أمتفق أنت معي؟

ـ متفق ، متفق يا صاحب الشهامة ....

ـ اذن ، يعني ، ينبغي قبل كل شيء البحث عن ذلك القوزاقي !

ـ وكيف يمكن البحث عنه ، يا صاحب الشهامة؟ لقد رأيته مرة واحدة فقط ، اين هو الان ، وما هو اسمه؟ واضاف اليهودي وهو يهز بنطلونه بكمد وي ، وي ، وي !،

صرخ تشـــيرتوبخانوف فجـــأة ـ ليبا ! ليبا ! انظــر إلي ! أترى انني فقدت رشدي ، وانني لا اشبه نفسي .... سأقتل نفسي بيدي ، ان لم تقدم لي المساعدة!

ـ وكيف بوسعي ان اساعدك ....

ـ اذهب معي ونشرع بالبحث عن ذلك السارق!

ـ والى اين نذهب ؟

ـ الى الاسواق في الطــرق الكبيرة والدروب الجــانبية ، الى ســارقي الخيول ، الى المدن ، الى القرى ، الى الضياع ، الى أي مكان ، الى اي مكان ، ! أما بالنسبة للمال فلا تقلق : لقــد تســلمت يا أخــي ، ارثا ! سأنفق آخر كوبيك ، واحصل على صديقي ! لن يفلت منا ، القــوزاقي ، المجرم بحقنا ! نقتفي اثره اينما يذهب ! ان كان تحت الارض ـ نذهب نحن ايضا الى تحت الارض ! ان كان لدى الشيطان ، فلنذهــب نحــن ايضا الى ابليس نفسه !

علق اليهودي ـ ولكن ، لماذا الى ابليس ، يمكن الاستغناء عنه .

استطرد تشـــيرتوبخانوف ـ ليبا ! ليبا انك وان كنت يهــوديا ودينكم

نجس ، لكن روحك احسن مما لدى اي مسيحي ! ارث لحالي ! لا جدوى من سفري وحدي ، لن استطيع ان اتدبر هذه القضية وحدي . انني التهور ـ وانت العقل ، عقل ذهبي ! هذا ديدن عشيرتكم : لقد بلغت مرامها بدون ان يتم تعليمها ! ولعل الشك يخامرك : من اين له بالمال اذن؟ تعال معي الى الغرفة ، واريك النقود كلها . خذها كلها ، خذ كل مالدي ، ارجع الي ماليك ـ اديل فقط ، ارجعه ، ارجعه !

ارتعش تشيرتوبخانوف كالمحموم ، نضح العرق غزيرا من وجهه ، اختلط بدموعه وتسلل الى شواربه . ضغط على يدي ليبا ، توسل اليه ، بل كاد ان يقبل .... اصبح في وضع مهوس . حاول اليهودي ان يعارض ، اكد انه لا يستطيع باي حال من الاحوال ، الغياب لمدة طويلة ، وان لديه اعمالا ... فالى اين ! لم يرد تشيرتوبخانوف ان يسمع اي شيء ، مافي اليد حيلة : وافق ليبا المسكين .

سافر تشيرتوبخانوف في اليوم التالي بصحبة ليبا من بيسونوفو في عربة فلاحين . لاح شيء من الارتباك على طلعة اليهودي ، امسك باحدى يديه عروة العربة وكان جسمه المترهل ينط على المقعد المهزوز ، ضغط بيده الاخرى على بطنه حيث وضع حزمة الاوراق المالية ، الملفوفة في ورق جريدة. جلس تشيرتوبخانوف كالصنم ، كان يجيل ناظريه فيما حوله فقط ويتنفس بملء صدره ، تدلى خنجر من حزامه .

دمدم عندما وصلوا الى الطريق العام ـ حسنا ، كن على حذر الآن ، ايها الشرير ـ المفرق !

عهد ببيته الى الخادم بيرفيشكا والطاهية ، كانت امرأة عجوزا صماء وضعها تحت رعايته رحمة بها .

صاح عند الوداع ـ سأعود اليكما على ماليك ـ اديل ، والا لن اعود ابدا !

نكت بيرفيشكا ، لا كزا الطاهية بمرفقه على جنبها ـ لماذا لا نتزوج ، اوليس كذلك ! فالامر سيان لن يعود سيدنا ، ولسوف يهلكنا الضجر

هنا !

ـ ٩ ـ

مضى عام .... سنة كاملة : لم يصل اي خبر مــن بانتيلي يريميتش . توفيت الطاهية ، ازمع بيرفيشكا على ترك البيت والذهاب الى المدينة ، اذ اغراه ابن عم له ، كان يعيش صــانعا عند حــلاق ــ وفجــأة سرت اشاعة ، بأن السيد في طريق العودة! استلم شماس الابرشية رسالة من بانتيلي يريميتش نفسه اخبره فيها عن نيته الرجوع الى بيســونوفو ، وطلب منه ان يخبر خادمه بذلك ، لتهيئة لقاء يليق به . فهــم بيرفيشــكا هذه الكلمات ، على انها تعني ، من الضروري ولو القيام بمسح الغبار قليلا ! مع ذلك فانه لم يعتقد كثيرا بصحة الخبر ، لكنه تيقن من حقيقة ما قاله الشماس ، عندما ظهــر ، بعــد بضــعة ايام ، بانتيلي يريميتش بشخصه ذاته ، في فناء العزبة ممتطيا ماليك ــ اديل .

هرع بيرفيشــكا الى الســيد وامســك الركاب ، رغبة في مســاعدته بالنزول عن الجواد ، لكن السيد وثب بنفسه ، القى فيما حــوله نظــرة مظفرة ، وهتف عاليا : ((لقد قلت ، انني ســأجد مــاليك ــ اديل ، وقــد وجدته نكاية بالاعداء وبالقدر نفســه!)) دنا بيرفيشــكا مــن يده ، لكن تشيرتوبخانوف لم يعر اهتماما لحماسة خادمه . اقتاد مــاليك ــ اديل وراءه من مقوده ، واتجه بخطى واسعة نحو الاسطبل . تطلع بيرفيشكا بثبات الى سيده واصابه الوجل : ((اواه ، كيف اصابه النحول و الكبر في غضون سنة واحدة ، كيف اصبح وجهــه صــارما متهجمــا!)) مــن الجلي ، يتعين على بانتيلي يريميتش ان يفرح ، لانه حقق بغيته ، لقــد فرح بالفعل .... لكن رغم ذلك اصــاب بيرفيشــكا الوجــل ؛ بل شــعر بالرعب ايضا . وضع تشيرتوبخانوف الجواد عند معلفه السابق ، نقــر بخفة على عجزه وقال : ((ها أنت ذا في البيت مرة اخرى! فكن حذرا !

...)) استأجر منذ ذلك اليوم حارسا موثوقا به من العـزب الفقـراء ، استقر مجدداً في غرفة وعاش كالسابق .....

ومع ذلك ، ليس كالسابق ، تماما .... وسنتحدث فيما بعد عن ذلك .

دعا بانتيلي يريميتش ، في اليوم التالي لوصوله ، بيرفيشـكا ، وشرع يحدثه بصوت جهير ــ نظرا لعدم وجود جليس آخر ــ، دون ان يفـارقه طبعا ــ الشعور بجدارته الذاتية ، عن الطريقة التي اسـتطاع بهـا ان يجد ماليك ــ اديل . جلس في اثناء قصته ، ووجهه الى النافـذة ، دخـن غليونا من شبك طويل ، بينما وقف بيرفيشكا عند عتبة الباب ، ووضـع يديه خلف ظهره باجلال الى قفا رقبة سيده ، اصغى الى حكاية وصول بانتيلي يريميتش اخيرا ، بعد مساع وسفرات كثيرة غير مجـدية ، الى سوق في رومني ، وصل لوحده بدون اليهـودي ليبا ، الذي مـن جـراء ضعف سجاياه ، لم يطق صبرا وهـرب منه في اليوم الخـامس ، سـار للمرة الاخيرة بين صفوف العـربات عندمـا كان على وشـك الرحيل ، فـرأى على حين غرة مـاليك ــ اديل ، بين ثلاثة جياد مـربوطة على حاجز ، وقد عرفه فورا وكيف استطاع ماليك ــ اديل معـرفته ، فـأخذ يحمحم ، يندفع ، ويحفر الارض بحوافره .

استطرد تشيرتوبخانوف ولم يدر رأسه ابداً وتكلم بالصوت الجهـوري نفسه ــ لم يكن موجودا عند القوازي ــ وانما لدى غجري مـن تجـار الخيول ، تمسكت دون ريب ، حالا بجوادي ورغبت بشده في ارجـاعه ، لكن الغجري المحتال ، شرع يصرخ ، كالمسلوق ، في كل ارجاء الساحة ، اخذ يقسم بالله ، انه ابتاع الحصان من غجري آخـر ، اراد ان يجلب شهودا . لم احفل بذلك ، دفعت له النقود : ليأخـذه الشـيطان تمـاما! الشيء الرئيس ، هو عزيزي ، صديقي الذي وجدته وحصلت على الراحة النفسية . كدت ان امسك بقوازقي ظننته لصا في منطقـة كاراتشـيف ، حسب كلمات ليبا ، واضربه ضربا مبرحا على وجهـه ، تبين لي ان ذلك القوازي ابن قس ابتز مني بشكل مشين مئة وعشرين رُوبلا لكن النقود

تروح وتجيء ، المهم : ان ماليك ــ اديل في حوزتي مرة اخرى! انني الآن سعيد ــ ولسوف انعم بالراحة . أما بشأنك بورفيري فعندي توجيه واحد : ما أن ترى ، لا سمح الله ، قوازقيا في الضواحي حتى تهرع وتجلب لي البندقية في اللحظة ذاتها ، دون ان تنبس بكلمة ، حينئذ سأعرف أنا ، كيف اتصرف!

تكلم بانتيلي يريميتش مع بيرفيشكا على هذا المنوال ، هذا ما نطقت به شفاهه ، بيد ان فؤاده لم يغشه الهدوء كما كان يؤكد .

وا أسفاه! لم يكن واثقا تماما في اعماق روحه بأن ، الحصان الذي جلبه هو حقا ماليك ــ اديل!

ــ ١٠ ــ

مرت حقبة عصيبة ببانتيلي يريميتش . ان اقل ما نعم به هو الطمأنينة بالذات . حقا مرت ايام طيبة : بدت له الشكوك التي ساورته مجرد ترهات ، طرد الفكرة الخرقاء كذبابة لجوجة ، بل انه ضحك حتى من نفسه ، لكن جاءت أيام طالحة ايضا : اخذت الفكرة الملحاحة مجددا تبري قلبه خلسة ، تتآكله كفأرة خفية تعذبه عذابا جارحا دفينا . أحس تشيرتوبخانوف في غضون اليوم المشهود وحده الذي عثر فيه على ماليك ــ اديل بحبور رغيد .... بيد انه في الصباح التالي ، عندما اخذ يسرج لقيته ، تحت سقيفة الخان الواطئة التي قضى قربها الليل بطوله ، شعر بوخزة للمرة الاولى .... اكتفى بهز رأسه بتوان ، ولكن كانت بذرة الريبة قد القيت في اثناء رحلة العودة الى البيت (التي استغرقت اسبوعا) قلما خامرته الشكوك : لكنها اصبحت اقوى واكثر جلاء حالما عاد الى قريته بيسونوفو ، وحينما استقر الحصان في ذلك المكان الذي عاش فيه ماليك ــ اديل السابق الذي لاشك فيه .... سار في الطريق ، على الاغلب ببطء متأرجحا في خطواته ، مجيلا النظر حوله . دخن

التبغ من الشبك القصـــير ، لم يفــكر باي شيء ، كانت تراوده فــكرة في دخيلة نفسه : ((ان ما يريده تشيرتوبخانوف ، يحصل عليه حتما!)) ثم يبتسم ، لكن لدى وصــوله الى البيت حــل شيء آخــر . ظــل ذلك الشيء مصونا في طوايا روحـــه دون ريب ، لم تســمح له عزة النفس وحــدها البوح بقلقه الداخلي . كان يمكن ((ان يشـــطر الى قســمين)) كل مـــن تسول له نفسه التلميح ولو من بعيد ، بان ماليك ــ اديل الجديد ما هـــو القديم ذاته ، تلقى التهاني على رد «اللقية الموفقة)) مــن الاشـــخاص القلائل الذين اتفق وصادفهم ، لكنه لم يبحث عن تلك التهـــاني ، فقــد تحاشى لقاء الناس اكثر من قبل ، انها لعلامة سيئة! كان تقريبا يمتحن دائما ماليك ــ اديل ، ان استطعنا التعبير هكذا ، كان يركبه الى مــكان ما بعيد في الريف الفسيح ، ثم يوقفه للتجربة ، او كان يذهب خلسة الى الاسطبل ، يقفل دونه الباب ، يقف امام رأس الجواد مباشرة ، ينظر في عينيه ويسأل همســـا ((هــل انت ذاك؟ أأنت ؟ أأنت؟)) ولا يتفحصـــه صامتا فقط ، وانما بشكل دؤوب ولســاعات بطــوالها ، يفــرح احيانا ويهمهم : ((اجل! هو! طبعا هـــو)) واحيانا تغشـــاه الحيرة ، بل حتى يصيبه الارتباك .

لم تقلق تشيرتوبخانوف الفروق البدنية كثيرا بين هذا ماليك ــ اديل وذاك .... زد على ذلك ، انهـــا كانت قليلة : لدى ذاك الذيل والعـــرف كأنهما متشابهان ، والاذنان اكثر رهافة والردفان اقصر والعينان اكثر صفاء ــ لكن من الممكن ان يتراءى له ذلك فحسب ، وانما اعترى القلق تشيرتوبخانوف من الفروق التي يمــكن ان نســميها ، بالخلقية .كانت عادات ذاك مختلفة ، والسلوك كله متباين . فمثلا : كان مـــاليك ــ اديل ذاك يتطلع ويحمحم قليلا حالما يدخل تشيرتوبخانوف الى الاســطبل ، بينما هذا يظل يلوك التبن كأن شيئا لم يكن او يبقـــى غافيا ، منكســـا رأسه . لم يتحرك كلاهما من مــكانه ، حينمـــا يثب الســيد مـــن على السرج ، لكن ذاك حينمـــا كان يدعوه ، يلبي حـــالا نداءه ، بينمـــا هـــذا

يستمر واقفا كالمشدوه . كان ذاك يخب سريعا ايضا ، لكنه أعلى وثوبا وأبعد ، هذا يسير بخطوات اكثر طلاقه بينما خببه اكثر ارتجاجا و((تهتز)) احيانا حداويه ـ اعني تقرع الخلفية منها الامامية : بينما لم يصدر من ذاك مثل هذا التصرف الشائن قط ، لا سامح الله! لاحظ تشيرتوبخانوف ان هذا يحرك اذنيه دائما بغباء ، بينما ذاك على النقيض : كان يضع احدى اذنيه الى الخلف ، ويستمر على هذا المنوال يراقب السيد! اذا صادف ان رأى ذاك ان ما حوله غير نظيف فسرعان ما يضرب برجله الخلفية جدار المعلف ، اما هذا فلا يهتم مطلقا ، حتى لو كوموا الأزبال الى بطنه . اذا وضعت ذاك مثلا ، مقابل الريح ، يتنفس بملء رئتيه حالا ، ويهتز ، اما هذا فانه ينخر ، كان ذاك تثيره رطوبة المطر ، وهذا لا تهمه قيد شعره ... هذا اكثر خشونه ، اكثر خشونة! لا لطافة فيه كما هو شأن ذاك ، وثقيل المقود ، وماذا يمكن القول! كان ذاك جوادا حبيبا ، اما هذا ....

هكذا كان يفكر تشيرتوبخانوف احيانا ، وكانت هذه الافكار تولد المرارة في نفسه . يطلق جواده في احايين اخرى بكامل نشاطه في الحقل الذي حرث لتوه او يحمله على الوثوب الى اعمق قاع واد متآكل ، يثب مرة اخرى على الجرف نفسه ، يخفق قلبه من الفرح ، تطلق شفاهه زعيقا مدويا ، ويدرك ، ويدرك على الارجح ، ان تحته ماليك ـ اديل الحقيقي الذي لا ريب فيه ، والا اي جواد آخر بمقدوره ان يفعل ما فعله؟

لم تمر الامور مع ذلك ، دون خطايا وبلايا حتى في تلك الحالة.كلف تشيرتوبخانوف البحث المتواصل عن ماليك ـ اديل مالا كثيرا ، لقد عزف عن التفكير بالكلاب الكوسترومية ، وسافر في الضواحي وحيدا كعهده من قبل : ها هو ذات صباح التقى على بعد خمسة فيرستات من بيسونوفو بموكب صيد الامير ذاته الذي اختال امامه بشجاعة قبل سنة ونصف . وكأن لامفر من وقوع هذه الحادثة : الان ، وكما في ذلك

اليوم ، شرع ارنب بري يقفز امام الكلاب من جـانب التل وينطلق على منحدره ، شرعوا ينادون على الكلاب مشجعين ((الحقوه ، الحقوه!)) اندفع موكب الصيد كله ، واندفـع تشـيرتوبخانوف ايضـا ، لكن ليس معهم ، وانما جانبيا على بعد مئتي خطوة منهم ، بالضبط تمـاما كمـا فعل في المرة السابقة . قطعت منحدر التل حفرة ماء عميقة بشـكل ملتو وارتفعت أعلى فـاعلى ، ثم ضـاقت تدريجيا ، قـاطعة الطـريق على تشيرتوبخانوف هنالك حيث وجـب عليه ان يثب فـوقها ـ وقـد وثب فوقها فعلا قبل عام ونصف ـ وما برحت فيها الى الان ثماني خطوات عرضا وساجينين[8] عمقا . قهقه تشـيرتوبخانوف قهقهـات المنتصر ـ تنبؤا بالظفر ، المكرر ثانية بشكل مثير للفـرح ولوح بالكرباج ـ طفـر الصيادون ، لكن عيونهم ظلت معلقة بالفارس المقـدام ، طـار جـواده كالسهم ، وهـا هي ذي حفرة الماء امامه تماما ـ حسنا ، حسـنا ، مـرة واحدة ، وكما كان آنئذ! ...

بيد ان ماليك ـ اديل جمح وعرج يسارا قافزا على امتداد الجـرف ، رغم جهود تشيرتوبخانوف لجر رأسه جانبيا ، نحو حفرة الماء ....

يعني انه جبن ، ولم يثق بنفسه!

ارخى تشيرتوبخانوف عندئذ المقـود ، وقـد تلظـى كله بالخجـل والسخط ، وكاد يبكي الا قليلا ، وساق الجـواد مباشرة الى الامـام ، نحو الجبل ، بعيدا ، بعيدا عن اولئك الصيادين ، كيلا يسمع فقط كيف سـخروا منه ، كيمـا يتوارى فقـط وعلى جناح السرعة عن عيونهـم اللعينة!

عدا ماليك ـ اديل وقد جلد جانبيه وغطته الرغوة ، الى البيت ، اما تشيرتوبخانوف فانفرد حالا في غرفته .

((كلا ، ليس هو ، ليس هذا بصـديقي! كان ذاك سـيدق عنقـه ، ولا يخونني!))

((وصل)) تشيرتوبخانوف نهائياً ، كمــا يقــولون ، الى الحقيقــة في الحادثة التالية . شق طريقه ذات مرة ممتطيا ماليك ـ اديل خلف ضيعة الخوارنة المحيطة بالكنيسة والتي تقــع قــرية بيســـونوفو ضــــمن ابرشيتها . أمال قبعة الفرو على جبينه ، انحنى ورمــى قــوس السرج المرتفــع بكلتا يديه ، ثم تقــدم الهــوينا الى الامــام ، كان غير مسرور وحائراً في دخيلة نفسه . ناداه شخص ما على حين غرة .

وقف الجواد ، رفع رأسه ورأى رسوله الشــماس . كان يلبس قبعــة بنية رمادية على شعر بني رمادي مضفور ، ارتدى قفطانا قطنيا فــاتح الصفرة ، تمنطق بحزام مكون من قــطع زرق ، وضــعه تحــت خصره بكثير ، خرج القائم في خدمة المحراب الى ((الحديقة الخلفية)) وعندما رأى بانتيلي يريميتش اعتبر من واجبه ان يعبر له عن احترامه ويطلب منه في الاثناء ولو شيئا ما . ان رجال الدين لا يتكلمــون مــع النبلاء ، بدون هذا النمط من الفكرة الخفية ، كما هو معروف .

بيد ان تشيرتوبخانوف لم يكن في مزاج يسعفه على الاســتجابة الى الشــماس ، رد بالكاد على انحنائه له ، تمتم مــن بين اســـنانه ولوح بكرباجه .....

أسرع الشماس قائلا ... ياله من جواد رائع لديك ، انه ليوحي بالهيبة تماما ، يالك من امرىء بارع فعلا ، انك لاسد بحق وحقيقــة! اشــتهر الاب الشماس بفصاحة اللســان ، ممــا ازعج ازعاجــا شــديدا الاب الخوري ، الذي لم يمتلك موهبة الحديث : لا تطلق حتى الفودكا عقــال لسانه ، استطرد الشماس قائلا : لقد حــرمك دهــاء الاشرار حصــانا واحدا ، لكنك لم تتكدر قط ، وانما على العكس ، اعتمدت على القــدرة الربانية وحصلت لنفسك على آخر ، ليس باسوء قط من ذاك بل يمــكن اعتباره افضل ..... لانه ....

قاطعه تشيرتوبخانوف متجهما ـ ما هذا الزيف؟ اي حصان آخر ذاك؟ هذا هو نفسه ، هذا ماليك ـ اديل .... لقد وجدته . عبثا تفوه بهذا الهراء ....

قال بوقفات بين الكلمات ـ اي ! اي! اي!، لاعب الشماس اصابعه بين لحيته كما لو كان لغرض التسويف ، ونظر الى تشيرتوبخانوف بعينيه الصافيتين النهمتين . ـ كيف يمكن ذلك ايها السيد؟ ان حصانك ، ليسعفني الله بالذاكرة ، قد سرق في السنة الماضية بعد زهاء اسبوعين من مضي العيد والان اواخر تشرين الثاني .

ـ حسنا ، وماذا يعني هذا؟

استمر الشماس يلاعب اصابعه بين لحيته .

ـ يعني ، انه مضى اكثر من عام منذ ذلك الحين ، كان جوادك حينئذ اشهب مبقعا ، وما برح كذلك الى الان ، بل انه اصبح اكثر دكنة من قبل . وكيف يمكن هذا؟ ان الجياد الشهب تبيض كثيرا في غضون سنة واحدة .

انتفض تشيرتوبخانوف .... كأن حربة طعنته في قلبه . حقا : ان فصيلة الجياد الشهب تتبدل! كيف لم تخطر له مثل هذه الفكرة البسيطة على بال حتى الان؟

صرخ فجأة والتمعت عيناه مهتاجة ـ اليك عني ، ايتها اللفافة اللعينة ، وما هي الا لحظة حتى توارى عن مرمى بصر الشماس المندهش .

ـ هيهات! لقد انتهى كل شيء!

الان انتهى كل شيء حقا ، تصدع كل شيء ، لقد خسر الورقة الاخيرة : انهار كله دفعة واحدة بمجرد هذه الكلمة : ((تبيض))!

الجياد الشهب تبيض!

اقفز ، اقفز ايها اللعين! لن تبتعد واثبا من هذه الكلمة!

انطلق تشيرتوبخانوف الى البيت ، اغلق الغرفة ، مرة اخرى ، على

نفسه بالقفل .

- ١٢ -

اذن هذا الفرس الهزيل الرديء ليس بماليك ـ اديل ، ولا يوجد بينه وماليك اديل ادنى تماثل وان اي امرىء مستطرق لا مندوحة ان يلاحظ ذلك لحد ما من الوهلة الاولى ، بينما هو بانتيلي تشيرتوبخانوف قد خدع خدعة غاية في السخف ـ كلا! انه خدع هو نفسه عن عمد وسبق اصرار ، ونشر ذلك الضباب على نفسه ـ لم يعد الان ادنى ريب في هذا كله! ذرع تشيرتوبخانوف الغرفة ذهابا وايابا ، نكص على عقبيه عند كل جدار ، على وتيرة واحدة ، كحيوان ضار في قفص . عانت كبرياؤه بشكل لا يطاق ، لكن لم تعذبه معاناة كبريائه الجريحة وحدها ، استبد به اليأس ، خنقته الضغينة ، تأجج فيه الظمأ للانتقام . لكن ممن ؟ ممن ينتقم ؟ من اليهودي ، يافّ ، ماشا ، الشماس ، اللص القوزاقي ، الجيران كلهم ، العالم كله ، واخيراً من نفسه ذاتها ؟ لقد التاث عقله . الورقة الاخيرة خاسرة ! (لم تعجبه هذه المقارنة . ها هو ذا تافه مرة اخرى ، احقر الناس ، اضحوكة الجميع ، مهرج ، احمق مطعون ، موضع تهكم الشماس ! لقد تخيل ، تصور بجلاء ، كيف ان هذه اللفافة المقرفة اخذ يتحدث عن الجواد الاشهب وعن السيد البليد ... آه اللعنة !! عبثاً حاول تشيرتوبخانوف تهدئة المرارة المنطلقة ، عبثاً حاول اقناع نفسه بان هذا ... الحصان ولو انه ليس بماليك ـ اديل ، ومع ذلك فهو ... حسن ويمكن ان يخدمه بضع سنوات : كان فوراً يدفع عنه بعنف هذه الفكرة ، التي تنطوي على ازدراء جديد تماماً لماليك ـ اديل ذاك ، وقد عد نفسه بل تلك الفكرة ، مذنباً بحقه ..... بالتأكيد ! جعل هذا القبيح ، هذا المنهوك ، كأنه اعمى ابله ، على قدم المساواة مع ماليك ـ اديل ! وأية خدمة يستطيع هذا

الفرس الهزيل ان يزجيها له .... وهل يستأهل ان يمتطي صهوته أحد ، ويسافر عليه ؟ كلا مهما كلف الامر ! لن افعل أبداً ! اعطيه الى تترى ، ارمية طعاماً لكلب ، فلا يستحق شيئاً آخر ... اجل ! هذا افضل الاشياء !

طاف تشيرتوبخانوف اكثر من ساعتين في غرفته .

صرخ على حين غرة آمراً ـ بيرفيشكا ! اذهب منذ هذه الدقيقة الى الحانة وأجلب لي نصف سطل من الفودكا ! أتسمع ؟ نصف سطل ، انها لمنعشه ! يجب ان تكون الفودكا منذ اللحظة لدي هنا . على الطاولة .

لم تبطىء الفودكا في الظهور على طاولة بانتيلي يريميتش ، وأخذ يشرب .

ـ ١٣ ـ

من قُدّر له ان يتطلع الى تشيرتوبخانوف ، او كان بمستطاعه ان يكون شاهداً على تلك الضغينة المتجهمة التي جعلته يعب قدحاً تلو قدح ـ فانه سيشعر على الأرجح بالفزع رغماً عنه . أغسق الليل ، اضاءت شمعة الشحم باهتة على المنضدة . كفّ تشيرتوبخانوف عن التنقل من زاوية لاخرى ، جلس وقد احمر كله ، تكدرت عيناه ، اللتان خفضهما تارة الى الأرض ، ورفعهما تارة اخرى صوب النافذة المعتمة ، نهض ، سكب لنفسه الفودكا ، عبّها ، جلس مجدداً ، وجّه عينيه مرة اخرى الى نقطة محددة ، دون ان يأتي بحركة ، كانت أنفاسه وحدها تتلاحق بسرعة واخذ وجهه يزداد احمراراً . لاح ان قراراً ما تبلور في ذهنه ، واثار الحيرة في نفسه ايضاً ، لكنه اخذ يألفه تدريجياً ، ان فكرة واحدة بعينها دنت قريباً ، قريباً ، بثبات ، ودون توقف ، ان صورة واحدة بعينها ارتسمت أوضح فأوضح امامه ، تحولت الضغينة المتهيجة في قلبه ، تحت تأثير السكر المتوهج الشديد الى شعور ضار وظهرت ضحكة حقود على شفتيه ...

قال بلهجة عملية مملة تقريباً ـ اذن ، لقد أزف الوقت ، ينبغي القيام بعمل !

شرب آخر كأس من الفودكا ، تناول المسدس من فــوق السرير ـ ذلك المدس نفسه ، الذي اطلق منه النار على ما شا ، حشاه ، وضع «تحسباً للاحداث» بضع كبسولات في جيبه ، واتجه صوب الاسطبل .

كاد الحارس ان يهــرع اليه ، حينمــا شرع بفتح الباب ، لكنه صرخ به : ـ «هــذا انا ، ألا تراني ؟ انصرف !» تراجــع الحــارس قليلا على جهة . »صرخ به تشير توبخانوف ـ اذهب ونم ، ، لا شيء تحرسه هنا ! ياله من منقطع النظير ، ياله له من كنز !» دخــل الى الاســطبل . رقــد مــاليك ـ اديل .... مــاليك ـ اديل المزيف على مِفْــرش القش . ركله تشيرتوبخانوف برجله ، قائلا : «انهض ، ايها الغــراب !» فــك بعــدئذ رسنه من المعلف ، نزع عنه السرج ورماه على الارض ، حرف الجــواد المطيع بخشونه عن المعلف ، اخرجه الى الفناء وثم الى الحقــل ، ممــا اثار دهشة الحارس البالغة ، الذي لم يســتطع ان يفقــه قــط الى اين يذهب هذا السيد ليلا بجواد لم يلجــم في مقــوده ؟ لاريب انه يخشى ان يسأله ، شيعه بناظريه فقط ، حتى توارى عند منعطف الطـريق المفضي الى الغابة المجاورة .

ـ ١٤ ـ

ســار تشــيرتوبخانوف بخــطى واســعة ، لا يلوي على شيء ، مشى مـاليك ـ اديل ـ وسوف نسميه بهذا الاسم الى النهــاية ـ بخضــوع في أعقابه . كان الليل مقمراً لحد ما ، اســتطاع تشــيرتوبخانوف ان يميز معالم الغابة وتضاريسها المسودة امــام بقعــة ممتدة . اكتنفته برودة الليل ، وكان يمكن ، على الارجح ، ان يثمل من الفــودكا التي شربهــا لولا انه ... لولا خمرة اخرى ، اكثر قوة غمرت كيانه كله . احس بثقــل في رأسه ، تدفق الدم مجلجلا في حنجرته واذنيه ، بيد انه ســار بثبات ، وكان على دراية الى اين يسير .

قرر ان يقتل ماليك ـ اديل ، فكر طوال اليوم بهذا الشيء فقط .. اتخذ قراره الآن !

لم يقبل على هذا الامر بهدوء ، وانما بثقة لا يشوبها التردد ، كما يقبل امرؤ ، يذعن للشعور بالواجب . بدا له هذا «العمل» «بسيط» للغاية : ان القضاء على الدّعي ، يعني تصفية الحساب مرة واحدة مع «الجميع» ، يعاقب نفسه على غبائه ، يبرر تصرفه امام صديقه الحقيقي ، ويظهر للعالم قاطبة (كان تشيرتوبخانوف شديد الاهتمام بـ «العالم قاطبة») ، ان المزاح معه غير ممكن ... اما الشيء الرئيسي فهو : القضاء على نفسه سوية مع الدّعي ، والا ما جدوى مواصلة العيش ؟ ليس يسيراً ان نفسر كيف تداخل كل هذا في ذهنه ، لماذا لاح له غاية في البساطة ، لكن توضيحه غير مستحيل تماماً : مُهان ، وحيد ، بلا نفس بشرية قريبة اليه ، بلا فلس احمر ، اضافة الى اهتياج الدم بفعل النبيذ ، مما جعله في حالة اقرب الى الجنون ، ما من شك ، انه يوجد في نظر المجانين ضرب خاص من المنطق بل الحق في اكثر نزواتهم الغبية . كان تشيرتوبخانوف ، في كل الاحوال ، على ثقة كاملة بحقه ، لم يتردد ، لم يتعجل في تنفيذ الحكم على المذنب ، علماً انه لم يحسب حساباً واضحاً لهذا الشيء : من هو بالذات الذي دعاه بهذا الاسم ؟ ... اذا توخينا الحقيقة ، لقد فكر قليلا بما يزمع القيام به «يجب ، يجب القضاء عليه ـ هذا ما اكده لنفسه ، ببلاهة وصرامة ـ يجب القضاء عليه !»

جبن المذنب بلا ذنب ، وسار صاغراً بخبب بطيء وراء ظهره .. لكن قلب تشيرتوبخانوف لم يعرف الشفقة عليه .

ـ ١٥ ـ

امتد واد ضيق نمت شجيرات البلوط حتى منتصفه على مسافة غير بعيدة من طرف الغابة ، حيث اقتاد جواده ، هبط تشيرتوبخانوف الى هناك ، تعثر ماليك ـ اديل وكاد ان يهوي عليه .

صرخ تشيرتوبخانوف ، وكأنه يدافع عن نفسه ، استل المسدس من جيبه ـ اتريد ان تميتني دعساً ، ايها الملعون ! لم تعد تغشاه الضراوة ، وانما تحجر الشعور المتفرد الذي ، كما يقولون ، يعتري الانسان قبيل ارتكاب الجريمة . لقد أفزعة حتى صوته الخاص ، رن بوحشية تحت خميلة الاغصان المعتمة ، وفي الرطوبة النتنه الخانقه لوادي الغابة ! صلصل فجأة وفي الحال ، رداً على ندائه ، طير كبير في اعالي الشجرة فوق رأسه ... انتفض تشيرتوبخانوف لقد ايقظ بالضبط شاهداً على فعلته ، واين ؟ في هذا المكان المقفر ، حيث لا ينبغي ان يلتقي مخلوقاً حياً واحداً ....

قال من بين أسنانه ـ اذهب ، ايها الشيطان ، الى رياح السماء الاربع ! ـ ، ارخى مقود ماليك ـ اديل بلا توان على عقبيه ، تسلق خارجاً من الوادي ... وركض . لم يسمع طويلا وقع حوافره . عاقته الريح الثائرة وطغت على جميع الاصوات .

خرج تشيرتوبخانوف ، بدوره ، ببطء من الوادي ، وصل الى طرف الغابة ، مشى بتثاقل في الطريق متجهاً الى البيت . لم يكن راضياً عن نفسه ، سرى الثقل الذي شعر به في رأسه وقلبه الى اعضاء جسمه كافة ، سار غاضباً ، متجهماً ، غير راض ، جائعاً ، كما لو ان احداً اهانه ، انتزع منه غُنْماً ، قوتاً ...

من رام الانتحار ثم حالوا بينه وبين تحقيق قصده ، مألوفة لديه مثل تلك المشاعر .

لكزه بغتة شيء ما من الوراء بين منكبيه . التفت .. ماليك ـ اديل واقف في منتصف الطريق . مشى في اعقاب سيده ، لمسه بوجهه .... مخبراً عن نفسه ...

صرخ تشيرتوبخانوف ـ اها ! انت نفسك ، نفسك جئت تريد الموت ! اذن خذ !

استل مسدسه في رمشة عين ، رفع الزناد ، سدّد الفوهة الى جبين

ماليك ــ اديل وأطلق النار ....

اندفع الحصان المسكين جانبياً ، شبّ ، وثب زهاء عشر خطوات وهوى فجأة بثقل وشخر ، تمرغ متشنجاً على الأرض ....

صمّ تشيرتوبخانوف اذنيه بكلتا يديه وركض . تخاذلت ركبتاه تحته .

طارت منه دفعة واحدة ، الخمرة والحقد والثقة البليدة بالنفس . لم يبق سوى شعور واحد بالعار والشناعة ، والوعي ، وعي لا ريب فيه ، بانه سيقتل نفسه ايضاً في هذه المرة .

ــ ١٦ ــ

رأى الخادم بيرفيشكا بعد حوالي ستة اسابيع ان الواجب يقتضيه ان يوقف رئيس مركز الشرطة وكان يمر على مقربة من بيسونوفو .

سأله حامي النظام ــ ما بغيتك ؟

اجاب الخادم وقد انحنى انحناءة واطئة ــ تفضل الينا في البيت يا صاحب السعادة ، يبدو ان بانتيلي يريميتش يحتضر ، ولذلك فانا اخاف عليه .

أعاد رئيس الشرطة السؤال عليه ــ ماذا ؟ يحتضر ؟

ــ بالضبط ، ايها السيد كان يشرب الفودكا في بادىء الامر كل يوم ، الآن ها هو ذا راقد في السرير ، وقد اصبح نحيلا للغاية . اعتقد انه لا يفهم ولا يفقه شيئاً حالياً ، بدون لسان تماماً .

ترجل رئيس الشرطة من العربة .

ــ مالك لم تجلب له قساً على الاقل ؟ هل ادى سيدك اعترافه الديني ؟ هل اقيمت له الطقوس الدينية ؟

ــ كلا ، ابداً .

قطّب رئيس الشرطة .

ــ كيف تصرفت هكذا ايها الغلام ؟ اممكن ذلك ، ها ؟ ــام انك لا تعرف ، انه تترتب على ذلك ... مسؤولية كبيرة ، ها ؟

استطرد الخادم الوجل ــ لقد سألته منذ ثلاثة أيام ، أمس ايضاً قلت

الا تأمر بانتيلي بريمتيش ، ان استدعي القس ؟ «اجاب ـ صه ، ايها الاحمق . لا تتدخل فيما لا يعنيك» . واليوم عندما بدأت اخبره ، اكتفى بالنظر إلي وفتل شواربه .

سأل رئيس الشرطة ـ وهل شرب كثيراً من الفودكا ؟

ـ كثيراً جداً ! اعمل معروفاً ، يا صاحب السعادة ، تفضل اليه في الغرفة .

تمتم رئيس الشرطة ـ حسناً ، قدنى اليه ! وتبع بيرفيشكا .

ان منظراً مذهلا كان في انتظاره .

رقد تشيرتوبخانوف في غرفة خلفية من البيت ، رطبة ومعتمة ، على سرير بائس مغطى بجلال حصان وقد وضع معطف فرو مهوش بدل الوسادة ، لم يكن شاحباً ، وانما تعلوه صفرة باهتة ، كما هو شأن الموتى ، عيناه غائرتان تحت جفنيه اللامعين ، أنفه مدبب ، لكنه ما فتىء خفيف الحمرة فوق شاربيه الاشعثين . اضطجع مرتدياً سترته الدائمية ذات التفصيلات على صدرها وسروال شركسي أزرق . غطت قبعة الفرو القرمزية اللون ، جبينه من الاعلى حتى حواجبه ... أمسك تشيرتوبخانوف في احدى يديه سوط الصيد ، وفي الاخرى كيس التبغ المطرز ، وهو آخر هدية اعطتها له ما شا . وضُع دورق فارغ على المنضدة قرب السرير ، لاحت فوق رأسه صورتان مائيتان ، مثبتتان بالدبابيس : احدهما ، بقدر ما يمكن ان يفهم ، تمثل شخصاً بديناً . حاملا قيثارة في يديه ، وهو على الارجح نيدوبيوسكين ، وتمثل الاخرى فارساً واثباً .... كان الجواد يشبه تلك الحيوانات الخرافية التي يرسمها الاطفال على الجدران والأسيجة ، لكن هناك بقع ملونة وقصبات على صدر الفارس المظللة بعناية فائقة ، وعُثْل جزمته الحاد وشواربه الضخمة ، لا تترك مجالا للشك بأن : هذه الصورة تمثل حتماً بانتيلي بريميتش ممتطياً ماليك ـ اديل .

لم يعرف رئيس الشرطة المندهش ، ما الذي ينبغي عليه ان يفعله .

ساد الغرفة صمت القبور ، فكر في دخيلته «لا بد انه قد توفي» ثم رفع صوته عالياً منادياً : ـ بانتيلي يريمتيش ! اي ، بانتيلي يريمتش !

حدث عندئذ شيء غير اعتيادي . انفتحت عينا تشيرتوبخانوف ببطء ، تحركت حدقتاه الخامدتان بادىء الامر من اليمين الى اليسار ، ثم من اليسار الى اليمين ، وحطتا على الزائر ، رأتاه .... ومض شيء ما في بياضهما ، لاح فيهما ما يُشبه النظرة ، انفرجت تدريجاً الشفتان المزرقتان ، سُمع صوت اجش ، لكنه صوت مائت تماماً :

ـ ان النبيل الاصيل بانتيلي تشيرتوبخانوف يموت ، من بمقدوره ان يعيقه ؟ انه ليس مديناً لاحد ، ولا يطلب شيئاً .... اتركوه ، ايها الناس ! واذهبوا !

عبثاً حاولت اليد القابضة على السوط ان ترتفع ! ... اطبقت شفتاه مرة اخرى ، انغلقت عيناه ، هجع تشيرتوبخانوف كالسابق على سريره الخشن ، تمدد مستوياً وقرّب بين بطني قدميه .

همس رئيس الشرطة لبيرفيشكا وهو يخرج من الغرفة ـ لأكن على علم ، عندما توافيه المنية ، واعتقد انه من الممكن الآن أستدعاء القس ايضاً . ينبغي الا لتزام بالنظام والمحافظة عليه .

ذهب بيرفيشكا في اليوم نفسه ليستدعي القس ، وفي الصباح التالي ترتب عليه ان يخبر رئيس الشرطة : توفي بانتيلي يريميتش في تلك الليلة نفسها .

★ ★ ★

الطل الحي

يا وطن المعاناة الطويلة ـ
انت بلد الشعب الروسي
ف . توتشيف[1]

يقول المثل الفرنسي : «السمّاك الجاف والصياد المبتل كلاهما كئيب المظهر»

لم يكن لدي ولع قط في صيد السمك ، وما في وسعي ان احكم ، ما الذي يشعر به السماك في الطقس الجيد الصافي ، والى أي مدى تفوق المتعة التي يهبه اياها الصيد الوافر في الجو الرديء ، الاذى الذي يلحق به من ابتلاله . بيد ان المطر للصياد وبيل العاقبة . لقد تعرضت انا ويرمولاي في احدى رحلاتنا لقنص الطيهوج في منطقة بيليف لمثل ذلك الوبال بالذات ... لم ينقطع المطر منذ مطلع الصباح . لم يبق شيء لم نفعله كي نتحاشاه ! غطينا انفسنا بالمعاطف المطرية المطاطية حتى رأسينا تقريباً ، وقفنا تحت الاشجار ، كي نخفف من وطأة قطرات المطر ....

سمحت المعاطف المطرية المقاومة للماء بتسلل الماء تسللا مخجلا للغاية ، ناهيك عن اعاقتها لنا من اطلاق النار ، ومع ذلك بدا ، في الفترات الاولى ، ان قطرات المطر لا تنساب تحت الاشجار ، لكن

تدفقت المياه المتجمعة في الأوراق بعد برهة ، وعلى حين غرة ، ورشنا كل غصن مثل مزراب المطر ، تجمعت قطرات باردة تحت ياقتي وانزلقت على امتداد سلسلة ظهري ... لقد طفح الكيل ، كما عبر يرمولاي .

هتف اخيراً ـ كلا بيوتر بيتروفتيش ، لا يمكننا الاستمرار على هذا المنوال ! .. لن تستطيع القيام بالقنص اليوم . لقد طمرت كل الروائح فلن تشمها الكلاب ، لا تصيب البنادق الهدف عند اطلاق النار .... تفو ! ياله من حال !

سألته ـ وماذا نفعل اذن ؟

ـ هذا ما نفعله . لنذهب الى اليكسييفكا . لعلك لا تعلم بوجود مثل تلك المزرعة الصغيرة التي تملكها والدتك ، وهي تبعد ثمانية فيرستات من هنا ، سنقضي الليل هناك ، وغداً .....

ـ نعود الى هنا ؟

ـ كلا ، ليس الى هنا .... اعرف اماكن وراء اليكسييفكا ... افضل كثيراً للطيهوج من هذا المكان !

امتنعت عن توجيه السؤال الى رفيق الطريق الوفي ، لِم لم يقدني مباشرة الى تلك الاماكن ، وصلنا في ذلك اليوم الى مزرعة والدتي ، التي لم يخطر وجودها ببالي ، واعترف بذلك ، حتى ذلك الحين . احتوت تلك المزرعة على كوخ تابع لها ، عتيق للغاية ، لكنه غير مسكون ، لذلك كان نظيفاً ، فأمضيت فيه ليلة هادئة لحدما .

استيقظت في اليوم التالي مبكراً . كانت الشمس قد أشرقت لتوها ، لم يكن في السماء غيمة واحدة ، لمع كل ما حولي لمعاناً شديداً مضاعفاً : لمعان أشعة الصباح الفتية ووابل مطر الامس . وبينما كانوا يعدون العربة ، ذهبت أتجول قليلا في بستان صغير ، كان مثمراً في يوم ما بأشجار الفاكهة ، وهو موحش الآن ، يلتف من كل الجهات حول الكوخ بأجمته الشذية الريانة . وافرحتاه ، ما أطيب البقاء في الهواء الطلق ،

تحت السماء الصافية ، حيث القنابر ترفرف ، وتنساب أغانيها الرنانة خرزاً فضياً ! لقد حملت فوق اجنحتها ، على الأرجح ، قطرات من الندى ، وبدت اغانيها مروّاة بالندى ايضاً . خلعت حتى القبعة عن رأسي تنفست منشرحاً ملء صدري . تراءت عميرة نحل على جانب واد غير عميق ، قرب سياج من الأغصان تماماً ، افضى اليها ممر ضيق ، تعرج كالأفعى بين الجدران السميكة من الأعشاب والقراص ، وقد اشرأبت فوقها ، الله اعلم من أين أتت ، سيقان قنب داكنة الخضرة ومستدقة الرؤوس .

سرتُ في هذا الممر ، وصلت الى عميرة النحل . انتصبت الى جانبها سقيفة صغيرة من الاغصان المجدولة ، يسمونها امشانيك ، يضعون فيها الخلايا صيفاً . ألقيت نظرة في الباب نصف المفتوح : عتمة ، هدوء ، جفاف في الداخل وتشم رائحة لأنواع عديدة من النعناع . ثبتت في الزاوية اخشاب ، استلقت عليها هيئة صغيرة مغطاة باللحاف .. مشيت لأخرج من هناك ...

سمعت صوتاً واهناً ، بطيئاً ، ابح كصلصلة بَرْدى المستنقعات ـ ايها السيد ، ايها السيد ! بيوتر بيتروفيتش !

توقفت .

كرر الصوت ـ بيوتر بيتروفيتش ! ارجوك ان تقترب مني . تناهى الصوت إلي من الزاوية ، من تلك الاخشاب التي لاحظتها .

دنوت منه ، فصعقتني الدهشة . رقد مخلوق بشري حي امامي ، ولكن اي مخلوق بشري هذا ؟

الرأس جاف تماماً ، لونه برونزي متماثل ، يشبه تماماً نقش الايقونات القديم ، الانف ضيق كنصل السكين ، الشفاه لا تكاد تُرى ، الاسنان و العينان وحدهما تعطي شيئاً من الضياء ، برزت ذؤابات خفيفة من الشعر الأشقر من تحت المنديل وفوق الجبين . حركت يدان هزيلتان ، ذات لون برونزي ايضاً ، اصابعهما ببطء الى الأعلى

والأسفل مثل عيدان صغيرة عند الذقن لدى ثنية اللحاف . امعنت النظر بثبات اكثر ولاحظت : لم يكن الوجه خال من الدمامة فحسب ، بل انه جميل ، لكنه مرعب بصورة غير مألوفة . بدا هذا الوجه اكثر رعباً لدي ، عندما رأيت ابتسامة جاهدت كي تظهر على خديه المعدنيين ، جاهدت لكن دون ان تفتر عن ثغره .

همس الصوت مرة اخرى ، كأنه تصاعد من شفتين لم تتحركا إلا قليلا — أعرفتني ايها السيد ؟ وكيف يمكنك ان تعرفني ! انا لوكيريا .. اتذكر كيف كنت اقود الرقص عند والدتك في سباسكويه ... اتذكر ، كنت أقود الغناء ايضاً ؟

صحت — لوكيريا ! ، احقاً هذه انت ؟ أممكن هذا ؟

— انا ، اجل ، ايها السيد ، انا ، انا لوكيريا ،

لم أدر ما اقول ، نظرت كالمصعوق الى هذا الوجه الداكن الجامد بعينيه الساطعتين الخامدتين المحدقتين فيّ . أحقاً هذا ؟ احقاً ان هذه المومياء هي لوكيريا ، تلك الحسناء الاولى بين كل خادمات البيت ، الفارعة القامة ، الممتلئة ، البيضاء ، الموردة الوجنتين ، المعتادة على القهقة والرقص والغناء ! لوكيريا ، لوكيريا الموهوبة ، التي كان يتغزل فيها كل فتياننا اليافعين ، وقد تأوهت انا نفسي ، في سري ، من اجلها ، عندما كنت صبياً في السادسة عشر من عمري !

قلت اخيراً — اعذريني ، لوكيريا ، لكن ما الذي اصابك ؟

— يالها من كارثة نزلت بي ! لا تشعر بالاشمئزاز مني ، ايها السيد ، ولا يغشاك النفور من مصيبتي ، اجلس هناك على البرميل ، على مقربة مني ، وإلا لن يكون بوسعك ان تسمعني .... اترى ، اي متحدثة أمسيتُ ! ... حسناً ، انني فرحة برؤيتي اياك ! كيف صادف وجئت الى اليكسييفكا ؟

تكلمت لوكيريا بهدوء ووهن ، لكن دون توقف .

— اقتادني يرمولاي الصياد الى هنا . لكن واصلي حديثك عن ....

ـ أأحدثك عن مصيبتي تلك ؟ كما تشاء ايها السيد . حـــدث لي ذلك منذ امد بعيد ، قبل ست او سبع سنوات . كنت قد خُطبت حينئذ تواً لفاسيلي بوليا كوف ، اتذكره ، كان فتى ممشوقاً ، اجعد الشعر ، عمـــل ســـاقي خمـــــر عند والدتك ؟ لم تكن عندئذ في الريف ، بل ســـــافرت لتدرس في موسكو . تولهنا بحب بعضاً بعضاً انا وفاسيلي ولم يفارق بالي قـــط ، حـــدث ذلك في الربيع . وذات مـــرة ، ليلا .... لم يكن انبلاج الفجــــر ببعيد .... وكنت انا مسهدة : غنى بلبل في الحديقة بحلاوة مـــدهشة ! .. لم أطق صبراً ، نهضت وخرجت الى السقيفة لاصـــغي اليه . انســـابت اغنيتة وانســـابت .... وخيل إلي فجـــأة : ان احـــداً يناديني بصـــوت فاسيلي نداء خافتاً على هذه الصورة : «لوشا ! ....» نظرت جـــانباً ، ، ولم اكن ، كما تعرف ، قد فارقني النعاس تماماً ، فسقطت مباشرة مـــن عتبة السقيفة الى الاسفل ، وارتطمت بالارض : بدا لي انني لم اصـــب بأذى شديد ، فسرعان مانهضت وعدت الى غرفتي . لكن كأن شـــيئاً في داخلي ـ في معدتي ـ تمزق ... دعني لألتقط انفاسي ... لحظة .... ايهـــا السيد ...

لزمت لوكيريا الصمت ، بينما نظرت اليهـــا وانا مندهش . ادهشـــني خصوصاً ، انها روت قصـــتها بسرور ، بلا آهـــات او انين ، لم تبد ولو شكوى قليلة ، لم تسأل التعاطف معها .

استطردت لوكيريا ـ ومنذ تلك الحادثة طفقت اذوي واعتل ، اصابني الوهن ، اصبح المشي عسيراً علّي ، بعد ئذ أخذت أفقد السيطرة التامـــة على قدمي ، لم استطع الوقـــوف ولا الجلوس ، كنت اريد ان اســـتلقي فحسب .

لم أرغب في المأكل ولا المشرب : انتقل حـــالي مـــن سيء الى اســـوأ . عرضـــتني والدتك ، طيبة منهـــا ، على الأطباء لفحصي ، أرســـلتني الى المستشفى . ومع ذلك لم يطرأ اي تحسن علي . ولم يكن بمقـــدور طبيب واحد ان يشخص طبيعة مرضي ، لم يتركوا شـــيئاً لم يعملوه لي : كووا

ظهري بحديد متوقد ، ووضعوني في ثلج مكسر ، ولا جدوى من كل ذلك . اخيراً تصلبت تماماً .. قرر السادة ، انه لا نفع يرتجى من الاستمرار في علاجي ، وما من معنى في ابقاء عاجزة في بيتهم .... حسناً ، فارسلوني الى هنا ــ لان عندي اقرباء في هذا المكان . وها أنا ذا اعيش ، كما تراني .

لزمت لوكيريا الصمت مجدداً ، بذلت جهدها كي تبتسم مرة أخرى .

هتفت ــ هذه حالة رهيبة رغم كل ذلك ! .... لم اعرف ما اضيف ، سألتُ : ــ وماذا عن بوليا كوف فاسيلي ؟ وكان السؤال في غاية الغباء .

ادارت لوكيرها عينيها جانبياً لحدما .

ــ ماذا عن بولياكوف ؟ تألم ، تألم ، ثم تزوج من فتاة اخرى من غلينويه ... اتعرف غلينويه ؟ انها غير بعيدة عنا . اسمها اغارا فينا . احبني حباً شديداً ، ولكن كما ترى انه امرؤ شاب ، ولا يمكن ان يظل عزباً . واي رفيقة له يمكن ان اكون أنا ؟ وجد لنفسه زوجة صالحة ، طيبة وعندهم اطفال ، وهو يعمل وكيلا في ضيعة احد الجيران : فقد اعتقته والدتك ، واعطتهُ وثيقة بالعتق ، اموره على احسن مايرام والحمد لله .

سألتها مرة ثانية ــ وكيف انت ، ترقدين وترقدين طوال الوقت ؟

ــ هكذا أرقد ، ايها السيد ، للسنة السابعة ــ اضطجع صيفاً هنا في كوخ الاغصان المجدولة هذا ، ينقلوني الى غرفة قرب الحمام عندما يصبح الجو بارداً . وأرقد هناك .

ــ من يتردد عليك ، ومن يقوم بخدمتك ؟

ــ ثمة أناس طيبون هنا ايضاً . انهم لا يتركونني . ثم ان رعاية قليلة تكفيني ، اما بشأن الطعام ، فأعتبر انني لا أكل شيئاً ، واما الماء ، فذلك ابريق هنا : انه موجود دائماً قربي وفيه مياه ينبوع صافية . استطيع ان أطال الابريق . فما برحت احدى يدي بمقدورها العمل . ومع ذلك ، فهنا صبية يتيمة ، تُطل علي بين فينة واخرى ، وشكراً لها

كانت هنا قبيل هنيهة ... الم تصادفها هنا ؟ انها حلوة يا لبياض بشرتها . تحمل إليّ الازهار ، انني كثيرة الولع بها ، اعني الازهار . ليس لدينا ازهار حدائق ، كانت موجودة ، بيد انها تلاشت . ولكن اترى ، ان الزهور البرية جميلة ايضاً ، وعطرها اكثر شذى من زهور الحدائق . ها هي ذي ازهار سوسن الغابة ... ليس ثمة ما هو احلى منها !

ـ الا تشعرين بالسأم ، بالفزع ، يا لوكيريا المسكينة ؟

ـ وماذا بوسع المرء ان يفعل ؟ لا أريد أن أكذب ، كنت في بادىء الامر واهنة العزيمة للغاية ، ثم ألفتُ الوضع ، تعلمت الصبر ، ولا بأس الآن ، هناك من هم اسوأ حالا مني ..

ـ وماذا تعنين بهذا ؟

ـ بعضهم ليس لهم حتى مأوى ! بعضهم أعمى او أصم ! أنا ، والحمدلله ، أرى جيداً ، واسمع كل شيء ، حتى أدق الاشياء . اذا حفر خُلْد الارض ، فانني اسمعه . استطيع ان اشم كل رائحة ، مهما تكن ضعيفة ! اذا بدأت الحنطة السوداء تزهر في الحقل او الزيزفون في الحديقة ، فلا داعي لاخباري بذلك : انني اول من يشمها في الحال ، اذا ما هبّت الانسام من هناك فقط . كلا ، لم الشكوى واغضاب الرب ؟ كثيرون من هم اسوأ حالا مني . لننظر الى الوضع هكذا : من اليسير جداً على امرىء معاق ان يرتكب إثماً ، ولكن الآثام قد فارقتني ، اخذ القس الاب الكسي يتلو علّي الأسرار المقدسة منذ مدة وجيزة ، وقال لي : «لاحاجة بك ، كما احسب ، الى الاعتراف : فكيف يمكن الاتيان باثم في وضعك ؟» لكنني اجبته : «وماذا عن إثم الفكر ، ايها الأب ؟» ـ «اجاب وهو يبتسم ـ حسناً ، ما هو بالاثم العظيم» .

استطردت لوكيريا ـ حقاً ، لا يمكن ان اكون آثمة حتى بهذه الآثام الفكرية ، لانني علّمت نفسي : ألاّ افكر ، واكثر من هذا ، الاّ اتذكر . الوقت يمر بسرعة على هذا المنوال .

اعترف انني اصبتُ بالدهشة .

لوكيريا انت دائماً وحيدة فريدة ، فكيف بمقدورك ان تمنعي الافكار من التسرب الى رأسك ؟ ام انك تنامين طوال الوقت ؟

ـ أيْ ، كلا ، ايها السيد ! ليس بمستطاعي ان انام دائماً . ومع انني لا اعاني من الام كبيرة لكن هناك شيئاً يتأكل فيّ ، في داخلي مباشرة ، في عظامي أيضاً ، لا يدعني انام كما يجب . كلا ... انني ارقد على هذه الطريقة ، واستمر راقدة هنا ولا افكر ، اشعر انني حية ، اتنفس ، وهذا كل ما تبقّى مني . انظر واسمع . النحل يطن في عميرته ويئز ، الحمامة تجلس على السقف وتأخذ بالهديل ، تمر دجاجة مُقّرخة مع فراخها وتنقر الفُتَاته ، يطير هنا عصفور احياناً او فراشة واشعر بسرور كبير . جاءت سنونوة قبيل العام الماضي ، هنالك في تلك الزاوية وبنت عشاً وجلبت صغارها . اواه كم كان ذلك ممتعاً ! تطير واحدة الى العش الصغير ، تحط عليه ، تطعم الصغار ثم تخرج . تتطلع واذا بسنونوة اخرى حلت محلها . احياناً لا تدخل وانما تحوم مارة قرب الباب المفتوح فقط ، ويشرع الصغار حالا في الصأصاة وفتح مناقيرهم ... انتظرتهم في السنة التالية ، لكن يقولون ان احد الصيادين المحليين اطلق عليهم النار من البندقية . وما الفائدة التي جناها من عمله هذا ؟ انها سنونوة فحسب ، ليست باكبر من الخنفساء ... ياللكم من اشرار ، يامعشر الصيادين .

استعجلت قائلاً ـ انني لا اطلق النار على السنونوات .

بدأت في الحديث مرة اخرى ـ ذات مرة كان الحال مضحكاً حقاً ! هرع أرنب ، بالفعل الى هنا ! هلا لاحقته الكلاب ، أم لم تفعل ، لست ادري ، لكنه ولج الباب مباشرة وهو يركض ! ... جلس قريباً هادئاً ، جلس لفترة طويلة مع ذلك ، شم الهواء بانفه ، حرك شواربه ـ انه ضابط حقيقي ! تطلع إلي ، يعني ، فهم انني لن اصيبه بأذى . نهض اخيراً ، نط ، نط نحو الباب ، تلفت على العتبة وكان على هذه

الشاكلة ! ياله من مضحك !

نظرت لوكيريا إلي .... كأنها تسأل او ليس مسلياً ذلك ؟ ابتسمت كي اريحها . عضت على شفتيها اليابستين .

ـ لا ريب تكون الحال في الشتاء اسوأ : بسبب العتمة التي تحيطني ، ومن المؤسف اشعال شمعة ، زد على ذلك ، ما نفعها لي ؟ رغم انني اعرف القراءة ، وكنت شغوفة بالمطالعة دائماً ، ولكن ماذا اقرأ ؟ ما من كتب هنا ، ثم هب انها موجودة ، فكيف يمكنني ان أمسكه ، الكتاب اعني ؟ جلب لي الاب الكسي تقويماً كنسياً لغرض تسليتي ، لكنه رأى انه عديم الفائدة لي ، فتناوله واخذه ثانية . كان بوسعي رغم العتمة المحيطة بي ، ان اسمع شيئاً ما دائماً : صرصور يشقشق اوفأرة تخمش في مكان ما . حينئذ يكون الوضع جيداً : لا افكر بشيء !

استطردت لوكيريا بعد راحة قصيرة ـ اتلو احياناً الصلوات ، لكنني اعرف قليلا منها من هذه الصلوات . ومالي اشرع في اثارة ضجر الرب ؟ وماذا استطيع ان اسأله ؟ ، انه يعرف افضل مني ، ما انا بحاجة اليه . ارسل لي صليباً لأحمله ـ يعني انه يحبني . هكذا ينبغي علينا ان نفهم آلامنا . أتلو لأبينا وللعذراء التراتيم عن كل المكتربين ، ارقد مرة اخرى دون ان تخامرني فكرة واحدة . ولا بأس في مثل هذه الحياة !

مضت دقيقتان . لم اكدر الصمت ، لم اتحرك على البرميل الضيق ، الذي استعملته مقعداً لجلوسي . سرى إليّ ايضاً الجمود الصارم المتحجر لهذه المخلوقة الحية التعسة الراقدة امامي : وكأنني قد تجمدت انا كذلك .

بدأت القول اخيراً ـ اصغي إلي ، لوكيريا ، اصغي الى الاقتراح الذي اقدمه لك . اتريدين ان اوصي : كي يقوموا بنقلك الى المستشفى ، الى مستشفى جيد في المدينة ؟ من يدري ، لعلهم يشفونك هناك ؟ وعلى كل الاحوال لن تكوني وحيدة هناك ...

رفعت لوكيريا حاجبيها قليلا جداً .

قالت هامسة همساً مضطرباً ـ اوه ، كلا ، ايها البسيد ، لا تنقلني الى المستشفى ، دعني على وضعي . سأكابد هناك عذاباً اكبر فقط . ما من رجاء في علاجي ! ... حدث مرة ان جاء دكتور الى هنا ، واراد ان يفحصني رجوته قائلة : «لا تقلقني من اجل المسيح» . وما الفائدة ! اخذ يقلبني على جانبي ، يثني يدي وقدمي ويمدها مستقيمة ، قال : «انني افعل هذا لغرض التعلم ، فانا شخص اقوم بخدمة ، انني عالم ! وقال ، انت لا يمكنك ، معارضتي ، فقد منحوني وساماً على العنق[٣] مقابل ابحاثي العلمية ، انني ابذل كل ما في وسعي من اجلكم ايها الحمقى» . ازعجني وازعجني ، سمى لي اسم مرضي . وكان اسماً جميلا ـ فعل ذلك وسافر . ظلت عظامي تؤلمني بعدئذ اسبوعاً برمته . تقول انني وحيدة ، وحيدة دائماً . كلا ، ليس طوال الوقت . يزورني الناس ايضاً . فأنا شخص وديع ، لا اكدر احداً . الفتيات الفلاحات يعرّجن علي ويثرثرن قليلا ، او تمر علي احدى المؤمنات في اثناء تجوالها ، تشرع في التحدث لي عن اورشيليم وكيف والمدن المقدسة . وانا لا اشعر بالخوف من الوحدة ، بل اذا اردت الحق افضل لي ، حقاً ! لاتكدر راحتي ايها السيد ، لا تننقلني الى المستشفى ... شكراً لك ، انت امرؤ طيب ، اتركني لوحدتي فحسب ، يا عزيزي .

ـ حسناً ، كما ترغبين ، كما ترغبين لوكيريا . فقد اقترحت ذلك لفائدتك لا غير ...

اعرف ، أيها السيد ، انه لفائدتي . ولكن ، ايها السيد ، ياعزيزي ، من بوسعه مساعدة شخص آخر ؟ من بمقدوره الولوج في روحه ؟ ليسعف كل امرىء نفسه ! لعلك لا تصدق ـ ارقد وحدي احياناً على هذه الحالة ... وكأن ليس هناك احد غيري في العالم . انا وحدي حيّة فحسب ! يخيل إلي احياناً كأن الهاماً تملكني ... وتستحوذ فكرة علّي ، انه لشيء مدهش حقاً !

ـ لوكيريا ، وبماذا تفكيرين في تلك الاحايين ؟

ـ يستحيل قول ذلك قطعاً ، ايها السيد : لا يمكن الافصـــاح عنه . واني لأنساه بعدئذ . يأتي كالغيمة التي تهمر مــطرها علي ، يصـــبح كل شيء نقياً ، جيداً ، اما ماهي ، تلك الفكرة ، فلا يمكن ادراكها ابداً ! ويجــول في خاطري فقط : لو كان الناس يحيطون بي ، لم يكن مــن الممــكن ان يحدث شيء من هذا ، ولم اكن لاشعر باي احساس ماخلا تعاستي .

تأوهت لوكيريا بمشقة ، لم يطــاوعها صــدرها ، شــأنه شــأن بقية اعضاء جسمها !

بدأت الحديث مجدداً ـ عندمـــا اتطلع اليك ايهـــا الســيد ، ارى انك تشفق لحالي كثيراً ولكن لا تغالي في الاشفاق علي ، حقاً ! اقول لك على سبيل المثال : احياناً ، بل حتى في الوقت الراهــن فــاني .. انك تتذكر ، اية فتاة مرحة كنت في زماني ؟ فتاة شادية باستمرار ... أتدري اذن ؟ الآن لا زلت اغني الاغاني ايضاً .

ـ الاغاني ؟ .. أحقاً انت تغنين ؟

ـ اجــل ، اغني ، الاغاني القــديمة ، اغاني الكورس ، اغاني الولائم ، الاغاني المقدسة ، كل ضروب الاغاني ! اعرف الكثير منها ، لم انسها . لا اغني اغاني الرقص فقط . انها لا تصلح لي في وضعي الحالي .

ـ وكيف تغنين الاغاني .. مع نفسك ؟

ـ مع نفسي ، وبصوت مسموع ، لا استطيع ان اغني بصوت عال ، ومع ذلك يمــكن فهمــي . ســبق أن قلت لك ، ان صــبية تتردد علي . اعني اليتيمة ، لكنها فطنة . وها انا ذا قد علمتها ، ولقنتها اربع أغان .

لعلك لا تصدقني ؟ انتظر هنيهة ، وترى الآن ...

جمعت لوكيريا قواهـا ... ان فكرة استعداد هذا المخلوق شــبه الميت للغناء ، ايقظت في رعباً عفوياً . لكن قبيل ان استطيع النطــق بكلمــة ، اختلج في اذني صوت ممــدود ، لا يســمع الا بصــعوبة بيد انه صـــاف صـــادق النبرة ... واعقبه آخــر ، فثالث . غنت لوكيريا « في المروج » ..

غنت دون ان تغير وجهها المتحجر ، بل كانت حتى نظرة عينيها ثابتة . لكن كم هو مؤثر رذين ذلك الصوت المسكين المنتزع عنوة ، المختلج ، المنبعث كالدخان ، كم ارادت ان تسكب روحها كلها فيه ... لم يعد يساورني الشعور بالرعب : ان رأفة لا توصف ضغطت على قلبي .

قالت فجأة ـ أخ ، لا استطيع ! ليست لدي القوة الكافية ... فقد فرحت فرحة شديدة لرؤيتي اياك .

أغلقت عيناها .

وضعت يدي على أصابعها الصغيرة الباردة .. رنت إلي ، ثم اطبقت جفنيها الداكنين ، واهدابها الذهبية المسدلة ، كأهداب التماثيل القديمة ، مرة اخرى . مضت لحظة ، واذا بهن يلمعن في شبه العتمة المخيمة ... لقد اخضلتا بالدموع .

لم احرك ساكناً كالسابق .

تكلمت لوكيريا فجأة وبقوة غير متوقعة ، فتحت عينيها بسعة ، حاولت ان تطرفهما لطرد الدموع ـ ما هذا الغباء ، كيف لا اخجل من تصرفي ؟ ماذا دهاني ؟

لم يحدث معي هذا منذ امد بعيد ... منذ ذلك اليوم الذي زارني بوليا كوف فاسيا في الربيع المنصرم . كان الامر على ما يرام في اثناء جلوسه معي وحديثه الي ، لكن ما إن ذهب حتى طفقت اعول لوحدي ! من اين لي بكل تلك الدموع ! ... ان الدموع لدى امثالنا من النساء لا قيمة لها . واردفت لوكيريا قائلة ـ ايها السيد ، اذا كان لديك منديل ... لا تشمئز ، امسح لي عيني .

هرعت لتنفيذ رغبتها وابقيت المنديل عندها . رفضت في باديء الامر ... كأنها تقول وما الداعي لمنحي هذه الهدية ؟ كان المنديل غاية في البساطة ، بيد انه نظيف وابيض . امسكته بعدئذ باصابعها الواهنة ولم تعد لتفتحها ثانية . استطعت ، حينما اعتدت على العتمة المخيمة علينا ان اميز ملامحها بجلاء ، استطعت حتى ان الاحظ توردأ خفيفاً

سرى عبر برونز وجهها ، استطعت ان اكتشف في هذا الوجه ـ او هكذا لاحت لي على الاقل ـ آثار جمالها السابق .

بدأت لوكيريا الكلام مجدداً ـ ها انت ذا ايها السيد ، قد سألتني ، هل انام ؟ قلما انام بالطبع ، لكنني أرى احلاماً في كل مرة ، احلاماً حلوة !

لا ارى نفسي عليلة قط : انني دائماً في الحلم معافاة وشابة ... ثمة كمد واحد : ما ان استيقظ ، حتى اريد ان اتمطى براحة ، واذا بكل كياني مقيد بالاصفاد .

رأيت ذات مرة حلماً رائعاً ! اتريد ان اقصه عليك ؟ . حسناً أصغ الي .

حلمت انني اقف في حقل ، يحيط بي الجودار ، ياله من باسق ، ناضج ، كأنه الذهب ! ... وكما لو كان معي كلب صغير احمر ، خبيث وشرير ، حاول ان يعضني طوال الوقت . وكأن منجلا في يدي ، ليس منجلا بسيطاً ـــ وانما كالقمر ، حينما يكون القمر شبيهاً بالمنجل . كان ينبغي عليّ ان احصد بهذا الهلال ذلك الجودار حتى آتي عليه كله . بيد ان القيظ اضناني للغاية ، والهلال اعماني ، سرى الخمول الي ، بينما كان العنبر ينمو فيما حولي ، وكم كان كبيراً ! دار الجميع رؤوسهم الصغيرة صوبي . فكرت في سريرتي : سأقطف أزهار العنبر هذه ، ان فاسيا وعدني بالمجيء ، سأعمل لنفسي اكليلا باديء ذي بدء ، ومازال لدي وقت لجني الازهار ، شرعت اقطف زهور العنبر ، لكنها اخذت تذوب وتذوب من بين اصابعي ، مهما حاولت ان اصنع ! لم استطع ان اضفر أكليلا لي . سمعت في تلك الاثناء ، احداً يسير نحوي ، قريباً مني ويناديني : لو شا ! لوشا ! ... وفكرت ، اواه ، يا للمصيبة ، تأخرت ! الأمر سيان ، سأضع على رأسي هذا الهلال بدل اكليل العنبر . وما إن وضعت الهلال ، حتى بدا كالقلنسوة تماماً ، كنت اسطع من قمة رأسي الى اخمص قدمي بشكل حتى ان الحقل من حولي اضاء كله . نظرت ،

واذا بأحد من اعالي سنابل الجودار ينساب نحوي مسرعاً ، لكنه لم يكن فاسيا ، وانما المسيح بعينه ! ولا استطيع القول كيف عرفت انه المسيح ، انهم لا يصفونه على تلك الصورة ، لكنه كان هو نفسه لا غير ! بلا لحية ، فارع القامة ، شاباً متشحاً كله بالبياض ـ ما خلا حزامه الذهبي ـ مد اليّ يده الصغيرة . «قال ، لا تخافي يا عروسي المختارة ، سيري ورائي ، ستقودين الغناء في مملكتي السماوية ، وتترنمين باغاني الفردوس» . الصقت شفتي بقوة على يده ! امسكني كلبي الصغير من قدمي ... حينئذ حلقّنا على الفور ! هو في المقدمة .... ينشر جناحيه الطويلين ، كجناحي النورس ، في كل ارجاء السماء ، ان ذلك الكلب الصغير هو مرضي ، وما ثمة من مكان له في مملكة السموات .

اخلدت لوكيريا الى الصمت لحظة .

واصلت كلامها من جديد ـ رأيت ايضاً حلماً آخر ، او لعلها كانت رؤيا ، لست ادري ما هو . خُيل الي ، انني ارقد في هذا الكوخ بعينه ، جاء إلي والداي المرحومان ـ ابي وأمي ـ انحنيا علي كثيراً ، لم يفوها بشيء . سألتهم : لماذا تنحنيان علي ، يا ابتاه ويا اماه ؟ قالا ، لا نك تعذبت عذاباً جماً في هذا العالم ، انك لم تخففي عن روحك وحدها ، لكنك رفعت عبئاً ثقيلا عنا ايضاً . اصبح وضعنا اكثر يسراً في العالم الآخر . لقد تخلصت من خطاياك نهائياً ، والان تقضين على آثامنا .. ما ان قال والدي هذا ، حتى انحنيا لي مرة اخرى ، وتواريا من مجال رؤيتي : ظلت الجدران وحدها مرئية . ساورتني الظنون كثيراً بعدئذ ، فيما اذا حدث معي مثل هذا الشيء . بل انني اعترفت بذلك حتى الى القس . لكنه ظن انها لم تكن بالرؤيا قط ، لان الرؤيا لا تتجلى الا لدى رجال الكهنوت .

استطردت لوكيريا قائلة ـ كان قد راودني حلم آخر . رأيت ، وكأنني اجلس قرب طريق كبير تحت صفصافة ، احمل عصا صنعت من الخشب ، وحقيبة على كتفي ، لففت رأسي بمنديل ، مثل جوالة تقية !

كان يجب علّي ان أسير بعيداً الى حج مكان مقدس . الجوالون الحجاج يمرون قربي باستمرار ، يسيرون بهدوء ، كأنهم متثاقلون ، يمضون كلهمم في اتجاه واحد ، وجوههم جميعاً حزينة ، ويشبهون بعضهم بعضاً . رأيت : ثمة امرأة تتمايل وتستحث الخطى بينهم ، رأسها كله اطول من الاخرين ، ترتدي رداء خصوصياً كأنه مختلف عن ملابسنا ، فلم يكن روسياً . وجهها متميز أيضاً ، متجهم وصارم كوجه ألف الصيام . وكأن الجميع تنحوا من طريقها ، استدارت بغتة واتجهت نحوي مباشرة . توقفت ، رنت إلى ، ان عينيها تشبهان عيني الصقر ، صفراوان ، كبيرتان لامعتان ـ توجهت اليها بسؤال : «من أنت ؟» واذا بها تقول : «انا حتفك» . كان ينبغي ان افزع ، ولكني على النقيض ، بت فرحة كالطفل ، اقسم لك بالله ! وقالت لي المرأة ـ حتفي : «لوكيريا اني لتتملكني الشفقة عليك ، لكن ليس بوسعي ان اصطحبك معي . وداعاً !» رباه ! أي أسى استولى علي آنئذ ! ... «قلت ـ خذيني معك ، يا أماه ، ياعزيزتي ، خذيني !» واذا بحتفي قد التفت إلي ، وشرعت تتحدث معي ... ادركت انها تحدد لي ساعة موتي ، ولكن لم يكن مفهوماً ، ولا واضحاً .... خلا ان الوقت سيكون بعد يوم القديس بيوتر ... استيقظت بعدئذ . لقد رأيت أحلاماً مدهشة من هذا النمط ! .

رفعت لوكيريا عينيها الى الاعلى ... واستغرقت في التفكير ....

ـ تواجهني صعوبة واحدة فقط : يصادف ان يمر اسبوع كامل دون ان أحظى ولو باغفاءة واحدة ... مرت هنا ، في العام المنصرم ، سيدة ، رأتني واعطتني قنينة صغيرة فيها دواء للأرق ، واخبرتني ان اتناول عشر قطرات منه كل مرة . وقد افادني كثيراً ، وشرعت انام ، والان فرغت تلك القنينة منذ امد طويل ... الا تعرف نوع الدواء الذي احتوته وكيف يمكن الحصول عليه ؟

يبدو ان السيدة عابرة السبيل اعطت لوكيريا أفيوناً . وعدتها ان

احصل لها على مثل تلك القنينة ، ولم استطع مرة اخرى إلا ان اتعجب جهاراً من صبرها .

عارضت قائلة ــ ايه ، ايها السيد ! مــاذا تعني بذلك ؟ اي ضرب مــن الصبر هذا ؟ ان صبر سيميون ستايليتس[٣] كان حقاً صبراً عظيمــاً : قضى ثلاثين عاماً واقفاً عند العمود ! هناك خادم آخــر للرب ، طلب ان يدفن في الأرض الى صدره ، واكل النمل وجهــه .. هنالك حــادثة ثالثة حدثتني بها احد القراء : كان هناك بلد من البلدان ، غزا الأجــانب ذلك البلد ، عذبوا جميع السكان وقتلوهم ، ومهما فعل اولئك الســكان ، لم يستطيعوا ان يحرروا انفسهم مطلقاً . ظهرت عذراء مقــدسة هناك بين السكان ، اخذت سيفاً ضخماً وحملت درعاً ســميكاً ثقيلا ومضــت الى الغزاة ، ابعدتهم جميعاً الى ماوراء البحــر . ومــا ان طــردتهم ، حتى قالت لهم : «عليكم الآن ان تحرقوني ، فقد كان ذلك وعدي ، أن أمــوت حرقاً بالنار من اجل شعبي» امسكها الغزاة واحرقوها ، تحرر الشعب من ذلك الحين الى الابد ! هذه مأثرة حقاً ! أما آلامي فلا شيء !

تعجبت انئذ في دخيلة نفسي ، الى اي مدى ، وعلى اي صورة شــاعت اسطورة جان دارك . سألت لوكيريا بعد برهة صمت وجيزة : كم ســنة عمرك ؟

ــ ثمان وعشرون ... او تسع وعشرون ... لم ابلغ الثلاثين بعــد . ومــا جدوى حساب السنوات تلك ! سأحكي لك شيئاً آخر ...

سعلت لوكيريا فجأة سعالا ابح وتنهدت ....

علقت قائلا ــ انك تتكلمين كثيراً ، ولربما يؤذيك هذا .

همست بصوت يسمع بمشقة ــ حقاً ، هذه خاتمة احاديثنا ، وليكن ما يكن ! الآن ، ما ان تذهب ، حتى اظل هادئة بقــدر مــا يطيب لي ، انني على الاقل ، روحت عن نفسي ..

اخذت اودعها ، كررت وعدي بارسال الدواء لها ، طلبت منهــا مــرة اخرى ان تفكر بروية وتقول لي ــ الا تحتاج شيئاً ما ؟

نطقت بجهد جهيد ، بيد انها تأثرت لعنايتي بها ـ لست بحاجة الى شيء ، راضية بكل شيء والحمدلله . ليهب الله العافية للجميع ! ليتك ايها السيد ، تقنع والدتك ، لان الفلاحين فقراء هنا ، ان تقلل من اخذ الجزية منهم ! الارض غير كافية ، وليست هناك وفرة في اي شيء ... سيبتهلون الى الله من اجلك اذا فعلت .... اما انا فلست بحاجة الى شيء ، وراضية بكل شيء .

اعطيت لوكيريا وعداً بتنفيذ طلبها ودنوت من الباب ... واذا بها تناديني ثانية .

قالت والتمع شيء غريب في عينيها وعلى شفتيها ـ أتذكر ، ايها السيد ، اي ضفيرة كانت لدي ؟ اتذكر ، كانت تصل حتى ركبتي ! ترددت طويلا حينئذ ... ياله من شعر طويل ! ولكن أنّى لي بتمشيطه ؟ في حالتي هذه ! .. لذلك اضطررت الى قصه ... اجل ... حسناً ، سامحني ايها السيد ! لا استطيع الاستمرار اكثر ...

في ذلك اليوم نفسه ، وقبيل ان امضي الى القنص ، اجريت حديثاً مع المشرف على المزرعة بشأن لوكيريا . وعرفت منه ، انهم يدعونها في القرية «الطلل الحي» ، لانهم لا يرون منها ، في هذا الصدد ، اي ازعاج ، ولا يسمعون اي همسة ، ولا شكوى . «انهى المشرف حديثه قائلا «انها لا تطلب شيئاً ، وانما على العكس ، تعرب عن امتنانها من كل شيء ، ولابد من القول انها حليمة ، اذا كان ثمة حليم . لقد فتك بها الرب لخطاياها ، على الارجح ، لكننا لن ندخل في هذا الموضوع . اما اننا ندينها على سبيل المثال ، كلا ، فاننا لا ندينها .... دعها في حالها !»

بعد بضعة اسابيع ، علمت ان لوكيريا قد توفيت . طوتها يد الموت كما توقعت ... «بعد يوم القديس بيوتر» . رووا انها سمعت في يوم وفاتها نفسه وطوال الوقت رنين ناقوس ، رغم وجود مسافة تزيد على خمسة فيرستات من اليكسييفكا الى الكنيسة . ومع ذلك كانت لوكيريا تقول ان الصوت آت من «الاعالي» وليس من الكنيسة .. لم تتجرأ على

الارجح ان تقول انه : قادم السماء .

★ ★ ★

قرقعة العجلات

كنت قد فرغت تواً من تناول الغداء ، واستلقيت على سرير سفري لارتاح قليلا بعد قنص موفق تماماً ، لكنه مضن ، لطيور الطيهوج واذا بيرمولاي يدلف الى الكوخ ويقول (حدث ذلك بين العاشر والعشرين من تموز وكان القيظ شديداً ....) اردت ان اخبرك : ان الخُرْدق كله قد نفد لدينا .

ــ وثبت من السرير .

ــ الخُردق نفد ! هذا مستحيل ! من المؤكد اننا جلبنا معنا من القرية ما يقدر بثلاثين رطلا ! جلبنا كيساً كاملا !

ــ حقاً ، وكان كيساً كبيراً : يكفينا حتى لمدة اسبوعين . من يدري ، ما الذي حدث ! لربما حصل ثقب في الكيس ، لكن مهما يكن من أمر ، فليس لدينا خردق .... بقي زهاء عشر حشوات .

ــ وماذا بمقدورنا أن نفعل الآن ؟ مازالت افضل الاماكن امامنا ــ وقد وعدونا بمجموعة من الفقس لنهار غد ...

ــ ارسلني الى تولا . فهي غير بعيدة من هنا : خمسة واربعون فيرستاً

فحسب . ساطير كالريح واجلب من الخردق بوداً كاملا ، اذا أمرت .

ـ ومتى يمكنك الذهاب ؟

ـ الآن على الفور ، ولم التأخر ؟ ثمة أمر واحد فقط : لا مندوحة لنا من استئجار الخيول .

ـ نستأجر الخيول ! وخيولنا مالها ؟

ـ لا يمكننا استعمالها ، الرئيس اخذ يعرج ... انه لشيء مفزع !

ـ منذ متى حدث ذلك ؟

ـ منذ أيام قليلة . اخذه الحوذي ليعمل له نعلا . وقد فعل ... لابد ان الحداد ، كانت تعوزه الكفاءة في عمله . حالياً لا يستطيع الحصان حتى ان يقف على قدمه . انها القدم الامامية ، وهو يبقيها مرفوعة ... كالكلب .

ـ وماذا فعلتم له ؟ اخلعوا نعله على اقل تقدير ، ألم تفعلوا ؟

ـ كلا ، لم نخلع نعله ، ولكن يتأتى علينا حتماً خلعه . اظن ان المسمار قد توغل في لحمه .

امرت ان يدعو الحوذي ... فاتضح ان يرمولاي لم يكذب : الحصان الرئيس لا يستطيع فعلا الوقوف على قدمه . اوصيت تواً بنزع نعله ووضعه على طين رطب .

ألح يرمولاي علي في الطلب ـ مالذي ستفعله الآن ؟ أتأمر باستئجار خيل للذهاب الى تولا ؟

صحت بغيظ غير مقصود ـ أتخال أنه من الممكن العثور على خيول في هذه البقعة المنسية .. ؟

كانت القرية التي نحن فيها في مكان مقفر لا يُرى من الطريق ، تبين ان كل قاطنيها يعيشون في فقر مدقع ، عثرنا بجهد على كوخ لم يكن رحباً ، لكنه على شيء من السعة لحدما .

اجاب يرمولاي برصانته المألوفة ـ ممكن ، ان ما قلته بشأن هذه القرية هو الصواب بعينه ، بيد ان فلاحاً يعيش في هذا المكان نفسه .

ياله من حاذق ! وثري ايضاً ! كان لديه تسعة جياد . لقد قضى نحبه ، ويقوم ابنه الاكبر الآن بادارة كل شيء . انه كانسان من اغبى الاغبياء ، ومع ذلك ، لم يفلح حتى الان بزعزعة ملكية والده . يمكننا الحصول منه على الخيل . اذا امرت فسأجلبه الى هنا . يقال ان لديه اخوة اذكياء .. ورغم ذلك فهو الرأس فيهم .

ــ ولماذا كان الامر على هذه الشاكلة ؟

لانه اكبرهم سنا ! يعني على الاصغر منه سناً ان يخضعوا له ! تكلم يرمولاي عندئذ بشكل قاس وطالح عن الاخوة الاصغر سناً ، عموماً ، سأقتاده . انه مغفل نوعاً ما ويسهل الاتفاق مع امثاله اوليس كذلك ؟

جال في خاطري ، إبان ذهاب يرمولاي للمجيء «بالمغفل» : او ليس من الافضل ان اذهب انا بنفسي الى تولا ؟ اولا ، علمتني التجربة ألا أثق كثيراً بيرمولاي ، ارسلته ذات مرة الى المدينة لجلب بعض المشتريات ، وعدني ان ينفذ ما عهدت به اليه في غضون يوم واحد ، لكنه توارى اسبوعاً كاملا ، بعد ان اضاع كل ما كان لديه من نقود على الخمر ورجع مشياً على قدميه ، بينما ذهب الى هناك في عربة سباق . ثانياً ، كنت على معرفة بتاجر خيول في تولا ، وبوسعي ان ابتاع منه حصاناً بدل جوادي الرئيس الاعرج .

(فكرت في دخيلتي ــ «حسَمت القضية» سأذهب بنفس ، وبمقدوري ان أنام في اثناء الطريق ، بفضل العربة المريحة) .

× × ×

هتف يرمولاي بعد مضي ربع ساعة ــ جئت به ! واندفع الى الكوخ . دخل فلاح طويل في إثره ، كان يرتدي قميصاً أبيض ، سروالا أزرق وينتعل خُفّاً ليفياً ، كان اشقر ، اعمش العينين ، ذا لحية اسفينية الشكل حمراء ، أنه طويل منتفخ ، وفمه فاغر ، لاح «مغفلا» بالضبط .

قال يرمولاي ـ تفضل ، هــا هــو مــن لديه خيول ومــوافق على مساعدتنا .

قال الفلاح بصــوت اجش متعثر في كلامــه ـ اعني ، اترى ، اني ... وكان ينفض شعره الخفيف ويمــر باصــابعه على امتداد حــافة قبعته التي امسكها بكلتا يديه ـ انا ، اعني ...

سألته ـ ما اسمك ؟

اطرق الفلاح برأسه كأنه اخذ يفكر في السؤال .

ـ ما اسمي ؟

ـ اجل ، ما هو اسمك ؟

ـ سيكون اسمي فيلوفي .

ـ حسناً ، هذه هي القضية ، ياصاحبي فيلوفي : ســمعت ان لديك خيولا اجلب اليّ هنا ثلاثة منها ، لاشــدها على عربتي ـ انهــا خفيفــة ـ ثم اذهب بي الى تولا . انها لليلة قمراء الآن ، مضيئة ، الهواء بارد صالح للسفر . كيف هو حال الطريق في دياركم ؟

ـ الطريق ؟ ـ الطريق لا بأس به . هناك مســافة عشرين فيرســتاً الى الطريق الرئيس ، لاغير . ثمة جزء صغير واحد ... ليس على مــايرام ، لكن ذلك لا يعني شيئاً .

ـ ما هو هذا الجزء الردىء ؟

ـ ذلك المكان الذي يترتب علينا ان نخوض النهر فيه كي نعبره .

تساءل يرمولاي مستعلماً ـ اتعني انك تريد ان نذهب انت نفسك الى تولا ؟

ـ اجل ، انا نفسي .

قال صديقي الوفي وهز رأسه ـ حسناً ! وكرر القول ـ حســــنـاً ! ثم بصق وغادر الكوخ .

من الجلي ، لم تعد تمثل الرحلة الى تولا أية متعــة له ، بل اصــبحت لديه مسألة جوفاء ، غير شائقة .

توجهت بالسؤال الى فيلوفي ـ اتعرف الطريق جيداً ؟
ـ نعرف الطـريق ، بلا ريب ! لكنني انا ، اعني ، حسب مشيئتك ، لا استطيع ... لأن كل شيء يحدث فجأة ..

تبينّ ان يرمولاي ، حينما استأجر فيلوفي ، أخبره ، ان لا تخامره الشكوك ، بانهم سيدفعون له ، للاحمق .. وحسب ! بيد ان فيلوفي ، رغم كونه احمق ، فانه لم يقنع بالكلمات وحدها التي اسرها اليه يرمولاي . شرع يطلب مني خمسين روبلا من الاوراق المالية ـ ثمن باهظ ، واقترحت عليه عشرة روبلات ـ ثمن زهيد . وانطلقنا في المساومة . كان فيلوفي عنيداً باديء الامر ، ثم شرع بعدئذ يتراجع ، لكن بمشقة . بدأ يرمولاي ، الذي دخل للحظة ، مؤكداً لي ، ان «هذا الاحمق (علق فيلوفي بصوت خافت ـ لقد استهوته هذه الكلمة !) ان هذا الاحمق لا يفقه شيئاً في حساب النقود» ـ وذكرّني بالمناسبة ، ما حدث قبل عشرين سنة خلت ، ان نزلا صغيراً اقامته والدتي في مكان حيوي ، عند مفترق طريقين كبيرين ، آل وضعه الى انحطاط تام ، من جراء ان الخادم القديم المشرف على ادارته لا يفقه قيمة النقد مطلقاً ، كان يحسبه وفق عدد قطعه ـ اعني يعطي مثلا ، ربعاً فضياً مقابل ست من القطع النحاسية ذات الخمسة كوبيكات ، زد على ذلك ، انه كان يقذع في الشتم إبان المساومة .

هتف يرمولاي اخيراً ـ اوف لك يافيلوفي ، حقاً انك فيلوفي ! وحينما خرج يرمولاي صفق الباب وراءه بحنق .

لم يعارضه فيلوفي بشيء كأنه كان على وعي تام بانه ليس من اليسير الهين القبول باسم فيلوفي ، بل حتى من الجائز تعنيف المرء المسمى به ، رغم ان الملوم الحقيقي في هذا الامر هو القس ، الذي لم يتلق اجرة جيدة ازاء تعميده اياه .

اتفقنا اخيراً ، رغم ذلك ، على عشرين روبلا . مضى لجلب الجياد ، ثم عاد بعد ساعة وهو يقتاد خمسة منهم كي اقوم بالاختيار . اتضح ان

الخيول في حالة ملائمة ، رغم ان أعرافها وذيولها كانت قد عقلت ، وبطونها الكبيرة ممتدة كالطبول . اصطحب فيلوفي اخويه ، اللذين لا يشبهانه قط . كانت قامتهما قصيرة ، و عيونهم سودا ، انفاهما مستدقين ، ويتركان ، بلا ريب ، انطباعاً بانهما فتيان «ذكيان» ، تكلما كثيراً وبسرعة ــ لقد «بربرا» حسب تعبير يرمولاي ، لكنهما اطاعا اخاهما الاكبر .

سحبا العربة من تحت السقيفة زهاء ساعة ونصف وظلا رائحين غاديين حولها مع الخيول . تارة يرخيان حبل جرار العربة ، وتارة اخرى يشدانه بتوتر قوي . اصر كلا الاخوين على ربط «الكميت الاشهب» كجواد رئيس لانه «يستطيع الهبوط من الجبل جيداً» ، لكن فيلوفي اصدر لهما قراراً : الجواد الاشعث ! فشرعا بشد عدة الاشعث كجواد رئيس .

ملأ العربة بالقش ، ألقيا طوق الجواد الرئيس الاعرج تحت المقعد ــ تحسباً لحالة يضطر فيها لسوقه الى تولا لغرض ابداله بجواد جديد يتم شراؤه .... استطاع فيلوفي ان يهرع الى البيت ، ثم يعود منه مرتدياً معطف والده الطويل الابيض ، قبعة مرتفعة ، جزمة مدهونة ، وصعد بوقار الى المقعد . جلست ، القيت نظرة الى الساعة : العاشرة والربع . لم يقل لي يرمولاي حتى صاحبتك السلامة وشرع يضرب كلبه فاليتكا ، سحب فيلوفي الزمام ، وصاح بصوت رفيع ، رفيع : «أسرعي ، هيا ، يا حسناواتي !» ، قفز اخواه من كلا الجانبين وساطا الجوادين من تحت بطنيها ، تحركت العربة وخرجت من البوابة الى الشارع . كان الحصان الاشعث يروم العودة الى الفناء ، لكن فيلوفي جعله يرعوي ببضع ضربات من السوط ، عدونا خارج القرية وسرنا في طريق مستو نوعاً ما ، بين الصفوف الكثيفة لشجيرات الجوز .

كان الليل ساجياً ، رائعاً ، مريحاً جداً للسفر . توشوش الانسام تارة في الشجيرات فتهتز الاغصان وتتلاشى تماماً تارة اخرى ، تراءت

سحب ثابتة فضية في مكان ما من السماء ، أطل القمر سامقاً جلياً وغمر الريف بضيائه . استلقيت على القش وكادت ان تلفني سنة من نعاس ... ولكن تذكرت «المكان الرديء» فنهضت .

ـ هاي ، فيلوفي ؟ هل بعيدة المسافة الى المَخاضة ؟

ـ الى المخاضة تلك ؟ زهاء ثمانية فيرستات .

«فكرت في دخيلتي ـ ثمانية فيرستات ، اذن نحتاج الى ساعة كي نصلها . واستطيع النوم الان» .

سألته مرة اخرى ـ فيلوفي ، هل تعرف الطريق جيداً ؟

ـ وكيف لا اعرفه جيداً ، اعني هذه الطريق ؟ ليست المرة الاولى التي اسافر فيها ...

ايستطرد يقول شيئاً آخر ، بيد انني لم اصغ اليه ... وغفوت.

× × ×

استيقظت ، لكن ليس بعد مضي ساعة بالضبط ، كما عقدت العزم وما كان يحدث معي في اغلب الاحيان ، وانما بسبب طرطشة وبقبقة ماء ، ولو كانت حفيفة ، تحت اذين مباشرة . رفعت رأسي .. ياللعجب العجائب ، ما هذا ؟ كنت مستلقياً في العربة كالسابق وحولها ، صفحة ملساء من الماء ، بما لا يزيد عن نصف ارشين من حافتها ـ يذيرها ضوء القمر ، تتهشم وتختلج اختلاجات خفيفة واضحة . حدقت امامي : نكس فيلوفي رأسه وهو على المقعد ، احنى ظهره ، وجلس كالصنم ، كان الخط المقوس من عدة الحصان ورأس الجواد وظهره على منأى قليل منه ، فوق وشوشة الماء .. اي ثبات وسكون خيما على كل شيء ، كأنك في مملكة مسحورة : في حلم ، في رؤيا حكاية خرافية ... يا للعجب ؟ نظرت الى الوراء من تحت غطاء العربة ... واذا بنا حقاً في وسط النهر ... الشاطيء على مسافة ثلاثين

خطوة منا !
هتفت ـ فيلوفي !
اجاب معترضاً ـ ماذا تريد ؟
ـ كيف يمكنك القول ماذا اريد ؟ اين نحن ؟ بحق السماء !
ـ في النهر .
ـ ارى اننا في النهر . ويمكن ان نغرق الآن في اي لحظة . هل انت تعبر المخاضة ؟ ما بالك فيلوفي ، هل انت نائم ! اجبني !
نطق سائقي ـ ارتكبت خطأ صغيراً ، اتدري ، انحرفنا قليلا الى جانب ، قمت بعمل خطأ ، وعلينا الآن ان ننتظر بعض الوقت .
ـ ولماذا ينبغي علينا ان ننتظر ! واي شيء ننتظره ؟
نهضت على القش . لم يتحرك رأس الجواد الرئيس قط فوق الماء . كان من الممكن ان ترى فحسب ، كيف ان احدى اذنية تتحرك قليلا ـ قليلا الى الوراء ، او الامام في ضوء القمر الجلي .
ـ ان حصانك الاشعث ذاك ، نائم ايضاً !
اجاب فيلوفي ـ كلا ، انه يشم الماء الآن .
احتوى السكون كل شيء مرة اخرى ، ما خلا بقبقة الماء الواهنة كالسابق ، استبد بي الجمود انا ايضاً ،
ضوء القمر ، والليل ، والنهر ، ونحن فيه ...
سألت فيلوفي ـ مالذي يفح على هذه الشاكله .
ـ ما هي ؟ فراخ البط بين القصب .. او ربما بعض الافاعي .
بدأ رأس الحصان الرئيس يهتز فجأة ، انتصبت اذناه ، شرع ينخر ويضنج . زعق فيلوفي بغتة بكل حنجرته ـ هيا هيا ، هيا ! ولوح بالسوط . تحركت العربة على التو من المكان ، واندفعت الى الامام قاطعة امواج النهر ـ سارت مسافة قصيرة ، مرتجة ، مطقطقة ..... لاح لي بادىء بدء ، اننا نغطس ونتجه نحو الأغوار ، ومع ذلك ، بدا سطح الماء الاملس وكأنه قد انخفض فجأة ... بُعيد اثنتين او ثلاث من

الرجات والغطس هبط تدريجاً اكثر فاكثر ، نهضت العـربة منه ، هـا هي ذي العجلات وذيول الخيول تظهر رافعة رشاشاً قوياً ضخماً مـن الماء ، تناثر في ألق القمر الابيض الكابي مثل حـزم مـن الماس ، كلا ، ليس من الماس ، وانما من الياقوت الازرق ، اخرجتنا الخيول فـرحة ، متعاونة الى الشاطيء الرملي ومضت في طريق ربوة ومشت بخـطوات غير منتظمة باقدامها اللامعة المبتلة .

«جال في بالي ، ان فيلوفي سيقول الان ـ ماذا ، أترى ، انني كنت على حق ! وشيئاً على هذا الغرار ؟» لكنه لم يفه بشيء . لذلك لم ار ضرورة في تعنيفه لعدم انتباهه ، اضطجعت كي انام على القش وحاولت ان اغفو مرة أخرى .

★ ★ ★

لكن النوم جفاني ـ لا بسبب تعبي من القنص ولا مـن جـراء القلق الذي عانيته وطرد الكرى من عيني ، وانما قُيّض لنا ان نسير في اماكن آية في الجمال . ثمة مروج رحبة فسيحة مـروية معشـبة ، ذات رياض صغيرة جمة ، بحيرات ، سيول ، برك واسعة نمت على اطرافها اشجار الصفاف المتنوعة ، اماكن روسـية السـمات تمـاماً ، حبيبة الى قلوب الروس ، تشبه تلك البقاع التي ألف الرحيل اليها ابطـالنا الجبابرة في حكاياتنا الشعبية القديمة لقنص الاوز الابيض والبط الاشـهب . تلّوى الطريق الممهد كشريط اصفر ، عدت الخيول بيسر ، لم يغمض لي جفن ومتعت بصري بما حولي ! انساب كل هذا بنعومة ورشاقة على مقـربة منا تحت القمر الودود . وحتى فيلوفي تأثر بما رأى .

وجه الكلام إليّ قائلا : تسمى هذه المغاني بمروج القديس يغـور ثم تليها المروج الاميرية الضـخمة ، ولا نظير لمثل هـذه المروج في ارجـاء روسيا قاطبة .. ياللجمال الرائع ! حمحم الجواد الاول وهز عنقـه ... قال فيلوفي بصـوت رزين خـافت .. كان الله في عونك ! ... وكرر مـرة اخرى يا للجمال الرائع ! تأوه بعدئذ آهة طويلة ـ سرعان ما سيبدأ هنا

حصاد الحشائش ويجمعون هذه الاعشاب في اكوام ـ يا للمصيبة ! في البرك اسماك كثيرة ايضاً .. اضاف بصوت مترنم يالها من عفاريت ! بكلمة واحدة : ان هذه لحياة خليقة بان تعاش :

رفع يده على حين غرة .

ـ هاي ! انظر ! في الجانب الآخر من البحيرة .. هل هو مالك الحزين واقف هناك ؟ أحقاً كان يصطاد السمك ليلا ؟ انه غصن شجرة ينتأ ظاهراً وليس بمالك الحزين ! ها هو ذا قد تمايل ! ولكن القمر يموّه عليه .

هكذا مضينا ومضينا ... اقتربت اراضي المروج من نهايتها ، لاحت الغابات والحقول المحروثة ، ومض ضوءان او ثلاثة لقرية صغيرة في احدى الجهات ، بقي زهاء خمسة فيرستات الى الطريق الواسع . استسلمت للنوم .

لم استيقظ مرة اخرى من تلقاء نفسي . ايقظني صوت فيلوفي في هذه المرة .

ـ ايها السيد ... هية ، ايها السيد !

نهضت . وقفت العربة في مكان مستو في وسط الطريق الرئيس ، التفت فيلوفي إلي بوجهه من المقعد وفتح عينيه واسعاً (بل ، لقد تملكتني الدهشة ولم يدر في خلدي ان عينيه كبيرتان بهذا الشكل ، همس همساً ذا مغزى وبغموض :

ـ تقرقع ! ... تقرقع !

ـ ماذا تقول ؟

ـ أقول : تقرقع ! انحنِ وارهف السمع . اتسمع ؟

اخرجت رأسي من العربة ، حبست أنفاسي ـ حقاً سمعت وراءنا ، قرقعة خفيفة متقطعة تأتي من مكان بعيد كأنها صوت عجلات تتحرك .

كرر فيلوفي القول ـ اتسمع ؟

اجبت ـ اجل ، اسمع ، ثمة مركبة تسير في الطريق .

ــ لكنك لا تسمعها أنت ... اصغ ! ها هي ذي ! الأجراس ... والصفير ايضاً .. أتسمع ؟ انزع قبعتك ... لتسمع بصورة أفضل .

خلعت القبعة ، وأرهفت اذني مصغياً الى الصوت .

ــ حسناً ، اجل .. ربما كذلك ... وماذا فيه ؟

ادار فيلوفي وجهه الى الجياد .

ــ ان عربة خفيفة تنطلق ، عجلاتها مصنوعة من الحديد ، قال ذلك وامسك الأعنة ، هذا يعني ، ايها السيد ، ان اشراراً يركبون فيها . يوجد هنا حول تولا كثيرون من اولئك الذين ... يعبثون .

ــ يا للهراء ! مادعاك للافتراض انهم اناس سيئون حتماً ؟

ــ ما اقوله هو اليقين بعينه . من يمكن ان يكون الذين يقرعون الاجراس ... في عربة فارغة ؟

ــ حسناً ، اذن ، أما زالت المسافة بعيدة الى تولا ؟

ــ ما فتئت أمامنا خمسة عشر فيرستاً ، ولا منزل في تلك البقاع مطلقاً ..

ــ اذن لنمض بنشاط ، ولا حاجة للتأخر .

لوح فيلوفي بسوطه ، وتحركت العربة مرة أخرى .

★ ★ ★

رغم اني لم اصدق فيلوفي ، ومع ذلك لم استطع النوم . ماذا لو كان الذي يقوله هو الحق بعينه ؟ اختلج شعور بغيض في داخلي . جلست في العربة ــ وكنت مستلقياً حتى اللحظة الراهنة . شرعت اتطلع في كل الجهات . تجمع إبان نومي ضباب خفيف ، لا على الأرض ، وانما على اديم السماء ، حلق سامقاً ، علق القمر فيه كبقعة بيضاء ، كأنه محاط بالدخان . أضحى كل شيء قاتماً مشوشاً في الأعالي ، بينما ظلت الرؤية واضحة على مقربة من الارض . كانت كل الأماكن من حولنا مستوية ،

كابية : حقول ، تليها حقول ، لاحت شجيرات ، وهاد هنا وهناك ، أعقبتها الحقول مرة اخرى ، معظمها غير مزروعة ، منقطة باعشاب ضارة . قفر .. موات ! كنت اتمنى ان يصيح ولو طير السّمانة .

سرنا زهاء نصف ساعة . لوح فيلوفي بين فينة واخرى بسوطه ، مطق شفتيه ، لكن لم ينبس كلانا بكلمة واحدة . وها نحن ذا نتسلق رابية صغيرة ... اوقف فيلوفي الترويكا وقال في الحال :

ـ يقرعون ... يقرعون ، ايها السيد !

أطللت من العربة مرة اخرى ، لكن كان بمقدوري ان ابقى تحت غطاء السقيفة ، فقد غدت الآن قرقعة عجلات العربة ، وصفير الناس ورنين الأجراس ، بل وحتى وقع حوافر الخيل غاية في الوضوح ، على الرغم من انها مازالت تتناهى الى سمعي من بعيد ، بل خُيل الي أني أسمع غناء وضحكاً . حقاً كان النسيم يهب ، من جهتهم ، لكن لم يعد ثمة مجال للشك ، بات اولئك المسافرين الغرباء على مسافة فيرست واحد ، او ربما فيرستين ، بالقرب منا .

نظرنا أنا وفيلوفي احدنا الى الاخر ، وكل ما فعله ان حرك قبعته فوراً من قفا رأسه نحو جبينه ، انحنى على الأعنة ، شرع يسوط الخيول . شرعت الخيول في الوثوب ، لكنها لم تستطع أن تثب لمدة طويلة ، واخذت تخب مرة اخرى . واصل فيلوفي جلدها : فلامناص لنا من الابتعاد .

لم يكن بوسعي ان اوضح لنفسي ، لماذا اصبحت فجأة على يقين هذه المرة ، ان اناساً أشراراً يتبعوننا دون مراء ، بينما لم اشارك فيلوفي شكوكه في بادىء الامر ... لم اسمع شيئاً جديداً البتة : الاجراس ذاتها ، قعقعة عربة غير محملة نفسها ، الصفير عينه واللغط المشوش ذاته .. لكن لم يخامرني ادنى شك الآن . لا يمكن ان يكون فيلوفي مخطئاً !

ها هي ذي عشرون دقيقة اخرى تتصرم ... سمعنا في أواخر

العشرين دقيقة تلك مع قرقعة عربتنا وازيزها ، قرقعة اخـرى ، وازيزاً آخر ...

فيلوفي ، توقف الأمر سيان ـ نهاية واحدة !

قلت لم يتقدم فيلوفي ، لقد تملكه الجبن . وقفـت الخيول في الحـال ، كأنها سُرّت لسنوح فرصة الراحة لها .

رباه ! الاجراس تجلجل وراء ظهورنا تمـاماً ، العـربة تضـج ، تئز مقعقعة ، الأشـخاص يصـفرون ، يزعقـون ويغنون ، الخيول تصـهل وتضرب حوافرها الارض .. لقد ادركونا !

قال فيلوفي بصوت خافت متوقفاً بين كلمـاته ـ ويـ ـ ل ـ لنا ، مـطق خائراً ، وشرع يستحث الخيول . لكن كأن صوتاً تشـقق فجـأة في تلك اللحـظة بالذات ، أرعد وأزبد ، واذا بعـربة ذات حجـم كبير غريب مزعزعه ، تشدها ثلاثة خيول ضامرة ، تتجاوزنا بغتة كالزوبعة ، وثبت الى الامام ، ثم اخذت فوراً تمشي الهوينا ، وسدت الطريق دوننا ..

همس فيلوفي ـ هذا هو سلوك قطاع الطرق بعينه .

لا مناص من الاعتراف ان قلبي قـد خفـق بعنف ... شرعت انظـر متوتراً الى ضوء القمر شبه المعتم المحاط بوشاح من الضـباب . ثمـة ستة أشخاص في العربة التي امـامنا ، لا هـم بالجـالسين ، ولاهـم بالمستلقين ، يرتدون ستراً مفتوحة ، اثنان منهما لا يضعان قبعـة على رأسيهما ، تأرجحت اقدام ضـخمة تحتذي جـزماً وتدلت على سـنِاد العربة ، ترفع أيديها وتخفضها بلا سبب .... تهز اجسامها ... الامـر جلي : رهط ثمل . زعق بعضهم مغنياً ما خطر له ، صفر احدهم صفيراً حاداً صافياً ، وشتم آخر ، بينما جلس شخص عمـلاق في سـترة مـن صوف الضأن على مقعد الحوذي وساق العربة . اخذوا يسيرون ببطء كما لو انهم لا يعيروننا انتباههم .

ما الذي نستطيع ان نفعله ؟ سرنا خلفهم ببطء ايضاً ... مـكرهين . سرنا على هذه الوتيرة زهاء ربع فيرست ، كان الانتظـار مبرحـاً ...

كيف السبيل لانقاذ انفسنا او حمايتها في تلك الحالة ! انهـم سـتة ، لم يكن معي حتى ولا عصا ! هل نستدير بعريش العربة ونرجع أدراجنا ؟ لكنهم سيدركوننا على الفور . خطر ببالي بيت من قصيدة لجـوكوفكي (يتحدث فيه عن قتل الفيلدمارشال كامينسكي) :

فأس قاطع الطرق ، المستخف[(1)]

واذا لم يستعملوا الفـأس ، فسـيضعون عنقـك في حبل قــذر .... ويرمونك في حفرة لتنعب وترتطم كأرنب وقع في فخ ...

هيه ، يا للشناعة .

ظلت عربتهم تسير بخطوات بطيئة كالســابق ، دون ان يعيروننا اي انتباه .

همست ــ فيلوفي ، حاول ان تسير الى اليمين ، واسع لتتخطاهم .

حــاول فيلوفي ، ســار الى اليمين .. لكن اولئك انحـرفوا حــالا الى اليمين ايضاً ... ولم يعد لنا من سبيل الى تجاوزهم .

حاول فيلوفي مرة اخرى : سار الى اليسار ... لكنهـم هنا ايضــاً لم يفسحوا المجال لمرور العربة . بل حتى إنهم تضاحكوا فيمـا بينهـم . يعني ، انهم لن يدعونا نمر .

همس لي فيلوفي عبر كتفه ــ شأنهم شأن قطاع الطرق .

سألته همساً ايضاً ــ وماذا ينتظرون ؟

ــ هناك جسر الى الامام ، في تجويف فـوق النهير ، هناك سـيمسكون بنا ! انهم دائماً يفعلون ذلك ... قرب الجسور . واضــاف متنهـداً ، ان مسألتنا لواضحة ايهــا الســيد ! لن يتركونا مــطلقاً على قيد الحياة ، الشيء الاساسي لديهم : ان يخفوا أثرنا في الماء . انني لأسف على امــر واحد ، ايها السيد : ان خيولي الثلاثة ستتعرض للهلاك ، ولن تصل الى حوزة اخوتي .

كاد يتملكني العجب من امكانية اهتمــام فيلوفي في مثل تلك اللحــظة بخيوله ، اعترف انه لم يكن ليعنيني وضعه في كثير او قليل ... تساءلت

مؤكداً في بالي «احقاً سيقتلوننا ؟ ، وما السبب ؟ انني على استعداد لاعطيهم كل ما لدي» .

يقترب الجسر الصغير باستمرار ، ويتراءى اكثر فاكثر .

دوّى فجأة زعيق حاد ، مرقت الخيول الثلاثة امامنا كأنها تشب ، انطلقت تثب الى الجسر الصغير ، وتوقفت فوراً ، كأنها تسمرت في بقعة تبتعد قليلا عن جانب الطريق . غاض قلبي في داخلي .

قلت ـ ايه ، اخي فيلوفي ، نحن سائرون الى حتفنا . اغفر لي ، مادمت قد اهلكتك .

ـ وما جريرتك ، ايها السيد ! لن يفلت احد من مصيره ! هيا ، ايها الاشعث ، يا حصاني الصدوق ، ووجه كلامه الى الحصان الأول ـ امض ، يا أخي ، الى الامام ! وقدم الخدمة الاخيرة لي ! الأمر سيان .. رباه ، سبحانك يا إلهي !

وترك خيوله الثلاثة تسير خبباً .

امسينا نقترب من الجسر الصغير ، نحو تلك العربة الثابتة المتوعدة ... لقد هدأ كل من فيها ، كما لو كان ذلك عن قصد . لم تسمع ولو وشوشة ! هكذا يسكن الكراكي ، الباشق وكل حيوان مفترس لدى اقتراب الفريسة منه .

ها نحن اولاء في مستوى واحد مع عربتهم ... بغتة قفز العملاق في سترة الضأن ، منها وتقدم نحونا مباشرة !

لم يقل شيئاً لفيلوفي ، الذي شد الأعنة فوراً ... فتوقفت العربة . وضع العملاق كلتا يديه على ابواب العرَبة ، مد رأسه الكث الى الامام ، كشر ونطق بصوت هادىء متزن متسق ولهجة عمالية ما يلي :

ـ ايها السيد المحترم ، نحن قادمون من حفلة جليلة ، من عرس احد اترابنا ، اعني ادخلنا بطلنا على عروس ، وتركناه يضطجع على احسن ما يكون ، ان رفاقنا كلهم شباب ، وعقولهم مقدامه ، لقد شربوا كثيراً ولم يبق لدينا مال لنثمل به ، ألا يتكرم حضرتك ، هلا تتفضل علينا

ببعض من قطع النقد الصغيرة ، كي يصيب كل منا شيئاً من الشراب . سنشرب من اجل صحتك ونرفع نخباً لمعاليك ، واذا لم تكن راغباً في ذلك ، حسناً ، فلا يأخذك الغضب منا ! فكرت في دخيلتي ما هذا ؟ استهزاء ؟ .. تهكم علينا ؟»»

ظل العملاق واقفاً ونكس رأسه . أطل القمر في تلك اللحظة من بين الضباب ، أضاء وجهه . لاحت تكشيرة على هذا الوجه ، على العينين والشفتين . لم تُلحظ عليه آثار التهديد ... لكن بدا كأنه غاية في الحذر ، كم كانت اسنانه بيضا وكبيرة ....

قلت على عجالة ، واخرجت كيس النقود من جيبي ـ بكل سرور ... خذ ... وتناولت منه روبلين فضيين ، كانت النقود الفضية مازالت متداولة في روسيا آنئذ ، هاك اياها ، اذا كان فيها الكفاية لكم .

صاح العملاق بطريقة عسكرية ـ شكراً جزيلا ، وفي ومضة اختطفت اصابعة البدينة الروبلين كليهما ، وليس كيس النقود برمته . شكراً جزيلا ، هز شعره الى الوراء ، وهرع الى العربة .

صاح ـ ايها الفتيان ! منحنا السيد المار بالعربة روبلين فضيين !

شرع الباقون فجأة يقهقهون ... صعد العملاق الى المقعد .....

ـ اتمنى لكم حظاً سعيداً !

هذا كل ما بدر منهم ! شرعت الخيول في المضي ، زمجرت العربة في التل ، مضت مرة اخرى في الأفق المعتم الذي يفصل الارض عن السماء ، توارت عن الرؤية واختفت .

لم تعد تسمع لا قرقعة ، ولا صياح ولا أجراس ....

ساد صمت القبور .

★ ★ ★

ثبنا بغتة انا وفيلوفي الى رشدنا .

قال اخيراً وقد خلع القبعة واخذ يرسم علامة الصليب ـ ايه يا لك من مهرج ! واردف قائلا وقد التفت الي فرحاً ـ يقيناً انه مهرج حقيقي ، ولا بد من انه امرؤ حسن بالفعل . اسرعن ، اسرعن يا حسناواتي ، واستدرن ! ستظلين سالمات ! ونحن كلنا سالمون ! لم يفسح لنا المجال للمرور ، كان يسوق خيوله . ياله من فتى مهرج . اسرعن ، اسرعن ، اسرعن ! على بركة الله !

اخلدت الى الصمت ، لكنني شعرت براحة داخلية ، كررت في سريرتي : «سنظل سالمين ! واضطجعت على القش . تخلصنا بثمن بخس !» لكن ساورني شعور من الخجل لانني تذكرت بيت شعر لجوكوفسكي .

خطرت فكرة في ذهني على حين غرة .

ـ فيلوفي !

ـ ماذا ؟

ـ هل انت متزوج ؟

ـ متزوج .

ـ ألديك اطفال ؟

ـ لدي اطفال .

ـ كيف لم يخطروا لك ببال ؟ اخذتك الشفقة على الخيول ، اما على الزوجة الاطفال ؟

ـ ولماذا تأخذني الشفقة عليهم ، انهم على اية حال لم يقعوا في ايدي قطاع الطرق . ومع ذلك فانهم لم يبارحوا ذهني طوال الوقت ، وما انفكوا في خاطري ... بالتأكيد . صمت فيلوفي هنيهة ، لعل الرب رأف بنا كلينا رحمة بهم .

ـ وماذا ، لو كان او لئك قطاع طرق بالفعل ؟

ـ وانى لي ان اعرف ؟ فهل يمكن الولوج في روح الغير ؟ مما لامراء فيه ان روح الغير يكتنفها الغموض . ومن الأفضل دائماً ان تكون الى

جانب الله . كلا .. ان لي دائمـــاً عائلتي .. اسرعن ، اسرعن ، اسرعن يا حسناواتي ، على بركة الله !

أوشك الضـــوء ان ينبلج ، عندمـــا طفقنا نقترب مـــن تولا . رقـــدت مستسلماً الى شبه اغفاءة ..

قال فيلوفي فجأة ــ انظر ، ايها الســـيد ،هـــا هـــم اولئك يقفـــون عند الحانه .. تلك هي عربتهم ..

رفعت رأسي .. انهم هم بعينهم تمـــاماً : عربتهـــم ، وخيولهـــم . طلع العملاق المعروف في سترة الظأن على حين غرة عند عتبة محل الشرب .

صاح ملوحاً بقبعته ــ ايها السيد ، كنا نشرب بنقودك ! واردف قائلا وهو يوميء برأسه الى فيلوفي ــ وماذا ايها الحوذي ، لا شك ان الخوف تملكك ها ؟

علق فيلوفي ، وقد ابتعد حوالي خمسين ياردة عن الحانة ــ انه امـــرؤ بالغ المرح .

وصلنا اخيراً الى تولا ، اشتريت الخردق ، وكذلك شيئاً من الشـــاي والنبيذ ، بل حتى انني اخذت جواداً من تاجـــر الخيول وعند منتصـــف النهار قفلنا عائدين . عندما مـــررنا بذلك المكان ، حيث ســـمعنا وراءنا لأول مرة قعقعة العربة تكشّف فيلوفي ، الذي احتسى الخمـــر في تولا عن امرىء طلق الحـــديث للغـــاية ، لقـــد قصّ عليّ حتى بعض الحـــكايات الخرافية ، وما إن عبرنا ذلك المكان حتى انفجر فيلوفي فجأة ضاحكاً .

ــ اتذكر ايها السيد ، كيف اقـــول لك باســـتمرار : تقـــرقع .. تقـــرقع ، اعني ، تقرقع !

بدرت بعض الحركات الرافضة من يده ... فقد اصبحت هذه الكلمـــة «تقرقع» مبعث تسلية بالغة له .

عدنا في ذاك المساء نفسه الى القرية .

اخبرت يرمولاي بالحادثة التي وقعت لنا . ولما كان في حالة صحو لم يشرب الخمر فيها ، فانه لم يعـــرب عن اي تعـــاطف ، ولم يزد على ان

اطلق صوتاً ، واظن ، أنه هو نفسه لا يعــرف ان كان معبراً عن التأييد او اللوم . بعد مضي يومين استّر الي رضياً بنبأ ، انه في تلك الليلة ذاتهــا التي سافرنا فيها انا وفيلوفي الى تولا ، وفي ذلك الطريق بعينه قد سلّبوا تاجراً مــا ، ثم اردوه قتيلا ، لم اصــدق بادىء بدء هــذا النبأ ، لكنني صدقته فيما بعد ، اذ أكد لي رئيس الشرطة المحلية الذي خف لحضــور التحقيق صحة الخبر . ألم يعد شجعاننا او لئك من ذلك «العــرس» ، او ليس ذاك هو «البطل» الذي تركوه يضطجع حســب تعبير العمــلاق ـ النكاّت ؟ بقيت في قرية فيلوفي خمسة ايام اخرى . وكنت كلما اتفــق لي والتقيته ، قلت له : «اها ؟ تقرقع ؟»

ويجيني في كل مرة قائلا ـ يالك من امريء مرح ، ثم يبتسم .

★ ★ ★

الغـــابة والســـهل

... رويداً رويداً ها إن التوق
يجذبه الى الوراء ، الى القرية ، الى الحديقة المعتمة .
حيث اشجار الزيزفون ، الضخمة وظلالها الوارفة
والسوسن يتضوع بأريجه العذري ،
حيث انحنى الصفصاف الملتف فوق المياه
صفوفاً فوق القناطر ،
حيث ينمو البلوط المتين فوق الغيطان الخصبة ،
حيث تفوح رائحة القنب والقراص ..
الى هناك ، هناك ، الى الحقول الرحبة ،
حيث اديم الارض يسوّد كالمخمل ،
حيث ينساب الجودار ، ايان سرحت ببصرك
هادئاً كأمواج وديعة ،
ويتهاو شعاع أصفر ثقيل ،
من وراء السحب الشفافة البيض المتكورة ،

هنالك المغنى طيب ...
(من قصيدة ، محالة للحريق) .

★ ★ ★ ★

لعل صوري الادبية قد اصابت القارىء بالسأم ، وها أنذا اخف لطمأنته ، واعدأ إياه ، بالاقتصار على هذه المختارات المطبوعة ، ولكن لا يسعني وأنا افارقه إلا ان اقول له بضع كلمات عن القنص ،...

القنص مع البندقية والكلب ممتع لك ، Fur Sich, كما ألفوا ان يقولوا في الماضي ، لكن دعنا نفترض انك لم تخلق صياداً : بيد انك رغم ذلك تهوى الطبيعة والحرية ، وبالتالي لا يمكنك إلا ان تغبطنا نحن معشر الصيادين ... اصغ الي .

اتعرف ، مثلا ، اية متعة يبعثها فيك السفر قبيل انبلاج الفجر ؟ انك تخرج الى السقيفة ... الى السماء الرمادية الداكنة التي تومض فيها النجوم هنا وهنالك ، ان نسيماً ندياً يهب بين فينة واخرى كموجة خفيفة ، يسمع همس الليل الغامض المتحفظ ، تحدث الاشجار صلصلة واهنة ، تغمرها الظلال . ها هم اولاء يلقون الغطاء على العربة ، ويضعون صندوق السماور عند قدميك . تصهل الخيول المطهمة ، تخطو مختالة بأقدامها ، ان زوجاً من الأوز الابيض قد استيقظ لتوه ، وسار متوانياً صامتاً عبر الطريق .. وراء السياج ، يشخر الحارس في الحديقة بين فينة واخرى باطمئنان ، انعقد كل صوت متجمداً في الهواء ، وظل منعقداً لا يبارحه . ها أنت ذا قد جلست في مقعدك ، تحركت الخيول في الحال ، تقرقع العربة عالياً .. تسير وتسير ماراً بالقرب من الكنيسة ، هابطاً الربوة الى اليمين عبر القنطرة .. أخذ الضباب تواً يتصاعد فوق البركة . انك تشعر بلسعة برد خفيفة ، تدفن وجهك في ياقة معطفك ، وتحتويك سنة من نعاس . تخفق الخيول

حوافرها مهسهسة في الغدران ، يصفر الحوذي . ها انت هذا سرت زهاء أربعة فيرستات ... اخذت حاشية السماء تتخضب بالحمرة ، استيقظ الزيغان في أشجار البتولا وطفقت تطير بارتباك بين الأفنان . تغرد العصافير حول الاكداس المعتمة . غدت الانسام وضاءة ، الطريق اكثر وضوحاً ، السماء اشد صفاء ، الغيوم تميل الى الابيضاض ، الحقول تخضوضر . تتقد العيدان ناراً حمراء في الاكواخ ، وتتناهى اصوات وسنى من وراء البوابات . شرع الفجر يتألق ، في غضون ذلك ، ترامت خطوط ذهبية على السماء ، تصاعد البخار ضفائر من الوهاد . غنت القنابر غناء رناناً ، هبت الانسام التي تسبق الفجر ، وانسابت الشمس ، ساكنة قرمزية في الافق . تدفق الضوء تياراً على الدنيا ، اختلج فؤادك في طوايا نفسك كالطائر . طراوة ، سرور وجمال ! يمكنك الرؤية على مدى بعيد من حولك . ها هنا قرية وراء الغابة ، وهنالك على مسافة منها قرية اخرى ذات كنيسة بيضاء ، تلك غابة بتولا صغيرة على الرابية ، وخلفها مستنقع ، تيمم وجهك صوبه .. سيري منتعشة ، ايتها الخيول ، منتعشة ! اما الخبب السريع فلم يحن وقته بعد ! .. لم يبق اكثر من ثلاثة فيرستات فحسب . الشمس تبزغ سريعاً ، السماء صافية ... سيكون الجو بديعاً . سار قطيع مواشي طويل من القرية نحونا ، ها انت ذا تهبط الربوة .. ويالروعة المنظر ! يندفع النهر زهاء عشرة فيرستات ، يتراءى وميض أزرق خاب عبر الضباب ، وخلفه مروج خضراء مروية بالماء ، تعقبها تلال منحدرة ، تحلق بعيداً طيور الزقزاق الشامي صائحة فوق المستنقع ، يلوح المنأى ، جلياً ، بين اللمعان الندي الذي يغمر الهواء ، ... وكأن الوقت ليس صيفاً . كيف يتنفس الصدر بحرية ، كيف تتحرك الأعضاء خفيفة ، كيف يحس المرء كله بالقوة وهو في احضان انفاس الربيع الطرية ! ...

★ ★ ★ ★

وماذا احدّث عن صباح الصيف في حزيران ! من خبر ، سوى الصياد ، بهجة التجوال بين الشجيرات عند الفجر ؟ تترك اثار اقدامك بصمات خضراء على العشب المبيض ، المبلل بالندى .. ما إن تسحب شجيرة ندية حتى يتضوع حولك الأريج الدافيء المتراكم في الليل ، الهواء مشبع كله بمرارة نبات الشيح الطرية ، ورائحة العسل للحنطة السوداء والبرسيم ، ترتفع بعيداً غابة البلوط كالجدار ، تلتمع وتتورد تحت الشمس ، مازال النسيم عليلا ، لكن اقتراب الحر بات محسوساً . يصاب الرأس بدوار خفيف من فيض العطور الزكية ، تترامى الشجيرات بلا نهاية ... بعيداً هنا وهنالك اخذ يصفر الجودار الناضج ، تميل الحنطة السوداء الى الاحمرار على امتداد خطوط ضيقة . ها هو ذا صوت عربة وفلاح يسوقها ببطء ، يضع الحصان مبكراً في الظل ... تتبادل معه التحية ، تبتعد عنه ، و تسمع صليل المحش الرنان وراءك . الشمس ترتفع أعلى فأعلى . يأخذ العشب بالجفاف سريعاً . ها قد اصبح الجو حاراً . تمر ساعة ، فاخرى ... تعتم السماء عند اطرافها ، يتلظى الهواء الجاثم بالقيظ اللاسع .

وها انت ذا تسأل الفلاح ـ اين استطيع الارتواء هنا ، ايها الاخ ؟

ـ هنالك ، في الوادي ثمة ينبوع .

تشق طريقك هابطاً الى قاع الوادي عبر شجيرات الجوز الكثيفة المتشابكة ، المتماسكة مع الأعشاب . توارى الينبوع فعلا تحت جرف الوادي ، نشرت شجيرة بلوط اغصانها المتشابكة ، ظمأى فوق الماء ، صوّتت فقاعات فضية كبيرة وارتفعت من القاع المغطى بطحلب مخملي خفيف ، انك تنطرح على الارض ، وتشرب حتى الارتواء ، لكنك لا تود ان تتحرك وتنهض . انك تتنفس الرطوبة العبقة في مكان ظليل ، ويطيب لك المقام ، بينما تتوهج الشجيرات المقابلة لك تحت الشمس وتغدو كأنها صفراء . لكن ما هذا ؟ هبت الريح بغتة ثم مرت مسرعة ، سرت رعشة في الهواء حولنا : أوليست هذه تباشير الرعد ؟ انك تخرج من

الوادي ... ما هذا الخط الرصاصي على امتداد افق السماء ؟ هل يتعاظم القيظ ؟ هل تتجمع سحابة ؟ ... لكن ها هو ذا البرق يومض ضعيفاً ... اجل ، انها العاصفة المطرية ! ما انفكت الشمس تضيء ساطعة فيما حولنا : مازال القنص ممكناً . بيد ان السحابة تتكاثف : ان مقدمة طرفها يمتد كالكم ، وينحني كالقوس . أظلمت الأعشاب ، الشجيرات ، اظلمت كلها بغتة ... اسرع ! هنالك تتراءى ، على ما يبدو ، سقيفة قش .. اسرع ... ها قد وصلت راكضاً ، دخلت ... يا للمطر ؟ ويا للبرق ؟ نزلت قطرات ماء هنا وهناك من خلال سقف القش على التبن الشذي .. لكن ها هي ذي الشمس تشرق مرة اخرى . توقفت العاصفة المطرية ، عدت ادراجي الى الخارج . رباه ، كيف يلتمع كل ما حولك بحبور ، يالنقاء الهواء وسيولته ، و يالرائحة توت الأرض والفطر الزكية ! ...

★ ★ ★ ★

ها قد اقترب المساء . الغروب يتوهج متلظياً ويغطي نصف السماء باللهيب . الشمس تتوارى . كان الهواء ، ولا سيما على مقربة منا شفافاً ، كأنه قُدّ من الزجاج ، استلقى بعيداً ضباب رقيق ، دافىء المنظر . ترامى لألاء احمر مع الندى على السهل المنبسط الذي غمرته تيارات من الذهب السائل قبيل فترة وجيزة ، تدفقت ظلال طويلة من الاشجار ، من الشجيرات ، من اكداس التبن المرتفعة ... غابت الشمس ... توقدت نجمة واختلجت في بحر الغروب الملتهب ... طفقت الشمس تشحب ، السماء تزرق ، الظلال المتفرقة تتوارى ، الهواء مترع بالغسق . ازف وقت الذهاب الى البيت ، الى القرية ، الى الكوخ الذي تقضي فيه ليلتك ، وما ان تلقي البندقية عن كتفك ، حتى تسير بخطى سريعة ، على الرغم من تعبك ... يغسق الليل في تلك الاثناء ، وتصبح

الرؤية صعبة حتى على مدى عشرين خطوة ولا تلوح كلابك إلا قليلا في الظلام : تومض حافة المياه كابية هناك فوق الشجيرات المعتمة .. ما هذا ؟ حريق ؟... كلا ، انها اطلالة القمر . اخذت انوار القرية تلتمع في الاسفل ، الى اليمين ،... وها هو ذا كوخنا اخيراً ، ترى من النافذة الصغيرة ، مائدة ، مغطاة بغطاء ابيض ، شمعة مضاءة ، عشاء ...

★ ★ ★ ★

ها أنت ذا تأمر بوضع عدة عربة السباق ، وتمضي الى الغابة لقنص الطيهوج ، تتسلل منشرحاً في الممر الضيق بين جدارين من الجودار الباسق . تضربك السنابل ضربات رقيقة على وجهك ، تعلق أزهار العنبر بقدميك ، تصيح السمانيات حولك ، يخب الحصان متراخياً . ها هي ذي الغابة . الظل والسكينة . يتهامس الحور الرجراج المشوق سامقاً فوقك لا تكاد تتحرك اغصان البتولا الطويلة المتدلية ، ينتصب البلوط الجبار كالمحارب قرب الزيزفون الجميل . ها أنت ذا تسير في الممر الاخضر المبرقش بالظلال . تطير فجأة الذباب الكبير الأصفر المتعلق ثابتاً في غبار الهواء الذهبي مولية الادبار ، تدوي البعوض على شكل أعمدة لامعة في الأفياء ، معتمة في ضوء الشمس ، الطيور تشدو مطمئنة . يطلق الصوت الذهبي الصفير لطائر ابي الحناء ثرثرة بهيجة بريئة ، متجهة صوب اريج سوسن الغابة . اذا ما توغلت بعيداً بعيداً ، في اعماق الغابة ... تمسي الغابة موحشة ... ان سكوناً لا يمكن ايضاحه يخيم على روحك ، بل ان كل ما حولك وسنان وهادىء . لكن طفق النسيم يهب ، وشوشت ذرى الأشجار وكأنها امواج متساقطة . اخذت حشائش عالية تنمو هنا وهناك بين الاوراق المترامية من السنة المنصرمة ، يقف الفطر منعزلا تحت قبعاته . وثب ارنب بغتة واندفع كلب ينبح نباحاً قوياً ، في اعقابه ..

★ ★ ★ ★

يا لروعة هذه الغابة نفسها في أواخر الخريف ، عندما يشرع دجاج

الغابة بالطيران اليها ! انه لا يمكث في أعماق الغابة : لا مندوحة من البحث عنه على امتداد اطرافها . ما من انسام ، لا شمس ، لا ضوء ، لا ظل ، لا حركة ، لا ضجة ، الهواء الناعم مشبع بعبق الخريف ، الشبيه برائحة النبيذ ، يلوح ضباب خفيف على بعد فوق الحقول الصفراء . تطل السماء الثابتة الآخذة بالابيضاض ، مطمئنة من بين اغصان الأشجار العارية البنية الداكنة ، تتعلق الأوراق الذهبية الاخيرة هنا وهنالك على اشجار الزيزفون . تصبح الأرض الرطبة اسفنجية تحت قدميك ، لا تتحرك اوراق الاعشاب العالية الجافة قط ، تلتمع خيوط طويلة فوق الحشائش الذابلة . ان صدرك ليتنفس بهدوء ، بينما تحس روحك بقلق غريب . تسير بامتداد طرف الغابة وعينك على الكلب ، تمر بخاطرك في تلك الاثناء صور حبيبة ، وجوه حبيبة ، قد قضت نحبها او ما برحت على قيد الحياة ، وتستيقظ الانطباعات الوسنانة منذ امد بعيد ، على غير انتظار ، يحلق الخيال وينطلق كالطائر ويتحرك كل شيء وضاحاً وينتصب امام العين . يختلج الفؤاد بغتة ويخفق بقوة ، يندفع بعاطفة مشبوبة الى الامام ، او يستغرق في الذكريات بلا رجعة . تنبسط الحياة كلها بيسر وسرعة كاللفافة ، ويمتلك المرء كل ماضيه ، كل احاسيسة وقواه ، وروحه باجمعها . لا شيء يقف حائلا دون ما يريد فيما حوله ـ ما من شمس ، لا ريح ، لا ضجة ...

★ ★ ★ ★ ★

يوم خريفي صاف ، خفيف البرودة ، يغشاه الصقيع صباحاً ، عندما تصبح شجرة البتولا ، كالشجرة السحرية ، موشاة بالذهب كلها ، ترتسم جميلة مقابل السماء الزرقاء الشاحبة ، لاتبث الشمس الخفيضة الدفء ، لكنها تتألق بسطوع اشد من شمس الصيف ، تلتمع غابة الحور الرجواج الصغيرة كلها حتى الاعماق ، كأنما يسعدها ويطيب لها الوقوف عارية هناك ، بينما الجليد مازال ابيض في قاع الوادي ، والنسيم العليل يختلج هادئاً ويسوق الأوراق الساقطة الملتوية ، عندما

تتدفق الأمواج الزرق جذلى في النهر ، حاملة الاوز والبط على الانتشار صاعداً هابطاً فوق سطحه ، تصلصل الطاحونة التي توارت خلف الصفصاف من بعيد ، يدور الحمام الحائم في الهواء الوضاء سريعاً حولها ..

★ ★ ★ ★

بديعة ايضاً ايام الصيف الضبابية ، رغم انها لا تحظى بحب الصيادين ، يستحيل اطلاق النار في مثل تلك الايام : ومع ان الطائر ينهض من تحت أقدامك ، لكنه يختفي تواً في العتمة البيضاء للضباب الساكن . ولكن يا للسكينة التي لا توصف فيما حولنا ! كل شيء قد استيقظ ، وكل شيء صامت . ها انت تمر قرب شجرة ـ فلا تصدر منها حركة : انها تستمع ساجية . يأخذ خط طويل بالاسوداد أمامك بين الضباب الخفيف المنساب باعتدال في الهواء ، تخاله غابة قريبة ، تدنو منه ـ واذا الغابة قد تحولت الى تضاريس مرتفعة يعلوها نبات الشيخ عند حدود الحقل . الضباب من فوقك ، وحولك وفي كل مكان ... لكن تشرع الانسام بالهبوب خفيفة ، يطل شطر من السماء الباهتة الزرقة متكدراً من خلال الضباب الرقيق المتصاعد كالدخان ، ينساب فجأة شعاع ذهبي ـ اصفر ، يتدفق كتيار طويل ، ينهال على الحقول ، يعدو في الغابة ـ بيد ان كل شيء يتلبد بالضباب مرة اخرى . يستمر هذا الصراع مدة طويلة ، لكن مهما يكن من أمر ، يضحي النهار رائعاً صافياً بشكل لا يوصف عندما ينعقد لواء النصر للضوء اخيراً ، وتنحدر أمواج الضباب التي لفحتها الشمس وتنتشر كغطاء المنضدة ، او تتصاعد ملتوية لتتلاشى في أعماق الأعالي المتلألئة برقة ...

★ ★ ★ ★

لكنك الآن تزمع على السفر الى حقل ناء ، الى السهل . لقد قطعت زهاء عشرة فيرستات عبر الدروب الريفية ، ووصلت اخيراً الى الطريق العام . تمر بخطوط لامتناهية من العربات ، تمر بخانات صغيرة ،

تهسهس فيها السماورات تحت السقائف ، ببوابتها المفتوحة على مصراعيها وابارها ، ها أنت تسافر ساعات طويلة طويلة من قرية لأخرى ، الحقول مترامية بلا نهاية وعلى امتداد مزارع القنب الخضر . تطير طيور الكنْدش من صفصافة لصفصافة ، النساء يطفن في الحقول حاملات المجارف بايديهن ، يسير عابر سبيل مسافر ، مرتد قفطانا قطنيا باليا ، وعلى كتفه صرّة ، بخطى متعبة ، تتجه صوبك عربة ملاك ضخمة تشدها ستة خيول سمان وعجاف . برزت زاوية الوسادة من النافذة ، جلس خادم متشبث بحبل يقيه من السقوط على الحصير في مؤخرة العربة ، عليه معطف وقد رشه الوحل حتى حاجبيه . هذه مدينة صغيرة في المنطقة ببيوتها الخشبيه المائلة ، واسيجتها اللامتناهية ، مباني التجار الحجرية الفارغة ، جسر عتيق فوق واد عميق .... وهكذا أبعد فابعد ! ... اقتربت بقاع السهول ، ترنو من فوق التل : ـ ياله من منظر ! حواليك رواب واطئة ، محروثة مزروعة الى قممها ، تنساب كأمواج عريضة ، تهتز بينها الشجيرات النامية في الوادي ، تتناثر الغابات الصغيرة كجزائر مستطيلة ، تمتد طرقات ضيقة من قرية الى قرية ، تتألق الكنائس بالبياض ، يلتمع نهير تقطعه اربع قناطر بين اشجار الصفصاف ، تراءت طيور الكراكي وهي تتهادى بصف طويل بعيداً في الحقل ، قام بيت ملاك قديم والمباني الملحقة به وبستان الفواكة وبيدره قرب بركة صغيرة . هاانت ذا تمضي أبعد فأبعد . تمسي الروابي اصغر فأصغر ، ولا تكاد ترى اشجاراً واخيراً ، ها هو ذا السهل المترامي الرحب ! ...

★ ★ ★ ★

تسير في يوم شتوي فوق كثبان الثلج العالية لقنص الأرانب ، تتنفس الهواء الجليدي اللاسع ، تزر عينك عفوياً من اللمعان الخفيف الباهر للثلج الناعم ، تستمتع بمظهر السماء الاخضر فوق الغابة الضاربة الى الحمرة ! ومن ثمة ، تفوح في ايام الربيع الاولى ، عندما يتألق كل ما

حواليك ثم يتهاوى ، رائحة الارض الدافئة من خلال البخار الثقيل للثلج الذائب ، تشدو القنابر مطمئنة تحت اشعة الشمس المنحدرة ، تنطلق الجداول بضجيج وهدير مرحين من واد لواد ...

★ ★ ★

ومع ذلك حان وقت الختام . لقد تحدثت عن الربيع بالمناسبة : والوداع سهل في الربيع ، يستهوي الربيع حتى السعداء الى اماكن قصية ... وداعاً ، ايها القارىء ، أتمنى لك هناء مقيماً .

★ ★ ★

حيـــاتـه ونتـاجـه

ـ ولد ايفـــان سرغيفيتش تورغينيف في ٢٨ تشرين الأول (٩ تشرين الثاني) ١٨١٨ في اوريول .

ـ كان أبوه سرغي نيكولايفيتش تورغينيف ضابطاً وسيماً متقـاعداً ، عاش حياته منغمساً في مباهج الدنيا ولذاذاتها وفي كل ما تقـدمه مـن متعة وسرور .

ـ تميزت والدته فارفارا بيتروفنا بقسـوتها البالغـة ، وعاشـت حياة تعسة مع زوج أمها ، ثم أصبحت ملاكة كبيرة ذات شأن بعد وفاة عمها الذي كانت الوريثة الوحيدة له .

ـ تزوجـت مـن سرغي نيكولايفيتش وكانت أكبر منه بحـوالي سـتة أعوام .

ـ درس تورغينيف في مدرسة أهلية بين عامي ١٨٢٨ ـ ١٨٣٠ ، واصل بعدها دراسته في البيت لغـرض التهيؤ للدخـول الى الجـامعة . ادى الامتحانات الجامعية ودخل كلية الآداب في جامعة موسكو في ٢٠ أيلول ١٨٣٣ .

ـ قرر إكمال دراسته في جامعة بطر سبورغ بعد انتقال والده للعيش في بطر سبورغ في حـــزيران ١٨٣٤ ، وتم قبوله في كلية التاريخ والفلســفة من السنة نفسها .
ـ توفي والده في ٣٠ تشرين الأول (١١ تشرين الثاني) على أثر مــرض ألم به ، وترك موته ألماً شديداً في نفوس عائلته .
ـ تردد عام ١٨٣٥ على محاضرات غوغول في التاريخ التي كان يلقيها في الجامعة .
ـ حصل عام ١٨٣٧ على شهادة كانديدات في الفلسفة .
ـ عاد في صيف ١٨٣٧ الى ضيعته ســباسكويه وفيهــا بدأت هــوايته للصيد وولعه به .
ـ قرر إتمام دراسته في الخارج فســافر في ١٥ أيار ١٨٣٨ ألى ألمانيا وشرع بدراسة الفلســفة والعلوم والتعــرف على المفــكرين والثوريين الروس ، وكتابة بعض القصائد ونشرها في المجلات .
ـ تعرف في برلين عام ١٨٣٩ على باكونين وهو مــن الثوريين الروس المشهورين .
ـ عاد في صيف ١٨٤١ الى سباسكويه وكتب عدة قصائد ، قام بنشرها في مجلة «اوتيتشسفينيه زابيسكي» واستمر في ممارسة هواية الصيد .
ـ في ٢٦ نيســان ١٨٤٢ ، ولدت ابنته غير الشرعية بولين مــن فــلاحة كانت له علاقة بها عام ١٨٤١ .
ـ عرفه باكونين عام ١٨٤٣ على بيلينسكي ، وكتب بوئيما «باراشــا» التي قيمها بيلينسكي وعززت مكانة الكاتب في الأوساط الأدبية ولفتت الأنظار الى موهبته وتفهمه للواقع الروسي .
ـ يشكل عام ١٨٤٣ نقطة تحول كبيرة في حياة تورغينيف الشــخصية فقد تعــرف في تشرين الأول مــن تلك الســنة على بولين فياردو مغنية الأوبرا الفرنسية المشهورة ، عندمــا قــدمت الى بطــرسبورغ لأقــامة حفلاتها . وعاش طوال حياته مدلهاً بها ، لا يروم شيئاً ســوى البقــاء

بقربها . كانت فياردو متزوجة من لويس فياردو الذي يكبرهـــا احـــدى وعشرين سنة ، وكان كاتباً حر التفكير ، يهوى الصيد ، كتب «مـــذكرات صياد» قبل تورغينيف .

ـ كتب عام ١٨٤٤ «اندريه كولوسـوف» وهــي اول قصـــة نثرية له ، نشرها في «اوتيتشسفينية زابيسكي» .

ـ نشر عام ١٨٤٥ بويئما «حوار» في كتاب منفــرد وتعــرف في تشرين الثاني من السنة نفسها على الكاتب فيودور دوستويفسكي .

ـ صدر له عام ١٨٤٦ «ثلاثة صور» «الملاك» وبوئيما «اندرية» . واصل ممارسة الصيد ، هــوايته المفضـــلة ، وكتب «خـــور وكالينيتش» اولى قصص كتابه «مذكرات صياد» .

ـ نشر عام ١٨٤٧ تباعاً في مجلة «سفر يمينك» بضع قصص من وحـــي رحلات الصيد التي قام بهـــا ، فصـــدرت «خـــور وكاليذيتش» في كانون الثاني و «بيوتر بيتروفيتش كاراتايف» في شباط و «جاري راديلوف» و «المالك المعتوق او فسيا نيكوف» و «يرمولاي وزوجة الطحـــان» في أيار في الكتاب الخامس للمجلة ، بينما صدر «الوكيل» و «المكتب» في تشرين الاول . وقد نضجت لديه فكرة وضع كتاب يتضمن انطباعاته عن الصيد وبذلك تبلور عنده مشروع كتاب «مذكرات صياد» .

ـ واصل عام ١٨٤٨ نشر بعض القصص التي تضمنها الكتاب المشار اليه أعلاه . فقـــد ظهـــرت في عدد كانون الثاني لمجلة «ســـفر يمينك» القصص التالية : «مياه التوت» «طبيب المنطقـــــة» «بيريوك» «ليبديان» «تاتيانا بوريسوفنا وابن اخيها» «الموت» .

ـ علم بوقوع ثورة ١٨٤٨ في فرنسا عندما كان في بروكسل ، فسافر الى باريس وشهد بأم عينه الأحـــداث الدامية التي تركت أثرهـــا العميق في نفسه .

ـ بقي في فرنسا ما يقارب العامين وقطعت امه مســـاعدتها عنه ، رغبة منها في عودته الى روسيا ، لكنه لم يستجب لها وظل يعيش على الموارد

القليلة التي يحصل عليها من عمله الادبي . ورغم الظروف المادية الصعبة فقد كتب كثيراً خلال عام ١٨٤٩ وقضى فترة منه في بيت فياردو في ضيعة كورتافينيل . نشرت له مجلة سفر يمينك في شباط ١٨٤٩ قصص «هاملت من منطقة شيغروفسكي» «تشيرتوبخانوف ونيدوبيوسكين» «الغابة والسهل» .

ـ نشر في مجلة اوتيتشسفينية زابيسكي» نيسان ١٨٥٠ «مذكرات انسان زائد عن الحاجة» .

ـ ارسل ابنتة بولين في ٢٣ تشرين الاول ١٨٥٠ الى فرنسا كي تقوم مدام فياردو بالاشراف على تربيتها . كانت لويزا ابنة مدام فياردو اكبر منها ببضعة اشهر وعلاقتها مع امها ليست على ما يرام ، بسبب انشغال والدتها بالحفلات التي تقيمها في الخارج وبقاء الابنة مع أقاربها لفترات طويلة ، مما حز في نفسها وجعلها تعتقد أن امها تهملها ولا تعنى بها كما يجب . ولم ترتح لابنة تورغينيف ، بل وحتى لتورغينيف نفسه ، وكانت تتشاجر مع ابنته مما خلق لديه الشعور بالحرج و الالم .

ـ تعرف تورغينيف في بيت فياردو على كثير من الشخصيات المشهورة في عالم الأدب والفن والسياسة فقد كانت العائلة على صلات واسعة مع رجال العصر ودارهم مفتوحة للأصدقاء والمعارف .

التقى تورغينيف عندهم بجورج صاند وديكنز وموسية ورينان ولويس بلان وغيرهم .

ـ علم تورغينيف بمرض والدته ، فسافر الى سباسكويه للبقاء الى جانبها ولكنها توفيت قبل وصوله في ١٦ تشرين الثاني ١٨٥٠ ، تألم تورغينيف لموتها رغم ما كان بينهما من خصام وسوء تفاهم إبان حياتها ، وورث بعد موتها ضيعة سباسكويه .

ـ واصل نشر قصص «مذكرات صياد» عام ١٨٥١ ، فظهرت «مرج بيجين» على صفحات «سفريمنيك» في شباط و «كاسيان من الأرض

الجميلة» في آذار . سعى في الوقت نفسه لا صدار قصصة في كتاب بعد ان كاد يوشك على الانتهاء من كتابتها .

ـ كان موت غوغول في كانون الثاني ١٨٥٢ صدمة موجعة لتورغينيف ، هزته حتى الأعماق وكتب مقالة نعاه فيها ، مشيراً الى ان موت غوغول هو خسارة فادحة لروسيا قاطبة . منعت الرقابة نشر ذلك النعي في صحف بطرسبورغ فما كان منه إلا ان نشرها في موسكو في ١٣ أذار في جريدة «موسكوفسكي فيدوموستي» مما خلق الغضب والسخط عليه لدى السلطات القيصرية .

ـ أثار نشر المقالة التي نعى فيها غوغول حفيظة القيصر ايضاً ، فأمر باعتقاله في ١٦ نيسان بسبب عدم التزامه بتعليمات الرقابة ثم اطلق سراحه في ١٦ أيار ، لكنه لم يترك طليقاً وانما نفي الى ضيعته في سباسكويه ـ التي انتقلت اليه بالوراثة بعد وفاة والدته ـ ووضع فيها تحت الرقابة . ويرى البعض ان سبب غضب السلطات القيصرية عليه ، يرجع الى «مذكرات صياد» التي انتقد فيها العلاقات العبودية وصور الحياة البائسة التي يحياها الفلاحون .

ـ صدرت «مذكرات صياد» في كتاب منفصل عام ١٨٥٢ وأحدثت ضجة كبيرة في الأوساط الثقافية والوطنية . واصل تورغينيف كتابه القصص والمسرحيات اثناء اقامته الاجبارية في سباسكويه .

ـ علم في آذار ١٨٥٣ بمجيء بولين فياردو الى موسكو ، فلم يطق صبراً على عدم رؤيتها فما كان منه إلا ان سافر بجواز سفر شخص آخر للالتقاء بها .

ـ استمر فرض إلا قامة إلاجبارية عليه حتى ٢٣ تشرين الثاني ، حيث تلقى أمراً يشير الى انتهاء نفيه واستعادة حريته ، فعاد على اثر ذلك الى بطرسبورغ في ٩ كانون الاول ١٨٥٣

ـ صدرت في عدد اذار لمجلة «سفريمنيك» ١٨٥٤ قصة «مومو» التي بدأ كتابتها في أثناء إقامته الاجبارية . صدرت في هذا العام ترجمة

«مذكرات صياد» الى اللغة الفرنسية ولكن بشكل مشوه ، اذ لم يلتزم المترجم بنص القصص ، فكتب تورغينيف احتجاجاً على تشويه اسلوب كتابه ومضمونه .

ـ التقى في تشرين الأول ١٨٥٤ بماريا تولستويا ، اخت الاديب الناشيء آنئذ ليف تولستوي وكانت موضع اعجابه واهتمامه ووجدت شخصيتها انعكاسكاً لها في قصة «فاوست» التي كتبها في وقت لاحق .

ـ التقى بعد مضي فترة وجيزة على تعرفه ماريا تولستوي ومراسلته اياها باخيها ليف تولستوي في كانون الاول ١٨٥٥ ، وكان حينئذ ضابطاً في الجيش وقد عاد لتوه من حرب القرم ، حيث اشترك في القتال في سواستبول . زار في حزيران ١٨٥٦ تورغينيف في ضيعته سباسكويه . قام تورغينيف بتقديم تولستوي الى الشخصيات الأدبية في بطرسبورغ فيما بعد ، كما عرفه على هيئة تحرير مجلة «سفر يمذيك» التي شهدت صفحاتها اولى اعمال تولستوي الادبية .

ـ انغمر تورغينيف في كتابة روايته الاولى «رودين» عام ١٨٥٥ التي صدرت في كانون الثاني ١٨٥٦ في مجلة سفر يمنيك وتناول نموذجاً للبطل الزائد في الأربعينات .

ـ زار غرتسن في ايار ١٨٥٧ في لندن وتعرف على كارليل وثكري و ديزرائيلي وميريمية وكثير من الشخصيات المعروفة

ـ صدرت في كانون الثاني ١٨٥٨ قصته المشهور «آسيا» في مجلة سفريمنيك .

ـ صدرت رواية «عش النبلاء» في كانون الثاني ١٨٥٩ في مجلة سفريمنيك ايضاً ثم صدرت في كتاب منفصل في آب من العام نفسه .

ـ صدرت رواية «في العشية» في شباط ١٨٦٠ في مجلة «روسكي فيستنيك» كان الكاتب غانتشاروف يتشكك دائماً بتورغينيف ويظن أنه يستقي منه شخصياته ، وقد أثار ضجة عند صدور «في العشية» واعتبرها من بنات افكاره ، لكن تورغينيف سرقها منه ، وعندما وصل

الخبر الى تورغينيف طلب المبارزة مع غانتشاروف دفاعاً عن شرفه الأدبي او تشكيل لجنة تحكيم للبت في الامر . تكونت لجنة من النقاد المحايدين مثل انينكوف ودروجينين وكان قرارها الى جانب تورغينيف وضد غانتشاروف . اقتنع الطرفان بالحكم ، لكن تورغينيف قرر قطع علاقته نهائياً مع غانتشاروف .

ـ كانت رواية «في العشية» سبباً في قطع علاقته بمجلة «سفر يمينك» ايضاً . كتب عنها الناقد دوبرالوبوف مقالا عنوانه «متى يأتي اليوم الحقيقي» يبرز الجانب الثوري من الرواية ويلوم تورغينيف لجعله البطل الثوري بلغارياً بدل ان يكون روسياً . طالب تورغينيف بعدم نشر المقال وإلا توقف عن النشر في المجلة نهائياً . لكن الشاعر نيكراسوف ـ رئيس تحرير المجلة ـ أصر على نشره وظهر على صفحات المجلة ، عندئذ امتنع تورغينيف عن النشر في «سفر يمنيك» .

ـ في آذار ١٩٦٠ صدرت قصة «الحب الأول» في مجلة «بيبلياتيكا دلا تشتنيه» . كانت مكانته الادبية قد توطدت في روسيا وأوربا و انتخبته اكاديمية العلوم الروسية عضواً مراسلا في ٢٤ تشرين الثاني ١٨٦٠ .

ـ كانت روابط صداقة حميمة تجمع تولستوي وتورغينيف لكنها أخذت تضعف وبدأت تبرز بينهم مشاحنات تعاظمت مع مرور الزمن . ولعل السبب الدفين فيها ان مكانة تولستوي الروائية اخذت تتعاظم وشرع يحتل مكان الصدارة في الرواية الروسية ، بينما لم يكتب تورغينيف سوى القليل من النتاجات المثمرة بعد عام ١٨٦٣ ، وكان يبدد طاقاته على العلاقات الشخصية اكثر مما يخصصها لفنه وادبه : هذا الى جانب صراحة تولستوي التي تصل احياناً الى حد جرح شعور الآخرين ، وقد حدث مرة ، ان تحدث عن ابنة تورغينيف بشكل اثار حفيظته وادى الى توتر الروابط وانقطاع أواصرها لمدة طويلة .

ـ ظهرت في شباط ١٨٦٢ روايته الذائعة الصيت «الاباء والبنون» في «روسكي فيستنيك» ثم صدرت في كتاب منفرد في ايلول من العام نفسه .

تصور الرواية روسيا في عشية ظهور قانون الغاء نظام الرق الذي صدر عام ١٨٦١ . قابلها النقاد ، على اختلاف اتجاهاتهم الفكرية بالنقد والهجوم ، مما بعث الالم في نفس تورغينيف وجعله يفكر بترك الكتابة نهائياً ، ولم يكتب فعلا سوى النزر القليل في السنوات التالية .

ـ استدعت لجنة في مجلس الشيوخ تورغينيف في كانون الثاني ١٨٦٣ الى بطرسبورغ لغرض التحقيق معه في قضية «الاشخاص المتهمين بعلاقتهم مع المحرضين في لندن» ويقصد بهم المهاجرين الروس كغرتسن وباكوينين واوغاريوف وغيرهم . فقد امسك القسم الثالث وهو قسم الامن الداخلي برسائل لهم ورد فيها اسم تورغينيف . حضر تورغينيف بعد سنة من استدعائه وكتب في تلك الاثناء رسالة الى القيصر الكسندر الثاني بين فيها مواقفه الفكرية المعتدلة وبعده عن التطرف الثوري . وقد اثارت الرسالة سخط غرتسن وتبين لدى التحقيق براءة تورغينيف من التهم الموجهة له .

ـ انتقلت اسرة فياردو الى بادين ـ بادين ، إذ كَره زوج فياردو العيش في ظل الامبراطورية الثانية ، فباع منزله في ضيعة كورتافينيل ، وكانت ابنته الكبرى لويزا قد تزوجت عام ١٨٦٢ ، وظل معهم ابناؤهم الصغار وهم الولد بول والبنتان كلوديا وماريانا . عاش تورغينيف في تلك الفترة في بادين ـ بادين ايضاً .

ـ تزوجت بولين ابنة تورغينيف عام ١٨٦٥ زواجاً غير موفق وطلبت فيما بعد مساعدة ابيها لتدبير امورها المعاشية مع طفليها . اما ابنة فياردو الكبرى فقد كان زواجها مخفقاً ايضاً ، وهربت من زوجها ثم اشتغلت بالموسيقى .

ـ اصدرت مجلة «روسكي فيستينك» رواية «الدخان» في نيسان ١٨٦٧ . قوبلت الرواية ايضاً بهجوم واسع ووصل الامر بدوستويفسكي ان طلب منه حرق هذه الرواية عندما التقى به في بادين في تموز ١٨٦٧ مما زاد من التوتر النفسي والفكري الذي يعانيه

تورغينيف ، وكان رد الفعل على قول دوستويفسكي ، ان قطع علاقته به مدة قاربت العشر سنوات .

ترجمت رواية «الدخان» ترجمة مشوهة الى اللغة الانكليزية عام ١٨٦٨ تحت عنوان «الدخان او الحياة في بادين ـ بادين» فما كان من تورغينيف إلا ان نشر احتجاجاً بهذا الشأن في احدى الجرائد الانكليزية ، وكانت الترجمة المشوهة صدمة اخرى له .

ـ صدرت قصة «بريغادير» في مجلة «روسكي فيستينك» في كانون الثاني ١٨٦٨

ـ صدرت اعمال تورغينيف الأدبية في ثمانية أجزاء ، بين عامي ١٨٦٩ ـ ١٨٧٠

ـ وصل الى علمه في ٢٢ كانون الثاني ١٨٧٠ نبأ وفاة الاديب غرتسن الذي كان يكن له الود والاحترام رغم الاختلاف في موقفهما السياسي والفكري . وكان لهذا النبأ وقع أليم في نفسه .

ـ نشر في كانون الثاني من تلك السنة «حادثة غريبة» في «روسكي فيستينك» .

ـ اندلعت الحرب الفرنسية ـ البروسية عام ١٨٧٠ . كانت بادين قريبة من مسرح الحرب وسمع تورغينيف أصوات القصف ورأى دخان ستراسبورغ وهي تحترق ورغم ألمه للويلات التي تعرضت لها فرنسا واحتلال البروسيين لها وفرض بسمارك شروطاً مجحفة بحقها ، فانه اعتبر الحرب نتيجة طبيعية لحكم نابليون الثالث الدكتاتوري الذي حجب كل لون من الوان الحرية عن فرنسا

ـ كان ألم عائلة فياردو شديداً لهزيمة فرنسا ، وانتقلت العائلة الى العيش في لندن وسافر تورغينيف كذلك الى لندن للبقاء الى جانبهم .

ـ نشر عام ١٨٧١ بعض القصص وألقى خطاباً في أدنبره بمناسبة مرور مائة عام على ولادة الروائي الاسكتلندي ولترسكوت .

ـ باع داره في بادين ـ بادين في تشرين الاول ١٨٧١ وانتقل مع اسرة

فياردو في العام نفسه الى باريس وسكن معهم في مونتمارتريه حتى وفاته عام ١٨٨٣ . كان يزور وطنه روسيا بين مدة وأخرى .

ـ وقعت الثورة التي أطلق عليها «كومونة باريس» حيث اعلن العمال جمهورية الطبقة العاملة من ١٨ آذار الى ٢٨ أيار ١٨٧١ . كان تورغينيف في روسيا ، فعاد على عجل الى فرنسا كي يشهد الاحداث بأم عينه .

ـ صدرت قصته الطويلة «مياه الربيع» في «روسكي فيستنيك» في كانون الثاني ١٨٧٢ ولقيت نجاحاً لا نظير له بين القراء مما حمل المجلة على اصدار طبعة ثانية لها . لكن النقاد قابلوها بالهجوم ، لأنها تصور الاخلاق الروسية ـ حسب رأيهم ـ تصويراً معيباً ومشيناً ويظهر فيها الاجانب أناساً طيبين شرفاء .

ـ توطدت علاقته بالكتاب الفرنسيين ولا سيما فلوبير وجورج صاند التي أثارت اعجابها قصة «الطلل الحي» وأعماله الأخرى ودعي لزيارة نوهانت وكرواسه عام ١٨٧٣ .

ـ ابتاع في ١٨٧٤ بيتاً ريفياً مع عائلة فياردو في بوجيفال بالقرب من باريس .

ـ توفيت جورج صاند في ٨ حزيران ١٨٧٦ فكتب نعياً عبر فيه عن المه للخسارة التي منيت بها الاوساط الادبية بفقدانها .

ـ كان تورغينيف على معرفة بممثلي الحركة الثورية الذين اطلقوا على انفسهم اسم الشعبيين ، لا عتقادهم بضرورة الذهاب الى الشعب في الريف ونشر الوعي بين الفلاحين ، وقد اوحى له ممثلو هذه الحركة رواية «الارض البكر» التي نشرت في «فيستنيك يفروبي» في ١٨٧٧ ، اوضح فيها بعد الشعبين عن الشعب وعدم مقدرتهم على حل مشكلات روسيا . سرعان ما أخذ المترجمون بترجمة هذه الرواية الى لغات عديدة منها الانكليزية والفرنسية و الالمانية والسويدية والبولونية والهنغارية وغيرها .

ـ بعث اليه ليف تولستوي في ٨ أيار ١٨٧٨ برسالة يطلب فيها انهاء فترة القطيعة بينهما التي استمرت لسنوات طويلة واعادة روابط الود والوئام . كان طلب تولستوي موضع ارتياح تورغينيف وسروره ، فقام بزيارته في آب من السنة نفسها في ياسنايا بوليانا . وكرر الزيارة عام ١٨٨٠ .

ـ وصل الى علمه في حزيران ١٨٧٧ نبأ مرض نيكراسوف ، ووفاته في كانون الثاني ١٨٧٨ .. آثار موته ذكريات الشباب وسنوات تعاونهما في المجال الأدبي وترك في نفسه ألماً عميقاً .

ـ انعقد في باريس في ٤ حزيران المؤتمر الادبي العالمي ، وترأس جلساته فيكتور هيغو ، بينما انتخب تورغينيف نائباً للرئيس تقديراً لمكانته الادبية .

تعاظمت مكانته الأدبية في اوربا وروسيا . فقد منحته جامعة اكسفورد اللقب الفخري لشهادة الدكتوراه في القانون المدني ، وسافر الى انكلترا لحضور الاحتفال الذي اقامته الجامعة بهذه المناسبة في ١٨ حزيران ١٨٧٩ . التقى في انكلترا بعدد من الادباء منهم هنري جيمس ، الذي كان شديد الاعجاب بتورغينيف ووليم بليك ورالستون .

ـ علم بموت اخيه نيكولاي فسافر الى روسيا في كانون الثاني ١٨٧٩ لحضور مراسيم الدفن .

ـ استقبل الروس عودة تورغينيف بالترحاب الحار والضيافة فأقيمت له الحفلات ودعوات الغداء والجلسات الأدبية ، وطلب الجميع منه البقاء في روسيا وإنهاء حياة الغربة في الخارج . تأثر كثيراً بتلك الحفاوة والاهتمام اللذين حظي بهما في وطنه وكاد يعقد العزم على المكث في بلاده ، لكنه عاد في ربيع ١٨٨٢ الى فرنسا .

ـ ظلت تصله انباء الموت المفجعة لاناس عزيزين على قلبه ، فقد علم بموت فلوبير عام ١٨٨٠ وموت دوستويفسكي في ١٨٨١ .

ـ كان عام ١٨٨١ عام الوداع لبلاده من غير ان يتوقع ذلك ، وقضى

الصيف في سباسكويه، وزاره في ضيعته الكاتب ليف تولستوي والشاعر بولونسكي. واصل كتابة القصائد النثرية والقصص ووضع بعض الخطط لمشاريعه الأدبية.

ـ بعد سفره الى فرنسا، اصيب بمرض خطير وهو سرطان العمود الفقري وشعر ان المنية آتية لامحالة، وانه سيموت بعيداً عن وطنه، مما ترك جرحاً اليماً في نفسه، فكتب الى الشاعر بولونسكي يخبره بمرضه الذي لا شفاء منه وطلب منه ان يسجد عوضاً عنه لوطنه وبيته وحديقته في سباسكويه.

ـ عانى من آلام السرطان الشديدة التي افقدته القدرة على الحركة لكنها لم تفقده عزيمته التي لا تلين على الكتابة، فقد شرع يملي على بولين فياردو روايته الجديدة «ناتاليا كاربوفنا» التي لم يستطع اكمالها. كان آخر عمل صدر له هو «كلارا ميليتش»، نشرت بعد موته.

ـ توفي لويس فياردو زوج فياردو في ايار ١٨٨٣، وتوفي تورغينيف في ٢٢ آب من السنة نفسها في بوجيفال، اما بولين فياردو فقد توفيت سنة ١٩١٠.

ـ عاش الثلاثة ـ تورغينيف، فياردو، مدام فياردو ـ زهاء أربعين سنة قرب بعضهم بعضاً، وقامت بينهم علاقة ودية حميمة، ولم يفترقوا إلا لماماً، كانت تربط تورغينيف بمدام فياردو رابطة أشبه بالحب الافلاطوني، أوحت له بعض شخصياته التي انطوت جوانحها على حب نقي طاهر، لكنه حب مأساوي لا أمل له.

ـ طلب في وصيته ان يدفن جثمانه في روسيا، وقد نفذت وصيته ونقل جثمانه الى بطرسبورغ

المترجمة

حواشي الكتاب

نشرت اول قصة من «مذكرات صياد» وهـي «خـور وكالينتيش» في العدد الاول مـن مجلة سـفريمينك «المعـاصر» عام ١٨٤٧ والتي كان يشرف على تحريرها الشاعر نيكراسوف والناقد بيلينسـكي . حـظيت «خور وكاليذيتش» بنجاح كبير واطراء الكتاب والنقـاد ، ممـا شـجع تورغينيف على التفكير بمـواصلة كتابة هـذه القصص ، ثم ولدت لديه فكرة اصدار كتاب يحتوي مجموعة قصصية . لقد ذكر في رسالة كتبهـا الى الناقـد ب . ف . انينكوف في ٤ تشرين الاول ١٨٨٠ ، ان نجـاح القصـة الاولى افضـت به الى التفـكير بالاسـتمرار في كتابة قصص مستقاة من حياة الريف ولم يضع نصب عينيه مثل ذلك الهدف عندمـا شرع في كتابة القصـة الاولى . اتم وضـع اثنتين وعشرين قصـة بين ١٨٤٧ ـ ١٨٥١ وظهـرت «نهـاية تشرتوبخـالوف» ١٨٧٢ و «الطلل الحي» و «قرقعة العجلات !» عام ١٨٧٤ . كان يزمـع ان يحتوي كتابه على ثلاثين قصة ، لكنه لم يكمل كتابة بعضها لعدم انطوائها على قيمة فنية ، حسب ظنه ، ولا عتقاده ان الرقـابة لن تسـمح له بنشرهـا مثل

«المصلح الالماني الروسي» «سوء الحظ» .

صدرت الطبعة الاولى من «مذكرات صياد» عام ١٨٥٢ . وقد اجرى عليها شيئاً من التعديلات والتغيرات في اسلوبها وحتى في عناوينها . فالاسم السابق لقصة «ليبديان» هو «السوق» و «هاملت من منطقة شيغروفسكي» «الغداء» . وثمة قصص لم يضمها الكتاب بين دفتيه مثل «الارنب البري» التي اطراها الناقد بيلينسكي ، ولم يعثر عليها الباحثون ، ويساورهم الاعتقاد ان تورغينيف أعاد كتابتها واحتوت قصة «بيوتر بيتروفيتش كاراتايف» على جزء منها .

ظل تورغينيف يُعمل قلمه في صقل اسلوب قصص ، مذكرات صياد» لدى اصدار كل طبعة جديدة منها حتى عندما ظهرت الطبعة الاخيرة أبان حياته عام ١٨٨٣ . وقد ترجمنا القصص عن المجلد الروسي الذي اعتمد على طبعة عام ١٨٨٣ .

خور وكالينيتش

١ ــ نشرت «خور وكالِينتيش» كما ذكرنا اعلاه في مجلة «سفريمنيك» الجزء الاول ، الكتاب الاول عام ١٨٤٧ .

٢ ــ فيرست ــ مقياس روسي يساوي (١٠٦٠) متراً .

٣ ــ اكيم ناخيموف ــ (١٧٨٣ ــ ١٨١٥) كاتب وشاعر هجائي .

٤ ــ بينا ــ قصة كتبها م ــ أ . ماركوف عام ١٨٤٣ . ولا يحظى كل من ناخيموف وماركوف بدور مهم في مسيرة الادب الروسي . وقد أراد الكاتب الكشف عن ضيق افق بولوتيكين باطرائه لهما .

٥ ــ الكفاس ــ شراب غير كحولي ، يشوب طعمه شيء من الحموضة .

٦ ــ تستعمل عادة الصور المطبوعة في مدينة سوزدل للزينة المألوفة في بيوت الفقراء في روسيا .

٧ ــ ديساتين ــ مقياس للمساحة في روسيا يعادل ١,٩ هكتار .

٨ ــ ان معنى كلمة خور الروسية إبن عْرس .
٩ ــ الروبل الفضي يعادل ثلاثة روبلات ونصف ورقية في ذلك الحين .
١٠ ــ يُلمح خور الى الموظفين الذين سيصبح تحت نفوذهم . وكان القيصر نيكولاي الاول قد اصدر مرسوماً عام ١٨٣٧ منع فيه موظفي الدولة من الابقاء على الشوارب واللحى .
١١ ــ بود ــ وحدة وزن تبلغ ١٦,٣٨ كيلو غراماً .
١٢ ــ بطرس الاكبر ــ (١٦٧٢ ــ ١٧٢٥) يعتبر من اشهر قياصرة روسيا ، لدوره الكبير في النهضة الروسية القومية . فقد فتح ابواب روسيا امام رياح التغيرات الوافدة من الغرب . وادخل اصلاحات اقتصادية وسياسية وعسكرية وثقافية كبيرة في الدولة الروسية مما ادى الى تطوير التجارة والصناعة والحياة الثقافية والقضاء على التخلف ورفع مكانة روسيا العسكرية بين الدول المجاورة .
١٣ ــ يكون عادة سطح الموقد كبيراً في روسيا ، يتسع لنوم شخصين او ثلاثة ، وهو أدفأ قسم في البيت .
١٤ ــ البالالايكا ــ آلة موسيقية وترية ، شائعة الاستعمال في الارياف .

يرمولاي وزوجة الطحان

نشرت في «سفر يمنيك» في ١٨٤٧ ، الجزء الثالث ، الكتاب الخامس ، ان النموذج الحقيقي لشخصية يرمولاي هو الفلاح أفاناسي تيموفيتش اليفانوف ، الذي غالباً ماكان يرافق تورغينيف في القنص . وساعده تورغينيف من الانعتاق من العبودية وعاش عنده خادماً حراً .

١ ــ عيد الاسم ــ هو اليوم الذي تحتفل فيه الكنيسة الآرثوذكسية بذكرى احد القدسين . وجاء في معجم دال انه «يوم الملاك الذي يسمى به احد القديسين» . ويحتفل الروس بعيد الشخص المماثل

اسمه لاسم قديس من القديسيين ، في بيوتهم عند حلول موعد ذلك اليوم . وليس هذا اليوم بعيد ميلاد كما يترجمه البعض .

٢ ـ نشأ تورغينيف في اوريول ولذلك يقول هنا ، عندنا في اوريول ويكرر الشيء نفسه في قصص اخرى .

مياه توت الارض

نشرت في «سفريمينك» عام ١٨٤٨ ، الجزء السابع . الكتاب الثاني .

١ ـ مياه توت الارض ، اسم ينبوع يقوم تورغينيف بوصفه في هذه القصة . ومازال موجوداً حتى الان ويصب في نهر ايستا .

٢ ـ موخايار ـ قماش مصنوع من القطن الممزوج بالصوف والحرير ، كان ينتج في الازمان السالفة .

٣ ـ اماكن تزرع فيها اشجار الفاكهة والنباتات التي تحتاج للحرارة . وتكون مسقوفة عادة لحمايتها من البرد .

٤ ـ ثمة عادة روسية شعبية وهي تقديم الخبز والملح للدلالة على حسن الضيافة والكرم .

٥ ـ يتبادل المسيحيون التحايا والبيض المصبوغ بالوان مختلفة في عيد الفصح .

٦ ـ حكمت كاترينا الثانية روسيا بين ١٧٦٢ ـ ١٧٩٦ . وتعتبر فترة حكمها بمثابة العصر الذهبي للنبلاء .

٧ ـ يُقدم الزمام في القبعة تعبيراً عن الاحترام والتقدير .

طبيب المنطقة

نشرت في «سفر يمينك» عام ١٨٤٨ . الجزء السابع . الكتاب الثاني . وكان عنوانها في البداية «الاسرة المسكينة» .

جاري راد يلوف

نشرت في «سفر يمينك» عام ١٨٤٧ . الجزء الثالث . الكتاب الخامس .

١ ـ يخاطب الشخص بصيغة الجمع تعبيراً عن الاحترام وتستعمل لمخاطبة الكبار والغرباء ايضاً ، اما الصغار ومن تربطهم أواصر الود والألفة فالكلام بينهم يكون بصيغة المفرد .

٢ ـ ورد في حكاية شعبية ان العنزة عقدت صلات صداقة مع الدب واخذت ترقص وتغني معه .

المالك المعتوق اوفسيانيكوف

١ ـ المالك المعتوق ينتمي الى طائفة من الفلاحين التابعين للدولة ، لهم الحق في امتلاك قطع صغيرة من الأرض وبضعة أقنان . وهم ملزمون بدفع الجزية شأنهم شأن الأقنان في هذا المجال .

٢ ـ كريلوف ـ (١٧٦٨ ـ ١٨٤٤) شاعر روسي اشتهر بحكاياته الشعرية الخرافية .

٣ ـ البويار ـ تطلق هذه التسمية على الطبقة الاقطاعية العليا في كل من روسيا ورومانيا . وقد سادت في روسيا منذ القرن العاشر ، عندما لم تكن روسيا موحدة في دولة مركزية ومازالت موزعة الى إمارات و دويلات . يتكون البويار في الاصل من فئتين : «الناس الممتازون» او الرؤساء الذين يمثلون المشاعة السلافية و «رجال» الامارات المنتمين االى بلاط الامراء . زال هذا الاختلاف تدريجاً مع تطور النظام الاقطاعي واصبح البويار طبقة واحدة ، واصبح دورها عائقاً لتطور روسيا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر لانها قاومت اقامة دولة روسية مركزية موحدة . حارب

القيصر بطرس الاكبر في القرن السابع عشر هذه الطبقة وألغى تسمية البويار .

٤ ـ الفيرياز ـ نوع من الملابس الطويلة الاكمام ، دون ياقة يرتديها الرجال عاد تحت القفطان .

٥ ـ يقصد الفلاح .

٦ ـ عربة تجرها ثلاثة خيول ولذلك تسمى «الثلاثية» اذا ترجمنا كلمة ترويكا الى العربية حرفياً .

٧ ـ فيلموجا ـ يسمى فيلموجا الارستقراطيين الذين يمتازون بأصلهم العريق وسعة الجاه والثراء وهم عادة مثقفون ويعرفون اللغات الاجنبية وبعضهم من رجال البلاط والدولة . وقد كانت تستعمل هذه التسمية في القرنين السابع عشر والثامن عشر .

٨ ـ الكونت اورلون تشيمينسكي احد رجال الدولة المعروفين في عهد الامبراطورة كاترين الثانية . جنرال محنك استطاع ان يهزم . الاسطول التركي عام ١٧٧٠ وهو من كبار الارستقراطيين الاثرياء . الوصف الذي انطوت عليه القصة مماثل لشخصيته الحقيقية .

٩ ـ يعني الجامعات .

١٠ ـ فيرشوك ـ قياس روسي يبلغ طوله ١٣,٤ إنجاً .

١١ ـ يقصد خمسة روبلات ، فاحياناً يسمون الورقة المالية بلونها لا بعدد الروبلات التي تحتويها ،

١٢ ـ يتجمد سطح الانهار او البحيرات في شتاء روسيا القارس ويمكن السير عليه ويعملون احياناً فتحة فيه لصيد السمك او لاغراض اخرى .

١٣ ـ صنف من الخيول تشتهر محافظة فياتكا بتربيته .

١٤ـ ان جرس ايفان العظيم اطول جرس في الكرملين في موسكو . وقمته مطلية بالذهب ، وقد ظن الفرنسيون انها ذهب حقيقي .

١٥ ـ اذا وصل موظفو الدولة في روسيا القيصرية الى رتبة معينة في سلم الوظيفة ، فيمكن ان يمنحوا لقب النبيل .

لغوف

نشرت في سفريمينك عام ١٨٤٧ . الجزء الثالث . الكتاب الخامس ،

مرج بيجين

نشرت في سفريمينك ١٨٥١ الجزء الخامس والعشرين . الكتاب الثاني .

١ ـ السبت يوم الوالدين ـ تقيم الكنيسة الارثودكسية الصلاة في يوم السبت من تشرين الأول وذلك على شرف ذكرى الموتى من الآباء والامهات والأقرباء .

كاسيان من الارض الجميلة

نشرت في «سفريمينك» ١٨٥١ . الجزء السادس والعشرون . الكتاب الثالث .

١ ـ غامايون ـ نوع من الطيور الخرافية من صنف الطيور الجوارح .

٢ ـ سارفان ـ لباس نسائي ترتديه الفلاحات الروسيات يشابه ثوباً بلا اكمام . يلبس السارفان عادة فوق قميص ذي اكمام طويلة .

الوكيل

«سفريمينك» ١٨٤٧ ، الجزء الخامس . الكتاب العاشر .

١ ــ اليهودي التائه ــ رواية ليوجين سو ، الكاتب الفرنسي الذي حظي بشهرة عريضة في الاربعينات ،

٢ ــ ابيقور ــ فيلسوف يوناني ، ظن ان سعادة الانسان تتمثل في اللذة .

٣ ــ لوسيا ــ اوبرا للموسيقار دوينزين غنت فيها بولين فياردو ــ المغنية الفرنسية المشهورة ــ الدور الرئيس لدى زيارتها بطرسبورغ عام ١٨٤٣

٤ ــ سومنا مبولي ــ اوبرا لبيليني ، اشتركت فياردوا في الغناء فيها ايضاً .

٥ ــ كاريم طباخ فرنسي مشهور .

٦ ــ جاءت كلمات هذه العبارة مكتوبة بصورة مغلوطة باللغة الروسية ، اشارة الى عدم وجود احد يجيد الكتابة في القرية .

المكتب

«سفريمينك» ١٨٤٧ . الجزء الخامس ، الكتاب العاشر .

١ ــ اشارة الى قصة روبنسون كروسو التي ألفها الكاتب الانكليزي دانيال ديفو .

٢ ــ يكنى عن الثعلب باسم باتريكيفنا في الروسية .

بيريوك

«سفريمينك» ١٨٤٨ ، الجزء السابع ، الكتاب الثاني ،

١ ــ اسيوي ــ تستعمل للتعبير عن الجلافة والخشونة .

ملاكان

كان عنوانها في مسودة الكتاب «جارين» وذلك عندما نشرت لأول

مرة ، عام ١٩٥٢
١ ـ سعدي (١١٨٤ ـ ١٢٩١) شاعر فارسي اشار اليه بوشكين في احد مقاطع الفصل الثامن من روايته الشعرية «يفغيني انيغين» .

٢ ـ روسيا الصغرى ـ يقصد بها اوكرانيا وظلت تسمى رسمياً روسيا الصغرى حتى عام ١٩١٧
٣ ـ JournaL de Debats- صحيفة يومية باريسية تأسست عام ١٧٨٩
٤ ـ ينتخب ممثل للنبلاء في كل محافظة او منطقة ليقوم بتمثيلهم في المؤسسات الحكومية المحلية ويشرف على ادارة شؤونهم ويتعين عليه إقامة الحفلات والولائم للنبلاء على حسابه الخاص .

ليبديان

«سفريمينك» ١٨٤٨ ، الجزء السادس ، الكتاب الثاني .
١ ـ اوبرا «بان تفاردوفسكي» من وضع أ . فيرستوفسكي (ليبرتيو م . ن . زاغوسكين ١٨٢٨) .
اشتهر سوق ليبديان بالفرق الغنائية الغجرية ، ولعله يشير هنا الى انهم سيغنون بعض الاغاني الغجرية التي تحتوي عليها اوبرا فيرستوفسكي .
٢ ـ الاشارة هنا الى احد ابيات ملحمة الاينادة لفرجيل ، يقول فيه «الروح ترتعب من الذكرى ، وتهرب من الاحزان» .
٣ ـ هذه جمل لا معنى لها ، لفظت بالفرنسية وكتبها المؤلف بحروف روسية ، وثمة عبارات اخرى ابتدعها ، وهي خليط من كلمات فرنسية وروسية خالية من الدلالة اعتاد على تكرارها .
٤ ـ لا يرفع القمامة ، يعني لا يتحدث في الخارج عما يحدث في البيت

وما ينطوي عليه من مشكلات واخبار .

٥ ــ ايفان فاسيليتش ــ (١٥٣٠ ــ ١٥٨٤) هو ايفــان الرابع ، و يعتبر اول شخصية سياسية كبيرة في القــرن الســادس عشر . عمــل على تودليد دعائم دولة روسية مركزية وقــاد الصراع ضــد البويار الذين كان من مصلحتهم ابقاء روســيا مجــزأة الى إمــارات . وهــو ابن الامير الاكبر فــاسيلي الثالث ، الذي صـــار يدعي منذ عام ١٥٤٧ (القيصر والامير الأكبر لروسيا قاطبة) .

٦ ــ عندما يكون النبر على حرف «o» في اللغة الروسية ، يلفظ كما هو عليه ، اما اذا كان النبر على حرف آخر فيلفظ مثل «A» تقريباً .

تايتانا بوريسوفنا وابن اخيها

«سفريمينك» ١٨٤٨ ، الجزء السابع الكتاب الثاني .

١ ــ بونابرتيشــيكا ــ يعني بونابرت والاضــافة «شــيكا» للتعبير عن الازدراء هنا .

٢ ــ م . ي . كوتو زوف (١٧٤٥ ــ ١٨١٣) ــ القائد العســكري الروسي المشهور الذي استطاع بفضل خططه العســكرية الحــاذقة ، تســليم موسكو للفرنسيين حفــاظاً على الجيش الروسي مــن الانســحاق والتشتت ولتمكينه من ان يهزم جيوش نابليون ويحرر روســيا مــن الغزو الاجنبي .

٣ ــ الابيات من رواية بوشكين «يفغيني انيغين» .

٤ ــ خبقرية ، يلفظون الحرف الاول باللغة الالمانية .

٥ ــ أ . ي . بوليجــايف (١٨٠٤ ــ ١٨٣٨) شــاعر روسي تميز شــعره بالروح الثورية والعاطفة المتأججــة والحمــاسة الطــاغية والعبارة الموجزة المعبرة . صدر له إبان حياته ثلاثة دواوين شعرية .

الموت

«سفريمينك» ١٨٤٨ ، الجزء السابع ، الكتاب الثاني .

١ ـ زوشا ـ احد روافد نهر اوكا ويقع على بعد ثلاثة أميال من سباسكويه التي عاش فيها تورغينيف .

٢ ـ جوهانا شوبنهور ـ روائية المانية ووالده الفيلسوف الالماني المعروف شوبنهور .

٣ ـ هذه أسماء لأنواع وأصناف مختلفة من الفطر الذي تتعدد انواعه والوانه في روسيا .

٤ ـ المقتطف مأخوذ من رواية بوشكين «يفغيني انيغين» .

٥ ـ أ . ف . كولتسوف ـ (١٨٠٩ ـ ١٨٤٢) شاعر روسي غنى حياة الفلاحين ورسم صوراً من معاناتهم وآلامهم . الابيات مقتطفة من قصيدته «الغابة» التي كتبها عام ١٨٣٨ .

المغنون

«سفريمنيك» ١٨٥٠ ، الجزء الرابع والعشرون . الكتاب الثاني . كان عنوانها في البداية «حانة بريتيني» .

١ ـ ستريغانيخا ـ يمكن ترجمة اسمها الى العربية بالمتجردة ، وفي الترجمة الانكليزية للبروفسور فريبورن وضع اسماء شخصيات هذه القصة بالترجمة الانكليزية لمعناها ولم يضعها بالروسية ، فترجمها Stripper.

٢ ـ معنى كلمة مورغا تش «الرامش» اما الاسماء الاخرى الواردة في النص فمعناها : السيد ديكي «المتوحش» واوبالدوي «القملة» . وقد وضعنا معناها الى جنبها في الترجمة عندما وجدنا بالنص حاجة الى ذلك .

٣ ــ الرولاد ــ تعاقب نغمات سريعة في مقطع غنائي واحد .
٤ ــ هيرود ــ اسم ملك عرف بطغيانه واستبداده ، ويستعمله الناس ايضاً للسباب .
ان القصد من الشتائم التي ينطوي عليها هذا المقطع : التشجيع والحث على الغناء .

بيوتر بيتروفيتش كاراتايف

«سفريمنيك» ، ١٨٤٧ ، الجزء الاول ، الكتاب الثاني . لم تنشر ضمن سلسلة «مذكرات صياد» .
١ ــ شارش ــ صوت يستعمل في اثناء الكلام مع الكلاب .
٢ ــ ب . س . موتشالوف ــ (١٨٠٠ ــ ١٨٤٨) ممثل روسي مشهور بتمثيل الادوار المأساوية ولعب دوراً مهماً في تطوير المسرح الروسي ، الذي حارب الاسلوب الكلاسيكي في التراجيديا وانتقل الى الاتجاه الرومانيتكي .
٣ ــ الشعر الذي يقرأه لا يطابق النص الانكليزي مطابقة تامة ، فهو متقطع ويحتوي على نواقص ، ترجمنا القسم الاول من النص الانكليزي لهاملت ، ولما وجدنا البون كبيراً بين قراءة البطل والنص فيما بعد ، وضعنا ترجمة النص الروسي .
٤ ــ البيت «الذي سارت فيه ، ودموعها تسيل» ، النص الانكليزي «مثل نيوبه كلها بالدموع» . ان نيوبة في الميثولوجيا اليونانية أم ، قتل ابولو وارتيمس اولادها لمباهتها بهم امام ليتو ، وقد حولها زيوس اله الآلهة الى صخرة ، اصبح الندى الذي يغطيها كل صيف يسمى دموع نيوبه .
٥ ــ المرة او الصفراء ، كان يسود اعتقاد ان الحمامة لا تملك الصفراء قرب كبدها ، التي تتسبب في حدة المزاج والغضب ولذلك فهي وديعة هادئة .

موعد

«سفريمنيك» ١٨٥٠ ، الجزء الرابع والعشرون ، الكتاب الثاني .

هاملت من منطقة شيغروفسكي

«سفريمنيك» ١٨٤٩ ، الجزء الثالث عشر ، الكتاب الثاني .

١ ـ اصحاب الفودان ـ اصدر القيصر نيكولاي الاول عام ١٨٣٧ أمرا بمنع الموظفين من الابقاء على اللحى والشوارب في دوائر الدولة وشمل القرار الطلاب ايضاً . وقد كتبت هذه القصة عام ١٨٤٨ ، ولذلك يشير الى ان هذه قضية قديمة .

٢ ـ كانت طريقة الامتحان شفهية ، اذ يكتب السؤال على بطاقة لها رقم ويسحب الطالب بطاقة من مجموع البطاقات الموجودة ويجلس في الركن كي يقرأ السؤال ويحضره حتى يفرغ الطالب الممتحن قبله ، فيأتي دوره .

٣ ـ (لا احد معنى بمصيري كثيراً) مقتبسة من قصيدة للشاعر ليرمنتوف (١٨١٤ ـ ١٨٤٠) بعنوان «الوصية» وجاءت في النص كما يلي : ـ

... ان مصيري
اذا قلت الحقيقة ، لا احد
معني به كثيراً .

٤ ـ القول الفرنسي لـ أ . دي موسيه (١٨١٠ ـ ١٨٥٧) مأخوذ من قصيدته الدرامية Coupe et Les Livrre التي كتبها عام ١٨٣٢

٥ ـ اشارة الى السلافيين .

٦ ـ اغنية يغنيها أ . ي . فارلاموف وهي في الاصل قصيدة الشاعر الروسي أ .أ . فيت

تشيرتوبخانوف ونيدوبيوسكين

ــ «سفريمنيك» ١٨٤٩ . الجزء الثامن . الكتاب الثاني . كان عنوانها في البداية «الملاك تشيرتوبخانوف والنبيل نيدوبيوسكين» .

١ ــ اوربسان اسم احد ابطال فوليتر ، وقد دأب تورغينيف على تسمية الحيوانات باسماء ابطال بعض الاثار الادبية .

٢ ــ يشير الى القول المأثور «الدجاجة ليست طيراً ، والملازم الثاني ليس ضابطاً» وكانت رتبة تشيرتوبخانوف ملازماً ثانياً وهي ليست بالرتبة الرفيعة ولا تتناسب مع طبيعته الفخورة .

٣ ــ غ . ديرجافين (١٧٤٣ ــ ١٨١٦) ــ شاعر روسي ، من اعلام المذهب الكلاسيكي ونالت القصائد التي نظمها بالقيصرة كاترينا شهرة عريضة .

٤ ــ مارلينسكي ــ (١٧٩٧ ــ ١٨٣٧) اسمه الحقيقي أ . بيستوجيف ، وكتب باسم مارلينسكي . كان ثوري الاتجاه ومن دعاة الاتجاه الرومانتيكي ، انتقد الحكم الاقطاعي ودعا الى تنمية الروح الوطنية .

٥ ــ امالات بيك ــ اسم بطل احدى قصص مارلينسكي ، وهي ذات طابع رومانتيكي وعنوانها باسم البطل نفسه ، كتبها عام ١٨٣١

٦ ــ بيت من اغنية غجرية مشهورة .

نهاية تشيرتوبخانوف

نشرت لاول مرة في «فيستنيك يفروبي» ١٨٧٢ ، عدد ١١

١ ــ فلورا ــ الهة الزهور عند الرومان وكانت تقام على شرفها اعياد «الفلورينا» .

٢ ــ الركوك ــ اسلوب فني برز خصوصاً في مجال الفن المعماري و النحت في النصف الاول من القرن الثامن عشر في بلدان اوربا الغربية .

وقد نشأ في البداية في فرنسا ليحل محل الاشكال الفنية الفخمة التي كانت سائدة انذاك .

٣ ــ بومبادور (١٧٢١ ــ ١٧٦٤) خليلة لويس الخامس عشر ملك فرنسا وكان لها تأثير كبير في الدولة . وكذلك في الاوساط الثقافية و الفكرية الفرنسية .

٤ ــ اليهودي يلثغ في كلامه ويلفظ س بدل ش ، ز بدل ج .

٥ ــ هيرود ــ سبق ان ورد شرحة في «المالك المعتوق او فسيانيكوف»
«حصان ! حصان ! مملكتي اعطيها مقابل حصان» .

٦ ــ يصيح الملك ريتشارد في مسرحية شكسبير «ريتشار الثالث» «حصان ! حصان ! مملكتي اعطيها مقابل حصان» .

٧ ــ ارشين ــ مقياس روسي قديم يساوي ٧١ سنتمتراً

٨ ــ ساجين ــ متر و ١٣ سنتمتراً .

الطلل الحي

صدرت لاول مرة عام ١٨٧٤ في «المجموعة الادبية المحتوية على اعمال الادباء الروس لمنفعة ضحايا الجوع في منطقة سمارا» .

١ ــ ف . أ . توتشيف (١٨٠٣ ــ ١٨٧٣) شاعر روسي اشتهر بقصائده الغنائية الرقيقة وصوره الشعرية العذبة . البيتان مقتبسان من قصيدة «هذه القرى البائسة» .

٢ ــ وثيقة بالعتق او باسبورت ــ كان مالكو العبيد يعطون الاقنان وثيقة او باسبورت عندما يعتقونهم وذلك من اجل السماح لهم بالعمل خارج ضيعتهم او منطقتهم .

٣ ــ وسام على العنق ــ يمنح رمزاً للخدمات الكبيرة التي يقدمها المرء في حقل العلم او اي حقل آخر .

٤ ــ القديس سيميون ستايليتس ــ (٣٩٠ ــ ٤٥٠م) عاش متنسكاً منذ ان اصبح في السادسة عشرة من عمره وجمع حوله عدداً من الاتباع والمناصرين له : وبعد انقضاء عشرين عاماً على حياة التنسك بنى

عموداً مرتفعاً وراح يعيش على قمة العمود حتى وفـــاته . كان له تأثير كبير في معاصريه وقد اعتنق كثير من الوثنيين الدين المسيحي بفضله .

قرقعة العجلات

١ ــ ظهرت لاول مرة في اعمال تورغينيف عام ١٨٧٤ في الجــزء الاول منها .

٢ ــ القصيدة للشـــاعر ف . أ . جــوكوفسكي (١٧٨٣ ــ ١٨٥٢) ممثل الاتجاه الرومـــانتيكي في الادب الروسي ، وعنوان القصــيدة «في مـــوت الفيلد مارشال الكونت كامينسكي» نظمها عام ١٨٠٩

الغابة والسهل

«سفريمنيك ١٨٤٩ ، الجزء الثالث عشر ، الكتاب الثاني .

المحتويات

الجمهورية العراقية
وزارة الثقافة والاعلام
دائرة الشؤون الثقافية والنشر

١٩٨٤

السعر : ٢,٥٠٠ ديناران وخمسمائة فلس

دار الحرية للطباعة ـ بغداد   توزيع الدار الوطنية للتوزيع والاعلان

تصميم الغلاف : نابية محمد شيت